

صعيد مصر

في عهد الحملة الفرنسية

١٧٩٨ - ١٨٠١

نبيل السيد الطوخي

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

بآداب المنيا

الطبعة الأولى

١٩٩٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

[وَقُلْ أَعْمَلُوا فَتَسِيرُوا فِي اللَّهِ أَعْمَلِكُمْ وُرسوله والمؤمنون]

صدق الله العظيم

سورة التوبة الآية/ ١٠٥

إهداء

إلى أرواح الشهداء من أبناء الصعيد
الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل مصر
وهم يناضلون من أجل تحريرها
من أول استعمار أوروبي لمصرنا الحبيبة

الباحث

المقدمة	١٥
الفصل التمهيدي : أوضاع الصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية	٢٩
أولا : الأوضاع الإدارية للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية	٣١
١- الكاشفيات في الوجه القبلى	٣٣
٢- الإدارة المركزية في صعيد مصر	٣٣
٣- الإدارة المحلية في صعيد مصر	٣٤
ثانيا : الأوضاع الاقتصادية للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية	٤٣
١- الزراعة	٥٣
- الضرائب على الأراضى الزراعية	
في صعيد مصر	٥٣
- الحاصلات الزراعية في صعيد مصر	٥٦
٢- الصناعة	٦١
- الصناعات المنتشرة في صعيد مصر	٦١
٣- التجارة	٦٤
- التجارة الداخلية في الصعيد	٦٤
- دور الصعيد في التجارة الخارجية لمصر	٦٧
ثالثا : الأوضاع الاجتماعية للصعيد قبيل الحملة الفرنسية	٧٥
١- الحياة الدينية	٧٥
٢- الحياة العلمية والثقافية	٨٠
٣- العادات والتقاليد	٨٥
٤- الأمراض والأوبئة والمجاعات	٨٩
رابعا : الأوضاع السياسية للصعيد قبيل الحملة الفرنسية	٩٠
١- على بك والصعيد	٩١
٢- الصعيد في عهد ابراهيم بك ومراد بك (١٧٧٥-١٧٩٨)	٩٦

١٠٥	الفصل الأول : الحملة الفرنسية على شمال الصعيد
١٠٩	- أسباب الحملة الفرنسية على مصر
١١٢	- إعداد الحملة
	- معركة إمبابية أو الأهرام (٢١ يولية ١٧٩٨) وفرار
١١٣	مراد بك إلى الصعيد
١١٩	- أسباب احتلال الفرنسيين للصعيد
١٢٠	- نابليون ومحاولة الاتفاق مع مراد
١٢٣	- تحريك حملة الجنرال ديزيه واحتلال بنى سويف
١٢٦	- احتلال البهنسا وتعقب أسطول المماليك إلى أسيوط
١٢٨	- رجوع ديزيه إلى الفيوم
١٣١	- معركة سدمنت (٧ أكتوبر ١٧٩٨)
١٣٨	- الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا
١٤٠	- احتلال مدينة الفيوم واخماد الثورة فى القرى المجاورة
١٤٢	- هجوم الثوار على مدينة الفيوم
١٤٦	- ديزيه يطلب المدد من نابليون لاستئناف الحملة
١٤٨	- حادثة الفقاعى
١٥٠	- موقعة أبو جرج

الفصل الثانى : الحملة الفرنسية على الصعيد الأوسط

١٥٣	وحركات المقاومة
١٥٧	- تمهيد
١٥٧	- احتلال أسيوط
١٥٨	- سير حملة الجنرال ديزيه من أسيوط إلى جرجا
١٥٩	- موقف مراد بك فى صعيد مصر
١٦٢	- الثورة فيما بين أسيوط وجرجا
١٦٣	- معركة سوهاج (٣ يناير سنة ١٧٩٩)
١٦٥	- معركة طهطا (٨ يناير سنة ١٧٩٩)

١٦٦	- معركة الصوامعة (٥ مارس سنة ١٧٩٩).....
١٦٧	- معركة برديس (٦ أبريل سنة ١٧٩٩).....
١٦٨	- معركة جرجا (٧ أبريل سنة ١٧٩٩).....
١٧٠	- معركة جهينة (١٠ أبريل سنة ١٧٩٩).....
١٧١	- معركة بنى عدى (١٨ أبريل سنة ١٧٩٩).....
١٧٥	- ثورة المنيا (٢٣-٢٥ أبريل سنة ١٧٩٩).....
١٨١	الفصل الثالث : الحملة الفرنسية على الصعيد الأعلى وحركات المقاومة
١٨١	- تمهيد
١٨٣	- معركة سمهود (٢٢ يناير سنة ١٧٩٩).....
١٩١	- سير حفلة الجنرال ديزيه من فرشوط حتى أسوان.....
١٩٥	- المقاومة فى جزيرة فيلة.....
١٩٧	- تجدد القتال بين جرجا وأسوان.....
١٩٩	- معركة الرديسة (١١ فبراير سنة ١٧٩٩).....
٢٠١	- معركة قنا (١٢-١٣ فبراير سنة ١٧٩٩).....
٢٠٢	- معركة أبو مناع (١٧ فبراير سنة ١٧٩٩).....
٢٠٣	- معركة إسنا (٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩).....
٢٠٤	- معركة أبنود النيلية (٣ مارس سنة ١٧٩٩).....
٢٠٧	- معركة قفط (٨ مارس سنة ١٧٩٩).....
٢٠٧	- معركة أبنود (٨-٩-١٠ مارس سنة ١٧٩٩).....
٢١٢	- معركة بئر عنبر (٢ أبريل سنة ١٧٩٩).....
٢١٤	- معركة أسوان (١٦ مايو سنة ١٧٩٩).....
٢١٦	- احتلال القصير (٢٩ مايو سنة ١٧٩٩).....
٢٢١	الفصل الرابع: الأوضاع الإدارية فى صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية
٢٢٣	- تمهيد

- ١- التقسيم الإدارى للصعيد فى عهد الحملة الفرنسية..... ٢٢٣
- ٢- معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك (٥ أبريل سنة ١٨٠٠)..... ٢٢٧
- ٣- الصعيد بين الإدارة الفرنسية والمملوكية..... ٢٣١
- ٤- نظام الدواوين..... ٢٣٧
- ٥- تنظيم البريد..... ٢٤١

الفصل الخامس : الأوضاع الإقتصادية للصعيد فى

عهد الحملة الفرنسية

- ٢٤٥
- تمهيد ٢٤٧
- أولا : الزراعة ٢٤٧
- اهتمام الفرنسيين بالرى ٢٤٧
- الحملة الفرنسية وملكية الأرض ٢٥٢
- الضرائب على الأراضى الزراعية فى عهد الفرنسيين ٢٥٥
- ثانيا : الصناعة ٢٦٨
- ثالثا : التجارة ٢٧٣
- التجارة الداخلية فى الصعيد ٢٧٣
- دور الصعيد فى التجارة الخارجية لمصر ٢٨١

الفصل السادس : موقف القوى الاجتماعية فى صعيد مصر

من الحملة الفرنسية

- تمهيد ٢٩٣
- ١- المماليك ٢٩٥
- ٢- الفلاحون ٣١٧
- ٣- العربان ٣٢٤
- ٤- الأقباط ٣٣١

الخاتمة

- ٣٤٣
- الملاحق ٣٤٩
- ثبت الوثائق والمصادر والمراجع ٤٢١

المقدمة

المقدمة

تعتبر الحملة الفرنسية أول غزوة أجنبية تعرضت لها مصر في العصر الحديث، ولقد قامت الحملة الفرنسية أساساً على الرغبة في توسع استعماري جديد يعوض على فرنسا ما فقدته من مستعمرات في أمريكا الشمالية والهند من ناحية، وللإضرار بالمصالح البريطانية من ناحية ثانية، إذ أرادت أن تجعل من مصر قاعدة لتهديد بريطانيا في الهند وتحويل التجارة الشرقية إلى طريق مصر.

ولقد استرعت الحملة الفرنسية انتباه العديد من المؤرخين والباحثين في مصر، فقاموا بدراساتها وإعداد مؤلفات وأبحاث عن عهد الحملة الفرنسية، ولكن بالرغم من كثرة هذه المؤلفات إلا أننا لا نجد في المكتبة العربية مؤلفاً يحمل اسم "صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية" وإن كانت هذه المؤلفات قد ضمت بين صفحاتها بعض الأحداث التي جرت في الصعيد بشكل عابر أحياناً، وبالتفصيل في نقطة معينة أحياناً وبإهمال بعض النواحي المتعلقة بالصعيد في أحيان أخرى، هذا بالرغم من دور الصعيد الواضح في تلك الفترة لهذا رأى الباحث أن يقوم بدراسة هذا الموضوع من كل الاتجاهات في دراسة علمية أكاديمية تسد فراغاً في المكتبة العربية حول هذا الموضوع.

وقد قسّمت هذا البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدى وستة فصول وخاتمة.

وتناولت في الفصل التمهيدي "أوضاع الصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية" حيث قمنا بعرض للأوضاع الإدارية للصعيد فعرضنا للكشفيات في الوجه القبلي، والإدارة المركزية في صعيد مصر والتي نقصد بها الجهاز الإداري في عاصمة الولاية أو مركز الكاشفية، وتناولنا الجهاز الإداري من خلال حديثنا عن حاكم الولاية، والكشاف، والقاضي، والأوجاقات العسكرية، ثم عرضنا للإدارة المحلية في صعيد مصر ونقصد به الجهاز الإداري في الريف وعرضنا لدور هذا الجهاز من خلال الدور الذي لعبه أفراداه وعلى رأسهم الملتزم ويلييه القائم مقام ثم المباشر، فشيخ القرية والشاهد، والصراف، والمساح والمشد، والخفير، والخولي، والوكيل، والكلاف والسقا.

ثم عرضنا للأوضاع الإقتصادية للصعيد وقمنا بعرض للضرائب على الأراضى الزراعية حيث كانت الأرض فى ذلك العهد مثقلة بالضرائب والإتاوات وإن كان المقرر أصلا من الضرائب أربعة أنواع وتشمل ضريبة المال الحر، وضريبة الكشوفية، وضريبة المضاف، وضريبة البرانى وتشكل هذه الضرائب الجانب الرسمى من الأعباء المالية التى كان الفلاح مطالباً بدفعها للملتزم، حيث كانت هناك أعباء أخرى غير رسمية أصبح الفلاح يزرع تحتها وهى ما عرفت بالفزاد والكلف والمغارم ورفع المظالم، وأدى تعسف السلطات المحلية فى جمع الضرائب إلى قيام الفلاحين فى منطقة طهطا عام ١٧٧٨م بالتمرد ضد السلطات المحلية ورفضوا دفع الضرائب وألحقوا بالقوات المحلية هزيمة نكراء.

وعرضنا للحاصلات الزراعية فى صعيد مصر حيث ساهم الصعيد بإنتاج الكثير من الحاصلات الزراعية، وكانت أهم هذه المحاصيل القمح والذى كان يمثل المحصول الرئيسى فى صعيد مصر. وانتشرت زراعته فى أماكن عديدة، إلى جانب الذرة الذى كان يشكل غذاء رئيسياً للفلاحين، وزراعة الفول الذى كان ينتج بكثرة ويصدر منه كميات كبيرة إلى بلاد الجزيرة العربية، والحمص الذى انتشرت زراعته فى كثير من مناطق الصعيد، وهناك العديد من المحاصيل الزراعية التى انتشرت زراعتها بالصعيد مثل البرسيم والبصل والسمسم. وهناك محاصيل زراعية زرعت خصيصاً للصناعة بجانب الاستهلاك المحلى مثل زراعة قصب السكر الذى استخدم فى صناعة السكر، والكتان الذى قامت عليه صناعة المنسوجات، كما كان القطن يستخدم أيضاً فى صناعة المنسوجات، كما كانت النيلة من الحاصلات ذات الربح الوفير حيث يستخرج من أوراقها صبغة زرقاء تستخدم لصبغة أقمشة الثياب التى ترتديها الطبقة الدنيا، كما كانت أشجار الورد تزرع بالفيوم بكثرة وذلك بقصد إنتاج الروائح.

وساهم الصعيد فى إنتاج الثروة الحيوانية، فاهتم الفلاح فى صعيد مصر بتربية الحيوانات التى تعينه فى عمله الزراعى والتى تزوده يقدر من المواد الغذائية كاللبن والزبد والجبن، أما عن حيوانات النقل فتمثلت فى ذلك الوقت فى الجمال والحمير. حيث لعبت هذه الحيوانات دوراً كبيراً فى نقل الحاصلات الزراعية، أما عن الصناعة فى الصعيد فقد كانت بدائية وتعتمد اعتماداً كلياً على الخامات المحلية ومن أهم الصناعات المنتشرة فى تلك الفترة فى صعيد مصر صناعة الأوانى الفخارية التى اشتهرت بها بعض مدن الصعيد مثل قنا،

وصناعة الغزل والنسيج حيث اشتهرت إسنا وقوص وقنا وبنى سويف بانتاج المنسوجات القطنية فى حين اشتهرت مدينة الفيوم بصناعة المنسوجات الكتانية من الكتان المحلى، كما انتشرت صناعة الحصر فى مناطق عديدة من الصعيد، كذلك صناعة الطوب، وصناعة الزيوت، وصناعة ماء الورد التى تركزت فى مدينة الفيوم، وصناعة السكر التى تركزت فى فرشوط وأخميم. ووجدت صناعة تفريخ الدجاج فى كثير من مدن وقرى الصعيد كما انتشرت صناعة ملح البارود فى الصعيد ثم عرضنا بإيجاز لنظام طوائف الحرف، وقد تم التعرض لأسباب تدهور الصناعة فى تلك الفترة.

وعن التجارة فلقد ساهم الصعيد بدور هام فى تجارة مصر الداخلية والخارجية، وعرضنا للتجارة الداخلية فى الصعيد من خلال حديثنا عن أسواق القرى والمدن، وتحدثنا عن ضريبة السوق، وعن التبادل التجارى بين الصعيد والقاهرة الذى كان يتم عن طريق نهر النيل فى أغلب الأحيان، ثم عرضنا للعوامل التى أدت إلى الحد من انتشار واتساع التبادل التجارى بين الأقاليم، وعن دور الصعيد فى التجارة الخارجية لمصر قمنا بتوضيح هذا الدور من خلال عرضنا للتبادل التجارى بين مصر والسودان، ودور الصعيد فى هذه التجارة، كما قمنا بعرض للتبادل التجارى بين مصر وبلاد العرب وتوضيح دور الصعيد فى هذا المجال وقد تعرضنا لذلك بالتفصيل، أما عن الأوضاع الاجتماعية للصعيد قبيل الحملة فقد تعرضنا لها من خلال عرضنا للحياة الدينية التى تعددت مظاهرها فى تلك الفترة، وتميزت بانتشار التصوف بصورة واسعة وكيف اندفع الفلاح للانخراط فى سلك الطرق الصوفية وأسباب ذلك، كما تأثرت الحياة الدينية بظهور الدجل والشعوذة، وانتشار العديد من البدع مثل النذور والمولد، ومما يتصل بالناحية الدينية الأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين والمسيحيين ولقد تعرضنا لها بالتفصيل أما الحياة العلمية والثقافية فقد تمثلت فى انتشار الكتاتيب حيث لعب الكتاب دورا هاما فى حياة التعليم سواء عند المسلمين أو المسيحيين.

كما كانت المدارس تعتبر من أهم المراكز الثقافية والعلمية فى صعيد مصر فى تلك الفترة، وكان من أبرز مدارس الوجه القبلى : مدارس قوص وقنا وطهطا، وكان الطلاب النابهون فى هذه المدارس يلتحقون بالأزهر حيث كان لطلبة الصعيد رواق خاص بهم بالأزهر، ووصل البعض من طلاب الصعيد بالأزهر إلى مصاف كبار العلماء مثل الشيخ

على الصعيدى وغيره كثيرون عرضنا لهم بالتفصيل، أما عن الثقافة التى كانت سائدة فى ريف الصعيد فتمثلت فى الفن الشعبى الذى حرص الأهالى على سماعه من شاعر الربابة .

أما العادات والتقاليد فقد كان لها سيادة تشبه سيادة القانون، ولقد تحدثنا عن الأفراح والمآتم وعادة الثأر، ثم عرضنا للأمراض والأوبئة والمجاعات، حيث كان مرض الطاعون على رأس الأمراض المنتشرة فى تلك الفترة يليه مرض الجدرى ثم الرمد، وضاعف من هذه الأمراض والأوبئة سوء الحالة الاقتصادية وخاصة فى أواخر القرن الثامن عشر .

وعرض الباحث للدور الذى لعبه الصعيد فى أحداث مصر السياسية قبيل مجئ الحملة، وكيف كان الصعيد ملجأ لكل الأمراء المنفيين من قبل السلطة الحاكمة بالقاهرة أو المتمردين على السلطة، حيث كان هؤلاء الأمراء الفارين إلى الصعيد يحاولون الاستعانة بسيوف العرب وسواعدهم فى استعادة مراكزهم وما كانوا يتمتعون به من نفوذ وهذا ما دفع بعلى بك الكبير إلى التخلص من الشيخ همام بن يوسف الهوارى "عظيم بلاد الصعيد" الذى كان يتمتع بنفوذ كبير يدعو إلى القلق، هذا إلى جانب مساندته للأمراء المماليك الفارين من قبل السلطة الحاكمة بالقاهرة، وإذا كان الصعيد قد لعب دورا سياسيا كبيرا فى عهد همام فإن ذلك الدور لم ينته بنهاية همام فى عام ١٧٦٩ بل ظل الصعيد يلعب دورا كبيرا فى الأحداث السياسية لمصر حتى قدوم الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ .

وإذا كان الباحث قد أطل فى هذا الفصل بعض الشئ فعذره أنه تناول فى هذا الفصل الأوضاع الإدارية والإقتصادية والاجتماعية والسياسية للصعيد قبيل الحملة وذلك لأهميتها فى إلقاء الضوء على ما سيلحق هذه الأوضاع من تغيرات فى عهد الحملة .

أما الفصل الأول فقد تناولت فيه "الحملة الفرنسية على شمال الصعيد" ومهدت له بذكر أسباب الحملة الفرنسية وكيفية الإعداد لها ثم تحدثت عن معركة إمبابة (٢١ يولية ١٧٩٨) وفرار مراد بك إلى الصعيد بعد هزيمته فى موقعة إمبابة، فشكل ذلك خطرا على الفرنسيين لأن وجود قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، ويكون مثابة للمقاومة الأهلية، ويعطل الملاحة فى النيل ويحبس الغلال عن الوجه البحرى، فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة، لهذا فكر نابليون فى إرسال حملة بقيادة

الجنرال ديزيه لمقاتلة مراد بك والقضاء على قواته من جهة، وإخضاع الوجه القبلى من جهة أخرى وبدأ ديزيه سيره جنوبا لمطاردة مراد بك يوم ٢٥ أغسطس ١٧٩٨ ووصلت حملته يوم ٣١ أغسطس إلى بنى سويف واحتلتها بدون مقاومة، وتحدثنا عن احتلال الجنرال ديزيه وجنوده للبهنسا وتعقب حملته لأسطول المماليك حتى أسيوط للاستيلاء عليه، ثم تحدثنا عن رجوع ديزيه؛ إلى الفيوم بعد أن علم بوجود مراد بك بمماليكه وحلفاؤه من أهالى الصعيد بالفيوم لتدور بين الجيشين الجيش المصرى بزعامه مراد بك، والجيش الفرنسى بزعامه الجنرال ديزيه معركة هامة ألا وهى معركة سدمنت (٧ أكتوبر ١٧٩٨) والتي انتهت بانتصار الفرنسيين على المصريين، ولقد عرضنا لهذه المعركة بالتفصيل نظرا لأهميتها حيث تعد أكبر موقعة دارت فى الصعيد بين القوات الفرنسية والقوات المصرية، ولذلك فهى تعد من أهم المعارك التى خاضها الفرنسيون فى صعيد مصر، إذ أنها كانت كانت المعركة البرية الثانية فى أهميتها بعد معركة امبابه، لأنها قضت على آمال مراد بك فى أن ينتصر فى معركة منظمة، كما أنها أعطت للفرنسيين حكم منطقة بنى سويف والفيوم وهى منطقة غنية بمنتجاتها الزراعية التى كانت لازمة لتموين القاهرة.

ثم عرضنا للموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا، كما تعرضت لاحتلال الفرنسيين لمدينة الفيوم وقيامهم باخماد الثورة فى القرى المجاورة لها، وتحدثنا عن هجوم الثوار من أبناء الصعيد على مدينة الفيوم للاستيلاء عليها والقضاء على القوة الفرنسية الموجودة بها، وكان هذا دليلا على استهانة أبناء الصعيد بقوة الفرنسيين ومقاومتهم لها، وهنا أدرك الجنرال ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهم أسباب الحالة الثورية التى ذاعت فى البلاد، فأرسل يطلب المدد من نابليون لاستئناف الحملة حيث عرضنا لهذه النقطة بالتفصيل، وعرضنا بعد ذلك لحادثة الفقاعى، هذه الحادثة التى تدل على شجاعة أحد غلمان الصعيد فى مواجهة العدوان الفرنسى، ثم ختمنا هذا الفصل بالحديث عن موقعة أبو جرج.

أما الفصل الثانى فقد تناولت فيه "الحملة الفرنسية على الصعيد الأوسط وحركات المقاومة" حيث سارت حملة الجنرال ديزيه فى طريقها لإخضاع وسط الصعيد، ولم تكن مهمتها سهلة حيث اشتعلت روح الثورة فى مديريات المنيا، وأسيوط، وسوهاج، وشكل الأهالى مع المماليك بالإضافة إلى عرب الحجاز قوة عمل الفرنسيون لها حساب كبير، ولقى الفرنسيون مقاومة عنيفة فى سوهاج، وطهطا، وبرديس، وجرجا، وجهينة، وبنى عدى،

والمنيا حيث عرضنا لهذه المعارك التى نشبت بين الأهالى والمماليك وعرب الحجاز من جهة والفرنسيين من جهة أخرى بالتفصيل .

أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه "الحملة الفرنسية على الصعيد الأعلى وحركات المقاومة" وعرضت فى هذا الفصل لمحاولة الجنرال ديزيه وحملة إخضاع مصر العليا ولثورات الأهالى فى هذه المنطقة ضد الفرنسيين حيث اشتعلت الثورة فى كل مكان، ودارت معارك بين الأهالى والمماليك وعرب الحجاز من جهة، وبين الفرنسيين من جهة أخرى فى كل من سمهود، وجزيرة فيلة، والرديسة، وقنا، وأبو مناع، وإسنا .

كما عرضنا لمعركة أبنود النيلية، وهذه التسمية ترد لأول مرة فى المكتبة العربية، وكانت خسارة الفرنسيين فى هذه المعركة هى أكبر خسارة تعرض لها الجيش الفرنسى فى حملته على صعيد مصر كما عرض الباحث لمعركة قفط، ومعركة أبنود التى كانت من أشد معارك الحملة الفرنسية هولاً وأطولها مدة، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية .

كما عرضنا لمعركة بئر عنبر، ثم معركة أسوان، وختمنا هذا الفصل باحتلال الفرنسيين للقصور فى ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩، حيث اعتبر الفرنسيون احتلالها ختام الحركات الحربية التى تم بها فتح الصعيد، ولم يكن معنى ذلك أن الفرنسيين قد حققوا السيادة فى الصعيد، بل ظل الاضطراب فى صعيد مصر حتى عقد معاهدة الصلح بين الجنرال كليبر ومراد بك فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ .

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه "الأوضاع الإدارية فى صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية" وقمت بعرض للتقسيم الإدارى للصعيد حتى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠، ثم عرضت بالتفصيل لمعاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠، تلك المعاهدة التى وجد فيها كل من كليبر ومراد بك مصلحته، فإذا كان كليبر قد أمن بعقده هذه الاتفاقية قيام أى ثورة فى الوجه القبلى وهو إقليم مترامى الأطراف لم تستقر فيه دعائم الحكم الفرنسى فإن مراد بك قد وجد فيها أيضاً ما يحقق مصالحه حيث أنه ضمن لنفسه حكم النصف

الجنوبى من الصعيد تحت حماية فرنسا، وهكذا حقق مراد بك مكاسب شخصية ولكن على حساب المصلحة العليا لمصر التى أوتته وجعلت منه أميراً، ثم تحدثنا بعد ذلك عن الصعيد بين الإدارة الفرنسية والمملوكية حيث كانت فى الصعيد إدارة فرنسية فى النصف الشمالى يقوم على إدارتها جنرالات فرنسيون تحت قيادة القائد الأعلى الفرنسى، أما النصف الجنوبى من الصعيد فكان يدار بواسطة إدارة مملوكية بقيادة مراد بك. كما أشرت إلى نظام الدواوين فى صعيد مصر، وأوضحنا أن هذه الدواوين لم تكن سوى مجالس استشارية يعرض عليها القائد العام ما يرى عرضه عليها من شئون البلاد وهو غير ملزم باتباع ما يقرره الأعضاء، وكانت دواوين الأقاليم تقوم بمعاونة حاكم الإقليم أو المديرية فى تصريف شئون المديرية، وكانت هذه الدواوين تقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة إليها وعمل بالازم كلما كانت هناك ضرورة لذلك، كما تعرضت لتنظيم البريد فى الصعيد حيث كان من مصلحة الفرنسيين أن تكون الحاميات الفرنسية فى المدن على اتصال دائم بعضها ببعض ليقبها شر المفاجآت، ومن ثم كان اهتمامهم بتنظيم حركة البريد فى صعيد مصر، كما ذكرت وثائق الحملة الفرنسية أن إدارة الاتصالات فى الصعيد كانت ذات مستوى عال.

أما الفصل الخامس فقد تناولت فيه "الأوضاع الاقتصادية للصعيد فى عهد الحملة الفرنسية" وتعرضت لاهتمامات الفرنسيين بالزراعة من خلال ثلاثة محاور : الأول منها يتعلق باهتمام الفرنسيين بالرى لأنهم أدركوا أن ثروة مصر تتوقف على تدبير مياه النيل وأنه بدون نظام ملائم للرى لا يمكن تحقيق أقصى ربح من زراعة الأرض، أما المحور الثانى فيتعلق بالحملة الفرنسية وملكية الأرض حيث استحوذ الفرنسيون بواسطة مصادرة حصص التزام الممالك على ثلثى أراضي مصر وأخضعوا باقى الحصص لرسم تسجيل ٢٪ من قيمة الأراضي وأعطوا مهلة محددة لذلك، وعلى أية حال فإن كل النظم التى قامت بها الحملة الفرنسية نحو الملكية لم تكن تقصد من ورائها إلا الحصول على أموال تسد بها بعض أوجه نفقاتها، أم المحور الثالث فيتمثل فى الضرائب على الأراضي الزراعية فى عهد الفرنسيين، ولقد أوضحنا أن وضعية الفلاح فى صعيد مصر لم تلحقها أى تغييرات أو تخسينات فى فترة حكم الفرنسيين، بل ظل يعاني من ثقل الضرائب التى لم تعرف انخفاضاً بل زادت عما كانت عليه قبيل مجئ الحملة الفرنسية.

أما بالنسبة للصناعة فلقد أوضحنا أن الحملة الفرنسية لم تحاول إحداث تغيير فى الصناعة المصرية فى الفترة التى قضتها بمصر، وفى الصعيد ظلت الصناعات الأهلية التى كانت سائدة قبيل مجئ الحملة الفرنسية سائرة فى طريقها متبعة أساليبها العتيقة ونظمها القروية والمحلية المعروفة ولم يعمل الفرنسيون على تطويرها.

وبالنسبة للتجارة الداخلية فى الصعيد فقد أدى اضطراب الأحوال بالصعيد فى بداية عهد الحملة إلى كساد فى السوق التجارية مما جعل قطع حبل التجارة أمرا محتوما فى تلك الفترة، وبعد أن تم إبرام الصلح بين الفرنسيين ومراد بك بمقتضى معاهدة كليبر - مراد (٥ إبريل سنة ١٨٠٠) أنشأ الفرنسيون جمركا بأسيوط، وكان غرض الفرنسيين من ذلك هو تحصيل أكبر ما يمكن من الضرائب كى يعوضوا دخل جمرك القصير التى توجد بيد مراد بك، ولكن فى نفس الوقت فإن إقامة الفرنسيين لجمرك أسيوط قد حد نوعا ما من نشاط التجارة والمبادلات بين الوجه القبلى والوجه البحرى، تلك التجارة التى كانت مزدهرة قبل مجيئهم.

وفى مجال التجارة الخارجية فقد قل ورود قوافل دارفور وسنار فى عهد الحملة عما كانت عليه قبيل مجئ الحملة، كما تأثرت تجارة بلاد العرب عبر ميناء القصير خصوصا بعد أن ترك الفرنسيون دخل هذا الجمرك لمراد بك.

وتناولت فى الفصل السادس "موقف القوى الإجتماعية فى صعيد مصر من الحملة الفرنسية" حيث بدأت بعرض لموقف المماليك فى الصعيد من الحملة ذلك الموقف الذى بدأ فى البداية برفض الوجود الفرنسى ومن ثم الثورة عليه ومحاولة طرده من البلاد، ثم سرعان ما تغير موقف المماليك فى الصعيد بزعامة مراد واتفقوا مع الفرنسيين بمعاهدة سلام فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ وظل مراد بك مخلصا للفرنسيين حتى وفاته فى ١٨ إبريل سنة ١٨٠١، واختير عثمان بك الطنبورجى خلفا لمراد بك واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميرا على الصعيد، ولكنه سرعان ما انضم إلى الانجليز والأتراك عندما رأى كفتهم راجحة، ويدل هذا على أن المماليك كانوا يرتبطون بالطرف الأقوى وكانوا يبحثون دائما عن مصالحهم الشخصية.

أما عن موقف الفلاحين فقد اتسم بالرفض للوجود الفرنسي منذ البداية حتى النهاية. وقام الفلاحون بالتعبير عن رفضهم للوجود الفرنسي على أراضيهم بالثورات الدائمة على الفرنسيين في شتى أنحاء الصعيد حتى ليستحيل على المرء أن يذكر قرية على جانبي النهر لم تسجل صفحة بطولة في سجل مقاومة الغزو الفرنسي ولم تقدم أكثر من شهيد وشهيدة.

وأكدت وثائق الحملة الفرنسية أن شعب الصعيد قد دافع بقوة عن حريته، كما أشارت المصادر المعاصرة بشجاعة الفلاحين من أبناء الصعيد. أما عن موقف العربان فلقد وقف العربان المستقر منهم والمتجول موقف الرفض للوجود الفرنسي في صعيد مصر، وتعرضت قوات الجنرال ديزيه في الصعيد لهجمات هؤلاء العربان حتى أصبحت قواته تعمل حساباً لهم في كل منطقة اتجهت إليها بشهادة رجال الحملة أنفسهم؛ واشترك العربان في معظم المعارك التي حدثت في صعيد مصر بين الفرنسيين من جهة وبين الأهالي والعربان والمماليك من جهة أخرى.

وظل العربان متحالفين مع مراد بك حتى عقد مراد بك معاهدة صلح مع الفرنسيين في ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ فانضم معظم شيوخ القبائل العربية إلى مراد بك لكي يتفقوا على معاهدة سلام مع الفرنسيين.

أما عن موقف الأقباط فلقد اتسم بالتعاطف تجاه الفرنسيين، وكان ذلك بسبب ما أحاطهم به الجنرال ديزيه من عناية وكرم حتى أطلقوا عليه لقب العادل Juste، وكان المعلم يعقوب هو أبرز الشخصيات القبطية التي تعاونت مع الفرنسيين بإخلاص شديد ووفاء لا مثيل له. حيث كان الساعد الأيمن للجنرال ديزيه في حملة الصعيد ضد مراد بك وعرب الحجاز وأبناء الصعيد، وكافاه الجنرال منو بترقيته إلى رتبة جنرال General نظير خدماته للفرنسيين أثناء حملة الصعيد وأثناء حصار القاهرة وقت اشتعال ثورتها الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠).

واستعان الفرنسيون بعدد وافر من أقباط الصعيد ليسدوا بهم النقص في صفوفهم، وأنشأ الفرنسيون الفرقة القبطية، وقاموا بتدريبها وتسليحها لتكون أداة لتثبيت الاحتلال

الفرنسى فى مصر من جهة، ولقسم عرى الوحدة الأبدية بين عنصرى الشعب المصرى من جهة أخرى.

ويرى الباحث أن غالبية الأقباط فى الصعيد قد شاركوا فى الثورات جنباً إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين ضد الغزاة الفرنسيين، وتعرضوا لما تعرض له المسلمون. وأن الحملة الفرنسية قد فشلت فى محاولتها وضع ما يمكن أن نطلق عليه إسفين بين الوحدة الوطنية المصرية بتقريبهم الأقباط ظناً منهم أنهم بهذا يضمنون خلق طائفة ذات ولاء لهم ولكنهم لم يدرسوا واقع المجتمع المصرى على حقيقته.

أما الخاتمة فاحتوت على أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج لهذه الدراسة.

أما عن المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها فى البحث فهى كثيرة ومتنوعة، وأهمها وثائق الحملة الفرنسية المحفوظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة، وهى تقع فيما يقرب من خمسين محفظة اطلع الباحث عليها جميعاً واستغرقت تلك العملية وقتاً طويلاً - حوالى ثلاث سنوات - وفى بداية الاطلاع على هذه الوثائق وجد الباحث العديد من الصعوبات حيث أن هذه الوثائق مكتوبة بخط اليد الرفيع جداً، إلى جانب أنها كتبت باللغة الفرنسية، حيث اقتضى الاطلاع عليها وترجمتها وقتاً طويلاً من الباحث، كما اعتمدت على أوامر منو *Ordres du jour du général en chef Menou* المحفوظة فى دوسيه يحتوى على أربعة وتسعين وثيقة مطبوعة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل.

ومن المصادر الهامة التى اعتمدت عليها الدراسة : سجلات المحاكم الشرعية الخاصة بإسنا، ومنفلوط والمحفوظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل، ومن الوثائق الهامة التى اعتمدت عليها الدراسة محفظة بدون رقم ولا تاريخ محفوظة فى مكتبة جامعة القاهرة ولقد عثرت على هذه المحفظة بعد عناء شديد، وقيمة هذه المحفظة فى كونها تحتوى على مجموعة كبيرة من المراسلات الهامة التى يبلغ عددها ٦٩ خطاباً مرسله من مراد بك إلى الجنرال دنزلوه صارى عسكر أسيوط ومنفلوط والمنيا، وهذه الخطابات مكتوبة باللغة العربية وأغلبها يحمل تاريخ سنة ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) وتحمل خاتم مراد بك، وهذه المراسلات كشفت لنا مشاعر الود الخالص والصادق من مراد بك تجاه الفرنسيين.

وإذا كانت الوثائق السالفة الذكر تمثل الوثائق غير المنشورة فإن الباحث قد اطلع أيضا على مجموعة من الوثائق المنشورة مثل تقرير الجنرال ديزيه عن حركات الجيش الفرنسي في الصعيد والمعارك التي دارت بينه وبين الأهالي والمماليك وعرب الحجاز، وهذا التقرير قد بعثه الجنرال ديزيه من أسبوط إلى الجنرال بوناپرت وهو مؤرخ في ٢٠-

ترميدور من العام السابع الجمهوري (٧ أغسطس ١٧٩٩) ومنشور في Pieces Diverses Relative aux opérations militaires et politiques du général Bonaparte, Paris an VII كما استفاد الباحث من الوثائق المنشورة ضمن كتاب حملة مصر L'Expédition d'Egypte للكاتبين دي لا جونكيير De La Jonquiére ويعتبر هذا الكتاب أكبر عمدة في تاريخ حملة بوناپرت على مصر، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه كان ضابطا في الجيش الفرنسي، ولقد قام لاجونكيير بتأليف كتابه تحت رعاية وزارة الحرب الفرنسية مستندا إلى وثائق محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ووزارات البحرية والخارجية، وهذا الكتاب يقع في خمسة مجلدات تضم أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كبيرة مطبوعة بحروف صغيرة، ولقد نشر لاجونكيير كما هائلا من الوثائق في هذا الكتاب إلى حد أنه يعتبر مؤلف وثائقي بالدرجة الأولى، ولقد اعتمدت على الجزء الثالث من هذا المؤلف الضخم، واستفدت من الوثائق المنشورة في هذا الجزء والتي لم نجد منها أية نسخة ضمن محافظ الحملة الفرنسية. المحفوظة بدار الوثائق بكورنيش النيل . ومن الوثائق المنشورة عن فترة حكم كليبر ومنو تلك التي نشرها Rousseau بعنوان :

Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte (Aout 1799-Septembre 1801) Documents....etc. Paris 1900.

ولقد استفاد الباحث من هذه الوثائق الهامة، كما استفاد أيضا من الوثائق التي نشرها هنري لورنس Hnery Laurens في جزأين بعنوان Kléber en Égypte 1798-1800 وقام بنشر هذا المؤلف الوثائقي الهام المعهد الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة عام ١٩٨٨ .

كما رجع الباحث إلى مجموعة الوثائق الهامة التي نشرها صلاح الدين البستاني

The Journals of Bonaparte in Egypte, Cairo, بعنوان Sala Din Boustany

١٩٧١ وهي تقع في عشرة مجلدات تحتوي على كم هائل من الوثائق الهامة، ولقد اعتمدت على المجلد التاسع والعاشر من هذه المجموعة الهامة .

ولقد لعبت الوثائق المنشورة دورا كبيرا فى إمداد الباحث بكثير من المعلومات الغير متوفرة أصلا فى الوثائق غير المنشورة والموجودة بمحافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق بكورنيش النيل .

كما اعتمد الباحث على الجزء الخامس من مراسلات نابليون Correspondance de Napoléon وهى مصدر على جانب عظيم من الأهمية طبعت بأمر الإمبراطور نابليون الثالث فى اثنين وثلاثين مجلدا فى الفترة من ١٨٥٨ إلى ١٨٧٠ وهى تحتوى على جميع المراسلات والأوامر والقرارات والمنشورات والوثائق التى صدرت من نابليون فى جميع أدوار حياته، كما اطلع الباحث على الصحف التى أصدرتها الحملة الفرنسية والمتمثلة فى جريدة لو كورييه دى ليجيب Le Courrier de L'Egypte، وجريدة لا ديكاد اجبسيين La Décade Egyptienne وإذا كانت الجريدة الأولى قد اهتمت بالنواحي السياسية، فإن الجريدة الثانية قد اهتمت بالنواحي الأدبية والاقتصادية فهى صحيفة للآداب وللاقتصاد السياسى، ولقد اهتمت لاديكاد بنشر أبحاث المجمع العلمى ومناقشات أعضائه .

ولا شك فى أن هاتين الجريدتين لا غنى عنهما لدارسى تاريخ مصر فى تلك

الحقبة .

ومن المصادر الفرنسية الهامة التى اعتمدت عليه الدراسة مذكرات الجنرالات الفرنسيين الذين شاركوا فى أحداث الحملة الفرنسية، حيث اعتمدت على مذكرات المارشال برثيه Mémoires du Maréchal Berthier وأهمية هذه المذكرات ترجع إلى كون صاحبها كان رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية، كما اعتمدت على مذكرات الجنرال ديفرنوا Mémoires du général Desvernois وترجع قيمة هذه المذكرات إلى كون صاحبها قد شارك فى المعارك التى دارت فى الصعيد، هذا إلى جانب أن ديفرنوا يتميز بالموضوعية عند عرضه للمعارك التى دارت فى الصعيد، فعلى سبيل المثال نجد ديفرنوا يصف أبناء بنى عدى بأنهم أشجع رجال مصر وذلك عند حديثه عن ثورة بنى عدى التى تكلمنا عنها بالتفصيل فى الفصل الثانى، وفى نفس الوقت نجد ديفرنوا ينصف الكولونيل دوبليسى ويصفه بالشجاعة فى نفس الوقت الذى اتهمه فيه الجنرال ديزيه فى تقريره الذى بعثه إلى نابليون بعدم الحرص وعدم إطاعة الأوامر، وتضايق ديفرنوا من وصف ديزيه هذا وذكر عند حديثه عن معركة بئر عنبر التى أشرنا إليها بالتفصيل فى الفصل الثالث "أنه لولا

شجاعة وإخلاص دوبليسى لكانت انتهت حياة الجنرال ديزيه على مضربة بئر عنبر" لذلك يرى الباحث أنه إذا كانت مذكرات الجنرال ديفرنوا لها قيمة بصفته معاصر للأحداث واشترك فيها، فإن موضوعيته جعلت لمذكراته قيمة أكبر .

كما استفاد الباحث من الأبحاث والدراسات المنشورة ضمن كتاب وصف مصر Description de L'Egypte الذى ألفه علماء الحملة الفرنسية، واطلع الباحث على معظم المصادر والمراجع العربية التى تناولت عهد الحملة الفرنسية، ومن أهم المصادر العربية المعاصرة مؤلفات المؤرخ الكبير . عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، وكتاب : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، ويليها فى الأهمية مذكرات نقولا ترك .

كما اطلع الباحث على عدد كبير من المراجع العربية والأجنبية بالإضافة إلى عدد من الرسائل العلمية غير المنشورة .

ومن واجبى وقد وفقت إلى إتمام هذا البحث وعرضه فى هذه الصورة أن أنوه بفضل من هياؤا إلى بعونهم سلوك دربه الشاق، فيسرني أن أسجل شكرى للسادة المشرفين والعاملين بدار الوثائق القومية، كما أتقدم بالشكر للسادة أمناء دار الكتب المصرية وأمناء مكتبة جامعة القاهرة، وأمناء مكتبة جامعة عين شمس، وأمناء مكتبة جامعة المنيا، وأمناء مكتبة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، وأمناء مكتبة المجمع العلمى المصرى كما أتوجه بالشكر لأمناء مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، والجمعية المصرية الجغرافية .

وبعد فهذه محاولة قمت بها جادا مخلصا، وأرجو أن يساهم هذا الجهد المتواضع فى سد ثغرة من ثغرات تاريخنا الحديث وعلى الله قصد السبيل .

المؤلف/ نبيل السيد الطوخى

الفصل التمهيدي

أوضاع الصليبي قبيل قدوم
الحملة الفرنسية

الفصل التمهيدي

أوضاع الصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية

أولا : الأوضاع الإدارية للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية :

١- الكاشفيات في الوجه القبلي

٢- الإدارة المركزية في صعيد مصر

٣- الإدارة المحلية في صعيد مصر

ثانيا : الأوضاع الاقتصادية للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية :

- الضرائب على الأراضي الزراعية في صعيد مصر

- الحاصلات الزراعية في صعيد مصر

- الثروة الحيوانية

- الصناعة

- التجارة الداخلية في الصعيد

- دور الصعيد في التجارة الخارجية لمصر

ثالثا : الأوضاع الاجتماعية للصعيد قبيل الحملة الفرنسية:

١- الحياة الدينية

٢- الحياة العلمية والثقافية

٣- العادات والتقاليد

٤- الأمراض والأوبئة والمجاعات

رابعا : الأوضاع السياسية للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية :

١- على بك والصعيد

٢- الصعيد في عهد ابراهيم بك ومراد بك (١٧٧٥-١٧٩٨)

أوضاع الصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية

تمهيد :

سنتناول فى هذا الفصل الأوضاع العامة للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية، وسنقوم بعرض موجز للأوضاع العامة للصعيد سواء كانت إدارية أم اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية لنرى فيما بعد مدى التغير الذى أحدثته الحملة الفرنسية فى صعيد مصر فى هذه المجالات .

وسنعرض فى هذا الفصل لأربعة عناصر أساسية وهى :

أولا : الأوضاع الإدارية للصعيد قبيل الحملة الفرنسية :

سوف نتناول الأوضاع الإدارية للصعيد قبيل الحملة الفرنسية من خلال ثلاثة

عناصر كالتالى :

- ١- الكاشفيات فى الوجه القبلى .
 - ٢- الإدارة المركزية فى صعيد مصر .
 - ٣- الإدارة المحلية فى صعيد مصر .
- وسوف نتناول هذه العناصر بشئ من التفصيل

١- الكاشفيات فى الوجه القبلى :

قبل أن نتحدث عن الكاشفيات تجدر الإشارة إلى أنه كان بالصعيد ولاية كبرى هى ولاية جرجا وعاصمتها جرجا^(١)، وكانت هذه الولاية مطمع البكوات المماليك وذلك لأهميتها الاقتصادية فى ذلك الوقت حيث كانت تعتبر مركز التموين الأول للبلاد بالغال وبخاصة القمح^(٢).

(١) لىلى عبد اللطيف : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨، ص

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٧٤، ص

أما عن الكاشفيات فى الوجه القبلى، فلقد استأثر الصعيد بعدد كبير من هذه الكاشفيات، فلقد وجد بمصر الوسطى سبع كاشفيات وهى :

أطفيج (شرق النيل) - الجزيرة - الفيوم - بنى سويف - المنيا - أشمونين - منفوط (غرب النيل) .

كما وجدت أربعة عشر كاشفية فى مصر العليا وهى :

أسيوط - أبوتيج - طما - طهطا - أخميم - فرشوط - برديس - هو - بهجورة - قنا - قوص - اسنا - ابريم - الواح أى الواحات (١) .

وواضح أن المنطقة الممتدة إلى الجنوب من منفوط بها الكثير من الكاشفيات، وربما كان القصد من ذلك هو تفتيت وحدة الصعيد الإدارية بعد كثرة الاضطرابات التى قام بها العربان فى القرن الثامن عشر وخاصة عربان هواره (٢) .

وكان يحكم الولاية أحد البكوات المماليك، أما الكاشفية فكان يحكمها أحد الكشاف، وبينما كانت الولاية تضم أكثر من كاشفية، فإن الكاشفية هى الأخرى كانت تضم أكثر من مقاطعة أو ناحية .

ثانيا : الإدارة المركزية فى صعيد مصر :

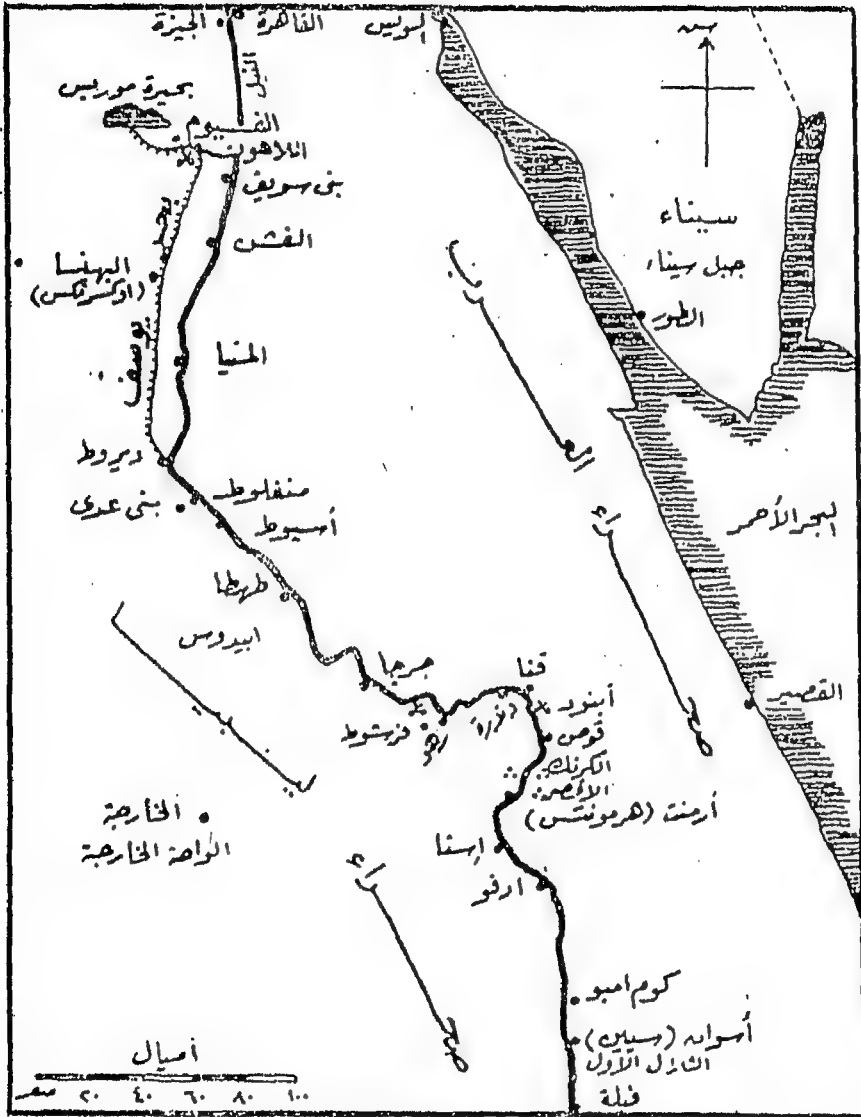
المقصود بالإدارة المركزية فى صعيد مصر أى الجهاز الإدارى فى عاصمة الولاية أو مركز الكاشفية، وسنتناول الجهاز الإدارى من خلال حديثنا عن حاكم الولاية، والكشاف، والقاضى، والأوجاقات العسكرية .

١- حاكم الولاية :

لم يكن بالصعيد فى العصر العثمانى سوى ولاية كبرى، وهى ولاية جرجا، وكان حاكم هذه الولاية يعين من بين الأمراء المماليك من السناجق أو البكوات .

(١) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق : ص ٣٨٠، ٣٨١ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق، ص ١٥ .



نهر الوسطى والعليا

وتتلخص مهام حاكم الولاية فى العناية بالموارد الرئيسى لثروة الإقليم وهو الزراعة، فيهتم بتقوية جسور الترع والمصارف المائية وتطهيرها من حين لآخر، وعليه اقرار الأمن بالولاية، ومنع اعتداءات العربان خاصة فى أوقات الحصاد، والاشراف على أعمال الكشف التابعين له، وحل المشاكل التى تنشأ بين الأهالى والملتزمين أو بين بعضهم البعض، أو بينهم وبين أجهزة الإدارة، والتى يصدر إليه فرمان من الباشا بشأنها(١) .

كما كان من واجباته أيضا حماية الملتزمين فى تحصيل دخولهم(٢) وكان حاكم جرجا يعين بمرسوم من الباشا، وبعد التعيين يلبس خلعة المنصب ويذهب إلى مقر منصبه بموكب كبير، يحف به الامراء والأغوات والاختيارية، وكثير من رجال الأوجاقات العسكرية، وكان يقيم فى "خيمة" كبيرة قبل أن يذهب إلى إقليمه بحيث يفد إليه المهنتون بالمنصب وتوديعه(٣) وكان يصحب حاكم جرجا فى ذهابه إليها عددا من رجال الفرق العسكرية لمساعدته فى أداء واجباته(٤) .

وبالإضافة لرجال الفرق كان يصحب حاكم جرجا أيضا قواته العسكرية المؤلفة من مجموعة كبيرة من مماليكه وأتباعه الذين كانوا يعيشون معه على نفقته الشخصية(٥) .

وكانت مدة حكمه فى الإقليم سنة واحدة، وأحيانا تصل إلى أكثر من عام بشرط أن يؤدي خدمات للدولة تؤدي إلى استقرار الحكم فى إقليمه، مثلما حدث مع عبد الرحمن بك

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق : ص ٤٦ ، ٤٧

(٢) Lancret, Miche -Ange, Mémoire sur Le système d'imposition territoriale et sur l'administration des provinces de L'Egypte dans Les derniers années du gouvernement des Mamlouks, en description de L'Egypte, Etat moderne sconde Edition, T.11, Paris 1822. P. 493.

(٣) صلاح أحمد هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية ١٥١٧-١٧٩٨م دار المعارف ١٩٨٤ ص ١٢٦ .

(٤) ليلى عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ٤٠٢ .

(٥) نفس المرجع، ص ٤٠٣ .

حاكم جرجا الذى قام بالقضاء على تمرد الهوارة، وكانت نتيجة ذلك أن استمر فى حكم ولاية جرجا من عام ١١١٠ - ١١١٣هـ - ١٦٩٨ - ١٧٠١م (١). وكان لحاكم جرجا ديوانا عرف بديوان جرجا ويتكون من قاضى الإقليم، ونقيب الأشراف، وقائمقام الحاكم، وأعيان الإقليم (٢).

وكان حاكم جرجا يعقد هذا الديوان كلما دعت الحاجة للمشاورة فى تنفيذ أمر من السلطة المركزية أو مناقشة مشكلة من مشاكل الإقليم، وكان مقر هذا الديوان فى بندر جرجا عاصمة الولاية، وكان حاكم جرجا يتمتع بسلطة واسعة فى الأحكام، يعاقب بالسجن، وله سلطة فرض ضرائب إضافية فى إقليمه (٣)، ولم يكن بك جرجا يستطيع دخول القاهرة عند عزله من منصبه إلا ومعه حجة اشهاد من قاضى الولاية وأعيانها تشهد برعايته وأدائه لواجباته (٤).

وكان إقليم جرجا من أهم الأقاليم الادارية فى مصر العثمانية بالإضافة إلى كونه من أغناها، وامتد هذا الاقليم واتسع حتى أصبح يضم أراضي الصعيد من المنيا إلى أسوان وبذلك الاتساع والشمول غدا حاكم جرجا الشخص الثانى فى الأهمية والقوة والثراء بعد شيخ البلد وزعيم الممالك فى القاهرة.

٢ - الكشف :

والكشف (٥) أتباع الصناجق من ممالكهم الممتازين، وكانوا يحكمون الوحدات الإدارية الصغرى التى لم تبلغ مرتبة الصنجدية وتسمى كاشفيات، كما كانوا ينوبون عن

(١) أحمد الدمرداشى : الدرة المصانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩، ص ٤٥ .

(٢) أحمد الدمرداشى : المصدر السابق، ص ٤٨ .

(٣) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ٤٠٤ .

(٤) حسين أفندى روزنامجى : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية، تحقيق : محمد شفيق غربال بعنوان مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٧ .

(٥) سى الكاشف كاشفا لأنه يكشف عن الأقاليم الموضوعة تحت سلطته بواقع نزلتين فى السنة، نزلة فى الصيف ونزلة فى الشتاء، والكاشف رجل عسكرى رفيع الرتبة ينتمى إلى إحدى الأوجاقات السبعة .

البكوات فى حكم الولايات إذا ما أثروا البقاء فى القاهرة على الذهاب إلى مقر ولاياتهم أو يديرون بعض مناطق من صنجقياتهم(١) .

ولقد عدد لنا قانون نامة اختصاصات الكشاف بطريقة تفصيلية نختصرها على النحو التالى :

أولا : على الكشاف الترميم المناسب للجسور فى موعده وموسمه وعمل "الجرافة" أى تطهير القنوات فى كشوفية كل واحد منهم على أن ينبهوا شيوخ القرى التى تحت تصرفهم وأهاليها إلى ترميم وتعمير جسور بلادهم كما ينبغى، وذلك حتى لا تكون هناك شراق بسبب عدم تعمير الجسور أو تطهير القنوات، وعليهم كلما فاض النيل وبلغ الذروة أن يؤمروا طائفة الفلاحين بكاملها بتخضير الأرض التى غمرتها المياه كلها بالزراعة .

وعلى الكاشف إذا أصيبت قرية فى كشوفيته أن يجد ويجتهد لتعميرها بكل الطرق الممكنة، وعليه أن يشرف على عملية جمع الضرائب، وجمع الأموال فى كشوفيته، ثم يقوم بإرسالها إلى الخزينة العامة فى القاهرة (٢) .

أما الواجب الثالث على الكشاف فكان ينحصر فى الإشراف على الأمن، فكان عليهم أن يحفظوا البلاد ويحرسونها من شر البدو والعربان العصابة وعدوانهم(٣) . وكان من اختصاصات الكشاف أيضا الإشراف على تنفيذ أحكام القضاء، وحل المنازعات بين أهل القرى(٤) .

- انظر إبراهيم المويلحى : الأرض والفلاح فى العصر العثمانى ضمن الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٤٣ .

(١) حسن عثمان : تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨م ضمن المجلد فى التاريخ المصرى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٢، ص ٢٥٤ .

(٢) قانون نامة مصر الذى أصدره السلطان سليمان القانونى لحكم مصر : ترجمة وقدم له وعلق عليه أحمد فؤاد متولى، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٦، مادة رقم ٨، ص ص ٢٩، ٣٠ .

(٣) نفس المصدر، مادة ١٢، ص ٣٣ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٤٨ .

أما عن مدة تولية الكشاف فإنها كانت سنة واحدة، وقد تمكن بعض أمراء المماليك من تقلد منصب الكشوفية خمس مرات فى اقليم واحد مثل الامير "قانسوه بك القاسمى" تابع "قيطاس بك الكبير" الذى تولى منصب كشوفية بنى سويف خمس مرات (١) .

وكان الكشاف يحتلون مركزاً هاماً فى البلاد، وكان بعضهم يتمتع بما يتمتع به كبار البكرات من سلطة ومن نفوذ، وكان لكل كاشف قوة عسكرية فى كشوفيته يصل عددها إلى بضع مئات من جنود الأوجاقات، كما كانت له مماليكه وكانت الدولة هى التى تتفق على القوة العسكرية ويتحمل الكاشف أمر الإنفاق على مماليكه بنفسه .

٣- قاضى الشرع :

بدخول مصر تحت الحكم العثمانى أصبح القضاة الموكلة اليهم مهمة إقامة العدالة فى مصر مرتبطين بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية (٢)، وكان السلطان يرسل إلى مصر قاضى القضاة المعروف باسم "قاضى عسكر أفندى" .

وفى بدء الحكم العثمانى كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضى العسكر فى تطبيق العدالة فى مصر (٣)، ومعظم هؤلاء القضاة كانوا يجهلون لغة البلاد، ومن ثم كانوا يستعينون بتراجمه كانوا يقرأون النصوص ويترجمونها كما يحلو لهم كما كانوا يحصلون على إتاوات شتى (٤)، هذا إلى جانب أن بعضهم لم يكن على قدر من العلم الذى يؤهلهم لهذه الوظيفة (٥) وكان قاضى العسكر يقوم بتعيين نواب له فى محاكم الأقاليم من بين القضاة العثمانيين الذين يرسلهم السلطان العثمانى لمعاونته (٦)، وفى حالة وفاة أحد القضاة العثمانيين كان قاضى العسكر يعين مكانه قاضيا مصرياً حتى يحضر قاضى من السلطنة (٧) .

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٤٨ .

(٢) Chabrol, de, : Essai sur les moeurs des habitants modernes de L'Egypt, dans Description de L'Egypte, Tome, 18, Première Partie, Seconde Édition, Paris, 1826, P.229

(٣) حسن عثمان : المرجع السابق، ص ٢٥٨ .

Chabrol. Op. Cit. P. 231

(٤)

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٤٠ .

(٦) نفس المرجع، ص ص ٣٩، ٤٠ .

(٧) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ٢٧١ .

ولقد تغير هذا النظام فى مصر فى عصر تأخر الدولة العثمانية واضطراب الأحوال فى مصر، فلم يعد قضاء الأقاليم يأتون من استانبول، بل أصبح معظمهم من القضاة المصريين حتى إذا ما وصلنا إلى السنوات السابقة للحملة الفرنسية أى فى أواخر القرن الثامن عشر لم يكن بمصر من القضاة العثمانيين سوى قاضى العسكر، وقاضى المحلة الكبرى وقاضى رشيد والمنصورة والجيزة والإسكندرية(١) .

ولقد كان المذهب السائد فى مصر العثمانية هو المذهب الحنفى، وإن لم يمنع ذلك من وجود مفتين على المذاهب الأخرى يرجع إليهم القضاة عند الحاجة(٢) . وكان اختصاص القاضى يشمل على الآتى :

١- الفصل فى القضايا .

٢- اختيار الأشخاص للوظائف فى المساجد .

٣- إدارة الأوقاف الخيرية .

٤- قسمة الموارىث .

٥- تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات(٣) .

كما يدخل ضمن اختصاص قضاة الأقاليم تنصيب مشايخ الطوائف الحرفية بعد موافقة أفراد الطائفة الحرفية، والإشراف على الأسعار وفقا لما يتفق الأعيان والحكام وأفراد الطائفة(٤) .

ويضاف إلى كل هذه الاختصاصات الفصل فى القضايا العادية التى كانت تحدث بين الناس، مثل قضايا الزواج والطلاق والوصايا والاختلافات المدنية والبيع والعقود وإثبات حالات الوفاة وحصر التركة وتحديد الورثة وأشهار إسلام بعض الأشخاص الراغبين فى الدخول فى الإسلام(٥) .

(١) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ٢٧٢ .

(٢) حسن عثمان : المرجع السابق، ص ٢٥٨ .

Chabrol, Op. Cit. P. 234.

(٣)

(٤) محمد نور فرحات : القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، عدد

رقم ١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص ٥٥ .

(٥) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ٢٨٤ .

وكان القاضى يجلس فى المحكمة طوال أيام الأسبوع بما فيها أيام الجمع وذلك حتى يتمكن من ممارسة اختصاصاته الواسعة ويتمكن المتقاضون من رفع شكاواهم فى أى وقت (١) .

أما عن مدة شغل القاضى لوظيفته فتذكر المصادر أنها كانت تصل إلى عامين، بل أنه فى بعض الأحيان كان القاضى يخرج من وظيفته بعد عام (٢) .

ولم يكن للقضاة بصفة عامة بما فيهم قاضى عسكر أفندى مرتبات ثابتة كالقضاة فى عصرنا الحالى، بل كان قاضى العسكر أو ممثلوه يحصلون على ٢,٥ ٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع ولكن فى بعض الأحيان كانت تصل رسوم القضايا إلى ٨ ٪ أو ١٠ ٪ بما فى ذلك أجور الكتبة والمترجم، وجدير بالذكر أن القاضى لم يكن يتقاضى شيئا من الفقراء، ومن المبادئ التى تشيع بين القضاة أن الفقر طرف له قداسته وهكذا وضع العرف والأخلاق حدوداً لجشع القضاة (٣) .

وإلى جانب القضاة فى الإقليم وجد معهم بعض الشخصيات الدينية الأخرى مثل المفتون على المذاهب الأربعة، وكانوا يحضرون مجالس الشرع فى المحاكم الإقليمية حينما يكون موضوع الجلسة متعلقا بإدارة الإقليم، أما عن مدة خدمة هؤلاء فكانت مدى الحياة (٤) .

ولقد تدهور النظام القضائى فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ويمكن إرجاع هذا التدهور إلى العوامل التالية :

أولا : شراء مناصب القضاء حيث أن القضاة ابتداء من قاضى عسكر نفسه إلى قاضى الإقليم كانوا يشتررون مناصبهم من أصحاب الحق فى تعيينهم فى هذه المناصب .

(١) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ٢٨٦، عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٤٢ .

(٢) Chabrol. Op. Cit. P. 231

(٣) Ibid, P. 235.

- ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ص ٢٦٣-٢٨٦، محمد نور فرجات، المرجع السابق، ص ٧٣ .

(٤) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ص ٢٩٠، ٢٩١

ثانيا : اهتمام بعض رجال القضاء بجمع الأموال أكثر من اهتمامهم بالعمل القضائي نفسه (١) ولا شك أن سوء حالة القضاء انعكست على المجتمع المصرى بصورة عامة، حيث بدأ القادرون على دفع الرشاوى يصلون إلى ما يريدون بأساليب غير مشروعة مما ترتب عليه وبخاصة فى الريف قيام كثير من المنازعات بين السكان، وكان ذلك أكبر الأثر على حالة السكان الاقتصادية والاجتماعية (٢) .

٤- الأوجاقات العسكرية :

وقد كان عدد هذه الأوجاقات سبعة وهم على النحو التالى متفرقة، وجاوشان، وجمليان وتفكشيان، وجراكسة ومستحفظان وعزبان، ومهمتهم الأساسية الدفاع عن مصر ضد أى غزو تتعرض له ومساعدة الجهاز الإدارى، فى مصر على أداء مهامه، والمساهمة فى حكم وإدارة الأقاليم وجمع الأموال الأميرية .

فكانت مهمة أوجاق متفرقة تتحصر فى الدفاع عن حدود مصر وثغورها، وكان يقوم بإمداد القلاع المحيطة بمصر بالجند .

وتجدر الإشارة إلى أن القلاع التى كانت موجودة بالصعيد هى قلعة أسوان، وقلعة أبريم، وقلعة القصير كما كان لوجاق المتفرقة حامية صغيرة فى ولاية جرجا وأبريم مثل باقى الفرق، ورغم أن رجال القلاع كانوا يؤخذون من فرق مصر العسكرية، فقد كانوا يمثلون هيئة خاصة مستقلة عن الفرق تتقاضى مرتبات منفصلة من الخزينة .

أما عن حالة القلاع المذكورة فإنها قد تدهورت فى أواخر القرن الثامن عشر (٣) أما أوجاق جاوشان فكان العمل الرئيسى له يتمثل فى تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين

(١) لمزيد من التفصيل . انظر : ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ص ٢٨٧-٢٨٩ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٣٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠، ص ٣٤٣-٣٤٩ .

(٣) لمزيد من التفصيل انظر : ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ص ٢٠٣-٢١٤ .

وتوريدها إلى خزينة الروزنة^(١) وكان للانكشارية حامية هامة فى ولاية جزجا ومنطقة الحدود فى أبريم على الحدود الجنوبية لمصر، وكانت هذه الحامية تستمد رجالها من فرقة الانكشارية الرئيسية فى القاهرة ولكنها تحصل على مرتبات خاصة من الخزينة وليس من فرقها الأصلية^(٢).

وكانت هذه الفرقة على صلة طيبة بقبيلة الهوارة أهم قبيلة عربية فى الصعيد خلال القرن الثامن عشر، فكانت هذه القبيلة تمد الانكشارية بالمساعدات القيمة عسكريا وماليا، وفى مقابل ذلك كان الانكشارية يقومون بدور الدفاع عنها فى الديوان العالى عندما كانت تتجه نية الإدارة إلى إرسال حملات عسكرية ضدها^(٣).

أما أوجاقات السباهية الثلاثة فقد شاركت فى إدارة الريف بصورة بارزة، وكانت المهمات المنوطة بكل منها على النحو التالى :

١- **أوجاق جمليان** : وكانت المهمة المنوطة بأفراد هذا الأوجاق فى الريف تتمثل فى توطيد الأمن فى الأقاليم، ومنع البدو من غزو المناطق لزراعية وتهديد طرق المواصلات.

٢- **أوجاق تفكجيان** : أى حملة البنادق من الفرسان، واقتصرت مهمتهم على الاشتراك فى ادارة الريف وتوطيد السلطة العثمانية وأجهزتها فى الأقاليم.

٣- **أوجاق الجراكسة** : واقتصرت مهمتهم على مراقبة الأراضى الزراعية، والمحافظة على شبكات الري، والإشراف على توزيع المياه على القرى^(٤).

تلك كانت أهم عناصر الادارة المركزية فى صعيد مصر فماذا عن الادارة المحلية فى الصعيد؟ هذا ما سنتناوله بالتفصيل فى النقطة التالية :

ثالثا: الإدارة المحلية فى صعيد مصر :

نقصد بالإدارة المحلية فى صعيد مصر الجهاز الادارى ودوره فى إدارة الريف فى صعيد مصر، حيث لعب هذا الجهاز دورا فى حياة السكان فى الريف، ويمكن دراسة هذا الجهاز على النحو التالى :

(١) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ٢١٩، حسن عثمان : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٢) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ١٨١ - ١٨٣ .

(٣) نفس المرجع، ص ١٨٤ .

(٤) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ص ٥٤-٦١، صلاح أحمد هريدى، المرجع السابق، ص ١٣٦-١٣٨.

١- الملتمزم :

وهو الموظف المكلف بإدارة القرية وتنظيم شئونها، وتوطيد الأمن فيها^(١)، والإلتزام فى المصطلح الإدارى والمالى العثمانى هو التعهد من قبل فرد أو عدة أفراد بسداد المال الميرى السنوى المربوط على قرية أو جزء من قرية أو عدة قرى بواقع سعر مبدئى يتراوح بين ٤٠ و ٤٠٠ بارة للقدان الواحد حسب جودة أرضه، ثم يطرح للمزاد فى أول شهر توت من كل عام، نظراً لسير الزراعة وفق الأشهر القبطية، مع ضرورة ذكر التاريخ العربى الموافق للقبطى فى وثيقة الإلتزام، لأن السداد كان يتم حسب الأشهر العربية، على أن يأخذ لنفسه مقابل جبايته الأموال الأميرية جعلاً من الفلاحين لا يزيد على مبلغ المال الميرى موضوع المزايدة، وعلى أن يسدد أيضاً لخزينة الروزنامة ثلث المال الميرى مقدماً بمجرد تسجيل الإلتزام^(٢) وكان الروزنامجى يسلم كل ملتمزم تقسيطاً يذكر فيه المال الميرى الواجب سداده واسم القرية أو القرى الملتمزمة وعدد قراريطها ومساحة هذه القراريط، كما كان يسلم والملتمزم تمكيناً ينص على "ضرورة رعاية أرض الإلتزام، وأن يكون متسامحاً مع الفلاحين وألا يظلم احدا منهم"^(٣).

وتتلخص مهمة الملتمزم وواجبه الأول فى جمع الدخل الواجب على القرية أو القرى التابعة له، وتسليمه للخزانة المركزية أو لخزانات الولايات^(٤).

• ويقوم الملتمزم بتوزيع الأرض (أرض الفلاحة) على الفلاحين فى نظير الإيجار الذى يتفق عليه الملتمزم مع الفلاحين، وكان الجزء الذى يقوم الفلاح بزراعته يطلق عليه فى الوجه البحرى "أرض الأثر" وذلك لعدم تأثر مساحات الأرض فى غالب الأحيان باخطار

(١) Esteve, Comte, Mémoire sur les finances de L'Égypte depuis sa conquête par le sultan Selym Ier jusqu'à celle du général en chef Bonaparte, in description de L'Égypte Etat moderne. T. 12, Seconde Édition, Paris, 1823. P. 65.

(٢) إبراهيم المولىحى : المرجع السابق، ص ٢٣٦ .

(٣) Ibrahim El Mouelhy Le Paysan D'Égypte através L'histoire, Le Caire, 1954, P. 42.

(٤) هاملتون جب، هارولديون: المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، الجزء الثانى، القاهرة، دار المعارف ١٩٧١، ص ٩٠ .

الفيضان، وتبقى هذه الأرض في حوزة الفلاح مادام يسدد الأموال المقررة عليها، وذلك بعكس ما كان عليه الحال في الوجه القبلي، حيث كانت مساحات الأرض تتأثر بالفيضانات، ولذا فإن عمليات مسح الأرض وتوزيعها على الفلاحين بمعرفة مشايخ القرى والمترمين وأجهزة الإدارة كانت تتم سنوياً بعد انحسار مياه الفيضان عنها حيث توزع على الفلاحين الأرض الصالحة للزراعة فقط وذلك حسب مقدرة كل منهم على زراعتها، ولذا سميت "أرض المساحة" نظراً لأن توزيعها يتم بناء على مسح الأرض سنوياً^(١).

وهكذا نرى أن الفلاح في مصر العليا كان أحسن حالاً من فلاح مصر السفلى، فالملتزم لم يكن له الحق في إرغامه على البقاء في الأرض لزراعتها، لأن الفلاح كان ملزماً بزرعها لعام واحد فقط^(٢). وكان الملتزم يستقي جزءاً من ربحه من الضرائب التي كان يحصلها من أرض الفلاح "الفايظ" وفي القرن الثامن عشر "المضاف" و"البراني"، ولكن معظم ربحه يستقي من استغلال أرض الالتزام المخصصة له شخصياً لاستغلالها (أرض الوسية) على أن الوسية لم تصبح ملكاً خاصاً له، وكان يمكن استغلالها لصالحه فقط طالما يحتفظ باستثماره للالتزام، يضاف إلى ذلك أنه كان ملزماً بأن يقتطع من ربحه الإجمالي النفقات الإدارية الخاصة بجباية الضرائب ونفقات تقديم الضيافة للمسافرين، وصيانة بعض المنشآت العامة وصيانة نظام الري^(٣). ولقد كان من حق الملتزمين تسخير الفلاحين للعمل في أرضهم الخاصة "الوسايا" دون أجر^(٤).

وكانت الدولة تبقى في يدها ملكية رقبة الأرض، بحيث لا يكون للملتزم سوى حق الانتفاع "التصرف"^(٥) وهو نفس الحق الذي كان يتمتع به الفلاحون أيضاً، فلقد كان الفلاح

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٧٦ .

(٢) فاطمة الحمراوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في عهد الحملة الفرنسية، رسالة ماجستير غير منشورة، بقسم التاريخ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٧ .

(٣) هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨، ص ٤١ .

(٤) محمود عودة : الفلاحون والدولة. دراسات في أساليب الانتاج والتكوين الاجتماعي للمجتمع التقليدي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣، ص ١٢٩ .

(٥) هيلين آن ريفلين : المرجع السابق، ص ٤١ .

يتمتع بالانتفاع بالأرض وكان محرماً عليه بيعها أو إهمالها^(١) ونظرة شاملة لنظام الالتزام نلمس من خلالها أن نظام الالتزام هو التنظيم الاجتماعي لاستنزاف فائض الانتاج الزراعى من خلال أشكال متنوعة من الضرائب لا ضابط لها بالاضافة إلى كونه أيضا الشكل الاجتماعى الذى يتم من خلاله استنزاف فائض العمل الزراعى واستهلاكه^(٢) وإذا كان نظام الالتزام قد جلب البلاء للفلاح، والذى أصبح فى ظل هذا النظام يدفع أكثر مما عليه من الأموال وبالتالي ساءت أحوال الزراعة، فإن ذلك يرجع إلى أن هذا النظام قد طبق بطريقة مخالفة لقانون نامة شوهدت ملامحه^(٣).

٢- القائمقام :

وهو عادة أحد كبار ملاك الفلاحين المزارعين، وهو المسئول الأول أمام الملتزم عن جباية المال ومن اختصاصه أيضا القيام بدور قاضى المصالحات فى حالة نشوب نزاع بين فلاحى القرية، كما كان عليه أن يحمى مصالح الملتزم^(٤).

وكان القائمقام يحضر إلى العاصمة مرتين أو ثلاث مرات فى السنة لمقابلة الملتزم وتسليمه الأموال المقبوضة من الفلاحين^(٥).

٣- المباشـر :

وهو بمثابة وكيل القائمقام ويباشر اختصاصاته حين يسافر القائمقام إلى العاصمة لمقابلة الملتزم، وكان يسجل كل ما يدفعه فلاحو الالتزام فى سجل خاص به^(٦).

٤- شيخ القرية :

وكان الملتزم يختاره من بين أغنى أسر تابعيه من الفلاحين وكان بكل قرية سواء تولاهم ملتزم واحد أو عدة ملتزمين عدد يتراوح بين ثمانية وعشرة شيوخ للبلد، وفى بعض

(١) ابراهيم زكى : الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهدى الحملة الفرنسية ومحمد على، القاهرة، دون تاريخ، ص ٢٨ .

(٢) محمود عودة : المرجع السابق، ص ١٢٨ .

(٣) حسن عثمان : المرجع السابق، ص ص ٢٦٤، ٢٦٥، - ابراهيم المويلحى : المرجع السابق، ص ٢٣٥ .

(٤) ابراهيم المويلحى : المرجع السابق، ص ٢٣٨ .

(٥) هيلين آن ريفلين : المرجع السابق، ص ٤٨ .

(٦) صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، ص ١٤٤ .

الأحيان يصل هذا العدد إلى عشرين أو أكثر، وكان أبرزهم يعرف باسم "شيخ المشايخ" وكان يمارس تجاه زملائه نفس السلطة التي يمارسها هؤلاء ازاء الفلاحين الواقعين تحت إشرافهم^(١). وبمرور الزمن أصبحت وظيفة شيخ البلد شبه وراثية، وكان الشيوخ أقباطاً في القرى القبطية ومسلمين في القرى المختلطة^(٢).

وتتلخص مهام شيخ البلد في الإشراف على الفلاحين الذين يزرعون الأرض تحت إمرته، ويقوم بجمع الضريبة المفروضة على الفلاحين ويسلمها للملتزم، وكان الشيخ له الحق في ضرب الفلاحين بالعصا أو حبسهم في منزل أرض الوسية حتى يسددوا ما عليهم من ضرائب، وكان الشيوخ يتبعون كل السبل التي من شأنها أن تؤدي بالفلاحين إلى أن يدفعوا ما عليهم من ضرائب، ذلك لأن الملتزم سوف يوقع جزاءه عليهم إذا ما أحسن منهم بأي تراخ في تحصيل الضرائب^(٣).

كما كان من مهام شيخ البلد الفصل في المنازعات التي تنشأ بين أبناء القرية، وكان شيخ مشايخ البلد يعمل بمثابة قاضي وحكم، وكانت له سلطة ليس فقط على الزراعة، بل على كل السكان، وكان مركزه يحظى باحترام سكان القرية والملتزمين، وينبغي الإشارة أيضاً إلى أنه كان أكثر نفوذاً وسلطاناً في مصر العليا عنه في مصر السفلى^(٤).

كما كان على مشايخ القرى أن يقوموا بمهمة المحافظة على الأمن في قراهم، وكانوا يقومون بتبليغ أوامر الملتزم إلى الفلاحين ثم عرض طلباتهم والتماساتهم عليه وهم بذلك بمثابة وسطاء بين الملتزم والفلاحين^(٥).

Esteve. Op. Cit. P. 66.

(١)

Lancret. Op. Cit. P. 478.

(٢)

Ibid. P. 478, esteve, Op. Cit. P. 66.

(٣)

(٤) هيلين آن ريفلين : المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٥) Shaw, S.J. The financial and Administrative organization and development of Ottman/Egypte 1517-1798, Princeton, New Jersey, 1962. P. 54.

وكان المشايخ يحصلون مقابل خدماتهم على امتيازات تتمثل فى إعفائهم من دفع ضرائب على الأراضى المسموحة لهم، كما أن جزءاً من أراضيتهم الأخرى، كان معفياً من دفع "البرانى" وهى الضرائب الجديدة التى أدخلها البكوات والملتزمون فى خلال القرن الثامن عشر، وكان مشايخ القرى فى مصر العليا معفون تماماً من الزيادات الضريبية هذه، وإلى جانب ذلك فإن لهم عوائد معترف بها فى نظير خدماتهم، وفى نظير حضورهم إلى القاهرة لمقابلة الملتزم، وفى نفس الوقت فإن الملتزمين كانوا يقدمون لهم المنح والهدايا كدليل على تقديرهم لخدمات الشيخ(١) .

ونتيجة لذلك تمكن مشايخ القرى من تكوين ثروات ضخمة ولم يكن ذلك إلا على حساب الفلاحين، الذين تعرضوا لكثير من الظلم فى هذا العصر، وخصوصاً فى أواخر القرن الثامن عشر .

٥- الشاهد :

وكان يتم اختياره من قبل فلاحى القرية وبموافقة الملتزم على هذا الاختيار، وحيثما وجد عدد من الملتزمين فى إحدى القرى، كان كبيرهم يصدق على اختيار الشاهد(٢) . وكان المؤهل الرئيس للشاهد هو معرفة القراءة والحساب وكانت مهمته تتلخص فى تسجيل أطيان القرية فدانا بفدان وحوضاً بحوض، وأسماء الفلاحين، والمال المقرر على أهل البلد وهو الذى يربط جميع الأمور على الصراف، ولذا فإن عمل الشاهد كان يعد الأساس الحقيقى لعمل الصراف الذى يقوم على أساسه بجمع المال الميرى والضرائب الأخرى(٣) .

Lancret. Op. Cit. PP. 485, 486.

(١)

- حسين أفندى الروزنامجى : المصدر السابق، ص ٤٠ .

- بير : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة : ترجمة وتقديم عبد الخالق لاشين، عبد

الحميد فهمى الجمال، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠٨ .

(٢) هيلين آن ريفلين : المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٣) حسين أفندى الروزنامجى : المصدر السابق، ص ٢٣، عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق،

ص ٢٣ .

وكان الشاهد يحصل فى مقابل ذلك على إعفائه من البرانى عن جزء من أراضيه، ومن ناحية أخرى كان يحصل على أجر ضئيل من الفلاحين بحسب مقدار الضريبة المقررة على كل منهم لكن الأمر يختلف كثيرا من قرية لأخرى (١) .

٦- الصراف :

وكان يقوم بتقسيم الضريبة بين الفلاحين وجمعها منهم وغالبا ما كان من الأقباط، وذلك لأمانتهم وخبرتهم فى المسائل الحسابية والمالية (٢) .

وكان من عمل الصراف - حيث أنه هو الذى يتسلم الأموال - دفع النفقات الإدارية التى تتطلبها مصلحة الالتزام (٣)، وكذلك كان من اختصاصه أيضا حضور عمليات المسح التى تتم فى حصته حيث أن الضرائب كانت لا تقرض إلا على الأراضى المروية التى تتم زراعتها، ولذا فإنه كان عليه أن يسجل المقاييس والحسابات اللازمة والتى يتم على أساسها جباية الأموال المقررة على الفلاحين (٤) .

وكان الصرافون يتقاضون أجراً على عملهم، ويأخذون أجراً من الفلاحين أنفسهم (٥)، ولكنهم استغلوا مركزهم أسوأ استغلال، وفرضوا سلطانهم على الفلاحين واستخدموا كل الطرق الممكنة لابتزاز الفلاحين المغلوبين على أمرهم (٦) .

٧- المساح :

وكان يقوم بمسح الأرض بمعرفة القصاب أو حاملى المقياس (القصبية) ويدون مذكرة بذلك، ويخبر كل فلاح مقدما بما ينبغى عليه أن يدفعه مستقبلاً (٧) .

Lancet. Op. Cit. P. 486

(١)

(٢) صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، ص ١٤٦ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٦ .

(٤) هيلين آن ريفلين : المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٥) حسين أفندى الروزنامجى : المصدر السابق، ص ٤٠ .

(٦) لمزيد من التفصيل انظر :

Girard, P.S.; Mèmoire sur L'Agriculture L'industrie et le commerce de L'Egypte, in Description de L'Egypte, Seonde édition, Tome 17. Paris 1824. P. 196.

Lancet, Op. Cit. P. 490.

(٧)

وكان يتم اختيار المساح بمعرفة الوكيل الرئيسى أو كتبة الكاشف وكان كل من الشاهد والخولى يساعدان المساح فى أعماله، ويتوخان أن تكون هذه الأعمال منصفة وغير متميزة، والمساح فى العادة قبطى، ومع ذلك فبعض منهم مسلمون^(١). وفى الصعيد كان يحل سجل المساحة محل سجل الشاهد بشكله الموجود فى الوجه البحرى، فسجل المساحة كان يستخدم أساساً لتوزيع الضريبة^(٢).

وكان المساح وقصابه يحصلان معاً من الفلاحين من ٦ إلى ١٠ مدينى عن كل فدان من الأرض التى قاما بقياسها^(٣) ويذكر أحد علماء الحملة الفرنسية أن عملية مسح الأرض كان يتجلى فيها أكبر عمليات الغش والخداع التى يقوم بها الأقباط والتى تعود عليهم بالأرباح الطائلة، كما أن أسهل ما يمكن ارتكابه من عمليات الغش وأكثرها فى نفس الوقت صعوبة فى إمكانية اكتشافها، ولذلك كان الفلاح يساوم المساح بل ويقدم له مبلغاً من المال كى يسجل فى سجل المساحة، المساحة الحقيقية التى يستغلها الفلاح فى الواقع^(٤). وهذا دليل على الظلم الواقع على الفلاح من قبل المساح.

٨- المشد :

كان المشد مجرد موظف تابع لشيخ البلد، وتتلخص مهامه فى أنه كان يحضر الفلاحين إلى الديوان فى وقت طلب المال^(٥)، وهو المنفذ لأوامر الملتزم حين يريد أن ينزل العقاب Sèvir على الفلاحين عندما يخطئون أو يتأخرون فى سداد ما عليهم، كما أنه موكل بأن يخطر القرية بأوامر الملتزم^(٦) وكان المشد يحصل مقابل خدماته هذه على بضع مئات من المدينى يدفعها له الملتزمون، لكنه يعرف كيف يزيد من امتيازاته عن طريق الهدايا التى يحصل عليها مقابل الخدمات التى يؤديها^(٧).

(١) Girard. Op. Cit. P. 194, Esteve Op. Cit. P. 89, Lancet. Op. Cit. P. 490.

(٢) Esteve. Op. Cit. P. 91.

(٣) Lancet. Op. Cit. P. 490.

(٤) Girard. Op. Cit. PP. 195, 196.

(٥) حسين أفندى الروزنامجى : المصدر السابق، ص ٤١ .

(٦) Esteve. Op. Cit. P. 67.

(٧) Lancet. Op. Cit. P. 485.

والخفراء هم حراس القرية، ويتفاوت عددهم من قرية لأخرى، وهم مكلفون بمنع السرقات، ومنع كل ما يمكن أن يرتكب في القرية مما يعد خروجاً على النظام، كما أنهم يندرون القرية عند اقتراب العربان، ويسهر الخفراء بصفة خاصة على حراسة بيت الوسية التابع للملتزم والذي يستخدم مخزناً للمحاصيل، ويدخل ضمن واجباتهم كذلك حراسة الجسور ومراعاة ألا يقوم الفلاحون بإحداث الثغرات فيها في الأوقات التي تحرم خلالها هذه الأعمال(١).

كما كان على الخفير أن ينفذ أوامر المشد في المناداة بالخروج للعونة وغيرها من الأوامر التي يأمره المشد بالمناداة عليها وكذلك عليه إبلاغ الأوامر التي يريد شيخ القرية إبلاغها إلى الفلاحين(٢) ويمكن القول بأن الخفراء قد قاموا بدور هام في معظم الأحوال بحماية الريف وزراعاته، وإن كانوا في بعض الأحيان يد ظلم ضد الفلاح فهم قد قاموا بدورهم في إطار أنهم جزء من أجهزة الإدارة في القرية التي أصبح شاغلها الأول استغلال نفوذها لمصالحها الشخصية دون الاهتمام بمصالح الرعية(٣).

١٠- الخولى :

وتتلخص مهام الخولى في كونه كان ملزماً بمعرفة حدود القرية، والحدود التي تفصل بين أراضي الملاك، كما يحسم كل المنازعات Contestations التي تنشأ حول هذا الموضوع(٤).

كما كان من مهامه القيام بإدارة أراضي الوسية وهي الأرض الخاصة بالملتزم، فكان يسهر على زراعتها وحصادها، كما كان يقوم بمساحة الأرض وقياسها(٥)، وبالإضافة إلى ذلك كان الخولى مسئولاً عن صيانة نظام الري في الالتزام(٦).

Esteve. Op. Cit. P. 67.

(١)

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٣٤ .

(٣) نفس المرجع، ص ٣٥ .

Esteve. Op. Cit. P. 67.

(٤)

(٥) كانت عملية مسح الأرض تتم في البداية على يد موظف قبلى هو "المساح" ثم أصبحت بمرور الزمن تتم على يد "الخولى" لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ص ٢٩، ٢٨ .

Lancret. Op. Cit. P. 480.

(٦)

ويحصل الخولى من الملتزم نظير خدماته على ما يلى :

- ١- الإعفاء من البرانى على جزء من أرضه .
- ٢- كما يعطيه كل واحد من الفلاحين مقدارا من الحبوب باعتباره مساح القرية (١) .
- ١١- الوكيل :

كان الملتزم هو الذى يعين الوكيل لكى يقوم بحفظ غلال الأوسية، فعندما يحين وقت الحصاد، كان يسجل كمية الغلال المودعة لديه، وهذا الإجراء كان يتم بحضور شيخ البلد كشاهد (٢) .

كما كان عليه حفظ تعلقات الأوسية مثل النوارج والمحاريث وخلافه (٣) ويحصل الوكيل على أجره من الملتزم ولقد ذكر أحد علماء الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر أنه كان يحصل على أجره عيناً، ويصل أجره السنوى من أربعة إلى عشرة آرادب من الحبوب (٤) .

١٢- الكلاف :

ويعمل الكلاف - أى الراعى - تحت إشراف الوكيل، وهو موكل بحراسة قطعان الماشية والعناية بها، ويفترض فى مهنته الإلمام بفن الطب البيطرى مما يعود بالفائدة على القرية كلها، وبالتالي فهو ملزم بأن يقدم هذه الرعاية لمن يلتمسها من الفلاحين لعلاج ماشيتهم (٥) .

وكان الكلاف يأخذ أجره من الملتزم لأنه يعد عاملاً تابعاً له، وإن كان فى نفس الوقت يحصل على أجر من الفلاحين وذلك نظير قيامه بخدمتهم عند الحاجة (٦) .

(١) Lancret. Op. Cit. PP. 486, 487.

(٢) Ibid. P. 482.

Estéve. Op. Cit. P. 68.

(٣) حسين أفندى الروزنامجى : المصدر السابق، ص ٤١ .

(٤) Lancret. Op. Cit. P. 487.

(٥) Estéve. Op. Cit. P. 68.

(٦) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٣٦ .

وكان عليه ملء أزيار الوسية بماء الشرب أو صهرجها إن وجد(١)، وكان يحصل على أجره من الملتزم(٢).

ثانيا : الأوضاع الإقتصادية للصعيد قبيل قدوم الحملة الفرنسية :

ساهم الصعيد فى كافة الأنشطة الإقتصادية والمتمثلة فى الزراعة والصناعة والتجارة، وفى مجال الزراعة تميز الصعيد بزراعة المحاصيل العديدة وعلى رأسها الحبوب التى كان يزود القاهرة منها بجزء كبير، وفى مجال الصناعة فإننا نلاحظ قيام عدد كبير من الصناعات فى الصعيد قام أغلبها على المواد الخام المنتجة محلياً. أما فى مجال التجارة، فلقد ساهم الصعيد بدور هام فى تجارة مصر الداخلية والخارجية وهذا ما سنتناوله فيما يلى :

أولاً : الزراعة :

الزراعة هى مصدر ثروة مصر فى كل العصور، وقبيل مجى الحملة الفرنسية كانت الزراعة هى وسيلة الإنتاج الأولى فى البلاد، وكانت الأرض فى ذلك الوقت تعتبر من الناحية القانونية ملكاً للسلطان، ولم يكن أصحاب الحيازة يتمتعون إلا بحق الانتفاع بالأرض نظير ما يؤدونه عنها من ضرائب فماذا عن الضرائب على الأراضى الزراعية فى ذلك الوقت؟

الضرائب على الأراضى الزراعية فى صعيد مصر :

كانت الضرائب المفروضة على الأراضى الزراعية بالوجه القبلى تسدد إما نقداً وإما عيناً "أى من المحصولات الزراعية" وتسدد فى بعض المناطق نقداً فى جزء منها وعيناً فى جزئها الآخر، وتدفع هذه وتلك إلى الملتزمين .

وكانت الأراضى فى ذلك العهد مثقلة بالضرائب والإتاوات وإن كان المقرر أصلاً من الضرائب أربعة أنواع كالتالى :

(١) ابراهيم المويلحى : المرجع السابق، ص ٢٤٠ .

Lancet, Op. Cit. P. 486.

(٢)

١- ضريبة المال الحر وتشمل "الميرى والفائض" :

أما ضريبة الميرى فكانت ثابتة ومقررة بموجب قانون إدارى قديم، ويتحمل الفلاحون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى، لأن عائدها مخصص لخزانة السلطان الخاصة ومن ثم كانت فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان، وأما "الفائض" فكان يمثل الجزء من الضريبة المخصص للملتزم كربح له بشرط أن يسدد الملتزم الميرى أولاً وما يتبقى بعد ذلك من ضريبة المال الحر فهو للملتزم (١) .

ويذكر أحد علماء الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر أن هناك قائمة بالضرائب أضيفت إلى المال الحر، ووصل عدد هذه العادات إلى سبعة عشر عادة، وفرضت كلها على وجه التقريب لصالح فرق الأوجاقات، وهى تبدو كما لو كانت فى الأصل مجرد إتاوات تحولت بمرور الزمن إلى ضرائب قانونية (٢) .

٢- ضريبة الكشوفية :

وهى الضريبة المخصصة لسد نفقات الإدارة المحلية فى الأقاليم، مثل مرتب الكاشف وترميم الجسور، وشق الترع، ومرتبات العسكر المحليين (٣) ويفرض جزء من مال الكشوفية على الملتزم، ويفرض الجزء الآخر وهو الأكثر على الفلاحين (٤) .

٣- ضريبة المضاف :

وواضح من الاسم أن هذه الضريبة أضيفت أو زيدت على الضرائب المشروعة (٥) وهذه الضريبة أصبحت تشكل جزءاً من المال الميرى بل إن جميع الزيادات التى حدثت فى المال الميرى كانت تتم عن طريق فرض مضافات جديدة، وكانت الاضطرابات السياسية، إلى جانب فساد الجهاز الإدارى وراء فرض المضافات، فمرة بحجة إكمال المال المقرر

(١) Lancret. Op. Cit. P. 468, Chabrol. Op. Cit. PP. 244, 245.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه العادات انظر :

Lancret. Op. Cit. PP. 498-501.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ١١٤ .

(٤) لمزيد من التفصيل انظر :

Lancret, Op. Cit. P. 494-496.

Chabrol. Op. Cit. P. 244.

(٥)

للسلطان، ومرة أخرى بحجة إعداد وتجهيز التجاريد التي كانت ترسلها مصر لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها الخارجية ضد أعدائها^(١). وشيئاً فشيئاً أصبحت هذه الضريبة التي فرضت في البداية لظروف استثنائية تفرض بشكل قانوني كل عام، ويذكر أحد علماء الحملة الفرنسية أن هذه الضريبة لم تقرر إلا منذ بداية القرن الثامن عشر تقريباً^(٢).

٤- ضريبة البراني :

والبراني ضريبة مستحدثة أضافها الملتزمون وهي لم تكن في البداية إلا نوعاً من الهدايا التي كان يقدمها الفلاحون إلى الملتزم، لكنها تأكدت بالتدريج حتى أصبحت إجبارية واجبة الأداء بل وزادت حتى أصبحت في بعض الجهات تدر أكبر مما يدره الفايض^(٣)، وفي مناطق أخرى كانت تدر قدراً من المال أكثر من مقدار المالى المنيرى^(٤) ويذكر Lancret "لانكريه" أن هذه الضريبة لم تتقرر بشكل منتظم إلا منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر تقريباً، أى في تلك الفترة التي وصل فيها جشع الملتزمين وبخاصة المماليك منهم مداه^(٥).

وهكذا كان الفلاح يئن من ثقل عبء الضرائب المفروضة عليه وإذا كانت الضرائب السالفة الذكر تشكل الجانب الرسمي من الأعباء المالية التي كان الفلاح مطالباً بدفعها للملتزم، فإن هناك أعباء أخرى غير رسمية. أصبح الفلاح يزرع تحتها وهي ما عرفت بالفرد والكلف والمغارم ورفع المظالم^(٦). وقد ارتبط فرض هذه الضرائب غير الرسمية بالصراعات العسكرية المستمرة التي كانت تتشب بين البيوت المملوكية المتنازعة على السلطة، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث إزداد نفوذ الأمراء وأصبح يفوق نفوذ الباشوات، ولاشك في أن نفقات الحروب أدت إلى تفاقم الضرائب^(٧).

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ص ١٠٨، ١٠٩ .

(٢) Lancret. Op. Cit. P. 469.

(٣) Ibid., P. 469

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ١١٣ .

(٥) Lancret. Op. Cit. PP. 469, 470.

(٦) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ١١٧ .

(٧) س. ف. فولنى : ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام ترجمة إدوار البستاني، الطبعة الثانية - بيروت

وفي أواخر القرن الثامن عشر كانت الأرض تثن تحت وطأة كل أنواع الضرائب التي يمكن أن تتحملها، وأدى تعسف السلطات المحلية في جمع الضرائب إلى قيام الفلاحين والعربان في منطقة طهطا سنة ١٧٧٨م بالتمرد ضد السلطات المحلية ورفضوا دفع الضرائب وألحقوا بالقوات المحلية هزيمة نكراء^(١) ولا شك في أن ثورة الفلاحين في هذه المنطقة تدل على أن الفلاح لم يكن خاضعاً على الدوام لظلم حكامه، بل أنه كان يعوم بين الحين والآخر بثورة ضد الظلم والطغيان وذلك عندما يبلغ صبر الفلاح مداه.

وبعد أن عرضنا لنظام الضرائب على الأراضي الزراعية ولمسنا من خلال العرض مدى المشقة والظلم الواقع على الفلاح نعرض الآن لأهم المحاصيل الزراعية التي كان يقوم الفلاح بزراعتها قبيل مجئ الحملة الفرنسية.

الحاصلات الزراعية في صعيد مصر :

كانت أهم الحاصلات الزراعية في صعيد مصر تتمثل في :

١- القمح :

كان يمثل المحصول الرئيسي في صعيد مصر، وأكثر الأماكن التي تنتشر فيها زراعته ولايات طيبة وجرجا وأسيوط والمنيا، ويزرع في أوائل أكتوبر ويحصد في آخر مارس أو أوائل إبريل، ويتراوح إنتاج الفدان ما بين ستة أو سبعة أرداب^(٢).

٢- الفرة :

وكانت تمثل الغذاء الرئيسي للفلاحين في الصعيد، وكان إنتاج الفدان يتراوح ما بين ستة أو عشرة أرداب، وأغلب الأراضي المزروعة ذرة في الصعيد كانت من النوع المسمى بالذرة الرفيعة، أما الذرة الشامية والتي تزرع في الوجه البحري فلم تكن في الصعيد إلا زراعة مساعدة^(٣).

(١) ج. بير : المرجع السابق، ص ص ٢١٩، ٢٢٠.

Girard, Op. Cit. P. 48 - 53.

(٢)

Ibid. P. 54-59.

(٣)

٣- الشعير :

ويزرع فى كل أنحاء الصعيد وكان إنتاج الفدان يتراوح ما بين خمسة وعشرة أراذب(١) .

٤- العدس :

ويزرع فى المنطقة الممتدة من إدفو إلى الجيزة بما فى ذلك منطقة الفيوم، ويختلف محصول الفدان باختلاف السنين فيكون ما بين ستة أو سبعة أراذب فى بعض السنين ويهبط أحيانا إلى ثلاثة أو أربعة أراذب(٢) .

٥- الحمص :

وتكثر زراعته فى كثير من مناطق الصعيد، ويتراوح إنتاج الفدان ما بين أربعة إلى ثمانية أراذب ويستخدم كغذاء للفلاحين(٣) .

٦- الفول :

ويزرع بوفرة فى ولايات جرجا وأسيوط والمنيا، وينتج الفدان عادة حوال سبعة أراذب فى السنوات الطيبة، ومن إثنين إلى ثلاثة أراذب فى السنوات غير المواتية، وتصدر منه كميات كبيرة إلى بلاد الجزيرة العربية عن طريق القصير(٤) .

٧- البصل :

وتجود زراعته فى الوجه القبلى، وتصدر منه كميات إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق القصير وينتج الفدان من عشرين إلى ثلاثين أراذب(٥) .

Girard. Op.Cit. P. 59-73.

(١)

Ibid. P. 73-75.

(٢)

Ibid. P. 75.

(٣)

صلاح هريدى : المرجع السابق، ص ٢٥٢ .

Girad. Op. Cit. P. 76, 78.

(٤)

Ibid. P. 78-80.

(٥)

٨- البرسيم :

يزرع فى أنحاء الصعيد عدا المنطقة الواقعة جنوب فرشوط، ويستخدم علفاً للحيوانات وكانت مساحة الأراضى المزروعة برسيماً فى الوجه القبلى تبلغ سدس الأراضى فى الوجه القبلى(١) .

٩- السمسم :

ويزرع فى ضواحي قنا، وهو محصول صيفى، ويبلغ متوسط محصول الفدان نحو ستة أراذب من البذور، وتستخدم بذوره فى إنتاج زيت الطعام، وتستخدم سيقانه كوقود(٢) .

١٠- القرطم :

وتنتشر زراعته ابتداءً من "إسنا" حتى القاهرة، والقرطم من المحصولات المربحة، حيث تستخرج من زهوره صبغة صفراء كانت تصدر للخارج(٣) .

١١- الكتان :

وكان يزرع فى بعض مناطق الوجه القبلى وبخاصة فى أسيوط والمنيا والفيوم، ولمحصول الكتان فائدة مزدوجة، فلقد كان جزء كبير من الكتان يستعمل فى صناعة المنسوجات وذلك على يد نساجين من أهل البلاد يوجدون بكثرة فى مدن وقرى مناطق أسيوط والفيوم، هذا إلى جانب أن بذور الكتان تستخدم فى إنتاج زيت يستخدم فى الإضاءة(٤) .

• Abruler

(١) أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥، ص ١٥

(٢) Girard. Op. Cit. PP. 92-93.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ١٨٣ .

(٤) Girard. Op. Cit. P. 104-106.

١٢ - القطن :

ويزرع القطن فى صعيد مصر وخصوصا فى المنطقة المدارية أى فى أقصى الجنوب، وكانت أشجار القطن تمكث فى الأرض لمدة عشر سنوات، وكان إنتاج الفدان يصل أحيانا إلى ثلاثمائة رطل من القطن، وكان الإنتاج يستخدم محليا فى صناعة المنسوجات(١) .

١٣ - قصب السكر :

ونتركز زراعته فى ولاية "جرجا" وخصوصاً فى أراضى "فرشوط وأخميم"، وكان إنتاج الفدان يصل فى العادة إلى عشرين قنطاراً من السكر(٢) .

١٤ - النيلة :

وتزرع بصفة أساسية فى المناطق الجنوبية من الصعيد، وفى كل من "بنى سويف والجيزة"، ويستخرج من أوراق النيلة صبغة زرقاء، كانت تستخدم لصبغة أقمشة الثياب التى ترتديها الطبقات الدنيا، والنيلة من الحاصلات ذات الربح الوفير(٣) .

١٥ - التبغ :

ويزرع بشكل خاص فى كل ولايات مصر العليا، وكان الناتج يستهلك فى داخل البلاد(٤) .

Girard. Op. Cit. P. 98-103. (١)

Ibid. P. 113-115. (٢)

Ibid. PP. 108-113. (٣)

أمين مصطفى عبد الله : تاريخ مصر الإقتصادى والمالى فى العصر الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥١، ص ٤٧ .

Girard. Op. Cit. PP. 115, 116. (٤)

١٦- الأشجار :

أما أهم الأشجار التى كانت تزرع فى الصعيد، فكانت النخيل وتنتشر زراعته فى كافة أنحاء الصعيد^(١)، كما تزرع أشجار الورد فى "الفيوم" بكثرة وذلك بقصد إنتاج الروائح، ويبلغ متوسط إنتاج الفدان ٨ قناطير من الورد^(٢).

الثروة الحيوانية :

كان إهتمام الفلاح فى صعيد مصر منصباً على تربية الحيوانات التى تعينه فى عمله الزراعى أو التى تزوده بقدر من المواد الغذائية كاللبن والزبد والجبن، فعمليات رفع مياه الرى ودرس الحبوب، وبشكل عام كل العمليات الزراعية كانت تتم بواسطة الثيران فى الصعيد، كما تربى الجاموس فى مصر العليا من أجل الألبان التى توفرها^(٣).

أما عن حيوانات النقل فتتمثل فى الجمال والحمير فأما الجمال فنقوم بنقل الحاصلات الزراعية عندما يتعذر نقلها نهراً عن طريق النيل أو الترعى، وكانت تربية الجمال واحدة من الاهتمامات الرئيسية للقبائل العربية فى الصعيد، ويمتلك العرب فى مصر الوسطى من الخيل والجمال أعداد كبيرة^(٤).

وكان المزارعون يستأجرون الجمال من البدو لنقل المحاصيل أما الوسيلة الثانية للنقل فهى الحمير، وكانت الحمير أكثر دواب الحمل استعمالاً فى القرى، وقل أن يوجد فلاح ليس لديه حمار، ومما شجع الفلاح على اقتناء هذا الحيوان، صبره وقناعته فى الأكل ونفعه الكبير له فى عمله^(٥).

Girard. Op. Cit. P. 118-120.

(١)

Ibid. PP. 117-118.

(٢)

Girard, Op. Cit. P. 125-127.

(٣)

Jomard. Observations. Sur Les arabes de L'Egypte moyenne, in Description de L'Egypte, Etat moderne, T.12, Seconde édition. Paris. 1823 P. 270.

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ١٨٩ .

وكانت الماعز تربي في مصر العليا لألبانها ولعمل القرب التي تستخدم في نقل المياه، وكانت كمية كبيرة من الأغنام تربي كذلك في الفيوم^(١).

ثانيا : الصناعة :

كانت الصناعة في ذلك الوقت تعتمد أساساً على المواد الخام التي تنتجها المنطقة التي تقوم فيها تلك الصناعة، ولقد انحصرت الصناعة في أقاليم مصر في ذلك الوقت في الحرف التي تفي بالضرورات الأولى، وفي الأعمال اليدوية التي تتناول بعض المنتجات الزراعية التي تفي بإشباع حاجات الاستهلاك اليومي، والتي تكون موضوع تبادل محدود للغاية، وإن كانت هناك في المدن الكبرى صناعات رئيسية منظمة على مدى واسع بغرض تصديرها إلى الخارج.

أما الصناعات المنتشرة في صعيد مصر في تلك الفترة فكانت كالتالي :

١- صناعة الأواني الفخارية :

انتشرت هذه الصناعة بصفة خاصة في الصعيد، حيث يوجد الطمي الصالح لصناعة الأدوات المنزلية كالبرام والأزيار والقدور والأواني الكبيرة التي تعبأ فيها النيلة والعسل، وكان إنتاج الأصناف الجيدة قاصراً على جنوب الصعيد، حيث تتوفر الأحجار والخامات الصلبة في المحاجر المتاخمة للنيل عند أسوان، كما تركزت صناعة القل في قنا، وكانت أسعارها في أسواق القاهرة مرتفعة^(٢).

٢- صناعة الغزل والنسيج :

وكانت من أهم الصناعات المنتشرة في الصعيد، واشتهرت مدن معينة بإنتاج المنسوجات القطنية مثل إسنا وقوص وقنا وبني سويف، في حين اشتهرت مدينة الفيوم بصناعة المنسوجات الكتانية من الكتان المحلي^(٣).

Girard. Op. Cit. P. 128-130.

(١)

(٢) على الجريتل : تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، دار المعارف،

القاهرة ١٩٥٢، ص ١٧.

(٣) لمزيد من التفصيل : انظر Girard. Op. Cit. P. 207-224، أمين مصطفى عيد الله : المرجع

السابق، ص ٨٤.

٣- صناعة الحصر :

وكانت هذه الصناعة منتشرة في مناطق عديدة من الصعيد، إذ لا غنى لمنزل من منازل الريف عن استعمالها، ولهذا السبب لا توجد قرية واحدة ليس بها نساجون عديدون لصناعة الحصر، وأكثر هذه الحصر خشونة وأكثرها شيوعاً في الصعيد هي التي تصنع من الحلفاء، كما تصنع الحصر في كل مكان من سعف النخيل، ويوجد في الفيوم قرى كانت متخصصة في هذه الصناعة مثل قرية "طمية وقريتى" المعصرة وسنورس، وكانت هذه القرى تنتج الأنواع الجيدة من الحصر والتي يشيع استعمالها في المدن الكبرى(١).

٤- صناعة الطوب :

وكانت منتشرة في جميع أنحاء القطر من الطين المخلوط بالقش والمجفف في الشمس ومن ذلك الطوب كان سكان الريف يبنون مساكنهم(٢).

٥- صناعة الزيوت :

وانتشرت هذه الصناعة في الصعيد حيث تتوفر المواد الخام المحلية مثل بذور الخس والقرطم والكتان والسوسم، وتستعمل مختلف أصناف الزيوت استعمالاً مزدوجاً للطعام والوقود(٣).

١ - صناعة ماء الورد :

وهي من الصناعات الصغرى، وتركزت في مدينة الفيوم، حيث كانت مصانع التقطير تستعمل أزهار الورد التي تنتجها تلك المنطقة(٤).

Girard. Op. Cit. PP. 226., 227.

(١)

أحمد الحقة : المرجع السابق، ص ٢٣ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢٢ .

(٣)

Girard. Op. Cit. P. 229-233.

هاملتون جب وهارولدبون : المرجع السابق، ج٢، ص ١٤٤ .

(٤) أحمد الحقة : المرجع السابق، ص ٢٣ .

٧- صناعة السكر :

تركزت في الوجه القبلى وبخاصة في "فرشوط وأخميم"، وكانت الآلات المستخدمة في هذه الصناعة بدائية تديرها الثيران^(١)، كما كانت صناعة السكر من الصناعات الرئيسية لعرب مصر الوسطى^(٢).

٨- صناعة تفريخ الدجاج :

انتشرت هذه الصناعة في كثير من مدن وقرى الصعيد، حيث كانت معامل الدجاج تقوم بعملية التفريخ، فيورد الفلاحون البيض إليها يأخذون عن كل ١٠٠ بيضة من ٢٥ إلى ٥٠ كتكوتاً، وكانت معامل الدجاج في الغالب ملكاً لحكام الأقاليم من البكوات والكشاف^(٣).

٩- صناعة ملح البارود :

وتبلغ هذه الصناعة درجة كبيرة من الأهمية بسبب استخدام هذا الملح في صناعة بارود البنادق وقامت مصانع نترات البوتاسيوم والبارود في صعيد مصر^(٤)، وأهم هذه المصانع كان يوجد في "الدهاشنة" بالقرب من قنا^(٥).

تلك أهم الصناعات التي كانت موجودة في صعيد مصر قبيل مجئ الحملة الفرنسية. وقبل أن ننهي حديثنا عن الصناعة نود أن نشير إلى أن المشتغلون في الصناعة في ذلك الوقت كانوا ينتظمون في طوائف، وكانت الطائفة تضم أصحاب الحرفة الواحدة، ولكل طائفة شيخ يرعى مصالحها، ويقع على عاتق هذا الشيخ أيضاً مهمة تحصيل الضريبة المفروضة على الطائفة، وفض المنازعات التي قد تنشأ بين أعضائها، وكان منصب شيخ الطائفة وراثياً في بعض الأسر، بحيث يستمر ما دامت الأسرة مشغلة بالصناعة^(٦).

(١) أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ص ٨٥، ٨٦، على الجريتلى : المرجع السابق، ص ٢١ .

Jomard. Op. Cit. P. 280.

(٢)

(٣) أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ص ٢٤، ٢٥ .

La Decade Egyptienne, Tome Ier, Beyrouth, Sans date, P. 19.

(٤)

Girard. Op. Cit. P. 256.

(٥)

(٦) أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ١٨ .

ويمكن القول بأن شيخ الطائفة كان يمثل حلقة الإتصال بين أبناء طائفته وبين السلطة الحاكمة، فكلما أرادت الحكومة النظر فى نظام تلك الطوائف، أو تحصيل ما تفرضه عليها من الضرائب أو القروض الإجبارية خاطبت فى ذلك شيوخ الطوائف الذين يقومون بتوزيع المطلوب على أفراد الطائفة وجمعه وتسليمه للسلطة الحاكمة(١) .

ويمكن القول أن الصناعة المصرية، كانت متدهورة فى أواخر القرن الثامن عشر ويرجع ذلك لأسباب منها اختلال الأمن، وعدم توافر رؤوس الأموال، ومنافسة المنتجات الأوروبية(٢) .

ولعل أهم العوامل التى أثرت فى تأخر الصناعة المصرية فى ذلك الوقت تتمثل فى حالة العزلة التى عاشتها مصر فى العصر العثمانى، وبالتالى عدم تأثرها قليلاً أو كثيراً بالتطورات الإقتصادية الهامة التى مهدت السبيل فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لظهور نظام الصناعة الحديثة فى غرب أوروبا وما صاحب ذلك من تطور كبير فى الأساليب الفنية الصناعية التى لم تكن مصر تعلم عنها شيئاً، وستكون الحملة الفرنسية كما سنرى فيما بعد فرصة للمجتمع المصرى ليتعرف على أحدث ما وصل إليه التقدم الصناعى فى أوروبا .

ثالثاً : التجارة :

أسهم الصعيد بدور هام فى تجارة مصر الداخلية والخارجية نوضحه على النحو التالى :

١- التجارة الداخلية فى الصعيد :

قامت التجارة الداخلية فى الصعيد فى أسواق القرى وأسواق المدن، وكان لاختلاف أحوال الإنتاج الزراعى والصناعى فى بلد عنه فى بلد آخر أثره فى إيجاد نوع من أنواع

(١) لطفى عبد اللطيف أحمد : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٨٠، ص ٦٥ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ص ٨٣، ٨٤، على الجريلى، المرجع السابق، ص ٢٤، أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ص ١٦، ١٧ .

التبادل التجارى والشراء والبيع وقيام الأسواق، وعلى هذا الأساس قامت الأسواق فى القرى، وكانت كل قرية تعقد سوقها فى يوم معين من أيام الأسبوع، فقرية تعقد سوقها يوم السبت، والأخرى يوم الأحد وهكذا، ولم يكن سوق القرية مقتصرأ على سكانها فقط، بل كان يشارك فيه سكان القرى المجاورة الذين يرغبون فى تسويق منتجاتهم وفى كثير من الأحيان كانت مجموعة من القرى تتخذ لها سوقا واحدة تعقد فى إحداها، ويكون مركزأ لتسويق منتجات هذه القرى فى تلك السوق(١) .

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك أسواق سنوية موسمية لعبت العقيدة الدينية فيها دورأ كبيرأ، حيث كانت هذه الأسواق تعقد بالقرب من أضرحة الأولياء والصالحين فى موالدهم، وكان لانعقاد مثل هذه الأسواق على مقربة من مكان له مكانته الدينية أثره على نفوس الأهالى والمشتريين حيث يعتقدون أن مشترياتهم تحفها بركة هذا الولى أو ذاك الصالح تبعا لاعتقادهم فيه، ومن أمثلة هذه الأسواق الدينية فى الصعيد سوق مولد سيدى عبد الرحيم القنائى بقنا وسوق مولد سيدى ابراهيم الشلقامى بقرية شلقام فى البهنساوية الذى يأتى له الناس من كل جهة للزيارة والتجارة فيباع فيه كل شئ مما فى القطر من حيوانات وحرير وغير ذلك(٢) .

أما أهم أسواق الوجه القبلى والتي كانت تقام فى المدن الكبرى فمن أهمها أسواق إسنا وقوص والفيوم حيث كانت مدينة إسنا من المراكز الهامة للتجارة فى الصعيد وكان يقوم بها سوق كل أسبوع، كما كانت إسنا مركزا لتجارة مصر مع القبيلتين العربيتين العبادية والبشارية اللتين تمتلكان الصحراء المتاخمة، وكان هؤلاء العربان يأتون إلى سوق إسنا ليحصلوا على الحبوب وبخاصة الأرز وكذلك الحديد والمعادن الأخرى التى يحتاجون إليها، ويبيع العربان فى مقابل ذلك الجمال والعبيد السود الذين يختطفونهم من القوافل التى تعبر صحراءهم(٣) .

(١) أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ١٢٥، عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٠٢ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٠١ .

(٣) Girard. Op. Cit. P. 261, 264.

أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ٢٦ .

كما كانت مدينة إسنا تستخدم كمستودع لبعض البضائع الواردة من قوافل سنار مثل ريش النعام والعاج والأبنوس كما كان يرسل من إسنا إلى القاهرة عن طريق النيل زيت الخس بكميات كبيرة، وكمية قليلة من زيت القرطم والقمح والحبوب الأخرى وكذلك البلح والفحم والسنامكى والشبة ونظير ذلك كانت ترسل من القاهرة إلى مراكز التجارة فى الوجه القبلى ومنها إسنا السلع المعدنية والمنسوجات وغير ذلك من الواردات الأوروبية^(١). أما مدينة الفيوم فكان يقام فيها سوقا هائلة يأتى إليها العرب الذين استقروا على تخوم هذا الإقليم ليتزودوا بما يحتاجون إليه فى حياتهم، ويبيع هؤلاء الجمال التى يربونها والبلح الذى جمعه من الواحات، أما الفلاحون فيأتون إلى السوق ليس فقط لبيعوا الخضر والفاكهة، بل لبيعوا أيضاً شيلان الصوف التى يصنعونها^(٢).

وكان كل من يبيع سلعة عليه أن يدفع ضريبة تسمى ضريبة السوق، وكانت هذه الضريبة تختلف من سوق إلى آخر، وكان النظام المتبع فى جباية هذه الرسوم المقررة على هذه الأسواق هو نظام الإلتزام، فكان لكل سوق ملتزمها الذى يقوم بتحصيل الضرائب على السلع المباعة بما يحقق له الربح الذى يريده^(٣).

وكان نقل السلع بين الوجه القبلى والقاهرة يتم عن طريق نهر النيل فى أغلب الأحيان وذلك لأنه طريق اقتصادى لحد كبير، إلى جانب أنه أكثر ضماناً وأمناً من الطريق البرى وكانت مصر القديمة لوقوعها على الشاطئ الشرقى للنيل الميناء الرئيسى للوارد والصادر إلى الوجه القبلى، وكانت المراكب النيلية من الوسائل الهامة للتجارة الداخلية، وتعد كل المدن الواقعة على النيل، وكذلك بعض القرى محطات تتوقف فيها القوارب التى تأخذ منها أو تفرغ فيها حمولتها أثناء موسم الفيضان^(٤).

Girard. Op. Cit. P. 262.

(١)

أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ٢٦ :

Girard. Op. Cit. PP. 269, 270.

(٢)

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٠٣ .

Girard. Op. Cit. PP. 267, 268.

(٤)

أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ٢٧ .

وبالرغم من أن التجارة الداخلية والتجارة بين الأقاليم كانتا مزدهرتين لدرجة ما، فقد كانت تعوقهما عدة عوامل حدث من انتشار واتساع دائرة التبادل التجارى ومن هذه العوامل، اختلال الأمن، وضعف القوة الشرائية، واختلال نظام النقد، وعدم ثبات قيمة العملة، هذا إلى جانب كثرة الرسوم التى كانت تفرض على المتاجر كالدخولية والعوائد النهرية، ورسوم دخول المدن والخروج منها^(١) ولاشك فى أن هذه العوامل كانت عائقاً فى سبيل ازدهار التجارة الداخلية لكن ماذا عن دور الصعيد فى التجارة الخارجية؟

٢- دور الصعيد فى التجارة الخارجية لمصر :

ساهم الصعيد فى تجارة مصر الخارجية من خلال موقعه الجغرافى ومنتجاته الزراعية والصناعية، ولعبت مدن الصعيد دوراً فى هذا المجال، فكان لموقع أسيوط وإسنا دور فى مجال التبادل التجارى بين مصر والسودان، حيث كانت إسنا نهاية طريق القوافل القادمة من سنار، كما كانت أسيوط مركزاً هاماً للتجارة لأنها نهاية قافلة دارفور، وبالتالي فإن مصر كانت تحتكر طريق القوافل مع شرق السودان، بالإضافة إلى أنها كانت تحتكر طريق القوافل مع بلاد العرب الواقعة على البحر الأحمر، كما كان لوقوع قوص وقنا عند نهاية الطريق الصحراوى من القصير أثره الكبير فى التبادل التجارى بين مصر وبلاد العرب، ولعب ميناء القصير دوراً فى هذا المجال فلقد كان التبادل التجارى عبر ميناء القصير ومينائى بلاد العرب ينبع وجده مزدهراً إلى حد ما .

ومن هنا يمكن القول بأن الصعيد ساهم بقدر كبير فى تجارة مصر الخارجية، وهذا

ما سنتحدث عنه من خلال نقطتين تتمثلان فيما يلى :

١- التبادل التجارى بين مصر والسودان .

٢- التبادل التجارى بين مصر وبلاد العرب .

(١) لمزيد من التفصيل انظر : أحمد الحتة : المرجع السابق، ص ٢٥، على الجريتلى : المرجع السابق،

ص ١٥، عبد الرحيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٢٠٣، هاملتون جب وهارولدبون، المرجع

السابق، ج٢، ص ١٤٧، صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، ص ١٨٩ .

١- التبادل التجارى بين مصر والسودان :

كان لمنطقتين من مناطق السودان دور رئيسى فى العلاقات التجارية بين مصر والسودان، والمنطقتان هما دارفور التى تقع فى أقصى الغرب للسودان - أى إلى الجنوب من مصر ومملكة سنار فى الشرق - أى تقع فى الجنوب الشرقى من مصر، حيث كانت القافلتان تغدوان وتروحان ما بين دارفور وسنار والقاهرة^(١)، وما يهمنا هنا هو أن نوضح أثر الصعيد على هذه العلاقات ودوره فيها من خلال حديثنا عن هاتين القافلتين .

أولاً : قافلة دارفور :

وكانت هذه القافلة بمثابة القافلة الرئيسية فى مجال التبادل التجارى بين مصر والسودان، وكانت القافلة تسير عبر الصحراء الغربية فى الطريق المعروف بدرب الأربعين، وتستغرق المسافة بين دارفور وأسيوط ما بين أربعين وخمسين يوماً وتتكون القافلة من حوالى خمسة آلاف جمل محملة بالسلع الآتية :

العاج والتمر الهندى، وبعض جلود النمر، والصمغ وسن الفيل، وريش النعام، ولكن تجارتها الرئيسية كانت تتمثل فى العبيد من الجنسين، وكان ما يأتى سنوياً من دارفور إلى مصر يقدر بخمسة إلى ستة آلاف من العبيد أربعة أخماسهم من النساء، تتراوح أعمارهن بين سنة إلى سبعة أعوام حتى ثلاثين أو أربعين عاماً، وإن كانت أعمار غالبية نساء تتراوح بين عشرة وخمسة عشر عاماً وكانت هذه القافلة تتوقف فى الصحراء فى مكان يسمى ببيريس Beyrys وهى قرية هامة تقع على مسيرة اثنى عشر يوماً من مدينة أسيوط، فكانت القافلة تضطر للتوقف هناك انتظاراً للكاشف الذى يرسله البكوات فى القاهرة للتفتيش عليها وكان شيخ ببيريس مسئولاً عن القافلة حتى تحصل على الإذن بمواصلة طريقها نحو مصر كما كانت القافلة تتوقف مرة أخرى على مسيرة ستة أيام من أسيوط عند قرية تسمى الخارجة، وهناك يقوم الكاشف بتقدير الرسوم التى ينبغى على القافلة أن تسدها بينما يقوم قائد القافلة بتقدير نصيب كل تاجر من تجار القافلة من هذه الرسوم، لكن الرسوم لم تكن تسدد إلا على بعد مسيرة نصف فرسخ من أسيوط فى مكان تتوقف فيه القافلة لآخر مرة، حيث تقوم ببيع كمية من بضائعها تكفى للحصول على الرصيد اللازم لسداد هذه الرسوم،

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى : ص ٢٣٣ .

ولم يكن يسمح للقافلة بالتقدم إلى شمال أسيوط إلا بعد أن تكون قد سددت بالفعل الرسوم المطلوبة منها بالكامل وهذه الرسوم كانت كالتالى :

٤ زر محبوب (١) عن كل رأس عبد و٢,٥ زر محبوب عن كل رأس جمل محمل كان أو غير محمل، وكانت هذه الرسوم تدفع للبك، كما كان الكاشف عند الخارجية يحصل كذلك رسماً قدره ٩ مدينى (٢) عن كل عبد و٤ مدينى عن كل جمل (٣) وكانت القافلة تشحن عند وصولها إلى أسيوط بضائعها عن طريق النيل حتى القاهرة، أما الجمال فيباع معظمها فى منطقة أسيوط، ويبقى نحو خمسها فقط لرحلة. التجار فى أثناء رجوعهم إلى دارفور (٤).

وتستريح القافلة أثناء سيرها من أسيوط إلى القاهرة فى بنى عدى ومنفلوط والمناطق المحيطة بهما حيث تباع جزءاً من بضائعها، وعند وصولها إلى مصر القديمة تدفع الرسوم الجمركية التى يقدرها رجال الجمرى ثم يسمح لها بدخول القاهرة حيث تنزل أحمالها فى الوكائل التى تباع فيها السلع السودانية، وتبدأ عمليات تسويق بضائعها وشراء ما تأخذه معها من السلع المتوفرة فى أسواق القاهرة من المصنوعات المصرية والشرقية والأوربية وأهم هذه السلع المنسوجات القطنية والحريرية والشيلان والبن والسكر والأسلحة والمعادن والزجاج الملون من البندقية والمرايا والحلى (٥).

(١) المحبوب (زر محبوب) نقد ذهب تركى ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١٦٩٤-١٧٠٣م) وهو وزن أربعين حبة أى ٢,٦ جرام وحدد الجيرتى سعره عام ١١٤٨هـ-١٧٣٦م بمائتى نصف فضة لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن فهمى : النقود المتداولة أيام الجيرتى : بحث ضمن ندوة عبد الرحمن الجيرتى : دراسات وبحوث، تحت إشراف أحمد عزت عبد الكريم : الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ص ٥٧٤، ٥٧٥ .

(٢) المدينى : قطعة نقد تساوى ٣,٥ Centimes والسنتيم Centime (هو جزء على مائة من الفرنك الفرنسى) انظر :

Correspondance de Napoléons Ier, publiée par ordre de L'Empereur
Napoléon III, Paris 1858-1870, 32, Vols, Tome 5, doc. No. 3509. P. 81.

Girard, Op. Cit. P. 278-286.

(٣)

فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ٧٤ .

عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٤٣ .

(٤) أحمد الحتة : المرجع السابق، ص ٣٦ .

Girard, Op. Cit. P. 287-290.

(٥)

وكانت القافلة تمكث في القاهرة عادة فترة من الزمن تقع بين ٦ أشهر و ٨ أشهر (١)، وبالتالي فإن القافلة التالية القادمة من دارفور كانت تلحق سابقتها قبل مغادرتها القاهرة .

ثانيا : قافلة سنار :

وهي القافلة الثانية التي تأتي من بلاد السودان إلى القطر المصري أكثر من مرة في السنة، ولكنها لم تكن لها نفس الأهمية بالنسبة لقافلة دارفور إذ كانت لا تتكون في العادة إلا من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ جمل (٢) .

ويسلك التجار الذين يكونون هذه القافلة عدة طرق باتباع ومحاذاة شاطئ النيل عند مدينة تسمى أبريم، وابتداء من نقطة التلاقى هذه فإنها تسير خلال الصحراء موازية الشط الأيمن للنيل داخل أراضي عرب البشارية الذين يقطنون ما بين النيل والبحر الأحمر، ولما كانت القافلة تتعرض لعمليات النهب من قبل عربان البشارية لذا فإن رجال القافلة اتخذوا لهم حراسا من عربان العبادسة يسرون أمامهم حتى أبريم ثم يقودونهم حتى قرية دراو (٣) وكانوا يحصلون على أجر مقابل ذلك (٤) .

وكانت المدة التي تستغرقها القافلة في السير من سنار إلى أبريم تستغرق ثمانية عشر يوما، والمدة من أبريم إلى دراو تقدر بحوالي خمسة عشر يوما .

أما عن السلع التي تجلبها معها القافلة فهي كالتالي : عبيد من الذكور والإناث، الصمغ العربي، ريش النعام، سن الفيل، تراب الذهب، الكرابيج، القرب المصنوعة من جلد الثيران والجمال، ويشكل الصمغ العربي المادة الأكثر أهمية في بضائع هذه القافلة (٥) .

(١) أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ١٨٨ .

(٢) نفس المرجع، ص ١٨٩ .

- فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ٧٥ .

(٣) دراو : قرية كبيرة على الضفة الشرقية للنيل وتبعد بمسيرة عشر ساعات إلى الشمال من اسوان

(٤) Girard, Op. Cit. P. 291.

(٥) Ibid. P. 293.

نعود إلى مسيرة القافلة، فعندما تصل إلى دراو تتخذ طريقها بعد أن تترك الصحراء إلى وادى النيل، ثم تسير شمالاً حتى تصل إلى إسنا، وفي إسنا تدفع القافلة إلى الجمرك الذى تحصل الحكومة عوائده ما يلى :

٤ زر محبوب عن كل رأس عبد، و ٢ زر محبوب عن كل جمل فيما عدا الجمال المحملة بريش النعام وسن الفيل إذ تدفع القافلة عن كل واحد من هذه الجمال رسماً غير اعتيادى يبلغ ٥,٥ زر محبوب، وبعد أن تسدد القافلة فى إسنا كل هذه الرسوم المختلفة، تبقى فى هذه المدينة المدة التى تلزمها لكى تبيع جزءاً من جمالها، ثم تبحر عن طريق النيل مع بضائعها فى حراسة رئيسها وعشرين من أهم تجارها الذين يذهبون معه إلى القاهرة، أما بقية التجار والجمالة الآخرون فيقيمون فى دراو أو إسنا فى انتظار عودة رفاقهم، وعند مرور القافلة بمنفلوط فإنهم يسددون عن كل رأس عبد من الجنسين رسم مرور يبلغ ٢٢ مدينى ثم يدفعون فى المنيا رسماً يبلغ ١٢ مدينى، كما يدفعون عند وصولهم إلى بولاق رسماً يبلغ ١٠ مدينى^(١) وهنا يسمح للقافلة بدخول القاهرة، لتقوم بعمليات التسويق والتبادل التجارى داخل أسواقها وبخاصة فى الوكائل المخصصة لبيع السلع السودانية، وكانت تصل إلى القاهرة من سنار عدة قوافل^(٢).

وكانت قافلة سنار تحمل معها الصابون والأقمشة القطنية المصبوغة باللون الأحمر، وحلياً زجاجية واردة من البندقية، والمرايا والملابس المصنوعة من الجوخ والتوابل والعبطور، وأوضح أن معظم السلع التى تحملها قافلة سنار كانت من البضائع التى ترد من الهند ومن أوروبا^(٣) ومن خلال العرض السابق لقوافل دارفور وسنار يتبين لنا أن هذه القوافل كانت تتكلف أعباء مالية باهظة ولاشك فى أن هذه الأعباء المالية كان لها تأثيرها على ارتفاع أسعار السلع المختلفة التى تجلبها القوافل أو التى تحملها معها فى طريق العودة.

Girard. Op. Cit. P. 292.

(١)

- فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ص ٧٦، ٧٧ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٣٦ .

Girard. Op. Cit. P. 294-296.

(٣)

- أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ١٨٩ .

ومما يلفت النظر أن هذه القوافل كانت تقوم ببيع العبيد أو معظمهم في إسنا وأسيوط وبعض بلدان الصعيد بالجملة للتجار الجلابة الذين كان معظمهم من أبناء الصعيد وهكذا وجدت طائفة من التجار من أبناء الصعيد كانوا يجلبون هؤلاء العبيد إلى القاهرة ليبيعونهم بالرأس في السوق المخصصة لذلك والتي عرفت باسم وكالة الجلابة(١) .

هذا إلى جانب عمليات البيع التي كانت تقوم بها القوافل في كثير من مدن وقرى الصعيد وهي في طريقها إلى القاهرة فكانت فرصة للكثير من أبناء الصعيد لشراء المنتجات السودانية، ثم إنها كانت فرصة للأخذ والعطاء والتأثير والتأثر، ولاشك في أن ذلك كان له بصمات واضحة على نواحي الحياة الأخرى الحضارية والاجتماعية في تاريخ العلاقات بين مصر والسودان، ومن هنا يمكن القول أن الصعيد قد قام بدور فعال في تاريخ هذه العلاقات .

٢- التبادل التجاري بين مصر وبلاد العرب :

كانت التجارة بين مصر وبلاد العرب رائجة إلى حد كبير وتتم التجارة بين مصر والجزيرة العربية بحراً بواسطة سفن صغيرة تأتي من مينائي جدة وينبع لترسو في ميناء القصير أو ميناء السويس، أو تتم براً بواسطة قوافل تعبر الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، وما يهمنا هنا هو العلاقة التجارية بين مصر والجزيرة العربية عبر ميناء الصعيد ألا وهو ميناء القصير .

ومعظم سكان المنطقة القريبة من القصير من التجار العرب حيث يتلقى هؤلاء التجار الوافدين في معظمهم من ينبع وجدة من عملائهم في هاتين المدينتين سلع الجزيرة العربية والهند ويمرونها إلى مصر عن طريق قوافل يصحبونها عادة بأنفسهم وبالتالي فإن هؤلاء العرب كانوا يقومون بدور هام في الحركة التجارية بين مصر من جهة وبلاد العرب من جهة أخرى(٢) .

(١) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٤٨-٢٥٠ .

Girard. Op. Cit. P. 318-321.

(٢)

- أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ١٩٢ .

ويكاد يكون بن اليمن هو السلعة الوحيدة التي يتم استيرادها إلى مصر عن طريق ميناء القصير، ويرسل إلى هناك عن طريق ميناء ينبع وجدة، وتتم الرحلة إلى القصير عادة في ثلاثة أيام، ويتراوح عدد السفن القادمة من جدة وينبع والتي ترسو كل شهر بالقصير ما بين ١٠ إلى ٢٠ سفينة بحسب الفصول، وتحمل السفن القادمة من جدة على الدوام كميات أكبر بكثير من تلك التي تحملها السفن القادمة من ينبع(١) .

ويدفع على بن ينبع في القصير عينا رسما قدره ٤,٥ أرطال عن القنطار الواحد ويدفع زيادة على ذلك ٤٧ مدينى نقدا، وبعد أن تسدد هذه الرسوم ينقل البن من القصير إلى قنا على جمال مستأجرة(٢) .

وكانت المسافة بين القصير وقنا تستغرق أربعة أيام وكان يقوم بحراسة القوافل عرب العبادة مقابل مبلغ وقدره ٢٣ بارة عن كل جمل، وتحصل الرسوم الجمركية في قنا وتبلغ ثلاثة قروش ونصف القرش عن القنطار وبعد ذلك يتم نقل البن من قنا إلى القاهرة في سفن عن طريق النيل(٣) .

أما بضائع الهند التي تشكل عادة جزءاً من حمولة سفن ينبع وجدة فتجلب إلى هاتين المدينتين بواسطة قوافل الهنود الذين يأتون إلى مكة للحج، وكذلك بواسطة سفن الهند التي يركبها في بعض الأحيان أبناء هذه البلاد وإن كان يركبها في الغالب انجليز .

وفي القصير تسدد الرسوم عن أقمشة الهند والتوابل والبخور والصمغ، وتبلغ هذه الرسوم ١٠٪ عينا وهذه هي الرسوم الوحيدة التي تتحملها البضائع حتى تصل إلى القاهرة(٤) وفي مقابل البن وعقاقير الجزيرة العربية التي تصل إلى مصر عبر ميناء القصير

(١) Girard. OP. Cit. P. 321.

- هاملتون جب وهارولدبون : المرجع السابق، ج٢، ص ١٥٥، ١٥٦ .

(٢) Girard. Op. Cit. P. 321.

(٣) أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ١٩٢ .

Girard Op Cit PP 322 323 (٤).

بواسطة السفن العربية، تقوم هذه السفن عند عودتها بحمل القمح والدقيق والفول والعدس والسكر والزبدة وزيت الخس وزهور القرطم ونسيج الكتان^(١) ويرسل جزء من هذه السلع إلى ينبع وجدة مباشرة أو بواسطة سماسرة مستقرين في القصير أو قنا، ويعهد بهذه السلع إلى قباطنة السفن التي تنقلها فوق ظهرانيها أو يحملها معهم كأمثلة سفر عدد من المسافرين جميعهم من سكان الصعيد وأواسط أفريقيا الذاهيين لأداء فريضة الحج إلى مكة، وتشكل الزبد Le beurre موضوعاً هاماً لحد ما في تجارة الصادرات وتجلب هذه من قرى مصر العليا الواقعة بين المنيا وإسنا، وتنقل في قرب من جلد الجاموس وتباع بسعر ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ مدينى للقنطار، كما يباع في أسواق قنا وقوص وأبنود الحبوب المخصصة للتصدير إلى الجزيرة العربية، ومن الملاحظ أن ما يصدر عن طريق مصر إلى الجزيرة العربية يتمثل في المنتجات الزراعية المصرية، وكذلك الأقمشة وبعض المنتجات الأخرى من صناعات مصر^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن ما تصدره مصر سنوياً إلى بلاد العرب عن طريق ميناء القصير^(٣) والسويس إلى مينائى جدة وينبع يقدر ب ٤٠ إلى ٥٠ ألف أردب من القمح والفول والعدس.

وواضح من قائمة الصادرات السابقة إلى بلاد العرب أن أغلبها كان من منتجات الصعيد، كما كانت منتجات الصعيد ضمن صادرات مصر الخارجية لدول أخرى، حيث كان موقع مصر الجغرافى لا يزال يضيف عليها مزايا طبيعية ضخمة بصفتها مخازن للتجارة بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وفى نفس الوقت فإن الصعيد كان يستفيد من إيرادات مصر من تلك الدول، وعلى كل فلقد قام الصعيد بدور هام فى مجال التجارة الداخلية والخارجية.

(١) أحمد الحنة : المرجع السابق، ص ٣٥، أمين مصطفى عبد الله : المرجع السابق، ص ١٩٢ .

Girard. Op. Cit. P. 334-337.

(٢)

(٣) تجدر الإشارة إلى أن إيرادات جمرك القصير كانت متروكة لبكوات مصر العليا، وقدرت عوائد جمرك القصير فى أواخر القرن الثامن عشر بما يساوى ١١٠,٦٣٥ بوظقة حسب تقديرات علماء الحملة الفرنسية وقد كانت رسوم القصير تحصل لصالح كاشف قنا انظر :

Girard. Op. Cit. P. 379, 395.

٣- الأوضاع الاجتماعية للمسيحيين قبيل الحملة الفرنسية :

سوف نتناول في دراستنا للأوضاع الاجتماعية للمسيحيين قبيل الحملة الفرنسية عدداً

من النقاط تشمل الآتى :

- ١- الحياة الدينية.
- ٢- الحياة العلمية والثقافية.
- ٣- العادات والتقاليد.
- ٤- الأمراض والأوبئة والمجاعات.

وسوف نعرض لهذه النقاط بشئ من التفصيل كالتالى :

أولاً : الحياة الدينية :

تعددت مظاهر الحياة الدينية فى صعيد مصر، ومن بين السمات التى ميزت الحياة الدينية فى ذلك الوقت انتشار التصوف بصورة واسعة، وبلغ عدد الطرق الصوفية فى مصر العثمانية نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة فى القرى والأقاليم، واستبد نفوذها بهوى الأكلوف من الأتباع والمريدين، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة^(١)، وكان لكل طريقة شعارها وأورادها الخاصة بها، وكان أتباع كل طريقة يحرصون على ترديد الأوراد الخاصة بهم، ويتلون جماعاً فى الأوقات التى حددها شيخ الطريقة^(٢).

وكون أرباب الصوفية جماعات قائمة بذاتها ولها قوانين ترسم الحدود فى حياة أفرادها، وتحدد عقوبة المذنب منهم ولا دخل للحكومة بها^(٣).

ويمكن القول أن سوء الأحوال الاقتصادية كانت من أهم أسباب انتشار الطرق الصوفية وتغلغلها فى داخل المجتمع المصرى وبين كل فئات المجتمع.

(١) توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، عدد رقم ٢١،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص ٩٠ .

(٢) نفس المرجع، ص ٧٩ وما بعدها.

(٣) حسن عثمان : المرجع السابق، ص ٢٧٧ .

لذلك نجد بعض الناس يقبلون على دخول الطريق مدفوعين بما سيصيبوه فى رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال، كما كان من العوامل التى أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأى القائل بأن الولى يسقط عنه كل ما أمر به ويحل له أن يفعل كل ما نهى عن فعله، وكان طبيعياً أن يشيع هذا الرأى بين ناس قد انحلت أخلاقهم فى عصر شابه الذل وساده الفقر، ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس، فنزع بعض الناس إلى الهرب من ضغط التقاليد، وتضييق الرأى العام على حرية الناس بالتمسك الحرية فى رحاب التصوف، وادعاء الولاية التى ترفعهم عن سائر البشر وتجعلهم كذلك فوق قواعد الدين وأوضاع العرف ومقتضيات التقاليد(١).

كما كان من عوامل انتشار التصوف والطرق الصوفية الرغبة فى الانضواء ضمن جماعة بغرض الحماية التى لا يوفرها جهاز الحكومة بشكل كبير(٢).

ومن الجدير بالذكر أن جميع أفراد الطرق الصوفية لم يكونوا مخلصين فى الزهد والنقشف، بل على العكس خرج البعض منهم على قواعد الدين، وتمتعوا بنعيم عز على أغنياء ذلك العصر وقاموا بأنواع من الشعوذة والدجل والتهتك(٣) ولقد انتشرت الطرق الصوفية فى الريف انتشاراً واسعاً وساعد على ذلك ارتباط هذه الطرق بأسماء بعض الأولياء الذين يعتقدون فيهم وفى صلاحهم مثل الطريقة الأحمدية نسبة إلى السيد أحمد البدوى، والطريقة الرفاعية نسبة إلى أبى العباس المعروف بالرفاعى(٤).

وبما أن الفلاح كان يعيش فى حالة سيئة وكان يعانى من آلام الفقر والفاقة، كل هذا دفعه لأن يجد له متنفساً من هذه الأعباء الملقاة على عاتقه، ووجدها فى تقربه إلى الله والانخراط فى سلك الطرق الصوفية، ولكن يبدو أن الفلاح كان سيئ الحظ فى كل شئ فى ذلك العصر المظلم، لأن مشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم قد فرضوا لأنفسهم على الفلاحين

(١) لمزيد من التفصيل انظر : توفيق الطويل : المرجع السابق، ص ١٥٠ - ١٥٧ .

(٢) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ١٥٤ .

(٣) حسن عثمان : المرجع السابق، ص ٢٧٦ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ص ٢١٨ .

المنتمين إلى طرقهم عادات وإتاوات يأخذونها منهم حين يحلون عليهم، وكان الفلاحون يضطرون إلى إقامة الحفلات والولائم لمشايخ هذه الطرق، ويقدمون الهدايا لهم من سمن وزبد وجبن واغنام، فيجمع هؤلاء مقادير كبيرة من هذه الأشياء^(١)، وما كان ذلك إلا على حساب الفقراء من الفلاحين الذين ازدادت متاعبهم المادية بانضمامهم إلى الطرق الصوفية.

ولقد تأثرت الحياة الدينية بشكل واضح بظهور الدجل والشعوذة والسحر والخرافات، في وقت صار الناس لا يفرقون فيه بين الشعوذة والدين والعلم، ومن أهم الأسباب التي ساعدت على ذلك التخلف والجهل الذي خيم آنذاك على الناس ولقد استغل كثير من الدجالين والمشعوذين تلك الأوضاع لصالحهم، بعد أن أضفوا عليها صبغة دينية، واتخذوا منها وسيلة للتحايل على عقول الفلاحين، حتى أصبح الاعتقاد في الأحجية والتمايم والإيمان بالكرامات وغير ذلك من البدع مظهراً من مظاهر الحياة الدينية في الريف^(٢).

ولقد ذكرت المصادر المعاصرة الكثير عن هؤلاء الدجالين وأدعياء الولاية وكان أحدهم من الفيوم، وحضر إلى القاهرة لنشر أباطيله بين الناس والتف حوله جمع هائل من النساء والرجال، ونشأ عن اختلاطهم مفاصد عظيمة "فقامت عليه العسكر وقتلوه"^(٣).

ولقد تأثرت الحياة الدينية في صعيد مصر بهذا الدجل وهذه الشعوذة التي اتخذت صبغة دينية سيطرت على عقول فلاحى الصعيد، وكانت هذه آفة من آفات المجتمع الريفي في ذلك العهد كما تميزت الحياة الدينية في صعيد مصر بانتشار كثير من البدع مثل النذور والموالد، حيث انتشرت أضرحة الأولياء في قرى ومدن الصعيد، ولاتخلو قرية من ضريح لولى يزوره الأهالى، ولا سيما النساء في يوم خاص من الأسبوع، واعتقد الناس في أصحاب

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢١٤ .

(٣) أحمد شلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات : تقديم وتحقيف وضبط وتصحيح عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٠٤، عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ص ٥٠ .

هذه الأضرحة وظنوا أنهم سيشفونهم من الأمراض، وأنهم سينزلون عليهم البركات واعتقدوا أنهم سيشفعون لهم عند الله لهذا كانوا يقدمون لهم النذور بين الحين والآخر (١).

وعادة ما كان الضريح يقام خارج القرية، والرجل الذى يعنى بالضريح تكفله الجماعة أو يعيش من دخل الأوقاف الكثيرة التى كان يقوم أصحاب الاعتقاد فى أصحاب هذه الأضرحة بوقفها عليهم، فلقد قام الشيخ همام بإصلاح مسجد سيدى عبد الرحيم القنائى أشهر أولياء الصعيد، وجدد همام المسجد والمقام، وأنشأ خلفه مخزناً ودورة مياه وأوقف عليه أوقافاً كثيرة (٢).

كما نجد فى سجلات المحاكم الشرعية الكثير من الوثائق المتعلقة بالوقف على الأضرحة الأخرى مثل ضريح "سيدى جلال الدين" (٣) وضريح "الشيخ إبراهيم الشهير بالحاوى" كما كانت وظيفة النظر والتحدث على المساجد والأضرحة تنتقل من الأبناء إلى الأبناء كما تذكر المصادر المعاصرة (٤).

وهكذا أصبحت النذور تشكل جزءاً من المعتقد الدينى لدى الغالبية من أهل القرى والمدن، بل وأصبحت تمثل ظاهرة بارزة من ظواهر الحياة الدينية فى المجتمع المصرى.

كذلك تميزت الحياة الدينية بالاحتفال بموالد بعض الأولياء الصالحين، ومن الموالد التى كانت تشهد جمهوراً كبيراً من الزوار والمريدين، مولد سيدى عبد الرحيم القنائى (٥).

(١) إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر : ترجمة عدلى طاهر نور، مطبعة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٥٠، ص ١٦٨، ١٦٩ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧، ص ١١٥ .

(٣) سجلات محكمة منفلوط الشرعية، سجل رقم ١، فترته التاريخية من ٢٧ جماد أول ١٢١٥هـ إلى ١٢ شوال ١٢١٦هـ، وثيقة رقم ١٦٣، ص ١٣١ .

(٤) سجلات محكمة منفلوط، سجل رقم ١، وثيقة رقم ٣٢، ص ٢٥، ٢٦ .

(٥) جلال يحيى : المجلد فى تاريخ مصر الحديثة، الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ٨٠ .

ومولد الشيخ يوسف أبى الحجاج بالأقصر ومولد الشيخ مبارك فى أسىوط^(١)، ومولد سىدى جلال الدين بمنفلوط^(٢) وهناك كثر من الموالد الأخرى لا حصر لها والتى كانت تقام فى أغلب القرى والمدن التى كانت تنتشر فىها الأضرحة الخاصة بالمشايخ والأولياء المعتقد فى كراماتهم من قبل الأهالى فى ذلك العصر الذى أمن فيه الناس إيماناً تاماً ببركة الأولياء والمشايخ، وإحساسهم بالظلم الإجتماعى والغبن والحرمان كانوا يتضرعون إلى الله بالشكوى بجوار هذه الأضرحة أملين فى أن يتقبل الله دعاءهم ببركة هؤلاء المشايخ والأولياء وجدير بالذكر أن الأقباط كانوا يحتفلون بموالد القديسين الأقباط مثل "ستى" دميانة، القديس باكوم، ومارى جرجس^(٣) وغيرهم.

أما الأعياد الدينية فقد تركزت حول الإحتفال بطول شهر رمضان ثم الإحتفال بعيد الفطر فى نهاية شهر رمضان، ثم الإحتفال بعيد الأضحى، وعلى مدار السنة الهجرية كانت هناك مواسم ومناسبات دينية ومن هذه المناسبات نذكر الإحتفال بليلة عاشوراء (العاشر من المحرم) والإحتفال بذكرى المولد النبوى، والإحتفال بليلة النصف من شعبان كما كان المسلمون يحتفلون برأس السنة الهجرية ويحتفلون به فى غرة المحرم من كل عام^(٤).

كما كان للأقباط أعيادهم التى يحتفلون بها، وبلغت هذه الأعياد أربعة عشر عيداً منها سبعة أعياد كبار وسبعة أعياد صغار، وأول الأعياد الكبار هو عيد البشارة فى التاسع والعشرين من برمهات فى ذكرى البشارة التى ساقها غبريال (جبريل عليه السلام) إلى مريم العذراء بمولد المسيح عليه السلام، والعيد الثانى هو عيد الزيتونة فى ذكرى دخول المسيح إلى القدس ثم دخوله الهيكل، والعيد الثالث هو عيد الفصح الذى يفطرون فيه ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره - حسب اعتقادهم - واجتماعه مع حواربييه وتناول الطعام معهم، والعيد الرابع يسمى عيد خميس الأربعين، والعيد الخامس هو عيد الخميس، والعيد

(١) عىروط اليسوعى : الفلاحون : نقله إلى العربية محمد غلاب القاهرة ١٩٤٣، ص ١٣٥ .

(٢) سجلات محكمة منفلوط : سجل رقم ١، وثيقة رقم ١٦٣، ص ١٢١ .

(٣) عىروط اليسوعى : المرجع السابق، ص ١٣٥ .

(٤) لمزيد من التفصيل انظر : لىلى عبد اللطيف أحمد : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى : الطبعة

الأولى، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٩١ وما بعدها .

السادس هو عيد الميلاد والذي يحل في التاسع والعشرين من كيهك، أما العيد السابع فهو عيد الغطاس^(١).

أما الأعياد الصغار فكانت سبعة أيضا وهي عيد الختان، وعيد الأربعين، وعيد خميس العهد، وعيد سبت النور، وخامس هذه الأعياد هو "حد الحدود" والعيد السادس هو "عيد التجلى"، أما سابع الأعياد الصغار فهو "عيد الصليب"^(٢).

كما كانت للطوائف اليهودية في مصر عدة أعياد يتصل بعضها بشريعتهم ويتعلق البعض الآخر بتاريخهم وتراثهم، وكانت الأعياد اليهودية الشرعية خمسة أعياد أولها "عيد رأس السنة" وثانيها "عيد صوماريا أو الكبور" وثالثها عيد المظلة، ورابعها هو عيد الفطير الذي سمي أيضا بعيد الفصح، وخامس أعياد اليهود هو عيد "الأسابيع" أو عيد "العنصرة" أما أشهر الأعياد التي استحدثها اليهود من واقع تاريخهم فهي عيد الفوز "اليوريم" وعيد "الحنكة" أو "الحانوكه"^(٣).

٢- الحياة العلمية والثقافية :

نود أن نشير في بداية حديثنا عن الحياة العلمية أن فلسفة العثمانيين في حكم الولايات التابعة لهم - ومنها مصر - كانت تقوم على عدم التدخل في شئون خدمات المرافق مثل الصحة والتعليم والمواصلات، وكانت تتركها للمجهورات الفردية والمؤسسات الأهلية، ومن ثم كانت الدولة تتخفف بقدر ما تستطيع من أعباء الحكم المباشر، وكانت تترك الرعاية يديرون شئونهم بأنفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها، فإذا احتاجوا إلى شيء من تعليم التمسوه عند بعض من يحسنونه^(٤) وهكذا لم تتدخل الدولة لرسم سياسة تعليمية من شأنها أن

(١) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى "دراسة وثائقية" الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٩ ص ص ١٢٠، ١٢١ .

(٢) نفس المرجع، ص ص ١٢١، ١٢٢ .

(٣) قاسم عبد قاسم : دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي عصر سلاطين المماليك، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٨٣، ص ١٠٢-١٠٤ .

(٤) أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية، القاهرة، دون تاريخ، ص ٥٧٢ .

تحدث نهضة فكرية تكون سبيلاً إلى تقدم المجتمع ورفاهيته، وهكذا أصبحت مهمة استمرار الحياة العلمية في البلاد تقع على عاتق المصريين دون تدخل من الدولة وانتشرت الكتاتيب في ذلك العصر في قرى ومدن الصعيد، وكان الكتاب يقوم مقام مدارس المرحلة الأولى في وقتنا الحالي، حيث يبدأ الطفل مرحلة التعليم الأولى، ولقد اقتصرَت مهمة الكتاتيب على تعليم الأطفال القرآن الكريم وتلقينهم مبادئ القراءة والكتابة^(١)، وبالتالي كانت الكتاتيب بمثابة الينبوع الأول الذي يطلبه الناس لتعليم أبنائهم، واعداد النابهين من الطلاب لدخول المدارس ثم الأزهر، وكان يقوم على شأنها فقهاء أنفقوا بالأزهر شطراً من حياتهم، أو تلقوا العلم على متخرج فيه^(٢)، وكانت للأقباط بعض الكتاتيب الخاصة بهم في بعض القرى لأن الكتاتيب الخاصة بأبناء المسلمين كان اهتمامها الأول بالقرآن وبعض الموضوعات الدينية، لذلك لم يكن أمام أبناء الأقباط سوى الذهاب إلى كتاتيب خاصة بهم، وكانت هذه الكتاتيب توجد في داخل الكنائس الموجودة بالقرى والمدن التي يوجد بها أقباط^(٣).

وطبيعى أن العلوم الأولية التي كان الطفل المسيحي يتلقاها في المكاتب كانت تشمل مبادئ الديانة المسيحية، وبعض القصص الدينية فضلاً عن مبادئ اللغة العربية، وبعض العلوم التي برع فيها النصارى واكتسبت مكاتبهم شهرة بسببها مثل الحساب^(٤)، أما التعليم عند اليهود فلم يكن له نظام ثابت، وكان التعليم يبدأ لديهم بشكل عام بتعليم أطفالهم في المنازل تعليمًا خاصًا أو في مدرسة أعدت لغرض التعليم الأولى^(٥) ويمكن القول بأن التعليم عند أهل الذمة (يهوداً أو نصارى) كان يتميز بطابعه الدينى فى الغالب، وهو الطابع الذى غلب على تعليم المسلمين آنذاك أيضاً بحكم المفاهيم الدينية التى كانت تحكم ذلك العصر.

كما كانت المدارس تعتبر من أهم المراكز الثقافية والعلمية في صعيد مصر، وكانت هذه المدارس تقوم في رحاب المساجد الكبرى أو تلحق بها، وكانت الدراسة تسير فيها على نمط الدراسة في الأزهر، وإن كانت أدنى في مستواها العلمى من مستوى الدراسة في

(١) حسن عثمان : المرجع السابق، ص ٢٧٥ .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٣٣ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٣١ .

(٤) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، ص ١٤٢ .

(٥) نفس المرجع، ص ١٤٢ .

الأزهر، وقد أسس الأثرياء هذه المدارس، وأوقفوا عليها الأوقاف زلفى إلى الله، وكان يجلس للتدريس فيها شيوخ ممن درسوا فى الأزهر، ثم عادوا إلى بلادهم يشتغلون بالتدريس فى هذه المدارس على مقربة من ذويهم ويباشرون مصالحهم العائلية، وكان من أبرز مدارس الوجه القبلى مدارس قوص وقنا وطهطا وكان الطلاب النابهون فى هذه المدارس يلتحقون بالأزهر (١) .

ويبدو أن كل مدينة من مدن الصعيد كان بها مدرسة واحدة على الأقل حيث قامت مدارس أخرى فى كل من الفيوم وأسيوط وقفط وأبريم (٢)، ولاشك فى أن هذه المدارس كانت فرصة لأولئك الذين لم تمكنهم ظروف الحياة من النزوح إلى القاهرة طلباً للعلم .

: ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من كبار العلماء بالأزهر كانوا يزورون الصعيد ويلتقون بعلمائه وطلابه ومن هؤلاء العلماء الشيخ مرتضى الزبيدى (٣) الذى سافر إلى الصعيد ثلاث مرات، واجتمع بأكابرة وأعيانه وعلمائه، وأكرمه شيخ العرب همام، وإسماعيل أبو عبد الله، وأبو على، وأولاد نصير وأولاد وافى، وهاديوه وبروه (٤) .

(١) عبد العزيز محمد الشناوى : دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس-أبريل ١٩٦٩، دار الكتب، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٠، ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ١٥٤ .

(٢) صلاح أحمد هريدى : التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ٣٩ .

(٣) عن ترجمته انظر : عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ص ١٠٣-١١٤ .

(٤) نفس المصدر، ص ١٠٤ .

كما زار الصعيد الإمام الفاضل المحدث الفقيه البارع السيد محمد بن أحمد بن محمد أفضل صفى الدين أبو الفضل الحسينى الشهير بالبخارى، ومكث فى نواحي جرجا مدة وقرأ عليه هناك بعض الأفراد فى أشياء ثم رجع إلى مصر، ويذكر الجبرتى عنه "أنه كان انسانا حسنا مجموع الفضائل، رأسا فى فن الحديث يعرف فيه معرفة جيدة (١) .

ويمكن القول أن زيارة هؤلاء العلماء الكبار للصعيد تركت أثرا ثقافيا فى عقول الطلاب والمدرسين بالمدارس الموجودة بالصعيد، حيث يقوم هؤلاء العلماء بإلقاء المحاضرات فى هذه المدارس ويقومون بالرد على أسئلة الطلاب وصغار العلماء، ولاشك فى أن هذه اللقاءات كانت تثير همم الطلاب على التفكير فى مواصلة دراساتهم العليا بالأزهر الذى كان يمثل المرحلة الخاصة بالتعليم العالى .

وكان بالأزهر أروقة لمختلف أجناس الطلاب وكان لطلبة الصعيد رواق خاص بهم، وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب^(٢)، ويتعلم الطلبة من الدروس التى يلقونها المدرسون، ومن محتويات الكتب الموجودة بالأروقة، ومن بين طلبة الصعيد بالأزهر الذين وصلوا إلى مصاف كبار العلماء، وشاركوا فى الحياة العلمية بالأزهر والمدارس المنتشرة بالقاهرة نذكر على سبيل المثال العالم الكبير الشيخ على الصعيدى الذى ذكر عنه الجبرتى أنه "كافح حتى وصل إلى درجة عالية من العلم، وله مؤلفات دالة على فضله، وقبل ظهور الشيخ على الصعيدى لم تكن المالكية تعرف الحواشى على شروح كتبهم الفقهية، فهو أول من خدم تلك الكتب بها"^(٣) وبذلك يعتبر الشيخ على الصعيدى من العلماء الذين تركوا أثرا فى تخصصهم وبصمة واضحة فى مجاله العلمى .

ومما يدل على مكانته أن على بك الكبير زعيم المماليك وشيخ البلد والرجل الأول فى مصر كان لا يدخل فى حضرة الشيخ على الصعيدى وكان يلبى له طلباته، وكان محمد بك أبو الذهب لا يرد شفاعته فى شئ أبداً ومن علماء الصعيد الذين سلكوا طريق الأدب

(١) لمزيد من التفصيل عن ترجمته انظر : الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٦٥٢، ٦٥٣ .

(٢) نفس المصدر، ص ٤٩٢ .

(٣) لمزيد من التفصيل عن ترجمته انظر : الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٤٧٦-٤٧٩ .

السيد العالم الأديب الماهر الناظم الناثر محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى وذكر الجبترى عنه "وله شعر عذب يغوص فيه غلى غرائب المعانى، وربما يبتكر مالم يسبق إليه" (١) .

وهناك من علماء الصعيد من وصل إلى درجة عالية من العلم أهله لأن يكون شيخاً للأزهر وهو الامام العالم أوجد وقته فى الفنون العقلية والنقلية شيخ أهل الإسلام الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن أبى حامد العدوى المالكى الأزهرى الخلووى الشهير بالدردير" (٢) .

وهكذا استطاع أبناء الصعيد أن يساهموا فى الحياة العلمية فى تلك الفترة، ولكن يجب أن نشير فى نهاية حديثنا عن الحياة العلمية أن مستوى الحياة العلمية فى مصر عموماً كان أميل إلى الهبوط والتأخر بصفة عامة، ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية التركيز بصفة مطلقة على علوم الدين دون علوم الدنيا، تلك العلوم التى تفيد صاحبها فى زراعة أو صناعة أو تجارة وستظل معاهد العلم فى مصر قاصرة على تعليم الدين، دون أن تدرى شيئاً عن التقدم العلمى المبني على المشاهدة والتجربة وتطبيق العلوم الطبيعية فى الزراعة والصناعة، وسيندهش عامة المصريين بل وأعظم علماء الأزهر عندما يشاهدون التجارب العلمية التى كان يقوم بها علماء الحملة الفرنسية .

أما عن الثقافة التى كانت سائدة فى زيف الصعيد فتمثلت فى الفن الشعبى الذى حرص الأهالى على سماعه من شاعر الربابة الذى كان دائماً يتغنى بأمجاد الماضى مثل عنتر بن شداد، وسيف بن ذى يزن، وأبى زيد الهلالى وغيرهم، وكان هناك المنشد المتخصص فى هذا النوع من الانشاد، وكان الفلاحون يرون الكثير من المثل التى يراد تطبيقها فى حياتهم التى يعيشونها، وعلى هذا فقد تفنن شاعر الربابة فى إنشاد المواويل التى تطابق حال الفلاح وبؤسه، وكان الفلاح يطلب دائماً من الشاعر أن يذكر له موالاً يتناسب

(١) عن ترجمته انظر الجبترى : المصدر السابق، ج١، ص ٣٣٢ .

(٢) عن ترجمته انظر الجبترى : المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢-٣٥ .

مع ما وقع عليه من ظلم وغبن، وكان دائماً يحفظها وينشدها فى عمله وفى أوقات حزنه(١) .

٣- العادات والتقاليد :

تنتقل العادات والتقاليد من جيل إلى جيل ويتوارثها الأبناء عن الأباء، لذلك سوف نظل للعادات والتقاليد سيادة تشبه سيادة القانون، وسوف نتحدث عن العادات الخاصة بالأفراح والمآتم وعادة الثأر .

أما عن الأفراح، فمن المعروف أن المجتمع المصرى يتميز بكثرة احتفالاته وأفراحه، وأول الأفراح الأسرية فى صعيد مصر هى الاحتفال بالزواج، وكانت عملية الزواج فى الريف فى ذلك الوقت تمر بمراحل متعددة، وتتبع كل مرحلة مراسيم معينة فالمرحلة الأولى هى عملية اختيار العروس حيث يشترك العريس وأهله فى هذه العملية، إن لم ينفرد الأهل دون العريس بهذه العملية، وكان العريس يرضخ لاختيار الأسرة بل يمكن القول أن الأبناء كانوا يقررون اختيار الأباء فى معظم الأحيان، حيث أن وسائل الاختلاط بين الجنسين لم تكن متوفرة فى ذلك الوقت، وبالتالي لم يستطع الأبناء إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة(٢)، وكان اختيار الأسرة يتم فى معظم الأحوال من بين العائلة أو من بين العائلات المتقاربة فى العزوة على حد تعبيرهم(٣) .

وكان سن الزواج يتراوح دائماً ما بين ١٦، ١٨ سنة بالنسبة للولد، والبنات ما بين ١٢، ١٤ سنة(٤) .

أما الصداق أو المهور فكانت تختلف من طبقة لأخرى حسب المستوى الإقتصادى والوضع الاجتماعى لكل طائفة، وبعد أن تتم عملية اختيار العروس، وتتفق عائلتا العريس والعروس على المهر وخلافه، كانت هناك بعض العادات المتبعة فى قرى الصعيد، فقد كان

(١) صلاح أحمد هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية، ص ٣٧٥ .

(٢) Chabrol. Op. Cit. P. 83.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . المرجع السابق، ص ٢٤٢ .

(٤) صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، ص ٣٨١ .

من الشائع فى بعض القرى فى الصعيد أن العريس بعد عقد القران يذهب بمصاحبة بعض أفراد أسرته وأصدقائه إلى بيت والد العروس، وبعد أن يستقر بهم المقام كان يؤتى له بأوعية مملوءة بالحمص المقلّى والتمر وخلافه، ويوزع على الحاضرين فيأكلون وينصرفون، ويكون هذا اللقاء بمثابة فتح الباب للعريس للتردد على منزل أسهارة، وحين يحل يوم الزفاف، تقام الأفراح وفى العصر يحضر الحلاق فيحلق للعريس بعض رأسه، ويترك قطعاً متفرقة يسمونها "الجزائر"، يرفض أن يحلقها إلا إذا أخذ من الحاضرين شيئاً من النقود يسمى النقطة، ثم بعد صلاة العشاء فى المسجد يزف العريس بالدف والكؤوس وأمامه الموالية يرددون الموشجات والأوراد إلى أن يدخل بيت الزوجية، فإذا وصلت العروس إلى بيت العريس يغمسون قدمها اليمنى ويدها اليمنى فى اللبن تفاؤلاً باليمن والبركة وأن يكون مقدمها منزل الزوجية مقروناً بالخير، وفى الصباح يذهب أصدقاء العريس ويلزموه بما يريدون من مأكّل ومشرب ويقدمون له النقوط، وكان من المعتاد ألا يخرج العريس من منزله إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام وكان عليه بعد هذه المدة أن يذهب إلى سوق القرية ليأتى لعروسه بجزء من خيرات السوق^(١).

وهناك عادات خاصة بالعربان فى صعيد مصر، ومن هذه العادات التى تتعلق بالزواج، نلاحظ أن عربان مصر الوسطى لا يتصاهرون إلا فيما بينهم، كى يحتفظوا بدمهم نقياً خلق خصيصاً لحكم مصر كما يتصورون^(٢)، ولعرب الهوارة بالصعيد عادات وتقاليد خاصة بهم مثل امتناعهم عن مصاهرة غيرهم بالنسبة لبناتهم فقط، فهم يفضلون للفتاة أن تظل عانساً (إذا لم تتزوج هواريّاً مثلها)^(٣) ولا تتزوج رجلاً من أسرة أخرى.

وفى أفراح البدو كانت العروس تركب جملًا وتصحبها الماشية والاثاثات وكل الأشياء التى أهديت لها كمهر، وتخرج فى موكب بطئ حيث يطلق البدو الأعيرة النارية من بنادقهم ويعزفون الموسيقى وتغنى نساؤهم غناء بهيجاً^(٤) ولم تكن الاحتفالات الأسرية

(١) اداررد وليم لين : المصدر السابق، ص ١١٣، ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ص ١٣٨،

١٣٩ .

Jomard. Op. Cit. P. 304.

(٢)

(٣) ليلى عبد اللطيف : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، ص ٣٨ .

(٤) ليلى عبد اللطيف : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، ص ١٣٧ .

والأفراح التي تعم الأسرة قاصرة على الاحتفال بالزواج فقط، بل كانت هناك مناسبات سعيدة أخرى تحيط الأسرة بجو من الفرح والسرور ومن هذه الاحتفالات الاحتفال بختان الأطفال، فلقد كان هذا اليوم بمثابة عيد عائلي^(١) Un fete de famille ومن الاحتفالات الاسرية أيضاً احتفال الأسر بخروج أحد أفرادها للحج أو عودته منه، وعلى كل حال فإن هذه الاحتفالات كانت تصحبها مظاهر وعادات تتسم بالبذخ الذي يتناسب وأصحاب هذا الحفل ومستواهم الاقتصادي ووضعهم الاجتماعي.

أما عن العادات الخاصة بالمآتم، فلقد جرت العادة عند فلاحى الصعيد أن يجتمع قريبات المتوفى والصديقات معاً بالقرب من منزله فى كل يوم من الأيام الثلاثة بعد الجنازة ويقمن هناك مناحة، ويلطخن وجوههن وصدورهن وبعض ملابسهن بالطين، وبعد اليوم الثالث يزور النساء القبر ويضعن عليه أحزمتهن، ويذبح هناك عادة جمل أو ماعز تقديداً وتقام مأدبة بهذه المناسبة^(٢).

ومن العادات المتبعة أيضاً زيارة المقابر يوم الجمعة، حيث تذهب الأسرة إلى المقابر عند شروق الشمس، ويمضون فترة الصباح كلها فى الصلوات والدعوات الدينية، ويتحدثون بمرارة عن الخسائر التى حدثت برحيل المتوفى ويتحدثون عن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته^(٣).

وكان أهل القرية، وبخاصة عائلة الميت يقدمون لأسرته فى أيام المآتم المأكـل والمشرب مواساة منهم لأفراد أسرته، بل أنهم كانوا يوزعون تقديـم الوجبات الغذائية التى يجب أن تقدم للفقهاء وأهل الميت الأقربين بين أسر العائلة الأخرى^(٤).

Chabrol. Op. Cit. P. 21.

(١)

(٢) إدوارد وليم لين :المصدر السابق، ص ٣٩٧ .

Chabrol. Op. Cit. P. 192.

(٣)

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٤٦ .

وتشبه ماتم الأقباط ماتم المسلمين، فالجسد يحمل في نعش يتبعه النساء وهن يولولن على طريقة النساء في مثل هذه المناسبة، ويستخدم النائحات المستأجرات ليندبن في منزل المتوفي ثلاثة أيام بعد وفاته، ويجدد النذب هناك في اليومين السابع والرابع عشر من الوفاة، ويزور الأقباط رجالاً ونساءً مقابر الأهل زيارة منتظمة ثلاث مرات في العام في عيد الميلاد، وعيد الغطاس، وعيد القيامة، وهم يذهبون إلى المقابر عشية كل من هذه الأعياد الثلاثة، ويبيتون هناك، إذ هم يملكون في المقابر منازل تعد لاستقبالهم في هذه المناسبات^(١).

ومن العادات والتقاليد والحرمان الموروثة في صعيد مصر عادة الثأر، ولقد ساعد على نمو هذه العادة استقرار كثير من القبائل العربية في الصعيد، وحيث لا توجد شرطة عمومية، وحيث يسود الخلاف والشقاق الدائم بين الفلاحين وقبائل العربان التي تعمر الريف، فإن حوادث القتل تكون أكثر انتشاراً^(٢).

ويساعد على انتشار هذه العادة أيضاً أن الصعيدي يشبه البركان الذي يفجر في أقل الأوقات انتظاراً لهذا الانفجار، فأحياناً تنشأ المشاكل لأسباب تافهة، وأحياناً أخرى لأسباب جوهرية وتنتهي هذه المشاكل بقتل أحد الأفراد مما يجعل الطرف الآخر لا يهدأ له بال حتى يثأر لنفسه من القاتل، فإذا لم يستطيع فإنه يقبل الدية^(٣)، وإن كان الصعيدي يفضل دائماً الانتقام فالمال لا شفى غليله، لهذا فهو يحاول دائماً أن يثأر لنفسه.

وعلى كل حال فإن عادة الثأر إن دلت على شيء فإنما تدل على الحدة أكثر من لالتها على الشر، فإن الدماء الحارة تجعل صاحبها يندفع إلى الشر دون أن يدري مما يقع في مأزق هو وأسرته، حيث تطاردهم أسرة أخرى تسعى للانتقام وللثأر، وهكذا تستمر

(١) لمزيد من التفصيل انظر : إدوارد وليم لين : المصدر السابق، ص ٤١٥، أ.ب. كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، الجزء الثالث، ترجمة محمد مسعود، دار الموقف العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٢، ص ١٣٧.

(٢) Chabrol. Op. Cit. P. 277.

(٣) الدية: هي مبلغ من المال تدفعه أسرة القاتل لأسرة المقتول إذا ما تم الصلح بينهما، على أن لا تحاول أسرة المقتول أن تثأر لقتيلها.

الخلافات بين عائلة وأخرى، ويستمر القتال بينهما لسنتين عديدة، ويورث الأبناء عن الآباء تلك الخلافات التي تستمر لعدة أجيال، وفي النهاية يمكن القول بأن قضية الشار مازالت موجودة حتى الآن في صعيد مصر .

٤- الأمراض والأوبئة والمجاعات :

لم تتعرض مصر في العهد العثماني إلا لعدد قليل من الأمراض وذلك بسبب اعتدال الجو فيها، ولكن ذلك العدد القليل من الأمراض كان من النوع الفتاك الذي يثير الفزع لمجرد سماع اسمه، وكان على رأس هذه الأمراض مرض الطاعون^(١) La peste .
وغالبا ما كانت الكوارث الطبيعية التي تحل بالبلاد كالمجاعات والسيول سببا في وقوع وباء الطاعون وفتكه بالأولوف من الأهالي ومثال لذلك ماحدث عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م^(٢).

ولقد كانت هذه الطواعين من الكثرة حيث يذكر أحد الرحالة "أن مصر تنكب بالطاعون كل أربع سنوات أو خمس"^(٣) ومن أشد الطواعين فتكا بالناس في أواخر القرن الثامن عشر طاعون عام ١٢٠٥هـ/١٧٩١م^(٤).

كما تعرض المصريون لأمراض العيون مثل الرمد وساعد على انتشار هذا المرض الإهمال من جانب الأهالي، فكانوا ينامون في الهواء الطلق، فساعدت الرطوبة مع برودة الجو على تكوين التقيحات التي تسبق علل العيون أو فقدان البصر^(٥) ومن أشنع الأمراض التي كانت منتشرة في مصر في تلك الحقبة مرض الجدري، ونادرا ما يفلت الأطفال في سن مبكرة من مخاطره وخبثه، وإذا ما كان بعض الرجال الناضجين يشفون منه فإنه يترك على أجسامهم ندوبا عميقة .

Chabrol. Op. Cit. P. 43.

(١)

(٢) أحمد شلبي : المصدر السابق، ص ص ١٩٧، ١٩٨ .

(٣) فولني : المصدر السابق، ج١، ص ١٦٣ .

(٤) الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، ص ٩٥ .

Chabrol. Op. Cit. P. 45.

(٥)

- ليلي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٤٠ .

ومن الأمراض الشائعة في مصر أيضاً الفتاق. والدمامل^(١)، مما ضاعف من هذه الأمراض والأوبئة سوء الحالة الاقتصادية وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر، حيث عم البلاد الخراب والفناء، وتتابع المجاعات في فترات متقاربة، ومن أسوأ المجاعات التي حدثت في تلك الفترة ما حدث عام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م حيث اشتد الغلاء من تتابع مظالم المماليك، وأدى قصور النيل إلى خراب البلاد وثبات أهلها وزحفهم إلى القاهرة "حتى ملأوا الأسواق والأزقة رجالاً ونساءً وأطفالاً يكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع، ويموت من الناس كل يوم جملة كثيرة من الجوع"^(٢).

كل هذا والأمراء المماليك في تنازعهم وخلافهم وحروبهم لا يباليون بما يعانيه المصريون من أمر هذه المجاعات وتلك الأوبئة وهكذا عانى المجتمع مصرى من متاعب وآلام ومظالم ومجاعات وأوبئة كان السبب فيها بالدرجة الأولى مظالم المماليك وجشعهم واهتمامهم بالحياة المرفهة لأنفسهم وما كان ذلك إلا على حساب الشعب المصرى الذى عانى كثيراً في هذا العصر المظلم الذى يعتبر أسوأ عصر شهدته مصر في تاريخها الحديث والمعاصر.

رابعاً : الأوضاع السياسية للصعيد قبيل الحملة الفرنسية :

لقد تمتع الصعيد بوضع خاص في العصر العثمانى، وكانت له أهمية بالغة لكونه مركز تموين القطر كله بالغلل، ولوجود كثير من القبائل العربية به، وكونه ملجأ لكل الأمراء المنفيين والمتمردين يهربون إليه ويحاولون الاستعانة بسيوف العرب وسواعدهم في استعادة مراكزهم وما كانوا يتمتعون به من نفوذ.

ولقد لعب الصعيد دوراً في أحداث مصر السياسية إبان الحكم العثمانى، ولكننا هنا سنقتصر في حديثنا عن هذا الدور منذ بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى قدوم الحملة الفرنسية.

Chabrol. Op. Cit. P. 46.

(١)

(٢) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٣.

وسوف نتحدث عن دور الصعيد السياسى فى تلك الفترة من خلال النقاط الآتية :

١- على بك والصعيد .

٢- الصعيد فى عهد ابراهيم بك ومراد بك (١٧٧٥-١٧٩٨) .

١- على بك والصعيد :

تم اختيار على بك شيخا للبلاد فى أوائل عام ١٧٦٠م^(١) ومنذ ذلك الوقت بدأ يفكر فى الإطاحة بمنافسيه على السلطة فنجدته ينفى عبد الرحمن كتحدا إلى الحجاز، ثم يحاول بعد ذلك أن يوقع بين اثنين من كبار منافسيه وهما صالح بك شاهين حاكم جرجا، وحسين بك كشكش، فنفى الأول إلى رشيد وعين الثانى صنجقا لجرجا^(٢) .

واستطاع صالح بك أن يفر إلى المنيا، وأن يحصل على تأييد الأمير همام بن يوسف^(٣) شيخ عرب الهوارة، والذى أمدّه بكل ما يحتاج إليه من ذخيرة وعتاد ورجال، فأرسل على بك حملة بقيادة حسين بك كشكش لمحاربة صالح بك بالصعيد حتى يضر بهما الواحد بالآخر ولكن هذه الحملة لم تصل إلى نتيجة حاسمة .

وسرعان ما أصدر على بك أمرا بنفى حسين بك الذى لم يمتثل لذلك الأمر، بل عاد إلى القاهرة ومعه مماليكه وأتباعه، ففكر على بك أن يتخلص منه بالسّم، ولكنه فشل لعلم حسين بك بتلك المؤامرة، وحينئذ اضطر على بك أن ينفذ رغبة خصمه فخرج من القاهرة منفيا إلى الشام عام ١٧٦٥^(٤)، ثم عاد على بك إلى القاهرة، واستطاع بدهائه أن يحصل على حكم النوسات (من أعمال الدقهلية) وذهب إليها، وفى نفس الوقت تم نفى رجاله الذين قدموا معه إلى أسبوط^(٥) .

(١) جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧-١٨٠٥، الإسكندرية، دون تاريخ، ص ٢٣٦ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢٣٦ .

(٣) ولد شيخ العرب همام بن يوسف فى قرية فرشوط بمحافظة قنا حوالى عام ١٧٠٩ وتوفى سنة ١٧٦٩ .

- لمزيد من التفصيل انظر : ليلى عبد اللطيف : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، ص ١٠٢ .

(٤) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٣١٣-٣١٦ .

(٥) نفس المصدر، ص ٣١٦ .

وفى تلك الأونة كان صالح بك قد وطد نفوذه فى الصعيد كحاكم لجرجا بعد أن كسب ثقة زعيم الهوارة الشيخ همام، وبعد أن وقف بكل قوة ضد الحملات التى بعثها حسين بك كشكش إلى الصعيد للقضاء عليه والتى انتهت بعقد الصلح مع صالح بك فى عام ١٧٦٦ على أساس "أن يذهب صالح بك إلى جرجا ويأخذ ما يكفيه هو ومن معه ويمكث بها ويقوم بدفع المال والغلال" (١).

وتم نفى على بك إلى أسيوط، والتف حوله رجاله المنفيين بالصعيد وأراد على بك أن يتفق مع صالح بك خصمه وأحد منافسيه من أجل العودة إلى القاهرة، ولكنه لم يجد ترحيباً من صالح بك للإتفاق بينهما وأخيراً اتجه على بك إلى شيخ العرب همام ليتوسط بينه وبين صالح بك، ووفق شيخ العرب همام فى الصلح بينهما "فتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف" (٢).

ولا شك فى أن هذا التحالف كان له تأثير كبير على أصحاب السلطة فى القاهرة، فأعدوا تجريدة وأرسلوها إلى الصعيد بقيادة حسين بك كشكش للقضاء على على بك وصالح بك، ووقعت معركة بين الفريقين فى بياضة ببنى سويف فى جمادى الأولى سنة ١١٨١هـ/أكتوبر ١٧٦٧م، وانتهت بهزيمة حسين بك كشكش ومن معه، وزحف على بك وصالح بك إلى القاهرة ودخلاها، ففر منها شيخ البلد خليل بك وحسين بك كشكش واتباعه، وخلع الباشا على على بك ليصبح على بك شيخاً للبلد عام ١٧٦٧م (٣).

وبالرغم من مؤازرة كل من صالح بك وشيخ العرب همام لعلى بك الكبير إلا أنه غدر بهما، وبدأ بصالح بك فدفع بعض أعوانه إلى اغتياله فى شهر سبتمبر ١٧٦٨م (٤).

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٣١٧

(٢) نفس المصدر، ج١، ص ٣١٧ .

(٣) نفس المصدر، ص ٣٢٠ - ٣٢٢، - جلال يحيى : المصدر السابق، ص ٢٣٧ .

(٤) عن ترجمة الأمير صالح بك القاسمى، انظر الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٣٧٢، ٣٧٣ .

وبذلك تخلص على بك من آخر صنjq قوى كان يمكن أن ينافس على مشيخة البلد ولعل من أهم الأسباب التى جعلت على بك يعجل بالقضاء على صالح بك خوفاً من خطورة صالح بك لاستناده إلى حليفه القوى المسيطر على الصعيد شيخ العرب همام(١) . ثم عزم على بك بعد ذلك على أن يزِيل من الوجود شخصية همام الساحرة التى كانت تجتذب ولاء كل من صادفها من الأهالى أو العرب أو المماليك(٢) .

فلقد كان همام بن يوسف الهوارى "عظيم بلاد الصعيد" كما يذكر الجبرتى(٣) وكان شيخ همام مسيطراً على معظم أراضي الصعيد من المنيا إلى أسوان بالالتزام، ولاشك فى أن سيطرة همام على تلك المساحة الهائلة من الصعيد قد وفرت للشيخ همام سلطة واسعة ونفوذاً كبيراً إلى حد أن سلطته أصبحت مطلقة فيما بين جرجا وأسوان(٤) .

وإذا علمنا أن الصعيد كان مركز تموين القطر، إلى جانب كونه منفى البكوات وميدان الحروب الداخلية بين من يضطر من الأمراء المماليك إلى مغادرة القاهرة فراراً من شر زبائيتها(٥)، وما يجده هؤلاء البكوات من مساندة الشيخ همام لهم، وبالتالى تهديد الإدارة المركزية بالقاهرة لهذا عندما فكر على بك فى القضاء على همام ونفوذه، كان يفكر فى الاستيلاء على الصعيد، أو بمعنى آخر كان يريد الاستيلاء على الوكر الذى تنبت منه الفتن، وأن يخرب الحصن الذى يستجير به المنفيون، وأن يقضى على المورد الذى يمول منافس شيخ البلد(٦) .

(١) ليلى عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ص ١٣٩، ١٤٠ .

(٢) محمد رفعت رمضان : على بك الكبير، القاهرة ١٩٥٠، ص ٥٠ .

(٣) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٣٨٤ .

ولمزيد من التفصيل عن ترجمة الأمير همام أنظر نفس المصدر، ص ص ٣٨٤-٣٨٧ .

(٤) محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٥) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية، مكتبة مدبولى، القاهرة، دون تاريخ، ص ١٣٣ .

(٦) محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص ٥٠ .

كل هذه الأسباب السالفة الذكر جعلت على بك يعجل بضرب همام والقضاء على نفوذه لأن همام كان يتمتع بنفوذه كبير يدعو إلى القلق فأراد على بك أن يتخلص منه^(١)، فأرسل تجريدة بقيادة محمد بك أبو الذهب ضد همام بحجة أنه أنكر الإتفاق الذى كان قد عقده مع إبراهيم كتخدا (جاويش) استاذ على بك بشأن التنازل له عن التزام برديس^(٢)، وما أن تقابلت طلائع قوات أبى الذهب مع طلائع رجال الشيخ همام حتى اتفق الطرفان على أن يقتصر حكم همام من حدود برديس ولا يتعدى حكمه لما بعدها، ثم تصادف أن ولد لمحمد بك أبو الذهب مولود فى ذلك الوقت فأعلن همام تنازله عن برديس انعاماً منه للمولود^(٣)، وخرجت بذلك جرجا عاصمة الصعيد من نفوذ الشيخ همام وأسرع على بك بتعيين أيوب بك حاكماً على جرجا، ثم اشترط على بك على همام طرد المماليك الموجودين بالصعيد وفى دائرة نفوذ همام بالذات مقابل اقرار على بك لنصوص الاتفاق السابق الذكر، وحينئذ أدرك همام أن على بك يريد القضاء عليه وعلى نفوذه بالصعيد، فجمع همام المماليك المنفيين واللاجئين إليه وطلب منهم أن يخرجوا إلى أسيوط ويتحصنوا بها فهى مفتاح الصعيد، ووعدهم همام أن يمددهم بالمال والرجال، وتمكن حلفاء همام من دخول أسيوط وسيطروا على مواقع هامة بها، ووصل الخبر إلى على بك الذى أدرك خطورة المعركة القادمة، إذ أنه كان يعرف أن معركة الصعيد ستقرر له مستقبل السيطرة على البلاد دون منازع^(٤) لذلك أرسل على بك حملة ضخمة بقيادة محمد بك أبو الذهب للقضاء على همام، وانتصرت قوات على بك وقوات الدولة على قوات همام وحلفائه من المماليك خارج أسيوط وفرت فلول المهزومين إلى فرشوط واتجه محمد بك وقواته جنوباً بقصد محاربة همام وباقي قواته، وفى نفس الوقت لجأ محمد بك إلى الحيلة فراسل إسماعيل أبا عبد الله وهو ابن عم همام واستماله ومناه ووعدته برياسة بلاد الصعيد عوضاً عن شيخ العرب همام، ونجحت حيلة أبو الذهب وركن إسماعيل أبا عبد الله إلى قوله وتقايس وتثبط عن القتال وخذل طوائفه، ولما بلغ همام

(١) س.ف. فولنى : المصدر السابق، ج١، ص ٨٤ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ١٤٢-١٤٤ .

(٣) الجبرتي : المصدر السابق، ج١، ص ٣٦٢ .

(٤) محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص ٥١، جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٤١ .

ما حدث من خيانة أقرب الناس إليه مات مكموداً مقهوراً قرب إسنا في ٨ شعبان ١١٨٣هـ/١ نوفمبر سنة ١٧٦٩م(١).

وبذلك تقرر النصر النهائي لأبى الذهب، وأصبح على بك بنهاية همام والقضاء على نفوذه بالصعيد صاحب النفوذ المطلق في جميع أنحاء القطر المصري.

وإذا كان الصعيد قد لعب دوراً سياسياً كبيراً في عهد همام فإن ذلك الدور لم ينته بنهاية همام، فالصعيد بموقعه الجغرافى وموارده الهائلة ظل الملجأ للبكوات الفارين من وجه السلطة المركزية بالقاهرة، ولعبت موارد الصعيد الاقتصادية دوراً فى تمكين كل من يلجأ إليه فى استعادة مركزه مرة أخرى، حدث ذلك عندما تدهورت علاقة محمد بك أبو الذهب بعلی بك الكبير فخرج محمد بك أبو الذهب من القاهرة إلى الصعيد فى أوائل عام ١٧٧١م وكلف علی بك أيوب بك حاكم جرجا بالتخلص من محمد بك أبو الذهب، لكن سرعان ما اكتشف محمد بك تلك المؤامرة فتخلص هو من أيوب بك(٢)، وهنا بدأ العداء بين محمد بك وعلی بك يأخذ شكلاً علنياً، فانضم إلى محمد بك أبو الذهب بالصعيد الأمراء المماليك المعارضين "علی بك" والمنفيين بالصعيد ومنهم أتباع صالح بك وكثير من الهوارة الذين شردهم علی بك وسلب نعمتهم، وسيطر محمد بك على الصعيد، واغتم علی بك لما علم بذلك وأسرع فى تجهيز تجريدة كبيرة بقيادة إسماعيل بك وأرسلها إلى الصعيد للقضاء على محمد بك، ولكن حدث ما لم يتوقعه علی بك إذ انضم إسماعيل بك بمن معه من القوات إلى محمد بك وصاروا حزباً واحداً(٣) عازمين على المضى فى طريقهم للزحف على العاصمة، وحينئذ جهز علی بك تجريدة أخرى بقيادة علی بك الطنطاوى، والتقت قوات الطنطاوى بطلائع قوات أبى الذهب شمال بنى سويف، ومنيت قوات الطنطاوى بهزيمة اضطر بعدها الطنطاوى إلى العودة إلى سيده علی بك الذى لم يجد أمامه مفرأ إلا الهروب ففر إلى بلاد الشام، وتقدم محمد بك أبو الذهب فى طريقه إلى القاهرة التى دخلها فى ٢٦ محرم سنة

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٣٧٦، ٣٧٧، محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص

٥٢، ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق، ص ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٤٠٧، ٤٠٨.

(٣) نفس المصدر، ج١، ص ص ٤٠٨، ٤٠٩.

١١٨٦هـ/ ١٣ إبريل سنة ١٧٧٢م^(١) ليتولى زمام السلطة بها ويصبح شيخاً للبلد فى نفس العام، وعاد على بك من الشام على رأس حملة يقودها بنفسه بهدف استعادة حكم مصر مرة أخرى، لكنه هزم أمام قوات محمد بك أبو الذهب فى معركة الصالحية، وتوفى متأثراً بجراحه فى ١٥ صفر ١١٨٧هـ - ٨ مايو ١٧٧٣م^(٢)، ثم توفى محمد بك أبو الذهب فى ٨ يونية ١٧٧٥م^(٣)، لتدخل مصر مرحلة أخرى تحت حكم إبراهيم بك ومراد بك، ولكن ماذا عن دور الصعيد السياسى فى تلك الفترة من تاريخ مصر .

٢- الصعيد فى عهد إبراهيم بك ومراد بك (١٧٧٥-١٧٩٨) :

بعد وفاة محمد بك أبو الذهب خلص حكم مصر لمراد بك وإبراهيم بك، وكان كلاهما من مماليك محمد بك أبو الذهب ولهذا يطلق الجبرتى عليهما الأمراء المحمدية^(٤) نسبة إلى سيدهم محمد بك أبو الذهب، وتولى إبراهيم بك مشيخة البلد، بينما أصبح مراد بك أمير للحج^(٥)، ولكن سرعان ما عادت البلاد مسرحاً للصراع بين المحمدية وعلى رأسها إبراهيم بك ومراد بك، والعلوية (نسبة إلى على بك الكبير) وكان على رأس هذا الحزب إسماعيل بك والذى استطاع بعد صراع مع الأمراء المحمدية أن ينتصر عليهم ويصبح شيخاً للبلد عام ١١٩١هـ - ١٧٧٧م^(٦)، وبناء على ذلك فر كل من إبراهيم بك ومراد إلى الوجه القبلى فى محاولة منهم لاستعادة مركزهم بالعاصمة مرة أخرى .

وعين حسن بك الجداوى حاكماً لجرجا عام ١١٩١هـ - ١٧٧٧م^(٧) وفى نفس الوقت كان كل من إبراهيم بك ومراد بك ورجالهما قد استولوا على جزء كبير من بلاد

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٤١٥، ٤١٦ .

(٢) نفس المصدر، ج١، ص ص ٤٢٥، ٤٢٦ .

Louis Bréhier : L'Égypte de 1798 à 1900, Paris, 1900, P 10.

(٣) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على، القاهرة، دون تاريخ، ص ٣١ .

(٤) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٤٨٥، ٤٨٦ .

Holt, P.M. The Pattern of Egyptian history from 1517-1798 in political and social change in modern Egypt, London 1969. P. 89.

(٦) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٤٩٨-٥٠٢ .

(٧) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٥٠٦ .

الصعيد، وقبضوا الخراج من الفلاحين ومنعوا إرسال الغلال إلى العاصمة، وفشل حسن بك حاكم الصعيد في القضاء على نفوذهما بالوجه القبلى^(١)، وحينئذ أرسل اسماعيل بك شيخ البلد تجريدة لوقف نشاطهما بالصعيد، ولكن بمجرد علم مراد وإبراهيم بأمر التجريدة حتى فرا جنوباً، وهنا أحس رجال التجريدة باليأس فى اللحاق بهما، وما أن وصلوا إلى المنيا حتى وهنت قواهم، فأمر اسماعيل بك رجال التجريدة بالرجوع إلى القاهرة^(٢)، فانتهز إبراهيم ومراد هذه الفرصة وتقدموا لدخول القاهرة، وأصبح إبراهيم بك شيخاً للبلد فى عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م^(٣).

وعندما اشتدت شوكة البكوات المماليك بالصعيد عام ١١٩٣هـ-١٧٧٩م بزعامة كل من حسن بك ورضوان بك وقوى أمرهم بانضمام أولاد همam والجعافرة إليهم وتجمع الجميع فى جرجا، ولاشك فى أن تجمعهم يشكل خطراً على الإدارة المركزية بالقاهرة، لذلك جهز مراد بك تجريدة وتوجه بها إلى جرجا، فلما علم البكوات المماليك بأمر التجريدة فروا جنوباً، بينما قبض مراد بك على اسماعيل أبو على شيخ قبيلة الهوارة وقتله ونهب ماله وفرق بلاده على كشفه وجماعته^(٤).

ولكن سرعان ما عاد حسن بك ورضوان بك إلى ما كانا عليه بعد عودة مراد بك إلى القاهرة، واستفحل أمرهما بانضمام كثير من الأجناد إليهم، وحينئذ تم تجهيز تجريدة وأميرها مراد بك، وفى هذه المرة تأثر التجار فى القاهرة وتعرضوا للضرر بل صودرت أموالهم بحجة الانفاق على هذه التجريدة كما تم الاستيلاء على كثير من المراكب^(٥). كل هذا حدث نتيجة لتمرد الفارين فى الصعيد مما يجعلنا نلمس إلى أى مدى كانت اضطرابات المماليك الفارين إلى الصعيد وتمردهم على الإدارة المركزية بالقاهرة تؤثر على

(١) نفس المصدر، ص ٥٠٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٠٨.

(٣) نفس المصدر، ص ص ٥١٨، ٥١٩.

(٤) الجبرتي : المصدر السابق، ج١، ص ٥٣٨، صلاح أحمد هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية،

ص ٢٣٤

(٥) الجبرتي : المصدر السابق، ج١، ص ٥٤٩

الأهالى بالقاهرة وتحرك مراد بك بمن معه من رجال التجريدة متوجها فى طريقة إلى الصعيد للقضاء على الأمراء المماليك المتمردين، ولكن لم تقع بينه وبينهم مناوشات كما يذكر الجبرتى، بل كانوا يتقدمون كلما هم باللاحاق بهم ويتوقفون كلما توقف، وفى تلك الأثناء كان اسماعيل بك قد وصل من استانبول إلى الصعيد ولم يتمكن مراد بك من إبادة هذا الفريق، لهذا عقد صلحاً معهم منح على أساسه اسماعيل بك اخميم وأعمالها وحسن بك قنا وقوص، ورضوان بك اسنا، وتم هذا الصلح فى عام ١١٩٥هـ/١٧٨١م ورجع مراد بك إلى القاهرة مصطحباً معه ابراهيم بك قشطة صهر اسماعيل بك وسليم بك أحد صناعج اسماعيل بك كرهائن^(١)، ولكن سرعان ما فر اسماعيل بك وسليم بك إلى الصعيد ومعهم حوالى ثمانين من أتباعهم فى عام ١١٩٦هـ/١٧٨٢م وحصل ارتباك لدى ابراهيم بك ومراد بك وتأثر أهالى القاهرة بما حدث فلقد تم التنبيه عليهم من قبل الوالى بعدم التجول بعد صلاة العشاء^(٢).

وعزم مراد بك على تجهيز تجريدة لمطاردة الفارين إلى الصعيد وتأثرت أحوال الناس نتيجة لذلك، فلقد انتهز مراد بك الفرصة وصادر أموال كثير من التجار، بل وتم سلب ما بأيدي الكثير من مسائير الناس كما يذكر الجبرتى^(٣)، حتى أن مراد بك جمع من المال زيادة عن المطلوب بكثير، وهذا يدل على تعرض الناس فى القاهرة للسلب والنهب بحجة القضاء على نفوذ البكوات الفارين إلى الصعيد.

وتوجه مراد بك بمن معه من رجال التجريدة إلى الصعيد، لكن سرعان ما رجع إلى القاهرة، وتم تعيين عثمان بك الشرقاوى حاكماً على جرجا سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٣م^(٤)، وتوالى بعد ذلك هروب البكوات من الوجه البحرى إلى الصعيد^(٥).

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٥٥١، ٥٥٢، فولنى : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٣ .

(٢) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٥٦٥ .

(٣) نفس المصدر، ص ٥٦٥ .

(٤) نفس المصدر، ص ٥٦٧، ٥٦٨ .

(٥) نفس المصدر، ص ٥٦٨، ٥٦٩ .

وتم تجهيز تجريدة وأميرها إبراهيم بك وانتهاز البكوات الفرصة لسلب الأموال من الملتزمين والفلاحين، وحدث ارتباك توقفت على أثره حركة النقل والمواصلات، واستطاع إبراهيم بك أن يتوصل مع الأمراء الفارين بالصعيد إلى صلح بينه وبينهم، ورجع إبراهيم بك إلى مصر ومعه الأمراء الفارين، فلم يرضى مراد بك ما صنعه إبراهيم بك، فحمل متاعه وتوجه بمن معه من كشافه وطوائفه إلى الصعيد، ووصل مراد بك إلى بنى سويف وأقام فيها فترة قام خلالها بأعمال سلبية من قطع الطريق على المسافرين ونهب ما فى المراكب المتجهة إلى الوجه القبلى أو القادمة منه^(١) مما أثر على حركة النقل والمواصلات وعلى التجارة الداخلية. ونتيجة لهذه الأوضاع اضطر علماء الأزهر إلى التدخل فى الوساطة بين إبراهيم بك ومراد بك، وسافر وفد منهم إلى المنيا حيث يقيم مراد بك، وعاد الوفد ليعرض شروط الصلح التى فرضها مراد بك، وفى نفس الوقت حضر مراد بك إلى الجيزة، ومعه الكثير من الأجناد والعربان والغوغاء من أهل الصعيد والهورة، وحاول الوفد القيام بعملية الصلح، ولكن أثناء عبورهم بالمراكب أطلق مراد بك النار عليهم مما أدى إلى تبادل إطلاق النار بين الطرفين، ويعنى هذا أن محاولات الصلح قد باءت بالفشل، ولذا فقد استمرت المعارك طوال عشرين يوماً مما جعل حالة البلاد الاقتصادية تزداد سوءاً واشتد بأس وقوة مراد بك مما جعل إبراهيم بك يفكر فى الهروب، ولكنه عاود الكرة مرة أخرى ضد مراد بك ولكنه فى النهاية اضطر إزاء التدهور المستمر إلى الهروب^(٢).

وأخيراً تم الصلح بين إبراهيم بك ومراد بك فى عام ١١٩٩هـ/١٧٨٥م^(٣) وساءت حالة البلاد فى عهد كل من إبراهيم بك ومراد بك حتى أصبحت فى حالة يرثى لها وكل هذا بسبب المظالم التى ارتكبتها هذين الرحلين، ولم تقتصر مظالمهما على أهل البلاد بل امتدت إلى الاجانب فى مصر، مما جعل رعايا هذه الدول يكتبون إلى سفرائهم بالقسطنطينية مطالبين إياهم بمساعدتهم لرفع الظلم الواقع عليهم، واحتج سفراء هذه الدول (فرنسا والنمسا وهولندا وإسبانيا ونابولى) على معاملة رعاياهم بهذا الأسلوب، فكانت هذه الإحتجاجات من

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٥٦٩، ٥٧٠، فولنى : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٣ .

(٢) صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

(٣) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ٥٩٢، ٥٩٣ .

قبل ممثلى الدول الأوروبية، إلى جانب إمتناع مراد وإبراهيم عن إرسال الجزية إلى السلطان وتوقفهما عن إرسال الأموال المخصصة للحرمين الشريفين فى الحجاز، بالإضافة إلى علاقات هذين الأميرين الخارجية والتي تتعارض مع سياسة الدولة العثمانية، كتوقيع مراد بك على معاهدة تجارية مع فرنسا فى ١٠ يناير عام ١٧٨٥م دون أن يحصل على موافقة السلطان العثمانى، واتصالات إبراهيم بك ومراد بك بروسيا وتشجيع روسيا لهما لفصل مصر عن الدولة العثمانية، كل هذه الأسباب جعلت السلطان العثمانى يرسل حملة عسكرية إلى مصر تستهدف كسر شوكة المماليك، ودعم نفوذ الدولة فى مصر، وكانت الحملة بقيادة حسن باشا الجزائرى، وقد بلغ الإسكندرية فى ٧ من يوليو ١٧٨٦ (١) ثم وصل القبطان حسن باشا إلى ساحل بولاق فى ١٢ شوال ١٢٠٠هـ / ٨ أغسطس ١٧٨٦م ثم دخل القاهرة فى اليوم التالى، فما كان من مراد بك وإبراهيم بك وقد عجزا عن مقاومة الحملة إلا الفرار إلى الصعيد، فأرسل حسن باشا خلفهم عدداً من السفن لملاحقتهم (٢).

ولم تبدء المناوشات بين القوتين المتحاربتين (الجيش العثمانى الغازى وقوات المماليك) إلا بعد وصول الجيش البرى، وفى خلال سبتمبر وردت الأنباء بوقوع مصادمة بين القوات البحرية العثمانية والمماليك الذين يسميهم الجبرتى "الأمرء القبلى نسبة إلى انسحابهم إلى الوجه القبلى وتجمعهم هناك" ثم دارت معارك أخرى خلال ذلك الشهر بين أسيوط وطهطا وكذلك خلال شهر أكتوبر لكنها لم تسفر عن نصر حاسم للجيش الغازى (٣).

ولم تغير نتائج المعارك شيئاً من الأوضاع، ودخل القبطان حسن باشا فى مفاوضات للصلح مع مراد بك وإبراهيم بك وكانت مطالب حسن باشا بشأن الصلح مع الأمرء القبلى تتضمن شرطين وهما :

(١) عبد العزيز الشناوى : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب، عدد رقم ٦٧، دار الكاتب العربى، القاهرة ١٩٦٧، ص ص ١٧، ١٨ .

(٢) الجبرتى : المصدر السابق، ج١، ص ص ٦٣٠، ٦٣١، عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٢، ص ص ١٣٢، ١٣٣ .

(٣) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق، ص ١٣٤ .

- ١- حضور كل من مراد بك وإبراهيم بك إلى القاهرة حتى يرأس القبطان حسن باشا السلطان في أمرهما على أن تكون إقامتهم خارج مصر .
- ٢- أما فيما يتعلق ببقية الأمراء والعسكر الآخرين فإنهم إذا جاءوا إلى القاهرة وأقاموا فيها كانوا من عسكر السلطان وإذا رغبوا عن هذا استقروا بالصعيد في أماكن معينة وإذا لم يوافق القبالي على هذين الشرطين فلا بديل سوى الحرب بينهم وبين القوات العثمانية^(١) .

وأرسل الأمراء القبالي (إبراهيم بك ومراد بك) إلى حسن باشا رسالة يعلنون فيها الإمتثال لرأيه فيما عدا مغادرة مصر، ولم يصادف هذا الرد استجابة لدى حسن باشا وأصر على رأيه لأنه من إرادة السلطان نفسه^(٢) .

وكتب المماليك بعد ذلك يطلبون الأمان من جديد، وأن يعينوا لهم أماكن من الوجه القبلي يقيمون بها، فوافق حسن باشا على ذلك، وترك لهم حرية اختيار المكان الذي سيقومون به ولكنه اشترط عليهم أن يكونوا جماعة قليلة، ويحضر باقى الأمراء بالأمان إلى مصر، فلم يرضوا بالافتراق عن بعضهم واستقروا قرب بنى سويف^(٣) .

وانسحب الأمراء القبالي بعد ذلك إلى أسيوط، وظلت بقية منهم فى المنيا، ثم استمروا فى انسحابهم حتى طهطا^(٤)، فتعقبتهم التجريدة التى أرسلها القبطان حسن باشا لمطاردتهم والقضاء عليهم، وتعقبت التجريدة فلول المماليك المنسحبة، ووقعت بينهم واقعة كبيرة استمرت لمدة ست ساعات، وقتل فيها الكثير من الجانبين، وتمكن عابدى باشا من الحاق هزيمة بالقبالي بفضل المدافع التى يملكها، ويظهر أن القبالي كانوا يستعينون بعربان الهنادى حيث لقي كثير منهم حتفه ووقع شيخهم فى الأسر^(٥) .

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ٨ .

(٢) عراقى يوسف محمد : الوجود العثمانى المملوكى فى مصر (فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) الطبعة الأولى، دارالمعارف ١٩٨٥، ص ١٥٠ .

(٣) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٩١ .

(٤) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ص ١٣، ١٤ .

(٥) نفس المصدر، ج٢، ص ١٧ .

وانسحب الأمراء القبالي بعد هذه الموقعة جنوباً، ولحقت بهم القوات العثمانية حتى أسوان، وسيطرت عليها، وفر الأمراء القبالي حتى ابريم، وعاد عابدى باشا إلى القاهرة بينما ظل حسن بك الجداوى بقنا(١) .

وسرعان ما عاد الأمراء القبالي فى طريقهم شمالاً حتى وصلوا إلى جرجا، ثم حدثت مفاوضات للصلح من قبل القبطان حسن باشا مع الأمراء القبالي، وحدد لهم بلاداً معينة يقيمون فيها ويتعيشون منها، ولكن الأمراء القبالي بعثوا يطلبون بلاداً أخرى لأن البلاد التى حددها لهم حسن باشا لا تكفيهم كما جاء فى رسالتهم(٢) .

واخفق القبطان حسن باشا فى إخضاع الصعيد أو بمعنى آخر فشل فى القضاء على ابراهيم بك ومراد بك، ولم يطل به المقام فى مصر فاستدعى إلى تركيا بسبب قيام الحرب بين تركيا وروسيا فى سبتمبر ١٧٨٧م، ثم جاء العفو السلطانى عن ابراهيم بك ومراد بك على أن يقيم الأول فى قنا ويقيم الثانى فى إسنا مع عدم السماح لهم بدخول القاهرة(٣) . وغادر القبطان حسن باشا البلاد فى ذى الحجة ١٢٠١هـ سبتمبر ١٧٨٧م فى طريقه إلى استانبول تاركاً لإسماعيل بك - شيخ البلد الذى كان قد حل محل المطرودين - مدافع وآلات حرب، وترك له حامية مؤلفة من ألف وخمسمائة مقاتل للإستمرار فى مقاتلة الأمراء القبالي إذا ما نقضوا الصلح وحاولوا دخول القاهرة(٤) .

وظهرت أطماع القبالي وقوى عزمهم خاصة بعد رحيل القبطان حسن، فتحركوا من أماكنهم متجهين شمالاً حتى وصلوا إلى أسيوط ثم تقدموا بعد ذلك إلى بنى سويف، فاضطرت سلطات القاهرة أن تأخذ للأمر اهبتة وتبدأ فى الدفاع عن العاصمة(٥) . وحدثت أثناء ذلك مراسلات بين الأمراء القبالي وأصحاب السلطة بالقاهرة من أجل الصلح والاتفاق،

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠، ١٩ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : نفس المصدر، ص ٢٢-٣٠ .

(٣) نفس المصدر، ج٢، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر، ص ٣١ .

(٥) نفس المصدر، ص ٤٣-٤٩ .

لكن هذه المفاوضات لم تتمخض عن شيء، وحينئذ شرع اسماعيل بك في عمل متاريس عند طره والمعصرة، وكذلك في بر الجيزة للدفاع عن القاهرة ضد هجمات الأمراء القبالي (١) ولقد أثرت هذه الأوضاع على حركة النقل من الوجه القبلى إلى القاهرة والعكس، وامتنع ورود الغلال من الوجه القبلى، وبالتالي ارتفعت أسعار الغلال بالقاهرة ثم طلب الأمراء القبالي الصلح على أساس أن تبدأ حدودهم من أسيوط حتى الجنوب، ولم توافق السلطات الحاكمة بالقاهرة على هذا الشرط، لهذا نشب القتال بين الطرفين، وسرعان ما انتهى القتال بينهما دون نتيجة حاسمة لأحد الطرفين (٢) .

ثم طلب القبالي الصلح مرة أخرى على أساس أن يكون لهم من أسيوط إلى قبلى شرقا وغربا بشرط أن يدفع القبالي ميرى البلاد من المال والغلال، وأن يطلقوا سراح المراكب والمسافرين بالغلال والأسباب، وعلى أمراء القاهرة أن لا يمنعوا عنهم ما يحتاجونه من القاهرة فيما عدا آلات الحرب، ووافق أصحاب السلطة والنفوذ بالقاهرة على شروط القبالي، وعلى أساس هذا الاتفاق انتهت أزمة ارتفاع أسعار الغلال، بل انخفضت أسعارها إلى درجة كبيرة بسبب ورود الغلال من الصعيد .

ولكن سرعان ما انقضت الأمراء القبالي هذا الصلح بحجة أن من وقع هذا الاتفاق معهم وال معزول (٣)، وعلى ذلك اضطربت الأمور وارتفعت أسعار الغلال بالقاهرة مرة أخرى وشح الخبز من الأسواق، ولقد أثارت ردود القبالي غضب الباشا فأمر بالقبض على نسايتهم وبيع متعلقاتهن، وانفاق تلك الأموال على العسكر (٤)، والجدير بالذكر أن الدولة واصلت أوامرها إلى باشا مصر بالتصدي لمحاربة القبالي، على أن يسانده رجال الأوجاقات فى هذا الشأن، ظنا منها بأن الكيان العسكرى للأوجاقات لا يزال قادراً على تأكيد سيادتها بولاية مصر (٥) .

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠-٥٩

(٢) نفس المصدر، ص ٧٠، ٧١

(٣) لمزيد من التفصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ٧١-٧٣ . ومن الملاحظ أن الدولة كانت قد عينت اسماعيل كتحدا حسن باشا واليا بدلا من عابدى باشا الذى عقد الصلح مع الأمراء القبالي .

(٤) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ٧٣-٨٥

(٥) عراقى يوسف محمد : المرجع السابق، ص ١٥٥

وجدت مالم يكن فى الحسبان، فلقد ظهر وباء الطاعون فى مصر عام ١٢٠٥هـ/١٧٩١م وكان من ضحاياه اسماعيل بك شيخ البلد، وبعد موته تنازع الرئاسة حسن بك الجداوى وعلى بك الدفتردار ثم اتفقوا أخيراً على أن يصبح عثمان بك طبل تابع اسماعيل بك شيخاً للبلد(١) .

وعندما علم الأمراء القبالي بموت اسماعيل بك تحركوا شمالاً فى طريقهم إلى القاهرة، وبعثوا السيد عمر أفندى مكرم الأسىوطى برسالة إلى شيخ البلد والمشايخ والباشا للسماح لهم بدخول القاهرة فى أمان(٢) .

وفى يوليو عام ١٧٩١ اقتربت جيوش ابراهيم بك ومراد بك من القاهرة ثم دخلتها فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو عام ١٧٩١ دون مقاومة، وعاد ابراهيم بك ومراد بك إلى السلطة وأصدر السلطان العثمانى عفواً عنهما فى أوائل أكتوبر سنة ١٢٠٥هـ (٣) واستمر حكمهما الجائر وابتزازهما الفاضح، وهكذا جرت سياسة مراد بك وإبراهيم بك على مصر النكبات وتعددت كتابات وتقارير القناصل الفرنسيين عن الفوضى السياسية فى البلاد مما حفز الحكومة الفرنسية على ارسال الحملة الشهيرة على مصر عام ١٧٩٨م(٤) .

(١) الجبرتى : المصدر السابق، ج٢، ص ٩٥ .

(٢) نفس المصدر، ج٢، ص ٩٨ .

(٣) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق، ص ١٣٨ .

(٤) إلهام محمد على ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٥٤ .

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على
شمال الصعيد

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على شمال الصعيد

- أسباب الحملة الفرنسية
- إعداد الحملة
- معركة إمبابية أو الأهرام (٢١ يولية ١٧٩٨) وفرار مراد بك إلى الصعيد
- أسباب احتلال الفرنسيين للصعيد
- نابليون ومحاولة الاتفاق مع مراد
- تحريك حملة الجنرال ديزيه واحتلال بنى سويف
- احتلال البهنسا وتعقب اسطول المماليك إلى أسيوط
- رجوع ديزيه إلى الفيوم
- معركة سدمنت (٧ أكتوبر ١٧٩٨)
- الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا
- احتلال مدينة الفيوم واخماد الثورة فى القرى المجاورة
- هجوم الثوار على مدينة الفيوم
- ديزيه يطلب المدد من نابليون لاستئناف الحملة
- حادثة الفقاعى
- موقعة أبو جرج

الحملة الفرنسية على شمال الصعيد

أسباب الحملة الفرنسية على مصر :

تعتبر الحملة الفرنسية أول غزوة أجنبية فى تاريخ مصر الحديث، وإذا اعتبرنا أن مصر فى ذلك الوقت كانت ولاية عثمانية، فإن الحملة الفرنسية تعتبر بمثابة أول تعد أوروبى على بلد شرقى إسلامى من بلاد الدولة العثمانية، وهنا يمكن القول أن المسألة المصرية تعتبر بداية طور جديد من أطوار الضغط الأوروبى على الدولة العثمانية، فقد كان الضغط الأوروبى حتى ذلك التاريخ واقعاً على الولايات العثمانية فى أوربا ثم أخذ يتجه نحو الشرق، ويقع على ولايات الدولة الاسلامية، وكانت الحملة الفرنسية على مصر بداية هذا الطور فى المسألة الشرقية، كما كانت بداية دخول عناصر جديدة أخذت تشارك فى الضغط على الدولة العثمانية، وتعمل على اقتطاع أجزاء من أملاكها الواسعة بعد أن كانت تأخذ بمبدأ المحافظة على سلامتها وصونها من عوامل التفكك والانهيار، وقد بدأت فرنسا هذا الطور وهى الدولة التى ظلت حريصة على صداقة السلطان والتى كان لها ولرعاياها من الإمتيازات فى العالم العثمانى ما لم يكن لغيرها من الدول الأخرى(١) .

ولم يأت القرن الثامن عشر إلا وقد أخذت الدول الكبرى الأوربية تفكر جدياً فى كيفية تقسيم ممتلكات الأتراك، وما كان ذلك إلا دليل قاطع على حالة الضعف والانحلال التى ألمت بالأتراك بل كان من ضمن الأسباب التى شجعت فرنسا على إنفاذ حملتها على مصر أن الدولة العثمانية كانت آيلة إلى الانحلال والسقوط قريباً .

والحملة الفرنسية لا يمكن دراستها إلى بربطها بحوادث التاريخ الأوروبى فى أواخر القرن الثامن عشر، فى الوقت الذى كانت الحرب قائمة بين الجمهورية الفرنسية، ودول التحالف الأول، وانتصرت فرنسا فى القارة، ولم يبق من أعدائها سوى النمسا وانجلترا، وكان ميدان الحرب مع انجلترا فى البحار والمستعمرات وميدانها مع النمسا شبه الجزيرة الإيطالية، ولقد ترتب على انتصارات نابليون على النمسا فى إيطاليا وتوقيع معاهدة كامبو

(١) حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط، الجزء الأول، الطبعة

الأولى، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٧٨ .

٩: رميو في (١٧ أكتوبر ١٧٩٧) أن أصبحت بريطانيا العظمى وفرنسا في موقف المواجهة الصريحة، حينئذ فكر الفرنسيون في غزو بريطانيا العظمى لكنهم لم يلبثوا أن أدركوا ما تتضمنه هذا المشروع من أخطار بالغة، وأن من الأصوب أن يهاجموا بريطانيا العظمى في المناطق الضعيفة من ممتلكاتها فيما وراء البحار، وطرح كل من "تاليران" (وزير خارجية فرنسا) و نابليون فكرة غزو مصر على بساط البحث(١).

وأخيراً وافقت حكومة الإدارة(٢) على إرسال الحملة الفرنسية على مصر ساعية بذلك إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية وهي :

أولاً : توجيه ضربة مباشرة إلى بريطانيا العظمى بالسيطرة على أحسن طريق إلى الهند .

ثانياً : تأسيس مستعمرة مزدهرة واستغلال موارد مصر العظيمة .

ثالثاً : التوصل على ارتياد مصر القديمة والحديثة على أساس علمي(٣).

ولقد قال نابليون في مذكراته أن هناك ثلاثة أسباب لغزو مصر وهم :

١- تكوين مستعمرة فرنسية في مصر تعوض فرنسا ما فقدته من مستعمرات في أمريكا والهند .

٢- فتح سوق لمنتجاتهم في أفريقيا وبلاد العرب وسوريا وجلب المواد الخام من هذه البلاد إلى فرنسا .

٣- أن يبدأ من مصر بـ ٦٠,٠٠٠ رجل لغزو الهند(٤).

وواضح من الأسباب المذكورة رغبة فرنسا في توسع استعماري جديد تعوض به ما فقدته من مستعمرات في أمريكا الشمالية والهند من ناحية وللإضرار بالمصالح البريطانية من ناحية ثانية، إذ أرادت أن تجعل من مصر قاعدة لتهديد بريطانيا في الهند وتحويل

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل : ١٧٩٨-١٨٧٩ .

ضمن كتاب المجلد في التاريخ المصري، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٢، ص ص ٢٨٧، ٢٨٨ .

(٢) يطلق اسم حكومة الإدارة على الحكومة التي تأسست في فرنسا على أساس دستور ١٧٩٥، وقد بقيت قائمة إلى أن أسقطها نابليون بعد عودته من مصر سنة ١٧٩٩ وحل محلها نظام القنصلية حيث صار نابليون فيها القنصل الأول .

(٣) Louis Bréhier : L'Egypte de 1798 à 1900, Paris, 1900, P. 30.

(٤) نقلا عن : Arthure, P. Brome weigall. A History of events in Egypt from 1798, To 1914, London, 1915, P. 9

التجارة الشرقية إلى طريق مصر، وإذا كانت هذه هي الأسباب الرئيسية للحملة الفرنسية على مصر، فإن هناك أسباب ثانوية تعد في الدرجة الثانية من الأهمية منها أن همّة نابليون قد أبت عليه البقاء في فرنسا من غير عمل، وخشى أن الشعب لا يلبث أن ينساه إذا لم يظفر أمامه بعمل عظيم، لذلك أخذ ينقب عن مشروع تتجلى فيه عبقريته ومواهبه، فلم يجد أمامه سوى الشرق ميداناً لكبار الأبطال من قديم الزمان، وكان نابليون يطمح أن يقلد الاسكندر الأكبر فينشئ في الشرق دولة كدولته (١). كما يدخل ضمن الأسباب الثانوية ما يعتبره بعض المؤرخين من أن حكومة الإدارة كانت تريد أن تبعد نابليون عن مسرح الأحداث في فرنسا نظراً لما أصبح يتمتع به من شعبية ومن ثقة الجيش من كفايته، إذ كان الجيش يعيش نشوة من الانتصارات التي أحرزها على يد نابليون (٢) ولكن ليس من المحتمل أن تحرم أى حكومة نفسها من خدمات جيش وأسطول لمجرد أن تتخلص من احتمال ظهور خصم قوى خطر.

رهنالك أسباب صورية من نوع الأسباب التي تتذرع بها الحكومات عادة لتبرير وقفها إزاء القانون العام وأمام غيرها من الدول، فقد تظاهرت فرنسا أنها إنما أرسلت الحملة لتأديب المماليك والاقتصاص منهم بسبب ما وقع على التجار والرعايا الفرنسيين في مصر من الظلم والمصادرة والاضطهاد في عهد إبراهيم بك ومراد بك مما دعا قنصلهم "مجالون" إلى إرسال الشكوى إلى حكومته (٣)، وهكذا استغلت فرنسا ما تعرض له رعاياها في مصر من ظلم واضطهاد لتتخذ سبباً ظاهراً يبرر موقفها أمام العالم لحملتها على مصر.

(١) محمد رفعت بك : تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٠.

(٢) زينب عصمت راشد : تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، دون

تاريخ، ص ١٦٣.

(٣) محمد رفعت بك : المرجع السابق، ص ٢٠.

إعداد الحملة

اختلف المؤرخون فى تقديرهم لعدد جنود الحملة، ولكن أقرب الآراء إلى الصحة أن عدد جنود الحملة بلغ ٨٢٦، ٣٦ مقاتلا^(١)، تم اختيارهم من بين الجنود الذين قادهم بونايرت من قبل بنجاح رائع فى إيطاليا، أما قواد الألوية والفرق، فحرص على أن يكونوا من بين الرجال الذين رقاهم بنفسه أو عينهم فى مناصبهم تلك، وهكذا اختار "ديزيه" و"كليبر" و"برتييه" و"مارمون"^(٢) وآخرون غيرهم ممن صحبوا نابليون فى حملته على مصر .

وتألفت الحملة من ٥٥ مركبا حربيا، ٢٨٠ نقالة، وهذا عدا الخيول والمدافع، كما أن الحملة كانت تضم إليها جماعة كبيرة من صفوة علماء فرنسا فى جميع التخصصات العلمية^(٣)، وبلغ عدد هؤلاء العلماء ١٤٦ عضوا ما بين عالم وأديب ومهندس ومثال تألفت منهم لجنة العلوم والفنون التى كان لها شأن يذكر فى تاريخ الحملة الفرنسية^(٤)، وكان فى وجود الرياضيين وعلماء طبقات الأرض والأثريين والكيميائيين ضمن علماء الحملة مما دل على اهتمام نابليون بالأمور المدنية وعلى رغبته فى أن يكون فتح مصر مخالفا للفتوح العادية، والسبب فى ذلك أنه منذ انتخابه عضوا فى المجمع العلمى، فكر فى إمالة اللثام عن أرض الفراغة بالبحث العلمى، وانتوى كذلك أن يدرس الشرق وشرائعه وعاداته وفنونه ومصنوعاته وديانته وبذلك يصبح الإنجيل والقرآن توعمين فى مكتبته السياسية ويتمكن نابليون من محادثة الشرق بلغته وبما تعودده الناس من الأفكار^(٥).

(١) محمد فراء شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على : القاهرة، دون تاريخ، ص ١٣٢ .

(٢) الان مور هيد : النيل الأزرق ترجمة نظمى لوقا، القاهرة ١٩٦٦، ص ٧٧ .

(٣) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق، ص ١٣٢ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، الطبعة

الخامسة، القاهرة دار المعارف ١٩٨١، ص ٨٣ .

(٥) هربرت فيشر : نابليون : نقله إلى العربية، محمد مصطفى زيادة، محمد نوفل، القاهرة، دار المعارف

١٩٥٢، ص ٦٧ .

لهذا نجد نابليون يأمر بجمع مكتبة كاملة للحملة، وراح يقضى أيامه على ظهر البارجة الشرق مطالعا ساعات طوالا فى كثير من تلك الكتب الثقافية التى تضمنتها مكتبة الحملة وعددها ٢٨٧ كتاباً(١) .

كما أدرك بوناپرت منذ اللحظة التى قرر فيها احتلال مصر أن الدعاية هى السلاح الذى قد يكسب به قلوب المصريين، فكان عليه إذن أن يعد عدة لحملة من الدعاية يوطد أركانها بمطبعة يحملها معه لتساعده فيما يرمى إليه، لذلك حرص بوناپرت على تزويد المطبعة التى سيحملها معه إلى مصر بالحروف العربية واليونانية والفرنسية، وعنى عناية خاصة برجال المطبعة الجديدة ومعداتهما، وليس التحبب إلى المصريين هو الغرض الوحيد من إحضار المطبعة، بل هناك صحيفة "كوربيه دى ليجييت Courriey de L'Egypte" التى سوف تحمل إلى جنده وقواده الأخبار من هنا وهناك فتقوى روحهم المعنوية ومجلة "لاديكاد إيجيپسيين La Decade Egyptienne" ذلك السجل الذى سيحوى أبحاث وتقارير علماء الحملة وغيرها من المطبوعات(٢) ومن العرض السابق يتبين لنا كيف أن نابليون قد استطاع بذكائه أن يعد للحملة إعدادا محكماً فلم ينس شيئا مهما، بل يمكن القول بأن الحملة الفرنسية تعتبر أول حملة من الحملات العسكرية فى تاريخ العالم ضمت بين صفوفها بعثة علمية من طراز فريد، والفضل فى ذلك بلا منازع يرجع لنابليون دون سواه، بل إن الحملة أصبحت لها مكانا ممتازا فى تاريخ الإنسانية والعلم والحضارة بفضل هؤلاء العلماء الذين رافقوا نابليون فى حملته على مصر .

معركة إمبابية أو الأهرام (٢١ يولية ١٧٩٨)

وفرار مراد بك إلى الصعيد

قبل أن نتحدث عن معركة إمبابية نود أن نشير إلى أن الحملة الفرنسية قد وصلت تجاه الإسكندرية يوم أول يولية سنة ١٧٩٨، وأخذ جنود الحملة ينزلون غرب الإسكندرية ليلة ٢ يولية وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم، وبعد أن ثبت نابليون قدمه فى الإسكندرية أخذ يزحف على القاهرة عن طريق دمنهور، والتقى مراد بك بالجيش الفرنسى

(١) آلان مورهد : المرجع السابق، ص ٨٣ .

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى، القاهرة، دار المعارف ١٩٥٨، ص ١٢١ .

بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يولية سنة ١٧٩٨ فهزمه نابليون واضطره إلى التقهقر فانتفى مراد راجعا إلى القاهرة استعدادا للمعركة الفاصلة بينهما ألا وهى معركة امبابه فماذا عن أحداث هذه المعركة؟

رأى نابليون أن يسرع باحتلال القاهرة، لأنه كان يعتقد أن الاستيلاء على العاصمة هو بمثابة فتح القطر بأكمله، ومن الضروري أن يصل القاهرة قبل فيضان النيل حتى يستطيع دخولها دون عوائق طبيعية تعوقه عن سيره وقبل أن يجمع المماليك شملهم ويوحدوا صفوفهم، تلك كانت خطة نابليون الأساسية التى فاق بها جميع من سبقه من القواد وهى الهجوم وتشيت الأعداء بسرعة زائدة وادخال الفرع والرعب فى قلوب خصومه^(١)، ولذلك نجد نابليون وجنوده يواصلون الزحف فى طريقهم إلى القاهرة بعد انتصارهم على المماليك فى شبراخيت، ووصل الجيش الفرنسى إلى أم دينار يوم ١٩ يوليو ١٧٩٨ .

وكان المماليك قد اتخذوا العدة لمقابلة الفرنسيين ووزعوا قواتهم إلى قسمين، قسم برئاسة ابراهيم بك ظل مرابطا على الضفة اليمنى للنيل فى بولاق، والآخر بقيادة مراد بك على الضفة اليسرى، وكانت قوات مراد بك تمتد منتشرة من بشيت وإمبابه إلى الأهرامات ويلاحظ هنا أن المماليك قد أخطأوا فى تقسيم قواتهم ووضع الجزء المهم من هذه القوات على الضفة اليسرى، إذ كان من الأفضل أن يجمعوا قواتهم على الضفة اليمنى ويتركوا للفرنسيين مهمه عبور النيل وهى مهمه لا تخلوا من خطر على الجيش المهاجم ولكن يظهر أن المماليك كانوا قد أعدوا خطة التقهقر قبل أن ينظموا خطط الدفاع^(٢) أو قل أنهم قد وضعوا الهزيمة نصب أعينهم فأعدوا وسائل الهرب قبل وسائل الحرب، وجمعوا جواهرهم وحليهم قبل أن يجمعوا بناذقهم ورصاصهم، وفى ذلك يقول الجبرتي "فشرعوا فى نقل امتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم

(١) أنور الرفاعى : بونابرت فى مصر والشام، دمشق ١٩٤٧، ص ٢٧.

(٢) محمد رفعت: المرجع السابق، ص ٢٥ .

وتقاتهم وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضا فى تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأدوات الارتحال" (١).

وإذا أضفنا إلى ذلك عدم وجود تعاون بين قيادات المماليك (ابراهيم بك ومراد بك) حيث كان كل فريق يرتاب فى نيات الآخر، وبقي جيش كل منهما بعيدا عن الآخر، ابراهيم بك فى بولاق ومراد بك فى امبابة ويفصل بينهما نهر النيل لأدركنا أن تخطيط المماليك لخوض معركة امبابة كان تخطيطا مبنيا على الجهل وعدم النظام، فى حين كان جيش نابليون مجهزا بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التى اكسبته النصر فى حروب أوروبا.

وسرعان ما لحظ بونابرت بمجرد خروجه من أم دينار، ضعف ترتيبات أعدائه وأظهر ذلك أن المماليك اعتمدوا أكثر الاعتماد على التحصن فى امبابة، فأقاموا بها مدافعهم، وهى قديمة مثبتة على أرصفة. أعدت لها ولا يمكن نقلها أو تحويل طلقاتها إلى اتجاهات غير تلك الموجهة أصلاً إليها، فأدرك نابليون أهمية عدم التعرض لإصابات هذه المدافع (٢) وكان كل همه أن يفصل بين القلب وبين ميمنة أعدائه المركزة فى امبابة وأخذ الجيش الفرنسى بقيادة نابليون يتأهب للقتال، ورتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات، ووضع المدافع على زوايا كل مربع، وكانت فرقنا الجنرال ديزيه والجنرال رينيه بالميمنة، وفرقتا الجنرال بون وفيال بالميسرة، وفى القلب فرقة الجنرال دوجا وفيها نابليون يرسم الخطط ويصدر الأوامر ويرقب حركات الجناحين (٣).

ورأى نابليون أن المماليك يتأهبون لهاجمته من الأمام كعادتهم، فقسم جيشه إلى فرق كل منها على شكل مربع مجوف وساقها على المماليك على هيئة هلال يستعد وسطه للقاء قلب المماليك ويحيط طرفاه بجناحيهم.

(١) عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، بيروت، دار الجيل، دون تاريخ، ص ٢٨٦.

(٢) محمد فؤاد شكرى: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٣) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٤.

وإذا كان علم مراد بك بالخطط والحركات الحربية بدائياً، إلا أنه قد وهب بصراً ثاقباً وإلهاماً حربياً، فما أن لحظ الهدف من مناورة بونابرت، وهو اختراق قلب المماليك وقطع خط الرجعة عليه، حتى أمر جميع فرسانه بمهاجمة فرقتي الطليعة الفرنسيين، أي فرقتي ديزيه ورينييه^(١) ونفذ الهجوم بسرعة وإصرار لا يخطران بالبال، حتى خيل لبونابرت أن "ديزيه" أصبح في خطر، وأنه ليس لديه الوقت الكافي للاصطفاف للقتال، ولكن لحسن حظه كانت الفئة الأولى من المماليك الذين هاجموه قليلاً، قتل نصفها بطلقات المدافع فتمكن في وقت سقوطها وارتداد الباقي منها من تكوين مربعه، ورتبت المدافع وطلقات البنادق على الجهات الأربع، ورأى الجنرال (رينيه) الخطر كما رآه (ديزيه) فشكّل جنوده في مربع أيضاً، وتلقى الخيالة المماليك من الجهات الأربع، وقامت فرقة الجنرال دوجا التي يقودها بونابرت فعلاً بحركة دوران حول ميمنة المصريين فحالت بينها وبين النيل، واستطاعت أن تطلق المدافع من وراء الخيالة المماليك المواجهين لمربع "رينيه" فوقع بذلك المماليك بين نارين من أمام ومن خلف فصاروا يتساقطون جثثاً هامة على الأرض^(٢) واختل نظام الجيش المصري، ومات الكثير من زعمائه وشجعانه ومن نجا من الموت ارتد فريق منهم إلى إمبابه، أما الغالبية العظمى منهم فارتدوا إلى الجيزة، وفي الوجه التالي من المعركة أمر نابليون قوات الميسرة من جنود الجنرال بون والجنرال فيال بمهاجمة إمبابه، فوقع الهجوم في الوقت الذي كان فرسان مراد بك يغامرون بأنفسهم بين فرقتي ديزيه ورينييه، واشترك في الهجوم فرقة الجنرال دوجا، فدار قتال شديد بينهم وبين المصريين والمماليك، وكر هؤلاء على الفرنسيين لكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا إلى معاقلهم وحاولوا صد هجوم الفرنسيين بإطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات إمبابه لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق، فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة، ولم يستطع رماثها أن يعيدوا الضرب بها، فاختل نظام الجيش المصري في إمبابه، وأحاط جنود الجنرال رامبون ومارمون بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين إلى النيل، وتمكن الفرنسيون من تطويقها فوقع المصريون والمماليك بين نارين، فكان العدو أمامهم والنيل من ورائهم، ووقعت الهزيمة بجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلاً أو غرقاً في النيل واستولى الفرنسيون على إمبابه

(١) ج. ١، كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر: ترجمة فؤاد أندراوس مراجعة محمد أنيس، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦، ص ١٠٦ .

(٢) أحمد حافظ عوض: فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر القاهرة ١٩٢٥، ص ١٤٠ .

و غنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن، فلما علم مراد بك بسقوط إمبابية تحقق أن الهزيمة حلت به فقر بالباقيين من جنوده، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف إلى جنوبى الجيزة، وأغرق المماليك السفن الحربية التى كانت بالنيل حتى لاتقع فى أيدى الفرنسيين، وانتهت المعركة فى نحو الساعة السادسة مساءً من يوم ٢١ يوليو ١٧٩٨ بانتصار نابليون وجنوده والقضاء على قوة البلاد الحربية(١) .

أما إبراهيم بك الذى كان يرباط فى الشاطئ الشرقى ليدافع عن القاهرة إذا ما اعتزم الفرنسيون عبور النيل، فإنه ظل يرقب تطورات المعركة وبقي جامداً لا يحرك ساكناً حتى علم بهزيمة زميله مراد بك، فأركن إلى الفرار هو ومن معه من المماليك وغادروا العاصمة وقصدوا إلى بلبيس ثم إلى سوريا حاملين ما وصلت إليه أيديهم من المتاع والأموال والتحف، لينجو بها ويستخلصونها لأنفسهم، ويلخص مؤرخ معاصر أسباب هزيمة المماليك فى هذه الموقعة بقوله "ولكن الاجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون فى رئيسهم، مغترون يجمعهم محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون فى رؤيتهم، مغمرون فى غفلتهم وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم"(٢) .

ويمكن القول أن من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة القوات المملوكية أن المماليك لم يأخذوا بأسباب التطور فى مجالات الأسلحة وفنون القتال التى تقدمت فى أوروبا بعد اندلاع الثورة الصناعية، وتجمدت أساليبهم وطرائقهم، وعاشوا بعقلية العصور الوسطى فى أواخر القرن الثامن عشر، وبالتالي فلقد واجهوا جيش نابليون بأساليب الفروسية المتخلفة، ولم يكن المماليك يعلمون أن عهد الفروسية قد انتهى، ولم يكن فى مصر قوة للقتال غير قوة الخيالة المماليك التى كانت تحسن القتال مع جنود من نوعها، لا أمام بطاريات من مدافع متحركة، ولا أمام بنادق سريعة الطلقات، ولا أمام حركات عسكرية فنية كالتى امتاز بها جيش نابليون وقهر بها جيوش ايطاليا والنمسا(٣)، لهذا كان واضحاً البون الشاسع فى مجال التسليح والتكتيك العسكرى الحديث، ومن ثم كانت الهزيمة الساحقة التى أصابت الجيش المصرى بزعامة المماليك ولكنه بالرغم من الفرق الشاسع فى التسليح بين المماليك

(١) عبد الرحمن الرفاعى: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٨ .

(٢) الجبرتى: المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٨ .

(٣) أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص ١٤١ .

والفرنسيين إلا أن جموع الشعب قد كافحت وناضلت عن أرضها بكل ما تستطيع أن تملكه من امكانات، فلقد تطوع آلاف مؤلفة من أهل القاهرة والفلاحين من سكان الأقاليم والعربان حيث يذكر الجبرتي "وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيري والقيعان وأولاد على والهنادي وغيرهم" (١) .

وهكذا اشتركت جموع الشعب المختلفة في هذه المعركة، حيث يقدر عدد الذين اشتركوا من أفراد الشعب في القتال في هذه المعركة بنحو عشرين ألفاً في حين كان عدد المماليك الذين حاربوا في هذه المعركة لا يزيد على ستة آلاف (٢) .

وكانت خسائر المصريين في الأرواح فادحة، حيث قتل منهم خمسة آلاف، بينما بلغت خسائر المماليك ألفي قتيل، ويقرر بونابرت في مذكراته أن خسائر الفرنسيين بلغت ثلاثمائة قتيل (٣)، واختار الفرنسيون لمعركة امبابية اسماً خالداً له رنيناً تمجيداً لانتصارهم فأطلقوا عليها معركة الأهرام .

ويصف الجبرتي ما حل بالقاهرة من فزع بعد معركة امبابية بقوله "واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه، ولايسأل أحد عن أحد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه، فخرج في تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لايقدر على الحركة ممثلاً للقضاء متوقفاً للمكروه، وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عيالة وأطفاله، ويصرفه عليهم في القربة فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور" (٤) . وهكذا كانت تلك الليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولاسمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين، فما راء كمن سمعا كما يذكر الجبرتي (٥) .

(١) الجبرتي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٧ .

(٢) محد سعيد العريان، جمال الدين الشيال: قصة الكفاح بين العرب والاستعمار، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٠، ص ١٣١ .

(٣) نقلاً عن عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب . عدد رقم ٦٧، القاهرة، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص ٤١ ، وجيه على أبو حمزة: القاهرة في عصر الحملة الفرنسية: رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بآداب المنيا، ١٩٨١، ص ١٠٣ .

(٤) الجبرتي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٠ .

(٥) نفس المصدر ص ١٩٢ .

وبعد انتصار الفرنسيين فى هذه الموقعة، دخل نابليون وجنوده القاهرة فى ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨، أما فلول المماليك فقد انسحبت إلى الصعيد وتبعها مراد بك فأرسل بونايرت القائد "ديزيه" على رأس قوة إلى الصعيد لمطاردة مراد بك وأتباعه لكن ما هى الأسباب التى دفعت الفرنسيين إلى احتلال الصعيد؟.

أسباب احتلال الفرنسيين للصعيد

فر مراد بك إلى الصعيد بعد هزيمته فى موقعة امبابه (٢١ يولية ١٧٩٨) آخذاً معه الباقين من جنوده وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف، فشكل ذلك خطراً على نابليون، لأنه لن يحس بالأمان فى الدلتا ما دام المماليك مسيطرين على نهر النيل جنوبى القاهرة، إذ كان معنى ذلك أن فى استطاعتهم - فى أى لحظة - أن يكروا عليه بهجوم مفاجئ من مصر العليا، والواقع أنه كان معروفاً أن مراد بك راح يجمع بالفعل جيشاً جديداً فى صعيد مصر .

ولقد سبق لمراد بك فى زمن مضى أن أقصى على يد الأتراك إلى الصعيد بالقوة، إلا أنه عاد بعد ذلك بالقوة أيضاً منتصراً إلى القاهرة، وكان فى استطاعة مراد بك أن يعتمد إلى حد ما على مساعدات البدو والقبائل التى تعيش فى الصعيد على امتداد ضفتى النيل، إلى جانب أتباعه من المماليك، وبالتالى كان من الممكن ان تتكون لديه قوة كبيرة للقيام بغارات مسلحة على أقاليم الدلتا، وربما أيضاً لضرب الحصار على القاهرة نفسها، حيث كان مراد بك على اتصال بالمراسلات مع الساخطين فى مدينتى القاهرة والاسكندرية، ومع زميله ابراهيم بك فى غزه، وبالجزار باشا فى عكا، وبالأسطول الانجليزى المرابط أمام الاسكندرية، وكانت مراسلاته مع هؤلاء تتم بواسطة البدو(١).

وأصبح بقاء مراد بك بمصر الوسطى والعليا لايرحهما أمراً لايطيقه الفرنسيون حتى ولو لم ينشأ عنه تهديد مباشر لتملكهم القاهرة والدلتا، فما دام مراد جراً طليقاً فسينتظر

(١) آلان مورهيدي: النيل الأزرق: ترجمة نظمي لوقا، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦، ص ص ١٥٠، ١٥١.
ج. كرسنوفر هيرولد. بونايرت فى مصر: ترجمة فؤاد أندراوس: مراجعة محمد أحمد أنيس: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ص ٢٤٤ .

سكان الأقاليم المحتلة عودته آخر الأمر ، سواء أرادوا أو لم يريدوا، وسوف تتأثر نفوسهم بدعاية مراد بك وتستجيب لها إما بالخوف منه، وإما بالتحمس له، أضف إلى ذلك انه كان من الضروري طرد مراد بك من مصر الوسطى والعليا قبل أن يجد من الوقت متسعاً لجمع الضرائب هناك، لئلا يفلت هذا المورد من الخزانه الفرنسية وهى فى أمس الحاجة إليه(١) . ولا شك فى أن كل هذه الأسباب قد جعلت نابليون يفكر بنظره الثاقب وهو غارق فى مجالات نشاطه المتباينة الألوان فى إرسال حملة لإخضاع الصعيد لسلطته والقضاء على قوة مراد بك، لأن وجود قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، ويكون مثابة للمقاومة الأهلية، ويعطل الملاحة فى النيل، ويحبس الغلال على الوجه البحرى، فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة(٢) .

وبالفعل فلقد تعطلت الملاحة فى النيل فى الشهور الأولى من احتلال القاهرة وحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن المحملة غللاً إلى القاهرة حتى لا تقع فى ايدى الفرنسيين، فخشى نابليون من استفحال هذه الأمور، فتكون مصدر تهديد له تزيد من متاعبه فعزم على إرسال حملة لإحتلال الصعيد .

نابليون ومحاولة الاتفاق مع مراد

قبل ان يهم نابليون بإرسال حملة لإخضاع الصعيد، فكر فى أن يدخر قواته ويمنع الحرب وذلك نظراً للموقف الحرج للحملة فى الوجه البحرى والقاهرة بسبب المقاومة الشعبية، هذا إلى جانب ما ستعرض له حملته فى صعيد مصر من صعاب تتمثل فى كون بلاد الوجه القبلى مستطيلة ومتباعدة عن بعضها البعض، وتحف بها الصحارى الواسعة، فضلاً عن وعورة الطرق وصعوبة المواصلات(٣) .

(١) كرستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص ٢٤٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق، ج١، ص ٣٣٧، عبد العزيز رفاعى : الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة صور تاريخية من البطولات الشعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٠ .

(٣) أحمد موسى عبد العظيم : النضال الشعبى لمحافظة قنا : القاهرة ١٩٧٦، ص ١٥ .

لذلك فكر نابليون فى أن يتبع أسلوب المفاوضات السلمية مع مراد بك على أن يترك له إقليم جرجا وما يليها إلى الشلال، ويكون تابعا للحكومة الفرنسية فيؤدى الخراج الذى كان يخرج من هذه الجهات، وكان المسيو كارلو روستى Rosetti "قنصل النمسا فى مصر رسول المفاوضات بينهما، فبعث إليه نابليون بتعليماته فى الرسالة الآتية "المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ ترميدور من السنة السادسة (أول أغسطس سنة ١٧٩٨) .

"إلى المواطن روستى، عليك أن تذهب سراً إلى مراد بك وتخبره بأنك قدمت لى الرسول الذى أوفده إلى، وأن هذا الرسول قد ترك فى نفسى أثراً سيئاً بثروته وأقواله الطائشة، على أننى أدركت أنه قد يجئ الوقت الذى أرى فيه من مصلحتى أن أنتفع بخدمات مراد بك، وأن اتخذه عضداً أميناً لى، فلتخبره أنى أقبل إذا تم الاتفاق بيننا أن تبقى مديرية جرجا فى حيازته على أن ينسحب إليها فى مدى خمسة أيام، وأن لا أرسل إليها من ناحيتى أياً من الجنود، وعليك أن تبلغه كذلك أنه إذا تم الاتفاق مبدئياً على هذه الشروط فمن المحتمل إذا ازدادت معرفة به وثقة بمقاصده أن أعاهده على مزايا أكبر، وعليك أن توقع وإياه على معاهدة اتفاق تكتب باللغتين الفرنسية والعربية وتكون مؤلفة على وجه التقريب من الشروط الآتية :

المادة الأولى : يستبقى مراد بك معه خمسمائة أو ستمائة من الفرسان تكون عدته فى حكم مديرية جرجا من شلال أسوان إلى مايلى جرجا شمالاً بنصف فرسخ وعليه أن يجعلها فى مأمن من هجمات العرب .

المادة الثانية : يعترف مراد بك بأن يكون فى حكم المديرية المذكورة تابعا لفرنسا وأن يدفع لخزانة الجيش الخراج الذى يجبى منها .

المادة الثالثة : يتعهد القائد العام من ناحيته ألا تحتل جنوده أى جهة من مديرية جرجا وأن يترك إدارتها لمراد بك .

المادة الرابعة : على مراد بك أن يمضى برجاله إلى ماوراء حدود مديرية جرجا فى مدى خمسة أيام، ولا يسوغ لأحد من أتباعه أن يتخطى هذه الحدود إلى مديرية أخرى إلا بإذن من القائد العام" (١) .

مراسلات نابليون : الجزء الرابع، وثيقة رقم ٢٩٢١ نقلا عن عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق،

ولقد زود نابليون القنصل روستى بتفويض كتابى يخوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك، وتوجه القنصل المذكور إلى مراد بك وأعطاه المکتوب وأفهمه باللسان فكان جواب مراد بك "إن هذا الكلام نحن لا نقدر أن نسمعه ولكن قول الى الجنرال بونايرته يأخذ عساكره ويرجع إلى اسكندرية ونحن ندفع له عشرة آلاف كيس ويتوجه إلى بلاده" (١) فإن فعل حقن دماء جنوده ووفر على مشقة محاربته (٢) .

وواضح من العرض السابق أن نابليون كان راغبا فى الاتفاق مع مراد بك وإذا كانت رغبته فى الاتفاق من أجل ادخار قواته، فما هى الأسباب التى جعلت مراد بك يرفض الاتفاق مع نابليون؟

أغلب الظن أن رفض مراد بك للعرض الفرنسى السالف الذكر ناتج عن الأخبار التى وصلته عن معركة أبوقير (أول أغسطس ١٧٩٨) والتى انتهت بتدمير الأسطول الفرنسى (٣)، حيث كان المماليك يتلقون الأنباء بأسرع مما يتلقاها بونايرت، لأن البدو كانوا يتعاونون معهم (٤) .

ولذلك نجد فى رد مراد بك على نابليون غطرسة وثقة زائدة بالنفس يبدو أنها ناتجة عن فهم مراد بك أن نابليون حين عرض عليه هذا العرض قد ضعف فرفضه، وكان ذلك من توفيق الله، إذ لو تحالف الاستعمار مع الاستغلال لكانت الفريسة هى الشعب (٥)، وعلى كل حال فإن نابليون لم يرسل ديزيه (٦) ليتعقب قوات مراد بالصعيد إلا بعد أن تلقى جواب مراد السالف الذكر .

(١) نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك : نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت، القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٥٠، ص ١٨ .

(٢) كرسطوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ١٥٧ .

(٣) Henry Laurens, L'Expédition D'Égypte 1798-1801, Paris 1989, P. 155.

(٤) كرسطوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ١٥٧ .

(٥) محمد صبيح : كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرون، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٠ .

(٦) ولد لوى ديزيه فى ١٧ أغسطس ١٧٦٨ قبل مولد بونايرت بسنة من أسرة تنتمى لطبقة صغار النبلاء، وكانوا من أصحاب الضياع فى الريف وحين بلغ الثامنة من عمره دخل مدرسة افيا الحربية ليدرس =

تحرك حملة الجنرال ديزيه واحتلال بنى سويف

جعل نابليون الجنرال ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلى، وأصدر نابليون أمره إلى الجنرال ديزيه بالسير لمقاتلة مراد بك والقضاء على قواته من جهة، واخضاع الوجه القبلى من جهة أخرى^(١)، فشرع الجنرال ديزيه فى مغادرة الجيزة وركب سفينة فى ٨ فريكتيدور^(٢) من العام السادس من التقويم الجمهورى الموافق ٢٥ أغسطس ١٧٩٨، وتحرك مع أول ضوء من اليوم المذكور مع كتيبتين من الصف ٨٨ وكتيبتين من الصف الثانى

= على منحة دراسة وحاول فى الخامسة عشرة أن يدخل الأكاديمية البحرية، فلما رفض طلبه حصل على وظيفة ملازم ثان فى فرقة المشاة البرتية، ومع أنه كان لا يزال ملازماً عند نشوب الثورة الفرنسية، فقد رأى كما رأى معظم النبلاء المنخرطين فى سلك الجيش أن يبقى فى الجيش دون نظر للآراء السياسية بدلا من أن يهاجر ويقاىل وطنه، ونشبت الحرب فى عام ١٧٩٢، وجلبت معها فرصا لاحد لها للمجد والطفرة فى الترقى، وبقى ديزيه الذى كان يقاىل فى جيش الراين الى رتبة الفريق فى ٢٠ أغسطس ١٧٩٣، فقفز بذلك من ملازم ثان إلى رتبة القيادة فى سبعة شهور، ولقد اكتسب شهرة لم تفقها غير شهرة القائد الأعلى لجيش إيطاليا، واصبح اسم ديزيه وبونابرت محل الإعجاب الشديد من الفرنسيين المنتصرين والنمسا وبين المغلوبين على السواء، ولقد كان ديزيه جنديا أصيلا، وإذا كان المجد الحربى عند بونابرت وسيلة الى السلطان، فإنه عند ديزيه غاية فى ذاته.

ولقد كان الجنرال ديزيه أحد أهم القواد الذين رافقوا بونابرت فى حملته على مصر، ولقد عينه نابليون على رأس الحملة التى وجهها للقضاء على قوة مراد بك بالصعيد كما سنرى، ولقد غادر ديزيه مصر فى عهد كليبر بدعوة من بونابرت لينضم اليه فى حربه ضد النمسيين، فقتل فى معركة مارنوجو الشهيرة التى دارت عند إحدى القرى الإيطالية يوم ١٤ يونيو عام ١٨٠٠، وهو نفسه يوم مصرع كليبر.

- ولمزيد من التفصيل عن حياة الجنرال ديزيه منذ مولده وحتى نهاية حياته انظر :

F.Martha-Beker, Le gèneral Desaix, Etude Historique, Paris, 1852.

(١) مرسى أحمد ابراهيم : أسوان وعلاقتها مع جنوب الوادى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ١٧٩٨-١٨٣٩ . رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بأداب المنيا ١٩٨٢ . ص ٢٣ .

(٢) ادخلت الثورة الفرنسية تقويما جديدا ليحل محل التقويم الجريجورى وذلك عقب الغاء الملكية فى فرنسا، وكان التقويم الجمهورى الذى ادخلته الثورة الفرنسية يشتمل على ١٢ شهر بالاضافة إلى ٦ أيام تكميلية كالتالى :

الخفيف، وكتيبتين من الصف ٦١ والمدفعية المرتبطة بفرقته وبعض السفن المسلحة لحراسة الحملة (١) .

ولقد بلغ عدد تلك القوة التي تألفت منها حملة الجنرال ديزيه لإخضاع الصعيد أربعة آلاف جندي (٢)، ثلاثة آلاف منهم من المشاة وألفا من الخيالة، بالإضافة إلى ما يقرب من مائة مدفع، وأسطول صغير من القوارب، وسرب كبير من الجمال لنقل ما يلزم له على طول الطريق الصاعد مع النهر، وضمت الحملة بين صفوفها عددا من المترجمين والادلاء (٣) كما اصطحب الجنرال ديزيه معه المعلم يعقوب القبطي ليدبر لهم الأمور .

التقويم الجمهوري	الشهور الميلادية
١- فاندميير Vendemaire	من ٢٢ سبتمبر إلى ٢١ أكتوبر
٢- بروميير Brumaire	من ٢٣ أكتوبر إلى ٢١ نوفمبر
٣- فريمير Frimaire	من ٢١ نوفمبر إلى ٢٠ سبتمبر
٤- نيفوز Nivose	من ٢١ سبتمبر إلى ١٩ يناير
٥- بلوفيز Pluviose	من ٢٠ أو ٢١ أو ٢٣ يناير إلى ١٩ أو ٢٠ أو ٢١ فبراير
٦- فانتوز Ventose	من ١٩ فبراير إلى ٢٠ مارس
٧- جرمينال Germinal	من ٢١ مارس إلى ١٩ أبريل
٨- فلوريال Floreal	من ٢٠ أبريل إلى ١٩ مايو
٩- بريريال Prerial	من ٢٠ مايو إلى ١٨ يونية
١٠- ميسيدور Messidor	من ٢٠ يونية إلى ١٩ يولية
١١- ترميدور Thermidor	من ٢٠ يوليو إلى ١٨ أغسطس
١٢- فروكتيدور Fructidor	من ١٨ أغسطس إلى ١٦ سبتمبر

٦ أيام تكميلية Complementary من ١٧ سبتمبر إلى ٢١ سبتمبر . وما هو جدير بالذكر أن أوراى الفرنسيين ووثائقهم ظلت طوال إقامتهم في مصر تصدر مؤرخة بالتقويم الجمهوري، وبالتالي بهذه الاسماء الغربية على المصريين، وقد ألغى هذا التقويم في فرنسا سنة ١٨٠٤ .

Mémoires sur L'Egypte, publiés pendant les campagnes du Gèneral Bonaparte, (١) Dans Les années VI, et VII, avec La relation De ses campagnes en Égypte et en syrie, seconde partie, paris, fructidor an IX, P 79, Berthier : mémoires du marèchal Berthier, campagne d'Egypte, ire partie, Paris 1827, P. 104.

(٢) نقولا ترك : المصدر السابق، ص ٣١.

(٣) الآن ورهيد : المرجع السابق، ص ١٥٢.

ويعمل لهم أنواع المكر والخداع ويطلعهم على الخبايا ويصنع لهم الحيل^(١) وبالفعل كان المعلم يعقوب أصلح مستشار لتوجيه حملة ديزيه ضد مراد بك وذلك لمعرفته التامة بالصعيد لكونه صعيدى الاصل ولخبرته المالية والإدارية.

وبعد أن تم تجهيز الحملة على النحو السالف الذكر، بدأ ديزيه السير جنوبا لمطاردة مراد بك فى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٧٩٨، وسار جزء من الحملة على شاطئ النيل فوصلت إلى أطفيح فى ٢٩ أغسطس، ثم أفلعت السفن الفرنسية من أطفيح ووصلت يوم ٣١ أغسطس إلى بنى سويف واحتلتها بدون مقاومة^(٢)، وكان مراد بك بعد موقعة امبابة وفراره من الجيزة، قد اجتمع عليه بقية من بقى من المماليك فى الفيوم، وانضم اليه خصومه الذين كانوا فى الصعيد، وكذلك التف حوله عدد عديد من العربان، وبهذا الجيش المكون من المماليك والعربان اتخذ مراد بك مقره عند ناحية البهنسا فى مديرية الفيوم، وكانت معه بقية من بعض السفن الحربية التى سلمت من الحريق فى موقعة امبابة، وهذه سارت فى النيل إلى بلده المنيا واستقرت امامها^(٣)، وألقت القوارب والمراكب الصغيرة التى تحمل المؤونة والأدوات وبعض مستلزمات المماليك مراسيها فى بحر يوسف بالقرب من "أبو جرج"^(٤).

وبعد أن احتل الجنرال ديزيه بنى سويف بقى بها عدة أيام يستطلع أخبار المماليك، وينتظر وصول الذخائر والمؤونة من القاهرة، وهناك علم أن مراد بك مرابط فى ناحية

(١) عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، تحقيق وشرح، حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي : لجنة البيان العربى، الطبعة الأولى، ١٩٦٩، ص ٥٣.

(٢) Louis Reybaud, Histoire Scientifique et Militaire de L'Expédition Française en Egypte Paris 1830-1836, Tome III, P. 389

(٣) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابارت فى مصر، القاهرة ١٩٢٥، ص ١٧٥.

(٤) كانت "أبو جرج" تتبع مديرية بنى سويف، وهى الآن من بلاد مركز بنى مزار بمحافظة المنيا : انظر محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، القسم الثانى، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٠٩.

البهنسا^(١) بين بحر يوسف والجبل، وأنه جمع أسطوله فى هذا البحر يحمل زاده ومؤنثه وذخيرته، وكان لابد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تمضى الحملة فى النيل إلى ديروط، وهى مأخذ بحر يوسف، ومن ثم تتحدر فيه إلى أن تلتقى بقوة المماليك^(٢)، لذلك نجد الجنرال ديزيه بعد أن وفر لوسائله الزاد رحل بحملته حيث وصل إلى أبو جرج فى تمام الساعة السابعة مساء يوم ١٨ فروكتيدور الموافق ٤ سبتمبر ١٧٩٨^(٣).

احتلال البهنسا وتعقب اسطول المماليك إلى أسيوط

عزم ديزيه على أن يكشف مواقع مراد بك وأن يفاجئه براً فى البهنسا، فنزل إلى البر تجاه "أبو جرج" ومعه جزء من الجيش وسارت القوة براً حتى وصلت إلى البهنسا الواقعة على بحر يوسف، وقبل أن تصل إليها شعر مراد بك باقتربها، فأمر بانسحاب أسطوله إلى أسيوط حتى لا يقع فى أيدي الفرنسيين، وأخلى البهنسا فاحتلها ديزيه^(٤)، ولما علم الجنرال ديزيه من الاهالى أنه توجد اثنتا عشرة من المراكب محملة بالمؤونة والذخيرة على مقربة منه أمر رجاله من الوحدة ٢١ بالاستيلاء على هذه المراكب، فاستولوا عليها رغم النار التى كان يصيبها المماليك عليهم، وكان فى هذ المراكب بعض المماليك فلما رأوا أنهم واقعون فى أيدي الفرنسيين ألقوا بأنفسهم إلى الماء، وتمكن الكابتن راب Rapp ياور الجنرال ديزيه أن يجرد اثنين منهم من السلاح بعد مقاومة شديدة لأنهما رفضا التسليم، وكانت أحد عشر من هذه المراكب محملة بالذخيرة والطعام وخاصة بكمية كبيرة من القمح والمركبة الثانية عشرة كانت تحمل سبع قطع مدافع^(٥).

(١) كانت البهنسا قاعدة للأعمال البهنساوية فى عهد دولة المماليك، ثم لولاية البهنسا فى العهد العثمانى، وتقع البهنسا على الشاطئ الغربى لبحر يوسف، وأصبحت البهنسا الآن قرية من قرى مصر، تتبع مركز بنى مزار بمحافظة المنيا، لمزيد من التفاصيل : انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٣، ص ٢١٢ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٠ .

(٣) Mémoires sur L'Égypte. Op. Cit. P. 79, Berthier. Op. Cit. P. 105.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٠ .

(٥) Berthier. Op. Cit. P. 106, Desiré Lacroix, Bonaparte en Égypte, 1798-1799, Paris 1899, P. 190.

وعلم الجنرال ديزيه وهو فى البهنسا أن مراد بك بعد أن أقام فى هذه المدينة شهراً غادرها منذ ثمانية أيام وذهب إلى اللاهون بقرب الفيوم حيث يقيم محمد بك الألفى وبعض المماليك، ولاتزال المواصلات بين اللاهون والبهنسا سليمة، وأن البكوات عثمان رضوان وعمر ومماليك ابراهيم بك الصغير قد كلفوا بالمحافظة على البهنسا بجيش مؤلف من اربعمائة رجل من المماليك وقبيلتين من العرب، وقد حضر أولئك العرب من أسيوط منذ ثلاثة أيام، وأمروا بحماية الإمدادات التى تأتى من البلاد إلى البهنسا بطريق بحر يوسف، وفى نفس الوقت علم ديزيه أن العمارة البحرية التى كانت للمماليك فى أبى جرج زحفت إلى الامام لتحمى حركات مراد بك(١).

ولقد واجه الجنرال ديزيه تحركات المماليك هذه بأن عاد يوم ٧ سبتمبر ١٧٩٨ إلى أبو جرج، حيث انضم إلى مجموعته، ثم تحركت الحملة كلها صاعدة فى النيل، ووصلت يوم ١٢ سبتمبر إلى ديروط الشريف، وفى اليوم التالى اتخذت مكانا عند مدخل بحر يوسف(٢).

وعندما علم ديزيه أن أسطول مراد بك عند أسيوط عزم على أن يستمر جنوبا حتى أسيوط ليستولى على اسطول مراد بك، وقد علم أن معظم بحارته من اليونانيين(٣) الذين يمكن استمالتهم فدرس إليهم رسله لهذا الغرض فى محاولة منه لاستمالتهم إليه(٤)، ورحل ديزيه بالجزء الأكبر من قواته قاصداً أسيوط، وترك جزءاً من قواته فى ديروط على مدخل

(١) أحمد حافظ عوض : المرجع السابق، ص ص ١٧٦، ١٧٧.

(٢) Mémoires sur L'Égypte. Op. Cit. P. 80, Berthier, Op. Cit. P. 106

(٣) استخدم مراد بك يونانيين وكرواتيين وبمساعدهتهم أنشأ مصنعا للبارود وأسطولا كبيرا من المراكب الصغيرة، واتخذ من الجيزة ترسانة جديدة قام بالاشراف عليها ميكانيكيون ايطاليون، كما استخدم ضباط وصيدلة ايطاليين، وكان اسطول مراد بك تحت امره ضابط يونانى يدعى نيقولا كان يعمل سابقا فى خدمة القبطان باشا، واستطاع أن يجعل من أسطول مراد قوة يخشاها الفرنسيون إبان حملتهم على مصر.

- انظر : محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ - ١٩١٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون تاريخ، ص ١٥٩.

(٤) Voir Lettre de Desaix à Bonaparte en date 12 Septembre, 1798 Dans C.DE LA Jonquière, L'Expédition d'Egypte, Paris, 1899-1907, 5 Vol. Tome III, P. 202.

بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع وحماية الملاحة مع القاهرة، ووصل ديزيه إلى أسبوط يوم ١٤ سبتمبر ١٧٩٨، فلم يجد أسطول المماليك الذى تمكن قبل وصول ديزيه من السير جنوبا حتى وصل إلى جرجا، بينما هرب المماليك بمجرد أن علموا باقتراب الفرنسيين منهم^(١).

وعلم ديزيه أن ثلاثة من كشف سليمان بك وحوالى ثلثمائة مملوك وبعض العرب قد تركوا أسبوط وتوجهوا إلى قرية بنى عدى "على بعد ستة فراسخ من أسبوط" مع زوجاتهم وكثير من رجال السفن، ورأى ديزيه أن يفاجئهم فى موقعهم الجديد بعد أن فشل فى محاربتهم فى أسبوط، فتحركت قافلته بهدوء شديد فى مساء يوم ١٧ سبتمبر ١٧٩٨ ووصلت بنى عدى فى صباح اليوم التالى بعد مسيرة شاقة عبر الصحراء، ولم يجد ديزيه فى بنى عدى سوى السكون والخلاء، فقد علم المماليك بتحركات الفرنسيين عن طريق جواسيسهم، وتحركوا فورا بمجرد علمهم بخطتهم، متجهين إلى الصحراء للحاق بزملائهم فى الفيوم^(٢).

رجوع ديزيه إلى الفيوم

انزعج الجنرال ديزيه بعض الشئ عندما علم بتحريك المماليك بزعامه مراد بك إلى إقليم الفيوم الخصيب، ولكنه سعد بتجمع كل أعدائه فى مكان واحد، وصمم ديزيه على مباغتته مراد بك بعد أن فشل فى اللحاق بأسطول المماليك، وفشل أيضا فى مواجهة قوتهم، وهكذا كانت رحلته الأسبوطية عقيمة أضاعت عليه ثمانية أيام اغتتمها مراد بك ليقوى صفوفه فى الفيوم، وانحاز اليه عدد كبير من الأهالى وحالفوه على الفرنسيين، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم فى اللاهون لذلك نجد ديزيه يعود إلى أسبوط بعد أن علم بتحركات المماليك فى ١٩ سبتمبر ١٧٩٨ ويترك فيها نصف فرقته وسفينة حربية لحراسة قافلة كبيرة للحبوب كان قد أمر بشحنها إلى القاهرة.

Berthier, Op. Cit. P. 106.

(١)

Mémoires sur L'Egypte. Op. Cit. P. 81, Cit. PP. 106, 107, Dominique Di Pietro, (٢)
Voyage Historique en Égypte pendant Les campagnes des Gènèraux Bonaparte,
Kléber et Menou Paris 1827, P. 81.

وفى نفس المساء من اليوم المذكور رجل ديزيه مع فرقته العسكرية وأسطوله بنية
إذ يتنصّد أن يلحق بمراد بك الذى هرب إلى الفيوم، وفى ٢١ سبتمبر وصل ديزيه إلى مدخل
بحر يوسف وهو الممر المائى الوحيد الذى يتيح للفرنسيين المرور فى ذلك الوقت من السنة
إلى الفيوم (١) وفى ذلك الوقت تسلم ديزيه امدادات من القاهرة تتمثل فى خمسين قنطاراً من
البسكويت وثلاثة آلاف خرطوشة.

ثم سار ديزيه فى يوم ٢٣ سبتمبر ١٧٩٨، ودخل بحر يوسف بعد أن ترك ست سفن
مسلحة لتحمل مدخل بحر يوسف وتتقابل فى مستوى ديروط، وتلقّت اثنتان من هذه السفن
الأمر بالانحدار حتى بنى سويف مع اتباع حركة السفن الحربية (٢).

وبدأت السفن الفرنسية تسير فى بحر يوسف ابتداء من يوم ٢٣ سبتمبر ١٧٩٨
وكانت هناك صعوبات كثيرة واجهت الحملة تمثلت فى أن بحر يوسف يتخذ طريقاً متعرجاً
مما جعل المرور فيه متعباً، هذا إلى جانب هبوب الرياح من الصحراء، وقلة غور المياه،
فكان الجنود ينزلون إلى الشاطئ ويجرون السفن بالحبال فى محاولة منهم للإسراع فى
الوصول، ولكن على حد قول أحد المصادر المعاصرة "كانت كل هذه الجهود بلا جدوى
وكانت تصيبهم بالارهاق (٣).

وبالإضافة إلى الصعوبات السالفة الذكر فإن المراكب الفرنسية كانت تتعرض وهى
سائرة فى بحر يوسف لهجمات الأهالى والمماليك (٤)، ولاشك فى أن هذه الصعوبات تركت
فى نفس الفرنسيين أثراً سيئاً، حيث كانت الرحلة فى بحر يوسف طويلة وشاقة، وكان عدد
جنود فرقة الجنرال ديزيه تتناقص بشكل سريع، وفى كل يوم كانت تتفصل سفينة عن الركب
لتحمل المرضى إلى القاهرة، ويبدو أن اليأس قد سيطر على نفوس الفرنسيين إلى حد أن
اعتقد البعض منهم أن المماليك قد انتصروا عليهم دون حرب (٥)، وسارت فرقة ديزيه

(١) Berthier. Op. Cit. P. 107, Dominique , DI Pietro, Op. Cit. P. 82.

(٢) Berthier. Op. Cit. P. 107.

(٣) Dominique Di Pietro, Op. Cit. P. 83.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤١.

(٥) Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 83.

بالرغم من كل الصعوبات المذكورة، وفى يوم ٣ أكتوبر ١٧٩٨ لمحت طليعة الجيش الفرنسى مركزا عسكريا لمراد بك فى مستوى قرية منيكيا Menkia (١) وعلى الفور أمر ديزيه بالنزول من المراكب، واتجه مع فرقة فوق أنواع من التلال الرملية التى تهيم على القناة من مسافة إلى مسافة حتى اللاهون، وما أن أطلقت طليعة الجيش الفرنسى نيرانها على قوة المماليك حتى انسحبت بعيدا عن ضفة النهر تاركة القوات الفرنسية لتواصل سيرها فى بحر يوسف (٢) .

وفى اليوم التالى الموافق ٤ أكتوبر رأى الفرنسيون قوة أخرى من المماليك عددها ستمائة مملوك كانت تترقب السفن الفرنسية على شاطئ البحر لتطلق عليها النار، وكان ذلك صباحا بالقرب من قرية منصورة Mansourah وكانت عملية الانزال من السفن بالغة الصعوبة تحت نيران هذا العدد الكبير من المماليك، وهنا أمر ديزيه عمارته بالنقهر نحو نصف فرسخ لى ينزل فيها الجنود، ولم تكد العمارة تنفذ الأمر حتى فهم المماليك هذا التصرف على أنه هروب، فهجموا على الفرنسيين بشجاعة أكبر، ولكن حملة القرايينات من الفرقة الحادية والعشرين لم تدع الفرصة للمماليك للاقتراب من الشاطئ، ونزلت الفرقة ونظمت صفوفها بدون أن تلقى مانعا، وأمر الجنرال ديزيه فى الحال بوضع مدفعين، وبزحف الجيش لمقابلة المماليك، فنقهر المماليك ببطء أمام الفرنسيين الذين كانوا يصلونهم نارا حامية لمدة أربع ساعات، وأمام هذه السرعة وهذا الشكل المنظم من قبل الفرنسيين، فر

(١) تختلف المصادر والمراجع الفرنسية فى كتابتها لأسماء البلدان وهذا يسبب إرباكا للباحث فى تاريخ الحملة الفرنسية، وفى الوقت الذى يذكر فيه برتييه اسم هذه القرية مينيكيا Menkia يذكرها لأكروا باسم بنكية Benkiak وفى نفس الوقت يترجمها أحمد حافظ عوض عن لأكروا باسم بنى قره، بينما يذكر الرافعى عن اسم هذه القرية ناحية القايات ولم يذكر اسم المصدر الذى نقل عنه وبعد البحث تبين لنا أنه نقل عن لاجونكيير ج٣، ص ٢٠٩، ومما هو جدير بالذكر أن هذه المصادر والمراجع قد اختلفت فى ذكرها لتاريخ هذه الحادثة فبينما ذكرت مصادر أنها حدثت فى يوم ٣ أكتوبر ١٧٩٨ نجد مراجع تذكر أنها حدثت يوم ٤ أكتوبر لمزيد من التفاصيل انظر :

Berthier. Op. Cit. P. 107, Desirè Iacroix. Op. Cit. P. 192, De La Jonquière. Op. Cit. Tome. III P. 209.

أحمد حافظ عوض : المرجع السابق، ص ١٧٧، عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤١.
Berthier. Op. Cit. P. 107. (٢)

المماليك فى اتجاه الصحراء بعد أن فقدوا بعض خيولهم، وكان هؤلاء المماليك تحت قيادة محمد بك الألفى^(١).

معركة سدمنت (٧ أكتوبر ١٧٩٨)

واصلت فرقة الجنرال ديزيه زحفها حتى وصلت مساء يوم ٦ أكتوبر ١٧٩٨ إلى مشارف قرية سدمنت^(٢)، وكان ديزيه قد أبلغ بواسطة جواسيسه أن مراد بك ينوى انتظاره فى سدمنت، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن المماليك لن يغادروا هذه القرية قبل القيام بعمل حاسم ضد الفرنسيين، فالمعارك التى قاموا بها أثناء الهروب، والتى يبدو أنهم كانوا يقيسون بها قوة الفرنسيين والصرخات الوحشية التى كانت تأتى من معسكرهم، أوحى إلى الفرنسيين أنهم يريدون أن ينتهوا من الموقف بشكل حاسم، كما كان الفرنسيون متشوقين إلى هذه اللحظة^(٣)، لذلك اتجه الفرنسيون صباح يوم ٧ أكتوبر تجاه سدمنت لمنع الخطر الذى يتهددهم.

وقبل أن نتحدث عن أحداث هذه المعركة، يجب علينا أن نتعرف أولاً على عدد قوات الجيش المصرى وقوات الجيش الفرنسى، وعن الخطة الحربية التى أعدها كل فريق لخوض هذه المعركة الهامة.

كان الجيش المصرى تحت زعامة مراد بك يتألف من أربعة آلاف من المماليك، وثمانية آلاف من العربان، بينما كانت القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال ديزيه تتألف من

(١) Dominique Di Pietro. Op. Cit. PP. 84, 85, La Jonquière. Op. Cit. Tome III. P. 209.

(٢) كانت سدمنت قديماً تابعة لإقليم الفيوم، وهى الآن تابعة لمركز بنى سويف وتسمى سدمنت الجبل وهى بلدة صغيرة تقع غربى بحر يوسف فى الجنوب الغربى للاهون.

- لمزيد من التفصيل : انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٣، ص ١٦١.

(٣) Berthier. Op. Cit. P. 109, Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 85

ثلاثة آلاف رجل^(١)، وواضح أن عدد الجيش المصرى كان يفوق عدد الجيش الفرنسى بكثير، ولكنه كان فى نفس الوقت يفتقد النظام والتنسيق بين قواته^(٢)، كما كانت تنقصه الاسلحة الحديثة المتطورة، بينما نجد الجيش الفرنسى بالرغم من قلة أعداده كان يتميز بالنظام والتنسيق بين قواته ويمتلك أسلحة متطورة، وعلى رأسه قيادة حازمة وواعية تتمثل فى الجنرال ديزيه الذى قام بترتيب رجاله وكون منهم مربعين صغيرين فى كل مربع منهما مائة وثمانون جنديا جعلهما فى المقدمة، أما الجيش بمدفعيته فأبقاه كتلة واحدة متراسمة فى المؤخرة^(٣).

وكان مراد بك وحلفاؤه من المصريين قد أعدوا معدات الهجوم، وقوى أملهم فى سحق الجيش الفرنسى لقلة عدد جنوده بالنسبة إليهم، واتخذ المصريون مواقع حصينة فى المرتفعات بحيث كانوا يسيطرون على أرض المعركة^(٤) ويمكن القول بأن الروح المعنوية للجيش المصرى كانت عالية إذا ما قورنت بالروح المعنوية للجيش الفرنسى. وبدأت المعركة بهجوم خاطف من المماليك والعربان، وانقضوا على الفرنسيين كالطيور الكواسر^(٥)، ولم يملك الفرنسيون أمام هذه الهجمة الخاطفة إلا الاسراع باطلاق النار على المماليك والعربان.

Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 84, Reybaud, Op. Cit. T. III, PP. 398, (١)

- آلان مورهد : المرجع السابق، ص ١٦١، هذا ولقد ذكر الجنرال برتبيه أن جيش مراد بك كان يتكون من حوالى ثلاثة آلاف مملوك وثمانية إلى عشرة آلاف من العربان انظر :

Bethier. Op. Cit. P : 109.

بينما قدر الجنرال ديزيه قوة مراد بنحو ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ فارس من العربان والمماليك وذلك فى رسالته التى بعثها الى نابليون من اللاهون فى ٩ أكتوبر ١٧٩٨ وعن هذه الرسالة التى تحتوى على معلومات هامة عن موقعة سدمنت، أنظر :

La Jonquière. Op. Cit. Tome III. P. 208-216.

Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 86.

(٢)

(٣) آلان مورهد : المرجع السابق، ص ١٦١.

(٤) محمد فرج : النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية : الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ ص ٥٣.

(٥) سليم البستاني : تاريخ نابليون بونابرت فى مصر وسوريا نقلا عن تاريخ فرنسا الحديث، الاسكندرية ١٩١٣، ص ٦٧.

وتذكر المصادر الفرنسية المعاصرة أن فرقة المقدمة اليمنى كانت الهدف الأول لضربات المصريين، حيث ارتمى أكثرهم ببسالة في صفوف الفرنسيين، وأحدثوا عدة ثغرات قوية في المربعات الفرنسية، واستعملوا في دفاعهم الأسلحة التي يستترون بها من قرابينات^(١) وحراب ورماح وسيوف ومسدسات وأصبحت المنطقة مسرحا لالتحام شديد الضراوة^(٢)، ثم دار بعد ذلك قتال فردي بين رجال الفريقين تقشعر لفظاعته الأبدان، وراح الجرحى والمتحضرين يطعن بعضهم بعضا، ويذكر "فيفان دينون" مشهدا من هذه المشاهد المروعة حيث ذكر ما يلي "زحف أحد رجالنا وكان صريعا على الأرض صوب مملوك محتضر Expirant وقطع حلقومه، وسأله ضابطه كيف تستطيع أن تقتل هذا في حالتك هذه؟ وأجاب الجندي من السهل عليك أن تتكلم أما أنا فليس أمامي غير بضع دقائق أعيشها، وأريد أن أستمتع بها ما دام ذلك في استطاعتي^(٣)."

ويصور "دومينيك دي بييترو" مشاعر فرقة المقدمة اليمنى من الفرنسيين تجاه المماليك قائلا "تجمعت كل مشاعر الجنود من كراهية ويأس على رأس المماليك الذين ذهلوا من صلابه هذه الفرقة الصغيرة العدد، كانت شجاعته نادرة واحتقارهم للموت ظاهرا على جباه هذا العدد الصغير من جنودنا، لم تكن حربهم للانتصار، فقد كانت الأعداد الكبيرة للأعداء قد أزلت هذه الفكرة، ولكنهم أرادوا أن يموتوا بشرف غارقين في دماء أعدائهم وقد تحققت رغبتهم، فقد قتلوا تحت وطأ العدو ودفنت جثثهم تحت جثث الأعداء، وأثناء هذا الهجوم الأول من المماليك نجح المربع الحربي الفرنسي في الدفاع عن نفسه من جميع الاتجاهات^(٤)."

(١) كان المماليك يستعملون قرابينه (بندقية) انكليزية، طولها ثلاثون قيراطا و عيارها من القوة بحيث تطلق عشر رصاصات أو اثنتى عشرة في وقت معا بنوع أنها قاتلة وإن لم تحكم رميتها.

- لمزيد من التفصيل عن أسلحة المماليك انظر س.ف. فولنى : ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام : ترجمة إدوار البستاني، الجزء الأول، بيروت ١٩٤٩، ص ١١٥، آلان مورهد : المرجع السابق، ص ١٠٣ .

(٢) Berthier, Op. Cit. P. 109, Dominique DI Pietro. Op. Cit., PP. 86, 87.

(٣) Vivant Denon, Voyage dans La Base et La Haute Egypte Pendant Les campagnes du general Bonaparte, Quatrieme edition, Tome, I, Paris 1803, P. 240.

(٤) Dominiqu DI Pietro, Op. Cit. P. 87.

ثم حدث هجوم آخر شديد الضراوة من المماليك على الفرنسيين، وأثناء هجومهم رأوا أن خيولهم المجهدة تتراجع أمام نيران البنادق الفرنسية، فكانوا يهاجمون بظهورهم لكي يحموا الخيول من رؤية البنادق، ولكي يفتحوا لهم ثغرات داخل الجيش الفرنسي، وعندما باعت محاولات المماليك بالفشل، ألقي بعض المماليك بأنفسهم من فوق ظهور الخيل ليقعوا وسط جنود الجيش الفرنسي وكانت نتيجة ذلك أن قتلوا جميعاً، وهنا أدرك المماليك أنه من الصعب هزيمة الفرنسيين بهذه الطريقة، خصوصاً بعد أن عجز فرسان مراد بك من اختراق صفوف الفرنسيين، وكانت نيران المدافع والبنادق تصدهم وتفتك بهم فتكا ذريعاً، وهنا قرر المماليك أن يتراجعوا، وظن الفرنسيون أنهم قد انهزموا ولكن المماليك كانوا قد قرروا أن يحاربوا الفرنسيين في محاولة أخيرة لعلهم ينتصرون عليهم في هذه المعركة، وكان سلاح المماليك في هذه المحاولة ثمانية مدافع كان مراد بك قد أخفاها خلف أحد التلال، وكانت موضوعة بطريقة فنية وفجأة انطلقت نيران هذه المدافع في اتجاه الفرنسيين لتحصد القتلى من بين صفوفهم، وهكذا أصابت مدفعية المماليك الجيش الفرنسي بخسائر فادحة وتركت في المعسكر الفرنسي الكثير من الجرحى والقتلى^(١).

وارتفعت صيحات الفرح بين صفوف الجيش المصري بزعامة مراد بك لهذا الانتصار المؤقت على الفرنسيين، وظن المماليك أن الدائرة ستدور على الجيش الفرنسي وأن الهزيمة الكبرى ستلحق به، ولكن ماذا عن موقف الجيش الفرنسي بزعامة الجنرال ديزيه تجاه هذا الهجوم المفاجئ من المماليك؟

في البداية نود أن نقول أن الجنرال ديزيه كان يتمتع بشجاعة غير عادية وهذا ما جعل الجنرال "فريان" الذي اشترك في المعركة يقول عنه "أعتقد أن الجنرال ديزيه أبرد من الثلج بعشر درجات"^(٢)، فلم يكن أمام الجنرال ديزيه إلا الانتصار على المماليك أو القتال حتى آخر رجل، حيث كان من الصعب عليه أن يتقهقر أو ينسحب عائداً إلى سفنه هو وجنوده في تلك الظروف^(٣) وبعد أن فكر الجنرال ديزيه في هذا الموقف قرر أن يشن

Berthier. Op. Cit. P. 110, Dominique DI Pietro. Op. Cit. P.88.

(١)

La Jonquière. Op. Cit. T. III. P. 218.

(٢) نقلاً عن :

Berthier. Op. Cit. P. 110.

(٣)

هجوماً على مدفعية المماليك حتى يتحقق له النصر ولكنه تردد بعض الشيء، لأن الهجوم على المماليك كان يفرض عليه أن يترك ستون جريحاً، سيتركون للقتل من جانب المماليك إذا لم يحميهم وهنا يذكر "دومينيكي دي ببيترو" عن موقف الجنرال "ديزيه" من الجرحى وعن قرار الهجوم الذى اتخذه ديزيه ما يلى "إن الرحمة عنده تأتى أحياناً فى أوقات غير مناسبة، وفى كل مرة يستسلم لها يزداد أكثر عدد الجرحى، وأخيراً ومن أجل صالح الجيش قرر الجنرال ديزيه اتمام المهمة، وأمر بالهجوم، وفى لحظات تجمع الجنود فى الصف، وعندما رأى الجرحى أنهم سيتركون لمصيرهم حاولوا بصرخاتهم أن يستدروا روح التعاطف لدى زملائهم، ولكن الجميع أصابه الصمم، فرؤية الخطر تقتل أى مشاعر تعاطف، وابتعد عنهم التشكيل بسرعة، وبعد قليل جاءهم بعض المماليك وزرعوا الصحراء بأشلائهم(١) .

ولاشك فى أن رؤية الجنود الفرنسيين لرفاقهم من الجرحى والقتلى قد أشعلت الثورة فى نفوسهم وزادت من حماسهم فى تحقيق الانتصار على المماليك والاستيلاء على مدافعهم، ويصور "دى ببيترو" موقفهم بأسلوب أدبى شيق فيقول "عند رؤية هذه الوحشية Horrible امتلأت نفوسنا بالغضب والثورة وطار الجنود على مدافع الاعداء، وكان البرق L'éclair أقل منهم سرعة وضربات القدر أكثر منهم رحمة، وتشتت جنود الأعداء من أمامنا، والصحراء التى امتلأت بصرخات الغضب، وأصوات المدافع غاصت فى سكون عميق، هذا الاختفاء السريع للعدو ترك لنا الوقت لكى نرى موقع القتال ونبحث عن جرحانا"(٢) .

ونجح هجوم الفرنسيين على مدافع المماليك، واستولوا عليها بأسنة حراهم وقتلوا جنود المدافع فى مراكزهم، وأداروا أفواه المدافع على المماليك الذين فروا منهزمين وتاركين خلفهم نحو اربعمائة من رجالهم على أرض المعركة ما بين قتيل وجريح(٣) .

Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 89.

(١)

Ibid. P. 90.

(٢)

(٣) سليم البستانى: المرجع السابق، ص ٦٧، آلان مورهد، المرجع السابق، ص ١٦٢.

وانتهت هذه المعركة بانتصار الفرنسيين على المصريين، وبلغت خسائر المصريين كما قدرها الجنرال ديزيه بأربعمائة قتيل وجريح^(١)، بينما بلغت خسائر الفرنسيين كما قدرها الجنرال برتية ثلاثمائة وأربعون قتيلًا ومائة وخمسون من الجرحى^(٢).

وتعتبر موقعة سدمنت أكبر موقعة دارت في الصعيد بين القوات الفرنسية والقوات المصرية^(٣)، لذلك فهي تعد من أهم المعارك التي خاضها الفرنسيون في صعيد مصر، إذ أنها كانت المعركة البرية الثانية في أهميتها بعد معركة امبابة، لأنها قضت على آمال مراد بك في أن ينتصر في معركة منظمة كما أنها أعطت للفرنسيين حكم منطقة بنى سويف والفيوم، وهي منطقة غنية بمنتجاتها الزراعية التي كانت لازمة لتموين القاهرة^(٤).

ومن العرض السابق لمعركة "سدمنت" يتبين لنا أن الفرنسيين انتصروا على المصريين بتفوقهم الحربى الذى أتاحه لهم قوة مدفيعتهم، وكثرة ذخيرتهم وبما امتازوا به من نظام حربى وقيادة تتمتع بالكفاءة الحربية، ولكنه بالرغم من ذلك فإن الخسائر التى اصابت الفرنسيين فى هذه الموقعة تدل على أن المماليك وحفاهم من المصريين كانت لديهم الرغبة الأكيدة فى الانتصار على الفرنسيين فى هذه الموقعة، فكما رأينا كان من الممكن أن يتحقق النصر لمراد بك بفضل ما كان لديه من مدفعية أحدثت خسائر فادحة فى صفوف الفرنسيين لولا هجوم الفرنسيين الحاسم فى اللحظة الأخيرة^(٥) والذى أدى إلى هزيمة المماليك وفرارهم كما مر بنا.

ولقد ترتب على انتصار الفرنسيين فى هذه المعركة أن تحولت الحرب بين الفرنسيين والمماليك فى صعيد مصر من حرب منظمة إلى عمليات مناوشة مستمرة أخذت

La Jonquière. Op. Cit. T, III, P. 215.

(١) نقلا عن :

Berthier. Op. Cit. P. 111.

(٢)

(٣) عبد العظيم رمضان : الغزوة الإستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة، دار المعارف، القاهرة

١٩٨٥، ص ٥٤.

(٤) جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧-١٨٠٥، الاسكندرية، دون تاريخ، ص ٤٠٦.

(٥) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، دون

تاريخ، ص ٦٠٨.

شكل حرب العصابات، وإن كانت حرب عصابات يقوم بها الفرسان ولم يكن أمام المماليك إلا هذه الطريقة بعد أن فقدوا الأمل في طرد الفرنسيين من الصعيد بواسطة قوة السلاح بعد أن انهارت جهودهم في هذه الموقعة تحت طلقات المدافع الفرنسية(١).

وهذا النوع من المعارك كان يمثل خطرا كبيرا على الفرنسيين، إذ أنه كان يعرضهم للخطر المستمر في مواقع مختلفة، وفي أوقات مختلفة ودون أن يتمكنوا من اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمواجهته ولا شك في أن طبيعة الأرض في الصعيد، ووجود المزروعات العالية فيه، وكذلك وجود كل من الجبل الغربي والجبل الشرقي سيسمح لقوات المماليك وقوات أبناء الصعيد بحركات التفاف سريعة، وبمهاجمة كتائب وفصائل الفرنسيين التي ستصبح مبعثرة في الوادي، وتحاول تأمين المواقع المختلفة، وهذا النوع من المعارك سيفقد الفرنسيين معنى الراحة والطمأنينة وسيجبرهم على مداومة السير والانتقال، وبشكل يرهق قواتهم دون أن يتمكنوا من الإشتباك مع خصم واضح، وفي معركة لها أهميتها، قد يتمكنوا فيها من التغلب عليه(٢).

وبعد معركة سدمنت انسحب المماليك بقيادة مراد بك غربا حتى استقروا وراء بركة "الغرق" وهي بركة كبيرة واقعة جنوبى الفيوم بغرب، وانفصل العربان عن المماليك، بينما سارت فرقة الجنرال ديزيه في تمام الساعة الثالثة ظهرا من يوم ٧ أكتوبر ١٧٩٨ تجاه قرية سدمنت واحتلتها، واستولى الفرنسيون على جزء من متاع المماليك الذي بدأ العرب سلبه(٣).

ولم يفكر الجنرال ديزيه في تعقب المماليك نظرا لإرهاق قواته التي كانت بحاجة إلى الراحة بعد الأحوال التي كابدوها، ومن أجل ذلك نجد الجنرال ديزيه في اليوم التالي الموافق ٨ أكتوبر يرحل بجنوده وأسطوله إلى اللاهون، وقد استولى على مراكب المماليك

Dominique DI Pietro. Op. Cit. PP. 90-91.

(١) نقلا عن :

(٢) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٤٠٧.

Berthier. Op. Cit. PP. 110, 111.

(٣)

الموجودة بها ثم قام بترجيل الجرحى والمرضى إلى القاهرة^(١)، ومكث الجنرال ديزيه وجنوده في اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر، ثم سار قاصدا مدينة الفيوم، ولم يبق بها إلا بضعة أيام، ثم أخلاها خوفا على مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيرا عن النيل، ولأنه علم بعودة المماليك إلى سدمنت، وبذلك يتهددون مواصلات الجيش الفرنسي، فاضطر إلى العودة إلى اللاهون من جديد يوم ١٦ أكتوبر^(٢)، واعتزم أن يعاود تعقب المماليك والأهالي، لكنه وجد صعوبة كبرى في تعقبهم لأن ماء الفيضان كان في ذلك الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى، وكانت المؤن والزاد قد نقصت، والأمراض فتكت بالجنود ولا سيما الرمد، وبعث ديزيه في ٢٠ أكتوبر من اللاهون برسالة إلى نابليون ضمنها متطلباته والصعوبات التي تواجهه^(٣)، ومكث ديزيه في اللاهون ينتظر تعليمات نابليون.

الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين في موقعة سدمنت ليوطد مركزهم في الوجه القبلى، وبالرغم من أن الجيش الفرنسي قد فتح في طريقه ثلاث مديريات وهي بنى سويف والمنيا والفيوم فإن الحالة ظلت مضطربة في تلك المديريات، وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالي في تلك المديريات، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والخيول^(٤) وفقدوا في حالات كثيرة ما كانوا قد جمعوه منها، نتيجة لهجوم الأهالي على الثورن، وهجومهم على تجمعات هذه الخيول واستمرت الاشتباكات مع الأهالي خاصة وأن بعض الفرنسيين كانوا يحاولون إغتصاب بعض وسائل التموين من الأهالي، الأمر الذى كان يدفع أبناء القرى إلى مهاجمتهم بالعصى والأسلحة النارية^(٥).

(١) Berthier. Op. Cit. P. 111, Reybaud. Op. Cit. T, III, PP. 406, 407.

(٢) La Jonquière. Op. Cit., T, III, P. 223.

- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٦.

(٣) عن هذه الرسالة انظر : La Jonquière. Op. Cit. T. III. PP. 223-225.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٨.

(٥) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ص ٤٠٧، ٤٠٨.

ولقد عين نابليون الجنرال زايفونشك Zayonchek قومنداناً لمديرية بنى سويف فى أوائل أكتوبر ١٧٩٨، وأرسل معه كتيبة من الجنود وكلفه تنظيم هذه المديرية^(١) وكتب نابليون إلى الجنرال برتويه طالبا منه العمل على ترحيل الجنود من الفرسان إلى بنى سويف^(٢)، كما كلف نابليون الجنرال ديزيه بتنظيم مديرتى المنيا والفيوم^(٣).

وكان نابليون شديد الرغبة فى أن يتعقب ديزيه قوات الأهالى والمماليك للقضاء عليها، وقد حمل ياوره ديروك أمره إلى ديزيه بأن يهاجم مراد بك ويقضى على جيشه قبل نهاية الفيضان، لكن ثورة القاهرة التى نشبت فى ٢١ أكتوبر حالت دون سفر "ديروك"، وفى خلال ذلك وصلت رسالة ديزيه المؤرخة فى ٢٠ أكتوبر، فأدرك نابليون مبلغ ما عاناه الجنود الفرنسيون من المتاعب والمشاق وحاجتهم إلى الراحة، فأرسل إليه يطلب منه اختيار موقع صالح ليعسكر فيه الجنود، وكلفه إخضاع مديريات بنى سويف والمنيا والفيوم^(٤). وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة، لأن المماليك والأهالى قد رابطوا فى الصحراء فلا تستطيع القوات الفرنسية أن تحيط بهم، وكان الأهالى لا ينفكون يناوشون هذه القوات فى اللاهون، وبعد أن فتكت المعارك والأمراض بجنود الجنرال ديزيه ونزل عددهم إلى الألفين^(٥)، لم يعد فى استطاعته أن يخضع بنى سويف والمنيا والفيوم بهذا العدد، لبعد المسافات بين البلاد، وما غمر الأرض من الفيضان، فأصبح من الصعب على الجنود أن يتنقلوا من بلد إلى بلد، ولأن الجنود قد أنهكهم التعب فاختر الجنرال ديزيه مدينة الفيوم ليستقر فيها مع فرقته.

(١) La Jonquière. Op. Cit. T, III, P. 226.

(٢) Correspondance de Napoléon Ier, Publière par ordre de L'Empereur
Napoléon III, Paris 1858- 1870, 32 Vols, T, 5, doc. No. 3421, en date du 3
vendémiaire an VII (4 Octobre 1798).

(٣) La Jonquière. Op. Cit. T. III. P. 226.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٩.

(٥) نفس المرجع، ص ٣٤٩.

احتلال مدينة الفيوم واخماد الثورة فى القرى المجاورة

انتقل الجنرال ديزيه وجنوده قرب نهاية شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ إلى مدينة الفيوم، لكى يعطى فرقة بعض الراحة، وفى نفس الوقت كان ينتظر مجئ مدد من القاهرة، ويستعد فى الوقت نفسه لإستئناف الهجوم على مراد بك وأهالى الصعيد، وشرع الجنرال ديزيه ينظم الإدارة فى مديرية الفيوم، ويجمع الخيول من القرى^(١)، حيث كان بحاجة إليها ليسد حاجة حملته منها.

وقرر الجنرال ديزيه أن يقوم بحملة على قرى الفيوم لجمع الأموال والمؤون لكى يصرف مرتبات الجنود^(٢)، ولكنه واجه عنقا شديدا فى تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول من القرى، حيث رفضت معظم القرى التسليم لمطالبة، ودهش الجنرال ديزيه عندما أحس بروح التمرد والعصيان فى نفوس الأهالى، واعتقد الفرنسيون أن مراد بك هو الذى منع السكان من دفع الضرائب، وأنه أوفد أحد أعوانه مع مائة وخمسين مملوكا لتحريض البلاد على الثورة وتنظيم المقاومة^(٣).

والحقيقة أن رسل مراد بك لم تنقطع عن المرور فى القرى، وعن إثارة الأهالى فى وجه الفرنسيين، ولكن فى نفس الوقت يجب أن نذكر أن نفوس الأهالى كانت مستعدة للمقاومة، ولعدم دفع أو تسليم أى شئ للفرنسيين، والدليل على ذلك هو تضخم وتزايد أعداد المصريين الذين كانوا ينضمون للمماليك، أو يقومون بمناوشاتهم، وكانت حماسة أبناء الصعيد، وعقليتهم، وروح فروسيتهم، عوامل تتجمع لكى تخلق منهم قوات هجوم ممتازين، ورجال عصابات ومقاومة لهم خطرهم على أى جيش يتوغل فى تيلادهم^(٤).

وبعد انحسار مياه الفيضان، قرر الجنرال ديزيه أن يجرّد حملة على القرى الشائرة لإخضاعها للنفوذ الفرنسى، وترك ديزيه فى مدينة الفيوم ١٥٠ مريضا و ٣٠٠ جندي

La Jonquière. Op. Cit. T. III. P. 343. (١)

Dominique DI Pietreo. Op. Cit. PP. 93-94. (٢)

Berthier. Op. Cit. P. 111. (٣)

(٤) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٤٠٨.

لحمائيتهم^(١)، وسار بباقي جنوده يوم ٦ نوفمبر لإخضاع القرى الثائرة، فأخضع فى طريقه (مطرطارس) و(سيلة)^(٢) وتوجه بعد ذلك تجاه قرية (سرسنا)^(٣) ولكنهم وجدوا مقاومة شديدة من أهالى سرسنا الذين تأهبوا للقتال وكان على رأسهم على كاشف، ولكنهم لم يصمدوا أمام قوة نيران الفرنسيين، فانسحبوا من القرية، واستولى عليها الفرنسيون، وتجمع الأهالى بعيدا عنها على مرمى المدفع، وانضم اليهم من العرب وأمر الجنرال ديزيه رجاله باطلاق النار عليهم فشنت جمعهم ولكن المماليك والعرب والأهالى تبادلوا الضرب مع رجال الجنرال ديزيه بنيران بنادقهم، فرد الفرنسيون عليهم بطلقات مدافعهم، فلم تستطع قوات الأهالى وحلفاؤهم من المماليك والعربان الصمود أمام نيران الفرنسيين، وانسحبوا أخيرا متوغلين فى الصحراء.

ولقد تعرضت هذه القرية للسلب والنهب من قبل الفرنسيين، وليتهم اكتفوا بذلك، بل قاموا بإشعال النيران فيها وأحرقوها^(٤).

وتابعت فرقة الجنرال ديزيه سيرها فوصلت تجاه قرية الروضة^(٥)، وكان الليل قد أقبل فعسكرت الحملة بالقرب من الروبيات^(٦).

وإذا كانت حملة الجنرال ديزيه قد نجحت فى إخضاع القرى السالقة الذكر لسلطتها إلا أنها فى نفس الوقت قد تركت دماء على أرض الصعيد، ظلت تتادى بالثار، وتحول الموقف من مجرد عمليات حربية إلى حقد وضغينة ورغبة فى الانتقام كما سنرى،

Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 94.

(١)

(٢) من بلاد مركز سنورس

(٣) تتبع مركز الفيوم.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر : رسالة دونزلى إلى الجنرال برتنيه المؤرخة فى ٢١ برومير من السنة

السابعة الموافق ١١ نوفمبر ١٧٩٨ منشورة فى

La Jonquière. Op. Cit. T. 111, P. 345, Berthier Op. Cit. P. 111.

(٥) تتبع مركز سنورس

(٦) تتبع مركز سنورس

هجوم الثوار على مدينة الفيوم

عندما كان الجنرال ديزيه ومعه الغالبية العظمى من جنوده يقومون بحملة الغرض منها جمع الخيول والغلال في القرى المجاورة لمدينة الفيوم كما مربنا، وكان قد ترك في مدينة الفيوم ١٥٠ مريضاً و ٣٠٠ جندي لحمايتهم، انتهز مراد بك هذه الفرصة وأرسل حوالى ألفاً من المماليك لإثارة الأهالى كي يقوموا مع المماليك بالزحف على مدينة الفيوم والاستيلاء عليها والقضاء على القوة الفرنسية الموجودة بها.

وانتشر البكوات والكشاف من المماليك في شمال وجنوب إقليم الفيوم لإثارة العرب والفلاحين ضد الفرنسيين^(١)، وكانت نفوس العرب والفلاحين من أبناء الصعيد مهياً للثورة، خصوصاً بعد أن رأوا وسمعوا عما يقوم به الجنرال ديزيه ورجاله من جمع للضرائب ومصادرة للخيول والغلال، بل إن نار الثورة قد اشتعلت في نفوس الأهالى بعدما علموا أن الفرنسيين يحرقون القرى النائرة مثلما حدث في قرية سرسنا كما مر بنا.

ولاشك في أن كل هذه العوامل كانت وراء تجمع عدد هائل من المماليك والعرب والفلاحين قدرهم الجنرال ديزيه بثلاثة آلاف رجل^(٢) بينما ذكر الجنرال "برتييه" أن هذه القوة كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف من العرب وألف من المماليك وعدد هائل من الفلاحين المسلحين لم يذكر عددهم^(٣)، وبالرغم من اختلاف المصادر الفرنسية^(٤) في تقديرها

Berthier. Op. Cit. P. 112.

(١)

La Jonquière. Op. Cit. T, 111, P. 346.

(٢)

Berthier. Op. Cit. P. 112.

(٣)

- ولقد ذكر "دومينييك دى ببيترو" أن هذه القوة كانت مؤلفة من خمسة آلاف من العرب، وألف من المماليك، في حين ذكر ريبو أن هذه القوة كانت مؤلفة من خمسمائة من المماليك ومعهم فصيلة من فرسان عرب قبيلة السمالو Samallout وألفان من الفلاحين أنظر :

Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 94, Reybaud. Op. Cit. T. 111. P. 426.

(٤) تجدر الإشارة إلى أنه ليس لدينا في المصادر العربية المعاصرة سواء فيما كتبه الجبرتي أو نقولا ترك أى ذكر لهذا الهجوم أو غيره من المعارك التى حدثت في صعيد مصر اللهم إلا شذارات بسيطة فى بعض الأحيان، وبالتالي فإن اعتمادنا فى تناول هذه المعارك التى صورت المقاومة فى الوجه القبلى -

لأعداد القوات المصريه من أبناء الصعيد المشتركين فى الهجوم على مدينة الفيوم، فيمكن القول بأن هذه الاعداد كانت تتراوح ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف، بينما كانت أعداد القوات الفرنسية حوالى خمسمائة جندى ثلثهم من المرضى، ولكن هل انتصرت الكثرة على القلة أم العكس؟ • هذا ما سنراه من خلال عرضنا لأحداث هذا الهجوم بالتفصيل •

تجمعت الأعداد المذكورة من أبناء الصعيد عرب وفلاحين يتزعمهم فرسان المماليك يوم ٧ نوفمبر وأعدوا أنفسهم لمهاجمة مدينة الفيوم فى اليوم التالى • وبالفعل فى يوم ٨ نوفمبر ١٧٩٨ وفى حوالى الساعة الثامنة صباحا ظهرت أمام المدينة طلائع الثوار من أبناء الصعيد وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحا تقدموا ومعهم العرب والمماليك وهجموا على أسوار المدينة، وفى لحظات حطموا أبواب المدينة، وملأوا الشوارع والطرق، واحتلوا كل المواقع الرئيسية التى تشرف على مواقع الفرنسيين (١) بعد قتال عنيف دار بينهم وبين القوات الفرنسية التى كانت تقوم بحراسة مدخل المدينة •

وكانت القوة الفرنسية تحت قيادة الجنرال "روبان Robin" المصاب بالرمد، لذلك حل محله فى قيادة المعركة نائبه الكولونيل "ابلر Eppler" (٢) وقام ابلر بتحسين المنزل المقام فيه المستشفى وهو منزل "على كاشف"، وأمام زحف المماليك والعرب والفلاحين وتحطيمهم لأبواب المدينة انسحبت القوة الفرنسية إلى منزل على كاشف حيث مقر القيادة الفرنسية حيث جمع القائد "ابلر" قواته لتجنب حرب شوارع دامية جدا، وتقدم العرب والفلاحين والمماليك فى طريقهم حتى وصلوا إلى المنزل الذى تقيم فيه القوة الفرنسية فأطلق الفرنسيون النار عليهم من فوق سطح المنزل ومن نوافذه، وفى نفس الوقت كون القائد "ابلر

- إنما يكون على ما كتبه الفرنسيون أنفسهم ولحسن الحظ أن هذه الكتابات كثيرة ومتنوعة واختلاف الآراء يتيح الفرصة للباحث للوقوف على الحقيقة على قدر الامكان •

(١) Berthier. Op. Cit. P. 112, Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 95.

(٢) تذكر بعض المصادر اسمه "اكسير" Expert وهيلر Heppler انظر :

Berethier. Op. Cit. P. 112, Reybaud. Op. Cit. T, 111. P. 427.

وإن كانت معظم المصادر قد ذكرته باسم ابلر Eppler وهكذا لاحظ أن المصادر الفرنسية قد اختلفت فى ذكرها لأسماء بعض القواد إلى جانب اختلافها فى ذكرها لأعداد القوات وأسماء البلدان، ولاشك أن ذلك يتطلب وقتا وجهدا من الباحث فى تاريخ الحملة الفرنسية •

صفيين من جنوده، وقاد بنفسه الفرقة اليمنى، أما الفرقة اليسرى فقد تولى قيادتها الرائد "ساكرو Sacro"، وفي الوقت الذي قام فيه الاحتياطي بتراشق فظيع بالرصاص من الأسقف والنوافذ على المهاجمين من القوات المصرية خرج الصفيين بقيادة "إبلر وساكرو" لمواجهة الثائرين، ودقا دقة الهجوم، وانقضا بالحراب على الثائرين، وطاردوهم من شارع إلى شارع واستولى الرعب على العرب والفلاحين الموجودين فوق المنازل، واعتقد معظمهم أن النصر محقق فانسحبوا هاربين، وارتبكوا في هروبهم، وحدثت مجزرة شنيعة، وتعقبهم الفرنسيون وطاردوهم لمسافة طويلة في المدينة بواسطة الرائد "إبلر وساكرو" اللذان أظهرأ كلاهما بسالة ورباطة جأش عظيمتين^(١).

وبالرغم من أن أعداد أبناء الصعيد كانت تفوق أعداد الفرنسيين بكثير إلا أن الهزيمة قد حلت بهم، وانتهت محاولتهم بمجزرة شنيعة، ولكن كيف تم للفرنسيين هزيمة هذه الأعداد الكبيرة بهذه السرعة رغم قلة عددهم؟

وفي هذا الصدد يذكر لنا "دومينيك دي ببيترو" تلك الحيلة التي نفذها القائد "إبلر" وخدع بها تلك الأعداد الكبيرة وأجبرهم في النهاية على الفرار فيذكر ما يلي "رأى القائد "إبلر أن الأعداء يستمدون قوتهم من فكرة أنهم يواجهون عددا بسيطا من الفرنسيين، فقرر أن يجعلهم يظنون العكس، فأمر بتجميع كل الطبول، وأمر أن يسير خلف كل حامل طبلة مجموعة من الجنود وأمر كل مجموعة أن تتجه في شارع مختلف، وعليهم أن يطلقوا نيران ذخيرتهم في كل الشوارع، وعند سماع هذه الأصوات، اعتقد العرب أن الجنرال ديزيه قد عاد لنجدتنا وحل الرعب محل الطمأنينة في قلوبهم، واتجهوا جميعا خوفا من الموت إلى بوابات المدينة لكي يفلتوا بحياتهم، وفي لحظات رأينا تلك الأعداد الغفيرة تختفي في الصحراء"^(٢) وهنا يمكن القول بأنه إذا كانت الحرب خدعة فلقد استطاع القائد "إبلر" بذكائه أن يخدع أبناء الصعيد والمماليك بهذه الطريقة وانتصر عليهم رغم قلة أعداد جنوده ورغم إصابة ثلثهم بالأمراض، ولكن يجب علينا أن نذكر أنه كان في نفس الوقت يملك من الأسلحة

Berthier. Op.Cit. PP. 112, 113.

(١)

Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 96.

(٢)

والذخيرة، ودقة النظام والتخطيط العسكرى إلى جانب الموقع الاستراتيجى المحصن، وكل هذه أدوات لم تتوفر لأبناء الصعيد فحلت بهم الهزيمة.

إلا أنه بالرغم من هزيمة أبناء الصعيد لعدم خبرتهم بالحرب، ولأنهم كانوا يحملون أدوات بسيطة لم تستطع أن تصمد أمام نيران الفرنسيين، فهناك حقيقة يجب أن نذكرها وهى أن أبناء الصعيد قاموا بالدفاع عن أرضهم ضد الغاصب المحتل، وقاوموه بكل ما يملكون من أدوات، وعملوا على اخراجه من بلادهم ولم يبالوا بالموت، وكانت خسائرهم فادحة، فلقد ذكرت المصادر الفرنسية أن الأهالى من أبناء الصعيد بلغت خسائرهم من القتلى فى هذا الهجوم مائتين من رجالهم بينما كان عدد الجرحى منهم كبيرا، بينما بلغت خسائر المماليك أربعة رجال من القتلى، وعشرة من الجرحى^(١) وهذه الخسائر البسيطة التى أصابت المماليك تدل على أنهم كانوا على جانب عظيم من الحذر والحرص، وكانت خسائر الفرنسيين قليلة فبلغت أربعة رجال من القتلى، وستة عشر جريحا^(٢).

وترتب على انتصار الفرنسيين على الثوار نتائج مؤثرة فيذكر دومينيك دى ببيترو "أن هذا الانتصار السريع والقوى كانت له نتائج المؤثرة فقد أخمد الثورة، وأمن وصول المؤن والأموال وأتى بالجنرال ديزيه ووسطنا"^(٣) ولكن من ناحية أخرى يمكن القول بأن هذا الهجوم كان دليلا على استهانة أبناء الصعيد بقوة الفرنسيين ومقاومتهم لها وتجربتهم عليها، وأدرك الجنرال ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهم أسباب الحالة الثورية التى ذاعت فى البلاد، ورأى ألا سبيل إلى المغامرة فى فتح الوجه القبلى إلا إذا جاءه المدد الكافى للقيام بهذه الحملة الطويلة المدى، فأثر الانتظار إلى حين وصول الإمدادات من القاهرة ليوصل مهمته التى كلف بها ألا وهى اخضاع الوجه القبلى لسلطة الفرنسيين.

La Jonquière. Op. Cit. T., 111 P. 347.

(١)

Berthier. Op. Cit. P. 113.

(٢)

Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 96.

(٣)

ديزيه يطلب المدد من نابليون لاستئناف الحملة

كان ديزيه يلح قبل هجوم الثوار على الفيوم في طلب المدد من نابليون، فكلف نابليون الجنرال بليار الذي كان في ذلك الحين قومنداناً للجيزة أن يسير بقواته إلى الفيوم لمعونة الجنرال ديزيه في العمليات الحربية.

وسار بليار من الجيزة يوم ٨ نوفمبر بالقوة التي كانت معه، فوصل إلى الزاوية (شمالى بنى سويف) يوم ١٢ نوفمبر ١٧٩٨، وهناك وصلت له أنباء انتصار فرقة الجنرال ديزيه على المماليك والقرى الشائرة (١) Les village insurgés، واستراح الجنرال بليار بالزاوية ينتظر تعليمات الجنرال ديزيه، فأمره أن يبقى في بنى سويف ليعاون الجنرال زايونشك إذا ما قامت ثورة في بنى سويف مثل التي قامت في الفيوم، واعتزم الجنرال ديزيه بعد إخماد ثورة الفيوم أن يعود إلى بنى سويف لقمع حركات الهياج فيها، وجباية الضرائب من البلاد، فانتقل بفرقته إلى بنى سويف ووصل إليها في ٢٢ نوفمبر حيث ضم إليه قوة الجنرال بليار (٢)، وهكذا تحول مركز قيادة الفرنسيين في الصعيد في تلك الفترة من الفيوم إلى بنى سويف التي أصبحت قاعدة لهم، سواء بالنسبة لاختضاع الصعيد، أو بالنسبة لجمع الغلال ومواد التموين من القرى (٣). وفي تلك الفترة طلب ديزيه من بونابرت أن يمدّه باحتياجاته من المدافع والذخائر والمهمات، كما ألح عليه في طلب قوة كبيرة من الفرسان، لأنها الوسيلة الوحيدة للتغلب على قوات المقاومة في الصعيد، وبدونها لا يزال الأهالي والمماليك يفلتون من الجيش الفرنسي، فلا يستطيع اللحاق بهم ولا تعقبهم في الصحراء، وتبقى قوتهم تتحين الفرص لمناوشة الفرنسيين وإرهاقهم وتكبيدهم ما يستطيعون من الخسائر.

وبالرغم من انشغال نابليون في ذلك الوقت في التفكير في الإعداد للحملة على سوريا، إلا أنه وضع مطالب ديزيه موضع الاهتمام، لأن إخضاع الصعيد كان من أهم

La Jonquière. Op. Cit. T., 111 P. 348.

(١)

— عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج١، ص ٣٥٣.

(٢) نفس المرجع، ج١، ص ٣٥٤.

(٣) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٤٠٩.

المقاصد التي وجه إليها نابليون اهتمامه، خصوصا بعد أن شحت الغلال في القاهرة والوجه البحرى، لأن انقطاع المواصلات مع الصعيد منع ورود الغلال، فارتفعت أسعارها ارتفاعا أدى إلى تذمر الناس وهياج الخواطر في مصر .

وانتظر الجنرال ديزيه بفرقة في بنى سويف حتى يأتيه المدد من نابليون ولما طال انتظاره أناب عنه في القيادة الجنرال بليار وتوجه بنفسه في أول ديسمبر ١٧٩٨ إلى القاهرة للحصول على الامدادات اللازمة لمقاومة المماليك وأهالي الصعيد(١).

والتقى ديزيه بنابليون وعرض مطالبه، وفي نفس الوقت تلقى تعليمات من نابليون، حيث أمره بمطاردة مراد بك بنشاط حتى شلالات النيل وإبادة المماليك أو طردهم تماما من مصر(٢).

وأمد نابليون الجنرال ديزيه بقوة مؤلفة من ١٢٠٠ من الفرسان و ٣٠٠ من المشاة و ٦ مدافع و ٦ سفن حربية منها السفينة "إيطاليا" سفينة نابليون الخاصة التي كان يركبها في النيل(٣)، وعاد الجنرال ديزيه من القاهرة مزودا بهذا المدد فوصل إلى بنى سويف يوم ٩ ديسمبر على ظهر السفينة "إيطاليا" وفي اليوم التالي وصلت قوة الفرسان بطريق البر، ثم وصلت السفن التي تحمل مهمات الحملة بعد ذلك بأربعة أيام، وفي ١٥ ديسمبر كانت الحملة على تمام الاستعداد للزحف وكان عددها ما يقرب من أربعة آلاف رجل، وشعر الجنرال "ديزيه" أنه على رأس جيش صغير، لكنه في نفس الوقت يستطيع أن يقاوم به حملات المماليك والعرب مجتمعين بل ويستطيع أن يتتبعهم أينما ذهبوا وكان هذا هو هدف ديزيه، ومنذ هذه اللحظة لم يشعر هو أو جندي من جنوده بلحظة راحة(٤).

(١) Martin, Histoire de L'Expedition Francaise en Egypte, 2 Vols. Tome premiere. Paris 1815. P. 344, La Jonquiere. Op. Cit. T, III, P. 360.

Berthier. Op. Cit. P. 114. (٢)

Martin. Op. Cit. T. I. P. 344., Reybaud. Op. Cit. T. III. PP. 429, 430. (٣)

- عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج١، ص ص ٣٥٤، ٤٥٥.

- جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٤٠٩.

La Jonquiere. Op. Cit. T, III, P. 364, 365. = (٤)

حادثة الفقاعى

سارت حملة الجنرال ديزيه من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر ١٧٩٨ لمطاردة مراد بك، ووصلت ليلا إلى البرنقة El-Beranqah على البر الغربى للنيل وفى صباح اليوم التالى واصلت الحملة سيرها فبلغت "ببا" وعلم ديزيه أن مراكز المماليك المتقدمين تقع فى "الفشن" (١) ولذلك سارت الحملة من "ببا" قاصدة "الفشن" وقبل أن تصل إليها استراحت لنتنظر قدوم المدفعية، وكانت طلائع فرقة الجنرال ديزيه ترابط بالقرب من قرية الفقاعى (٢) الواقعة على الضفة الغربية للنيل.

وقد حدث بقرب (الفقاعى) حادث دهش له الجنرال ديزيه وكبار الضباط الفرنسيين، ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقية الجيش تسلل أحد غلمان القرية إلى داخل المعسكر الفرنسى، وسرق بندقية أحد الفرسان الفرنسيين، وحمل الغلام البندقية وتوجه بها فى طريقه إلى القرية فرآه فارس آخر من الفرنسيين وجرى خلفه، وجرى الغلام بأسرع ما يمكن ولم يقف إلا بعد أن أصابه الجندى الفرنسى بجرح سيف فى ذراعه، وجئ به أمام الجنرال ديزيه لمحاكمته (٣)، ودار بين الجنرال ديزيه وهذا الغلام هذا الحديث الذى دونه فى حينه "فيفان دينون" كالتالى :

الجنرال : من الذى طلب منك سرقة البنادق؟

الغلام : لا أحد

الجنرال : من الذى دفعك لذلك؟

الغلام : الله القوى Le Fort Dieu

- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٥٥، ويذكر "دى بييترو" أن حملة "ديزيه" على الصعيد قد وصلت بعد هذا المدد إلى خمسة آلاف رجل انظر :

Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 98.

Mertin. Op. Cit. T, I, P. 344.

(١)

Ibid. T, I, P. 345, Vivant Denon, Op. Cit., T, I, PP. 262, 263.

(٢)

- من بلاد مركز "ببا" بمحافظة بنى سويف. انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٣، ص ١٣٧.

Le Jönquière. Op. Cit. T, III, P. 506.

(٣)

الجنرال : هل عندك عائلة؟

الغلام : أم فقيرة وعمياء

الجنرال : إذا قلت لنا من الذى أرسلك لن نعاقبك لكن إذا امتنعت عن الكلام فسوف تعاقب .
الغلام : لقد قلت لك لم يرسلنى أحد، والله وحده هو الذى أوحى لى بذلك، ثم ألقى بطاقيته
عند قدمى الجنرال ديزيه وقال فى ثبات : رأسى ها هو فاقطعه(١) .

ويذكر الجنرال بليار فى يومياته "أن هذا الطفل ظل طوال الوقت هادئاً هدوءاً
عجيباً، وأبدى قوة خلق نادرة، أما الجنرال "ديزيه" فقد راعى صغر سنه وخضوعه لحكمه،
ثم حكم عليه بثلاثين جلدة، وتلقى الغلام الجلادات على ظهره دون صوت أو دمعة"(٢) .

وكان هذا الغلام فى الثانية عشرة من عمره، جميل الطلعة كأحد الملائكة Un ange
وهو جريئ وقوى(٣)، وكان إعجاب الجنرال "ديزيه" بشجاعة هذا الغلام هى التى جعلته
يضمن به على الموت(٤)، ولاشك فى أن هذا الغلام كان مثلاً لكل أبناء الصعيد فى مواجهة
العدوان على حرياتهم ومقدسات أوطانهم .

Vivant Denon. Op. cit. T, 1, P. 263.

(١)

La Jonquière. T, 111, PP. 506, 507.

(٢) نقلاً عن :

ويذكر "فيغان دينون" أن الجنرال "ديزيه" قد عفى عن الغلام ولم يأمر بعقابه انظر : Vivant
Denon. Op. Cit. T, 1, P. 263. ولكن رواية الجنرال "بليار" أدعى إلى الثقة لأنه ذكر الحقيقة
التاريخية كما حدثت دون إضافة من عنده، بينما ذكر "فيغان دينون" الحقيقة التاريخية مغلفة بأسلوب
أدبى به الكثير من عبارات التخييل والتصور التى أضافها "دينون" من عنده .

Vivant Denon. Op. Cit. T. 1, P. 263.

(٣)

ويذكر الجنرال "بليار" فى يومياته أن هذا الغلام يتراوح عمره ما بين الثامنة والعاشرة وهو حلو الصورة،
ولو أتيج له بعض التعليم لأصبح شخصية نادرة المثال نقلاً عن :

La Jonquière. Op. Cit. T, 111. P. 507.

(٤) محمد المجذوب^٢ : قصص لا تنسى . بطل من الصعيد وقصص أخرى، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٧،

ص ١٦ .

موقعة أبو جرج

بينما كان الفرنسيون يواجهون الثورة التي نشبت في بنى عدى^(١) كان اقليم بنى سويف يموج بالثورة، ولقد قيل كما ذكرت المصادر الفرنسية أن عرب ينبع اتجهوا إلى بنى سويف، وأن الأهالي كانوا على أتم الاستعداد لمساندتهم، لهذا نجد الجنرال دافو Devoust بعد أن قضى على الثوار في بنى عدى يتجه إلى بنى سويف للقضاء على عرب ينبع وعلى الثوار من الأهالي والعربان في ريف بنى سويف.

وفي ريف بنى سويف كما في كل الصعيد تلقوا خبر وصول قوات فرنسية جديدة كدليل على أن القوات الأولى قد دمرت، لذلك فهم يسرعون إلى حمل السلاح، وإذا كنوا أقوىاء فسوف يهاجمون، وإذا كانوا ضعفاء فسينتشرون عند مجئ القوات وسيسرقون منها كل ما يمكنهم سرقته وإذا لم يستطيعوا قتلهم ولا سلبهم كما تذكر المصادر الفرنسية^(٢) فإنهم يرفضون إعطاء المؤن للجيش الفرنسي وهنا لا يجد الفرنسيون أمامهم سوى استعمال العنف مع المشايخ لكي يعطوهم الطعام اللازم للقوات الفرنسية، ولقد وجد الجنرال "دافو" نفسه في الحالة الأخيرة، فعندما وصل إلى قرية أبو جرج بعث ببعض مندوبيه إلى شيخ القرية طالبين منه المؤن للجيش الفرنسي، فرفض شيخ القرية طلبهم قائلا "بأنه لا يوجد طعام للفرنسيين في قريته، وأن قواتهم قد دمرت في الجنوب، وأنه إذا لم ينسحبوا فسوف يلاقون مصير إخوانهم^(٣) وعاد رسل الجنرال "دافو" إليه بهذا الرد الذي يعنى أن أهل القرية قد رفضوا إمدادهم بالمؤونة، وأنهم على أتم الاستعداد لمواجهته، ولم يهتم الجنرال دافو بهذه التهديدات، واتجه إلى القرية التي استقبلته بالطلقات النارية، وقام الأهالي يشد من أزهرم عربان الجهمة^(٤) Ghèamieh بإلقاء التراب على رؤوس الفرنسيين كعلامة للموت وعلى الفور

(١) نشبت الثورة في بنى عدى يوم ١٨ أبريل عام ١٧٩٩ وستنكلم عنها بالتفصيل في الفصل الثاني.

(٢) Pièces Diverses Relatives aux opérations militaires et politiques du général Bonaparte. Paris, an. VIII. P. 227, Berthier. Op. Cit. P. 145.

(٣) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 227.

(٤) كان عرب الجهمة يرابطون على الشط الأيسر "أى الغربى" لبحر يوسف بين دجلة وديروط أم نخلة-

قامت القوات الفرنسية بمحاصرة القرية ودخلتها من عشرة أماكن^(١)، وأمر الجنرال دافو جنوده بقتل وحرق كل شيء في القرية فاشتعلت النيران في القرية، وسالت الدماء فيها، وكانت خسائر الأهالي جسيمة، فلقد بلغت كما قدرتها المصادر الفرنسية بألف قتيل^(٢).

ولقد استأنف الجنرال دافو سيره إلى بنى سويف في محاولة منه للحاق بعرب ينبع الذين كانوا قد عبروا النهر إلى الضفة اليمنى، وبالرغم من قلة أعدادهم، إلا أنهم كانوا يشكلون قوة كانت القوات الفرنسية تعمل لها حساب، وكان الجنرال دافو يتأهب لمطاردتهم عندما تلقى من الجنرال دوجا Dugua أمرا بالعودة إلى القاهرة^(٣) لحماية المدينة من الغارات التي كانت تتهددها.

- حتى صفت خمار أمام مدينة المنيا وكانت لهم خيام متناثرة في أماكن شديدة التباعد فيما بينها، وكانوا يمتلكون أكثر من خمسمائة حصان. لمزيد من التفصيل انظر :

Jomard. Observation sur les Arabes de L'Egypte Moyenne, in Description de L'Egypte, Etat moderne, Tome Douzième, seconde Édition, Paris 1823.

PP. 296, 297.

Memoires du Général Desvernois, Publiés sous les auspices de sa nièce Mme (١)
Boussu-Desvernois D'après les manuscrits originaux avec une introduction et
notes par Albert Dufourga. Paris, 1898, P 188.

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 228, Berthier. Op. Cit. P. 146. (٢)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 228, Berthier. Op. Cit. P. 146, Martin. Op. Cit. T, (٣)
I, P. 372.

الفصل الثانى

الحملة الفرنسية على الصعيد
الأوسط وحركات المقاومة

الفصل الثانى

الحملة الفرنسية على الصعيد الأوسط وحركات المقاومة

- تمهيد
- احتلال أسيوط
- سير حملة الجنرال ديزيه من أسيوط إلى جرجا
- موقف مراد بك فى صعيد مصر
- الثورة فيما بين أسيوط وجرجا
- معركة سوهاج (٣ يناير سنة ١٧٩٩)
- معركة طهطا (٨ يناير سنة ١٧٩٩)
- معركة الصوامعة (٥ مارس سنة ١٧٩٩)
- معركة برديس (٦ أبريل سنة ١٧٩٩)
- معركة جرجا (٧ أبريل سنة ١٧٩٩)
- معركة جهينة (١٠ أبريل سنة ١٧٩٩)
- معركة بنى عدى (١٨ أبريل سنة ١٧٩٩)
- ثورة المنيا (٢٣-٢٥ أبريل سنة ١٧٩٩)

الحملة الفرنسية على الصعيد الأوسط وحركات المقاومة

تمهيد :

سارت حملة الجنرال ديزيه فى طريقها لإخضاع وسط الصعيد، ولم تكن مهمتها سهلة، بل صادفتها الكثير من العقبات، ومن أهم هذه العقبات التكرات الثورية التى قام بها الأهالى والمماليك وعرب الحجاز فى وجه الفرنسيين، وظل جيش الجنرال ديزيه يطارده قوات شتى لا عداد لها، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال، ولقى الفرنسيون مقاومة عنيفة فى المنيا وأسيوط وسوهاج، واستعمل الفرنسيون كل ما لديهم من إمكانيات لمكافحة قوات المقاومة فى هذه المنطقة من صعيد مصر كما سنرى من خلال عرضنا لهذه المعارك والثورات بالتفصيل .

احتلال أسيوط

سارت حملة الجنرال ديزيه فى طريقها لتعقب مراد بك حيث علم ديزيه أن مراكز المماليك المتقدمين تقع فى "الفشن" فأسرع إليهم، ولكنهم لم ينتظروا وصوله واختفوا، وظل الجيش الفرنسى يتعقب مراد وجنوده ثلاثة أيام ينتقل من قرية إلى أخرى دون أن يتمكن منه، حيث كان المماليك متقدمين على الفرنسيين بنحو ١٠ إلى ١٢ ساعة فى طريقهم إلى أسيوط^(١)، وكان الفرنسيون يلاقون صعوبات فى التحرك بسبب المدافع التى يحملونها معهم، أما المماليك فلم تكن ضمن أمتعتهم مدافع تعوقهم عن الحركة، بالإضافة إلى أنهم كانوا كما يقول دينون "يملكون الصحراء ويتحدونها فيها فى القدرة على التحمل"^(٢) .

(١) Pièces Diverses, Relatives aux opérations militaires et politiques du général Bonapart, Paris an VIII P. 191, Berthier, Mémoires du maréchal Berthier, campagne d'Egypte, Ire partie Paris 1827, PP. 114, 115.

(٢) Vivant Denon, Voyage dans La Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte, Quatrième édition, Tome 1, Paris 1803, P. 269.

وكان الفرنسيون يتوقفون فى القرى كلما أضناهم السير، وفى هذه القرى كانوا يتزودون بالطعام والشراب ويستولون على ما تركه المماليك خلفهم فى هذه القرى (١) ووصل الفرنسيون إلى المنيا يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨، ليجدوا المماليك قد تركوها قبل قدومهم بساعات تاركين بها أربعة من سفنهم فغنم الفرنسيون ما على هذه السفن من مدافع وذخيرة، وانضم إلى الفرنسيين الكثير من اليونانيين الذين كانوا يعملون على هذه الأسلحة (٢) .

واستمرت حملة الجنرال ديزيه فى تقدمها بعد المنيا، فاستولت على ملوى التى عثرت فيها على ثمانية مدافع كان المصريون يستخدمونها فى ضرب سفن الفرنسيين (٣)، واستمرت الحملة فى سيرها حتى وصلت إلى أسيوط واحتلتها يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ (٤)، وكان المماليك قد انسحبوا منها مسرعين بعد أن أغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا ست سفن أعجلهم عنها ما كانوا فيه فلم يأخذوها ولم يفرقوها، فاستولى الفرنسيون عليها وعلى ما فيها من الأقوات والذخائر .

سير حملة الجنرال ديزيه من أسيوط إلى جرجا

سار الجيش الفرنسى من أسيوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم إلى فرقتين فرقة بقيادة الجنرال فريان Friant أخذت سفح الجبل، والفرقة الثانية بقيادة الجنرال بليار أوغلت فى السهل ثم التقتا فى الغنايم التى احتلوا ونهبوها ولكنهم وجدوا مقاومة من أهالى الغنايم الذين

(١) Vivant Denon. Op. Cit. T. 1, pp. 272, 273.

(٢) Berthier. Op. Cit. P. 115, Vivant Denon. Op. Cit. T. 1. PP. 274, 275.

(٣) حلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧-١٨٠٥، الاسكندرية، دون تاريخ، ص ٤١٠.

(٤) Dominique DI Pietro, Voyage Historique en Egypte pendant les

campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou, Paris, 1827. P.104.

هبوا للدفاع عن أنفسهم وحدث اشتباك بين الفريقان أدى إلى مقتل واحد من الأهالي وجرح اثنان من الفرنسيين^(١).

وعلم الجنرال ديزيه بناء على تقارير جواسيسه أن مراد بك ينوى ملاقاته بالقرب من جرجا^(٢)، لذلك نجد ديزيه يغادر الغنائم هو وجنوده في طريقه إلى جرجا التي أخلاها المماليك قبل وصول الفرنسيين إليها في الساعة الثانية ظهرا يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨^(٣).

وفي جرجا حط الجيش الفرنسي أثقاله ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التي أنهكت قواهم، ولينتظر وصول المراكب التي بها ذخائره ومهمات ومؤنته، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش، بسبب انخفاض منسوب المياه، واختلاف الريح مما جعل تحركها شديد الصعوبة^(٤) ورأى الجنرال ديزيه ألا يغامر بجيشه فيما وراء جرجا، لأنه أصبح بعيدا عن القاهرة، ووجد في جرجا مدينة كبيرة في وسط مديرية خضبة تصلح لتموين الجيش، فرأى من الحكمة أن يستقر بها وينعم بالراحة إلى أن يصل أسطوله فيواصل زحفه لإخضاع الصعيد، وإذا كان هذا هو موقف الجنرال ديزيه فماذا عن موقف مراد بك في تلك الفترة؟

موقف مراد بك في صعيد مصر

تذكر المصادر الفرنسية المعاصرة أنه بالرغم من هزيمة مراد بك في كل من سدمنت والقيوم، إلا أنه ظل دائما سيد أقاليم صعيد مصر، واحتفظ بمركز قوى^(٥)، كان

(١) La Jonquière : L'Expédition d'Egypte 1798-1801, 5 Vols, Tome 111, Paris 1899-1907. P. 511.

(٢) Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 105.

(٣) Vivant Denon. Op. Cit. T. 1, P. 304.

(٤) Martin, Histoire de L'Expédition Française en Egypte, 2 vols, Tome 1, Paris 1815, P. 346. Vivant Denon. op. Cit. T. 1. P. 306.

(٥) Berthier. Op. Cit. P. 114.

السبب فى توقف الجنرال ديزيه عن مطاردته لحين استكمال النقص فى جنوده ووصول الإمدادات من القاهرة، وفى تلك الفترة التى كان الجنرال ديزيه يقوم فيها باستكمال النقص فى صفوفه، وإعداد حملته لإخضاع الصعيد، لم يضيع مراد بك وقته، بل أراد هو الآخر أن يزيد من قوته بكل الوسائل الممكنة التى يوفرها له نفوذه القديم فى الصعيد، وبذلك استطاع أن يضم إلى جانبه كل القبائل العربية المنتشرة فى الصعيد، وكان واثقا من مساندة الأهالى، ويذكر "مارتان" أن مراد بك "أرسل رسله إلى ما وراء الشلالات لتهديد النوبيين بإرسالهم إلى اثيوبيا مما دفع هؤلاء المواطنين المسالمين إلى الانضمام إليه فى الحرب"^(١) ولكن يبدو أن فكرة تهديد مراد بك للنوبيين ليس لها أساس من الصحة حيث تذكر مصادر أخرى أكثر انصافا أن مراد بك أرسل بعض الرسل إلى النوبة كى يأتوا بالمدد أو المعونات^(٢) Des renforts، كما قام مراد بك بالكتابة لرؤساء "ينبع وجدة" ببلاد الحجاز يدعوهم لعبور البحر الأحمر^(٣) بقواتهم للحاق به وقواته وذلك للدفاع عن دين محمد ضد أعدائه من الكافرين الذين يرغبون فى إبادة هذا الدين^(٤).

كما أرسل مراد بك بعض المهرة من الرسل إلى حسن بك الجداوى "باسنا" بقصد التوفيق بينه وبين مراد بك ويطلبون منه مساعدة مراد بك فى مقاومة الفرنسيين وأن ينتشر رجاله ما بين جرجا وأسيوط لمقاومة الفرنسيين ومهاجمة وتدمير اسطولهم^(٥)، ولم يكن مراد بك وحده هو الذى أرسل حسن بك الجداوى بل أرسله أيضا السلطان العثمانى، وتذكر وثائق المحاكم الشرعية صورة "فيرمان شريف" حضر لحضرة "مير اللوي" "حسن بيك

(١) Martin. Op. Cit. T. I, PP. 344, 345.

(٢) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 191.

(٣) كان الحاجز الوحيد الذى يفصل بين القطر المصرى وبلاد العرب لا يتعدى البحر الأحمر الذى لم يكن فى ذلك الوقت سوى بحيرة ضيقة المخرج من جهة الجنوب.

(٤) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 191, Berthier. Op. Cit. P. 115.

ويذكر "مارتان" أن عرب ينبع ومكة قد جاءوا لمعاونة الأهالى والمماليك فى نضالهم ضد الفرنسيين بناء على فرمانات الباب العالى. انظر :

Martin. Op. Cit. T. I. P. 345.

(٥) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 192, Berthier. Op. Cit. P. 116.

الجدوى" تحته وتحت طائفة المماليك على التماسك والترابط من أجل مقاومة الفرنسيين "فكونوا على قلب واحد بعضكم لبعض معاضد، وارفعوا بينكم الشقاق وبدلوه فى الحب فى الله والوفاق وادفعوا من بينكم الأشرار وأولو النميمة وأهل النفاق أينما كنتم وحيث ما وجدتم قريبا وبعدا" وتذكر الوثيقة أن "الفرنسيين هم الكفرة الطغاة والفجرة البغاة لا يؤمنون برب السموات والأرض ولا برسالة الشفيع يوم العرض" كما تفضح سياسة الفرنسيين وتحذر منهم فتذكر "ومن جملة قواعدهم الشيطانية جواز النفاق واللقا الفتنة والشقاق بين الملوك والدول وسائر الناس من أرباب الفساد" وهم أى الفرنسيين "يخاطبون كل طائفة بأننا منكم وعلى دينكم وملتكم ويعدونهم بالمواعيد الباطلة، ويحذرونهم بالتحذير الهائلة، والحاصل أنهم انهمكوا فى الفسق والفجور وامتطوا مطية الغدر والغرور وخاضوا بحر الضلال والطغيان" ثم تحض الوثيقة المماليك على مقاومة الفرنسيين "قاللزم عليكم أن تباشروا من غير توان ولا تكاسل فى دفعه ورفع وطرده وقمعه، والحاصل فلتكن كلمتكم واحدة متفقين فى تقوية هذا الدين المبين وكونوا على حذر من حيل ومكر أولئك الكافرين اللئام، ولتكن سيوفكم بارقة وسهامكم شارقة ومدافعكم صارقة ونبا لكم إلى أفئدتهم متسابقة ودبابيسكم لقصم ظهورهم شاذقة بفرسان يجول فى حومة الميدان بكل حملة توصل كافر إلى درك النيران، لأن عون الله ان شاء الله داير معكم، وعين الله ناظرة اليكم مؤيدون بنصر الله محفوظون بروحانية رسول الله سيهزم الجميع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر، ونحن فى طرف السلطنة السنية نشرنا الأوامر العلية فى جميع العساكر والاجناد من أقطار البلاد فبحول الله وقوته وباهر عظمته وقدرته عما قليل يجتمع عساكر وفيرة وجنود كثيرة مع سفارين كالجندل تمشى بقدرة الله ذى الجلال، ومدافع كالرعد القاصف والبرق الخاطف وشجعان لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الله وغزاه يقتحمون على النار محبة فى دين الله فتعقب أدبارهم لعل الله يرزقنا تدميرهم ه أدبارهم فنجلعهم إن شاء الله هباء منثورا كان لم يكونوا شيئا" (١) .

ولم تكن منشورات السلطان العثمانى موجهة لطائفة المماليك فقط بل كانت موجهة إلى عامة المصريين، وكانت هذه المنشورات تحثهم على مقاومة الفرنسيين الذين يريدون

(١) سجلات محكمة اسنا : سجل رقم ٥٠، وثيقة رقم ٢٧٨ مؤرخة بتاريخ ٣ جمادى أول سنة ١٢١٣هـ،

رفع شرايع الإسلام فهم الطائفة الخاينون والشرذمة الملعونون ذووا مكر وفساد وبغى وعناد، وقد قصدوا تلك الديار وهجموا على تلك الأقطار، وذلك لرفع شرايع الإسلام وقواعد دين محمد عليه السلام وهدم بيت الله الحرام والمدينة المنورة" والفرمان بذلك يحث المصريين على مقاومة هؤلاء الكفرة ويحذرهم من أن ينقادوا لهم أو يتعاونوا معهم فيذكر "ثم إياكم أن تتخذعوا بمواعيدهم الباطلة وبأقوالهم الكاذبة كلها مكر وحيلة ودسيسة وخيانة لهذه الشريعة المطهرة النفيسة وأنتم تعلمون أن من يطيع وينقاد لهؤلاء الكفرة اللئام ويعينهم على أهل الاسلام يكون والعياذ بالله مرتداً عن دينه فينهدر دمه ويستحل ماله ويجب على كل مسلم قتاله تشهد بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فكونوا على قلب واحد بعضكم لبعض سعاظذ، والله معنا أيها المؤمنون قال تعالى ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴿(١)﴾.

ومما لا شك فيه أن هذه الفرمانات كانت تلهب حماس الأهالي، وتقوى من عزيمتهم في نضالهم ضد الفرنسيين، وهكذا تجمع لدى مراد بك أعداد هائلة من الفلاحين والعربان إلى جانب قواته من المماليك، وقوات حسن بك الجداوى الذى انضم إلى مراد بك، بالإضافة إلى عرب ينبع وجده (عرب الحجاز) الذين انضموا لمراد بك بصعيد مصر وشكلوا خطراً على القوات الفرنسية ووقفت هذه القوات الهائلة من الأهالي والمماليك وعرب الحجاز ضد قوات الجنرال "ديزيه" التى كان شغلها الشاغل فتح الصعيد والاستيلاء عليه وإخضاعه للنفوذ الفرنسى، ولكن هل تمكن الفرنسيون من إخضاع الصعيد لسلطتهم؟ هذا ما سنراه من خلال عرضنا لحركات الجنرال "ديزيه" فى صعيد مصر وثورات الأهالي بزعامة المماليك ضد الوجود الفرنسى.

الثورة فيما بين أسيوط وجرجا

كان ديزيه يتوقع قدوم أسطوله إلى جرجا بعد أيام معدودات، ولكنه تأخر فى الوصول، فاضطر ديزيه أن يبقى فى جرجا لمدة ثلاثة أسابيع دون أن يزحف أو يعمل

(١) سجلات محكمة اسنا : سجل رقم ٥٠، وثيقة رقم ٢٧٢ مؤرخة فى ٢١ من شهر ربيع الأول عام

عملا، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة في البلاد التي لم يفتحها، وسريان روح الثورة في المدن التي فتحتها، وعلم الفرنسيون في ١٣ نيفوز من العام السابع الجمهورى الموافق ٢ يناير سنة ١٧٩٩ أن الفلاحين قد تشجعوا بالمماليك واستعدوا لمهاجمتهم من الخلف على أن يهاجمهم المماليك من الأمام^(١)، وعزم مراد بك على الاستيلاء على السفن الفرنسية قبل أن تصل إلى مدينة جرجا وأرسل للقيام بذلك أحد أعوانه المشهورين بالنشاط والحقق واسمه عثمان بك فمر بين أسيوط وجرجا وقطع الطريق بينهما وهيج الأهليين وحملهم على محاربة الفرنسيين^(٢)، فسرت روح الثورة في أربعين بلدا في المنطقة الواقعة بين أسيوط وجرجا، وبلغ عدد الثوار من الأهالي كما قدرتها المصادر الفرنسية ما بين ستة إلى سبعة آلاف من الأهالي^(٣)، وبالرغم من أن هذه الثورة كانت واسعة النطاق وتميزت بانضمام أعداد هائلة من الأهالي، إلا أن الفرنسيين استطاعوا أن يقضوا عليها قبل أن تتحد عناصرها، وتمكنوا من هزيمة قواتها المبعثرة معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة، فكانت المعارك التي نشبت بينهم وبين الأهالي أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بمجموع من الأهالي محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة^(٤)، وفشلت ثورة الأهالي في تحقيق غرضها بالقضاء على القوات الفرنسية، لافتقادها إلى النظام والعتاد الحربى والقيادة الحازمة.

معركة سوهاج (٣ يناير سنة ١٧٩٩)

علم ديزيه أن هناك تجمعا كبيرا من الأهالي يتشكل بالقرب من سوهاج قدرته المصادر الفرنسية بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب Piques بالإضافة

(١) Vivant Denon. Op. Cit. T. 1. P. 306. (١)

(٢) سليم البستانى : تاريخ نابليون بونابرت في مصر وسوريا نقلا عن تاريخ فرنسا الحديث، الاسكندرية ١٩١٣، ص ٦٩.

(٣) Vivant Denon. Op. Cit. T. 1. PP. 306, 307, Reybaud, Histoire Scientifique et militaire de L'Expédition Française en Egypte (10 Vols) Tome, 111, Paris 1830-1836, P. 512.

(٤) عبد الرحمن الراعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ص ٣٦٠.

إلى ثمانمائة من الفرسان^(١)، فقرر الجنرال ديزيه أن يقضى على هذه الثورة قبل أن يتسع مداها، وأمر ديزيه الجنرال دافو Davout بالرحيل فورا من جرجا على رأس قواته للقضاء على هذه الثورة، فوصل إلى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩، وفى اللحظة الأولى لهذه المعركة أعطى الجنرال دافو لطليلة جيشه المكون من الفرقة السابعة من الفرسان والفرقة الثانية والعشرين من القناصة بأن يهاجموا بعنف قوات الأهالى ومن معهم من فرسان المماليك، ولم يستطع الأهالى الصمود طويلا أمام هجوم الفرنسيين ونيران أسلحتهم ففروا هاربين بعد أن تركوا خلفهم ثمانمائة قتيل على أرض المعركة^(٢).

وهكذا كانت هذه المعركة كارثة أصابت الأهالى وألحقت بهم خسائر جسيمة واعتقد الفرنسيون أن القضاء على هذه الثورة بهذه السرعة وما أصاب الأهالى من خسائر سيؤدى إلى انتشار الرعب فى البلدان الأخرى وإخماد الثورة فيها، لكن على العكس من ذلك فإن الأهالى استمدوا من هذه الهزيمة دافعا لمواصلة الثورة، فلم تنكسر شوكتهم، ولم تفتر عزيمتهم فما أن عاد الجنرال دافو إلى جرجا بعد انتصاره فى هذه المعركة حتى علم الجنرال ديزيه بأن هناك حشدا كبيرا تكون بالقرب من أسيوط ومكون من فلاحين مشاه وفرسان جاء معظمهم من المنيا وبنى سويف والفيوم وهنا أحس ديزيه بالقلق وازداد قلقه بسبب تأخر أسطوله الذى يحمل المؤن والمعدات ولم تصله حتى الآن أخبار أكيدة عن ميعاد وصوله إلى جرجا، وهنا كلف ديزيه الجنرال دافو بأن يزحف من جديد على رأس فرسانه لمقاومة المتمردين من الأهالى، وأن يبذل أقصى جهده فى العمل على سلامة الأسطول الفرنسى الذى انقطعت أخباره وتأخر وصوله إلى جرجا^(٣).

La Jonquière. Op. Cit. T. 111, P. 521.

(١)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 192, Berthier. Op. Cit. P. 116.

(٢)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 193, Berthier. Op. Cit. PP. 116, 117, Reybaud. Op. Cit. T. 111, P. 513.

(٣)

معركة طهطا (٨ يناير سنة ١٧٩٩)

سار الجنرال دافو على رأس قواته من الفرسان تجاه طهطا فوصلها في ٨ يناير، ووجد بها ما يقرب من ٢٠٠٠ عربي من الفرسان و ٦٠٠٠ مشاة من الأهالي الذين أقنعهم رجال مراد بك أن الجيش الفرنسي قد دمر، ولم يتبق منه إلا فيالق صغيرة يسهل مهاجمتها(١).

وفي اللحظة التي كان يدخل فيها دافو وجنوده طهطا علم أن هناك عددا كبيرا من فرسان الصعيد في طهطا يهاجمون مؤخرة جيشه المكون من سرية من الصف العشرين من الجنود الخيالة، وفي الحال قام الجنرال دافو بالهجوم المباغت وهرب الفرسان العرب عند أول مقاومة، وتركوا الفلاحين المشاة يتعرضون لضربات الفرنسيين، وانتصر الفرنسيون على الأهالي والعرب في هذه المعركة، وقتل منهم ألف قتيل كانت الغالبية العظمى منهم من الأهالي المشاة(٢). وبعد المعركة انتقم الفرنسيون انتقاما فظيعا من القرى التي أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها(٣).

ثم تابع الجنرال دافو سيره فوصل بفرسانه إلى أسيوط يوم ١١ يناير ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة(٤)، ثم تابعت السفن الفرنسية سيرها فوصلت إلى جرجا يوم

(١) Martin. Op. Cit. T. 1, PP. 347, 348.

(٢) Berthier. Op. Cit. P. 117, Pièces Diverses. Op. Cit. P. 193, Martin. Op. Cit. T. 1, (٢) P. 348.

ولقد قدر نابليون في رسالته إلى حكومة الإدارة خسائر المصريين في معركة سوهاج وطهطا بأكثر من ألفين من القتلى انظر :

Correspondance de Napoléon Ier, publiée par ordre de L'Empereur Napoléon III, Paris 1858-1870, 32 Vols, Tome 5, doc No, 4205, en date du 5 messidor an VII (23 Juin, 1799) P. 471.

(٣) انظر رسالة دافو إلى نابليون في ١٢ يناير سنة ١٧٩٩ منشورة في

La Jonquière, Op. Cit. T. 111. P. 523.

Ibid. T. 111. P. 523.

(٤)

١٨ يناير حيث كانت تتقدمها الفرسان بقيادة الجنرال دافو^(١)، وكانت السفن الفرنسية تحمل الذخائر والأقوات لقوات الجنرال ديزيه ومددا من ١٥٠ جنديا^(٢)، مما جعل ديزيه يفكر في الاشتباك مع مراد بك وأعوانه في معركة فاصلة.

معركة الصوامعة (٥ مارس سنة ١٧٩٩)

عندما علم الجنرال ديزيه من جواسيسه بأن مراد بك في طريقه إلى الالتقاء بمحمد بك الألفى في أسيوط، اتجه ديزيه إلى أسيوط لكي يمنع لقاء مراد بك بمحمد بك الألفى ويحاربهما إذا كان هذا الانضمام قد تم بالفعل^(٣) وكان مراد بك وجنوده قد نجحوا في إثارة عدد هائل من الفلاحين تحت قيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا، فلما علم ديزيه بذلك، عهد إلى الجنرال فريان بمهمة القضاء على هؤلاء الثوار فالتقى بهم في الصوامعة^(٤) يوم ٥ مارس سنة ١٧٩٩، ووجد الجنرال فريان هذه البلدة في حالة من الهياج والثورة، ووجد بها ما يقرب من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف من الفلاحين يحتلونها^(٥)، وعندما رأى الجنرال فريان هذه الأعداد الهائلة من الثوار، قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام كبيرة من الجنود لكي يحاصروهم ويمنعهم من اللجوء إلى الصحراء، كما قام باحتلال المنطقة الواقعة بين النيل والصحراء لكي يمنع هروب مماليك الألفى أو لقاءهم بجنود مراد، ونجحت خطة الجنرال فريان نجاحا تاما، ففي لحظات استطاع الجنرال فريان وجنوده أن يقتلوا ألفا من الثوار ما بين قتل وغريق أما بقية الثوار فقد لاقوا الأمرين في محاولتهم النجاة بأنفسهم ولم ينسحبوا إلا تحت وابل من طلقات البنادق، ولم يفقد الجنرال فريان رجلا واحدا من جنوده في هذه

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 193.

(٢) La Jonquière. Op. Cit. T. 111. PP. 524, 525.

(٣) Berthier. Op. Cit. P. 130.

(٤) بلدة تتبع حاليا مركز طهطا بمحافظة سوهاج. لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٥٤، القسم الثاني، الجزء الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ص ١٤١، ١٤٢.

(٥) Désiré Lacroix, Bonaparte en Égypte 1798-1799, Paris 1899. P. 365.

المعركة، وغنم الفرنسيون خمسين حصانا تركها فرسانها ليرتموا فى الماء للسباحة فى محاولة للنجاة بأنفسهم(١) .

وفى اليوم التالى للمعركة طاردت القوات الفرنسية قوات المماليك مما جعل مراد بك يقرر الهروب ومعه ١٥٠ من رجاله إلى الواحة الكبرى La grand oasis، أما باقى رجال مراد بك فقد اتجهوا إلى أسبوط حيث وصل الجنرال ديزيه بعدهم بقليل، أما محمد بك الألفى فقد عبر النهر إلى الضفة اليمنى للنيل ليعود إلى واحة أخميم وتبعه بعض كشاف ومماليك مراد بك(٢) .

معركة برديس (٦ أبريل سنة ١٧٩٩)

وصلت إلى الجنرال ديزيه معلومات تفيد بأن الأهالى والمماليك وعرب الحجاز قد استأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا وأنهم احتشدوا بالبر الشرقى لقطع مواصلات الجيش الفرنسى، فأدرك الجنرال ديزيه خطورة الموقف، وعلى الفور كلف الجنرال دافو وفرسانه بمهمة إخضاع البلاد الثائرة فى هذه النواحي والقضاء على مقاومتها، كما أرسل ديزيه أوامره إلى موراند Morand قومندان جرجا أن يذهب إلى المرتفعات المشرفة على الضفة اليمنى للنيل قبالة جرجا، ويهاجم الثائرين أو يعترض مسيرتهم فى حالة انسحابهم(٣) .

وهنا شعر عرب ينبع بحرج موقفهم، وصمموا على عدم انتظار الجنرال دافو، وعبروا النيل أعلى برديس(٤)، وعندما علم قائد جرجا بذلك أخذ مائتين وخمسين رجلا من

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 210, Martin. Op. Cit. T. 1, P. 358.

(٢) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 211, Martin. Op. Cit. T. 1, P. 358, Memoires du général Desvernois publiés sous les auspices de sânièce Mme Boussu-Desvernois D'après les manuscrits originaux avec vne introduction et notes par albert Dufourg. Paris 1898, P. 168.

(٣) Berthier. Op. Cit. PP. 139, 140, La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 640, Désirè Lacroix. Op. Cit. PP. 373, 374.

(٤) قرية تتبع حاليا مركز البلينا بمحافظة سوهاج، لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ص ٩٨، ٩٩.

حاميته Sa garnison وذهب لملاقاتهم فى برديس^(١)، التى وصلها بعد ظهر يوم ٦ أبريل، فخرج لملاقاته عرب ينبع وكثير من الفلاحين والمماليك وعرب من قرية برديس وهم يطلقون صيحات عالية تتم عن استعدادهم للقتال، وهجموا على القوة الفرنسية التى ردت عليهم بإطلاق نيران بنادقها دفعة واحدة عليهم، فترجع الثوار قليلا بالرغم من أعدادهم الكثيرة.

وبالرغم من أن موراند كان فى موقع أفضل من موقع الثوار من الناحية العسكرية إلا أنه كان يعانى من نقص قواته عن قوات الثوار بكثير، وكان من الصعب عليه أن يهزم هذه الأعداد الهائلة من الثوار بهذا العدد القليل من جنوده ولكنه اعتقد أنه يستطيع أن يصمد بهذا العدد، ولكن بعد نصف ساعة تلقى هجوما ثانيا من الثوار المصريين، فرد عليهم بالطلقات النارية التى أصابت العديد من الثوار، وفر الباقون تحت جنح الظلام الذى كان يقترب فاستغل موراند هذه الفرصة وعاد إلى جرجا ليحمى مواقع الفرنسيين بها^(٢).

معركة جرجا (٧ أبريل سنة ١٧٩٩)

عندما علم الأهالى والمماليك وعرب ينبع بعودة موراند إلى جرجا صمموا على مواصلة الهجوم، وساروا فى طريقهم إلى جرجا يريدون احتلالها، ولقد تضاعف عددهم وهم فى طريقهم إلى جرجا بمن كان ينضم إليهم من سكان البلاد التى مروا بها وسكان البلاد المحيطة بجرجا، ولقد قدر الجنرال دافو عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين^(٣) يعاونهم جماعة من المماليك وعرب ينبع، وهجموا على جرجا يوم ٧ أبريل، وتمكن عرب ينبع من دخولها، وكان موراند يملك الكثير من العتاد فى جرجا، وبينما كان عرب ينبع يحاولون الحصول على المؤنة من مخازن جرجا، كان موراند قد شكل فرقتين من جنوده، وجعل لكل منها مهمة، فكلف فرقة منهم أن تكون مهمتها القضاء على الثوار داخل مدينة جرجا، أما الأخرى

Berthier. Op. Cit. P. 140. (١)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 222, La Jonquiére, Op. Cit. T. 111. P. 641. (٢)

La Jonquiére, Op. Cit. T. 111. P. 641. (٣)

عبد الرحمن الرفاعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

فكانت مهمتها خارج مدينة جرجا ومهمتها ملاحقة الثوار وعدم تمكينهم من دخول المدينة، ونجحت خطة موراند، فلقد استطاعت الحامية الفرنسية قتل كل ما كان فى المدينة من الثوار، وهرب الباقون إلى الصحراء^(١) أما عن الخسائر التى لحقت بالثوار فى هذه الموقعة، فلقد اختلفت المصادر الفرنسية فى تقديرها لهذه الخسائر، وفى الوقت الذى لم تتعرض فيه لذكر الخسائر التى لحقت بالثوار فى موقعة برديس (٦ أبريل) ذكرت عند تعرضها للخسائر التى لحقت بالثوار فى موقعة جرجا (٧ أبريل) أن عرب ينبع فقدوا فى هذين اليومين (أى فى موقعى برديس وجرجا) مائتى رجل^(٢) بينما ذكرت أن خسائر الفرنسيين تمثلت فى عدد من الجرحى دون أن تتعرض لأعداد هؤلاء الجرحى، بينما ذكر نابليون فى رسالته إلى حكومة الإدارة أن الخسائر التى لحقت بالثوار فى معركة جرجا بلغت مائة قتيل^(٣) وقدر الجنرال دافو خسائر الثوار فى معركة جرجا بمائة وخمسين قتيلًا كما قدر خسائر الفرنسيين بستة من القتلى وأحد عشر جريحاً^(٤)، وبالرغم من اختلاف المصادر الفرنسية فى تقديرها للخسائر التى لحقت بالثوار فى هذه المعركة، فإن الباحث يميل إلى تقدير الجنرال دافو السالف الذكر لأنه الأقرب إلى الحقيقة، فهو وحده الذى ذكر لنا عدد الخسائر التى لحقت بالفرنسيين من قتلى ومن جرحى، مما يدل على دقته وموضوعيته، أما تقدير الجنرال ديزيه فهو لا يتسم بالموضوعية حيث أنه نسب خسائر الثوار من أهالى وممالك وعرب ينبع إلى عرب ينبع فقط، وكأن عرب ينبع هم وحدهم الذين تصدوا للفرنسيين وهم وحدهم التى لحقت بهم الخسائر، وهذا لا يتطابق مع الحقيقة، فالواقع أن الخسائر ألمت بالجميع بما فيهم عرب ينبع، هذا إلى جانب أنه لم يشير إلى الخسائر التى ألمت بالفرنسيين.

أما ما ذكره نابليون لحكومة الإدارة فهو أيضا لا يمثل الحقيقة كاملة لأنه لم يتعرض لأى ذكر للخسائر التى ألمت بالفرنسيين، وإن كان فى نفس الوقت قد تحدث عن الخسائر

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. p. 222, Martin, Op. Cit. T. 1. P. 369.

(٢) انظر : تقرير الجنرال ديزيه عن معارك الوجه القبلى الذى أرسله إلى نابليون فى ٧ أغسطس سنة ١٧٩٩، والمنشور فى Pièces Diverses. Op. Cit. P. 222

(٣) Correspondance de Napoléon Ier. Op. Cit T.V. Doc. No. 4205, en Date du 5 missidor an VII (23 Join, 1799).

(٤) La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 641.

التي أملت بالمصريين، كعادة التقارير الرسمية التي تذكر المكاسب دائما، وتتجاهل الخسائر أحيانا، وإن ذكرتها فإنها تكون دائما بعيدة عن الحقيقة وعن الواقع.

معركة جهينة (١٠ أبريل سنة ١٧٩٩)

نما إلى علم الفرنسيين بأن عرب ينبع بعد هزيمتهم في جرجا توجهوا إلى طهطا، وحاول قائدهم إثارة أهلها ضد الفرنسيين، وعلى الفور تحرك القائد لاسال Lasalle بجنوده من أسبوط في طريقه إلى طهطا لقمع الثورة التي نشبت فيها، وكانت قوات لاسال تتكون من كتيبة من الفرقة ٨٨، والفرقة ٢٢ من القناصة de chasseurs ومدفع واحد^(١) ووصل لاسال وجنوده إلى جهينة^(٢) في الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم ١٠ أبريل سنة ١٧٩٩، فوجد بها عرب ينبع، فقام بمحاصرة القرية بجزء من جيشه، وسار لمقابلة عرب ينبع بالجزء الآخر فقابله عرب ينبع بإطلاق نيران بنادقهم عليه وعلى جنوده، فرد عليهم لاسال بالطلقات النارية، ووجه نيران مدافعه تجاههم، فدخل عرب ينبع في دار حصينة كان يحوطها سور ضخمة، وكانوا قد أحدثوا فيه فتحات، وحدث تراشق بينهم وبين الفرنسيين بالرصاص Fusillade وقاوموا الفرنسيين لعدة ساعات وهم في داخل هذه الدار، واستطاع الفرنسيون في النهاية أن يتغلبوا عليهم وهزموهم شر هزيمة بواسطة الفرقة ٢٢، وقتل من عرب ينبع عدد كبير ومن نجى من القتل فر هاربا، وتمكن نحو مائتين منهم أن يفرّوا تجاه الصحراء وبلغت خسائر عرب ينبع في هذه المعركة حوالي ثلاثمائة قتيل من بينهم الشريف نائب حسن^(٣).

Berthier. Op. Cit. P. 142.

(١)

(٢) قرية كبيرة تقع جنوب طهطا.

(٣) Mémoires sur L'Egypte, publiés pendant Les Campagnes du général Bonaparte

Dans Les années VI, et VII, avec La relation de ses campagnes en Égypte et en syrie, seconde partie, paris, fructidor an IX P. 107, Berthier. Op. Cit. P. 142,

معركة بنى عدى (١٨ أبريل سنة ١٧٩٩)

وصل الجنرال "دافو" إلى أسيوط يوم ١٦ أبريل، وبعد وصوله بأربع وعشرين ساعة، علم أن حشدا ضخما من الثوار قد تشكل فى بنى عدى^(١) الواقعة غرب منفلوط فى الطريق إلى الواحات، حيث قام أهلها وهم أشجع رجال مصر Le plus braves de L'Égypte بالثورة على الفرنسيين، وانضم إليهم فى ثورتهم هذه المماليك والعرب وأهالى دارفور^(٢) الذين جاءوا مع القوافل من قلب أفريقية، وشجعت هذه الجموع مراد بك فخرج من الواحات ليكون على رأس هذا الجيش، وأرسل بقواته وكشافه لينظموا هذه القوات ويثيروا حميتهم فى نضالهم ضد الفرنسيين^(٣). واتخذ الثوار بنى عدى مركزا لهم، واجتمع بها كما يذكر الجنرال ديزيه ثلاثة آلاف من رجال بنى عدى، و ٤٥٠ من قبائل عربان الجهمه^(٤) والتراهونة^(٥)، وخمسون من عربان بنى

(١) بلدة كبيرة تتبع حاليا مركز منفلوط بمحافظة أسيوط، ونظرا لاتساعها الشاسع فلقد قسمت بعد عهد الحملة الفرنسية إلى ثلاث قرى تسمى باسم بنى عدى البحرية، وبنى عدى القبلية، وبنى عدى الوسطانية.

- لمزيد من التفصيل: انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ص ٨٢، ٨٣. ولقد ذكر عنها الجنرال دافو أنها من أكبر بلاد الوجه القبلى سكانا، وأكثرها ثراء Plus riche، وأعظمها مكانة، وأن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم إلى شاطئ النيل لمهاجمة السفن الفرنسية انظر رسالة الجنرال دافو إلى الجنرال دوجا المؤرخة فى ١ مايو سنة ١٧٩٩ والمنشورة فى

La Jonquière. Op. Cit. T. III. P. 643.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد سكان بنى عدى فى ذلك الوقت كان ١٢ ألف كما قدره فيفان دينون انظر :

Vivant Denon. Voyage dans La Basse et la Haute Egypte Pendant Les campagne du général Bonaparte Tome Second, Quatrieme Édition. Paris 1803, P. 199

(٢) ذكر الجنرال ديفرنوا أن بنى عدى كان يقيم بها ما بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ رجل من قوافل دارفور، ولقد وصلوا إلى بنى عدى بعد خمسة أشهر من السفر فى الصحراء انظر :

Memoires du Gèneral Desvernois. Op. Cit. P. 185.

La Jonquière. Op. Cit. T. III. P. 642, Désirè Lacroix. Op.Cit. PP.375,376. (٣)

(٤) سبقت الإشارة إلى مقر إقامة عربان الجهمه بالفصل الأول.

(٥) ينتمى عرب التراهونة إلى قبيلة أبى كرايم التابعة للشيخ على وتمتد دائرة نفوذها من صنبو حتى ملوى، وتمتلك هذه القبيلة ألف حص. من، وعددا كبيرا من الجمال، وأهم شيوخها هم الشيوخان على وسليمان =

وافى^(١)، وثلاثمائة من المماليك، ولم يستطع ديزيه أن يحصر أعداد المكيون (عرب الحجاز) الذين انضموا إلى الثوار بنى عدى لأنه يجهلها وذلك كما ذكر فى رسالته إلى نابليون^(٢) .

وإذا ما أضفنا أعداد المكيون التى لم يستطع ديزيه أن يحصرها إلى الأعداء التى ذكرها، فإن عدد القوات التى تجمعت فى بنى عدى من الثوار تبلغ على الأقل أربعة آلاف رجل، الغالبية العظمى منهم من أهالى بنى عدى فلاحين وعربان، ويلىهم فى العدد المماليك ثم عرب الحجاز .

وما أن أصبح تجمع الثوار حقيقة، وتحفزهم للثورة واضحا حتى استعد الجنرال دافو للقائهم ولم يتوانى لحظة واحدة فى اللحاق بهم، وعزز قواته بكتيبة من الفرقة ٨٨ والفرقة ١٥ من الفرسان، وعين سيلي Silly قائدا على أسويط بدلا من بينون^(٣) Pinon وتوجه دافو بجنوده تجاه بنى عدى فوصلها يوم ١٨ أبريل، ووجد بها جيش كبير يحمل السلاح ويتأهب للقتال، وكان جناح القرية Le Flanc du village باتجاه الصحراء مغطى بعدد كبير من الفرسان والمماليك والعرب والفلاحين، فشكل الجنرال دافو مشاته إلى طابورين أحدهما لمهاجمة القرية والآخر لمحاصرتها، والطابور الأخير هذا كان يتقدمه الفرسان بقيادة بينون وهو رئيس فرقة ممتاز، ولكن هذا الضابط التعس أثناء مروره بالقرب

- - لمزيد من التفصيل انظر :

Jomard, Observation sur les Arabes de L'Egypte Moyenne, in Description de L'Egypte, Etat moderne, Tome Douzième, Seconde Edition, Paris 1823. PP. 296, 297.

(١) تعسكر قبيلة بنى وافي وهى قبيلة بالغة الثراء بخيولها من منتصف ترعة تسمى العسل وحتى صنبو فى الشمال ومكان إقامتها الرئيسى فى نتالية وهى قرية تقع إلى شمال منفوط. انظر :

Jomard. Op. Cit. P. 295.

(٢) انظر رسالة "ديزيه" إلى "نابليون" المؤرخة فى ٣٠ أبريل سنة ١٧٩٩ والمنشورة فى

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. PP. 654, 655.

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 225, Berthier. Op. Cit. P. 143.

(٣)

من أحد المنازل تلقى طلقة بندقية أردته قتيلا^(١)، فأسرع الجنرال دافو بإرسال المساعد العام راباس Rabasse ليحل محل بينون لقيادة الفرسان الذين لاحظوا وجود المماليك في الصحراء في طريقهم إلى بنى عدى لنجدة الأهالي فاتجهت إليهم أحد طوابير المشاة الفرنسية، لكن طليعة مراد بك التي أخرجها البؤس الشنيع من الواحات، نصحته بالعودة سريعا^(٢)، فارتد المماليك لأول صدمة وانسحبوا راجعين إلى الواحة التي قدموا منها وتركوا الأهالي وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسي، فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات بنى عدى، وفي بيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود الفرنسيين، فلقى الجيش الفرنسي في بنى عدى ما لم يلق مثله في كثير من البلاد^(٣)، واستمرت المعركة إلى الليل واستخدمت فيها المدفعية ولم يتمكن الفرنسيون من الاستيلاء على بنى عدى إلا بعد أن أشعلوا فيها النيران^(٤)، وفي لحظات تحولت هذه القرية الجميلة إلى رماد وأطلال^(٥) Ce beau village est réduit en cendres واحتلها الجنود الفرنسيون وأمعنوا في أهلها قتلًا ونهبًا.

أما عن الخسائر التي لحقت بالثوار في بنى عدى، فإننا لا نجد أمامنا سوى المصادر الفرنسية المعاصرة التي قدرت هذه الخسائر، وللأسف فإن هذه المصادر بالرغم من أن أصحابها كانوا شهود عيان وشاركوا في الأحداث إلا أن تقديرهم للخسائر التي لحقت بالثوار قد اختلفت من مصدر لآخر على النحو التالي :

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 225.

ويذكر "ديفرنوا" أن الكولونيل "بينون" قتل هو وأربعة أو خمسة من رجاله على يد رماة اختبأوا خلف حائط كان يرتفع ٢٠٠ قدم عن الأرض انظر:

Memoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 185.

(٢) Berthier. Op. Cit. P. 144.

(٣) عبد الرحمن الرفاعي : المرجع السابق، ج١، ص ص ٣٨٦، ٣٨٧.

(٤) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٤٣٣.

(٥) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 226.

قدر الجنرال دافو عدد القتلى من الثوار ببني عدى بما يزيد عن ألفين من القتلى^(١)، أما الجنرال ديزيه فقد كان متناقضا مع نفسه في تقديره لعدد القتلى، فلقد ذكر في رسالة منه إلى نابليون بعد المعركة بأيام أن عدد القتلى من الثوار بلغ ثلاثة آلاف^(٢)، ثم ذكر في تقرير آخر لنابليون بعد المعركة بشهور أن عدد القتلى بلغ ألفي قتيل من عرب ينبع والمغاربة والدارفوريين والمماليك والأهالي من بني عدى^(٣).

أما نابليون فقد أخطأ عندما قدر عدد القتلى من الثوار بألف رجل^(٤) وهو لم يشهد الواقعة، وكان من المفروض أن يعتمد على رسائل وتقارير الجنرال ديزيه والجنرال دافو، لكنه وضع تقديرا لعدد القتلى من عنده دون أن ينظر إلى تقارير من شاهدوا الواقعة واشتركوا فيها. ولاشك أن اختلاف المصادر قد يوقع الباحث في حيرة، ولكن بعد تحليل هذه المصادر يتضح لنا إذا ما استبعدنا تقدير نابليون لأنه لم يشاهد الواقعة، فإننا نجد أن باقي المصادر قد اتفقت على أن عدد القتلى من الثوار قد بلغ ألفي قتيل وذلك حسب تقديرات كل من دافو وبرثيه وديزيه^(٥).

أما خسائر الفرنسيين في هذه المعركة فقد بلغت ثمانية من القتلى وثلاثون جريحا على حد تقدير الجنرال دافو^(٦).

(١) انظر رسالة "دافو" إلى "دوجا" المؤرخة في ١ مايو ١٧٩٩ والمنشورة في :

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 644.

(٢) انظر رسالة "ديزيه" إلى "نابليون" المؤرخة في ٣٠ أبريل سنة ١٧٩٩ والمنشورة في :

La Jonquière. Op. Cit. T. 111, P. 655.

(٣) انظر تقرير "ديزيه" إلى نابليون عن معارك الوجه القبلي في ٧ أغسطس ١٧٩٩ المنشور في :

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 226.

كما ذكر برثيه أن عدد القتلى من الثوار بلغ ألفي قتيل انظر :

Berthier. Op. Cit. PP. 144, 145.

(٤) Correspondance de Napoléon Ier. Op. Cit. T. V. Doc. No. 4205 en date du 5 messidor an VII (23 Juin, 1799).

(٥) ذكر "ديزيه" أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف، ويبدو أنه أحس بأنه أخطأ في تقديره هذا فذكر بعد ذلك في

تقرير آخر أن عدد القتلى بلغ ألفي قتيل والباحث يميل إلى التقدير الأخير.

(٦) انظر رسالة "دافو" إلى "دوجا" المؤرخة في ١ مايو سنة ١٧٩٩ والمنشورة في

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 644.

ونود أن نشير إلى أن الخسائر التي لحقت بالمصريين لم تكن تتمثل فقط في أعداد القتلى السالفة الذكر، بل شملت هذه الخسائر الأرواح والأموال فلقد خسر الأهالي كل ما يملكون، حيث استولى الفرنسيون على كل ما وجدوه في بنى عدى من أموال وجواهر حيث وجد الفرنسيون في بنى عدى صناديق مملوءة بالذهب^(١)، فاستولوا عليها وأخذوا شيئا كثيرا وأموال عظيمة، وودائع جسيمة للغز وغيرهم من مسائير أهل البلاد القبلية^(٢) وأصابته الخسائر جميع الطوائف التي تقطن بنى عدى^(٣)، وغنم الفرنسيون أموالا طائلة، فلقد ذكر الجنرال دافو أن الغنائم التي استولى عليها الجنود قد عوضتهم ما فقدوه، وكثير منهم كان نصيبه خمسة عشر أو عشرون ألف فرنك ذهبي^(٤)، وهكذا فلقد كانت خسائر الثوار فادحة في الأرواح والأموال، بينما كانت خسارة الفرنسيين في الأرواح قليلة ومكاسبهم في الأموال عظيمة.

ثورة المنيا (٢٣-٢٥ أبريل سنة ١٧٩٩)

كانت المنيا مركزا لثورة عارمة، إمتدت لمدة ثلاثة أيام متوالية، وفي ذلك الوقت كان ديتريس Dètrès قائدا للحامية الفرنسية في المنيا، وقبل أن يصل الجنرال دافو إليها شبت الثورة في البلاد المجاورة فواجهها ديتريس بالقوات التي تحت قيادته، ونشبت معارك ثلاث في ثلاثة أيام متوالية وسنعرض لهذه المعارك بالتفصيل كالتالى :

ففى اليوم الأول الموافق ٢٣ أبريل سنة ١٧٩٩، وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر علم ديتريس أن حشدا Rassemblement مكونا من ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 226.

(١)

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣هـ، ص ٢٧٣.

(٣) تعرض رجال قوافل دارفور للنهب واستولى الفرنسيون على أموالهم وجمالهم ومنهم من مات فى الحرائق ومنهم من قتل على يد الفرنسيين حيث ذكر الجنرال ديغرنوا أنه استولى على ٨٩٧ جملا من جمال قافلة دارفور وقتل منهم أربعة رجال، ولمزيد من التفصيل انظر :

Memoires du Gèneral Desvernois. Op. Cit. P. 186.

(٤) انظر رسالة دافو إلى دوجا المؤرخة فى ١ مايو ١٧٩٩ والمنشورة فى

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 644.

من الأهالي ومثلهم من المكيين (عرب الحجاز) قد تكون في قرية (طهنشا)^(١) جنوبى المنيا وأنهم قد استعدوا للهجوم على الحامية الفرنسية فى المنيا، بل وأرسل زعيمهم إلى شيخ بلد المنيا يطلب منه مظاهرتهم على عدوهم فعزم ديتريس على مهاجمتهم قبل أن يهاجموه، وترك فى المنيا فصيلة صغيرة من جنوده، وتوجه بباقي جنوده التى كانت تصل إلى مايزيد على ٢٩٩ جندي، وأخذ معه أيضا حوالى ثلاثة مدافع، والتقى بالثائرين بالقرب من (تلة)^(٢) التى تبعد عن المنيا غربا بنحو ثلاثة كيلو مترات، فلما اقترب منهم ديتريس برزوا من معسكرهم لمقاتلته، وبدأت المعركة بتحريك الثوار تجاه الفرنسيين فى محاولة منهم لشن هجوم خاطف على القوة الفرنسية، وفى نفس الوقت كان ديتريس قد جعل من قواته مربعا على الطريقة الفرنسية، وسلط مدافعه على جموع الثائرين، واستمر القتال بين الفريقان لمدة أربع ساعات، ولمح ديتريس جماعة من المماليك قادمين من الجنوب فى طريقهم إلى المنيا، فانسحب ديتريس إلى المنيا ليوطد مركزه بالمدينة، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير بدليل أن الأهالي والمماليك لم يستطيعوا اقتحام بوابات مدينة المنيا ودخلها، وكان الليل قد أقبل، فعاد الأهالي إلى تلة^(٣)، واستغل ديتريس هذه الفرصة لينظم قواته استعدادا لصد هجوم الأهالي فى اليوم التالى .

وفى اليوم الموافق ٢٤ أبريل استعد "ديتريس" لمقاومة الأهالي والعربان والمماليك وعرب الحجاز، ووقف بجنوده خارج مدينة المنيا فى موقع حصين تحميه المقابر والحدائق Des Jardins، وأوقف الرماة خلف الهضاب العالية، وتقدم الثوار فى اتجاه الفرنسيين وهم يصيحون صيحات القتال، وكان عددهم قد زاد بمن انضم إليهم من سكان القرى الواقعة على شاطئ النيل، وبمن انضم إليهم من جماعة المماليك الذين قدموا من الجنوب، وامتألاً السهل المجاور للمدينة على مسافة فرسخ^(٤) Lieue بالمقاتلين، ودارت المعركة من جديد بين

(١) قرية تتبع مركز المنيا، واسمها الأصلي طحنشها وحرف للتخفيف إلى طحنشا، ثم حرف لسهولة النطق إلى طهنشا وهو اسمها الحالى الذى وردت به فى تاريخ سنة ١٢٣٠هـ .

- انظر محمد رمزي : المرجع السابق، ج٣، ص ٢٠٢ .

(٢) قرية تتبع حاليا مركز المنيا : لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزي : المرجع السابق، ج٣، ص ١٩٩ .

(٣) انظر : رسالة "ديتريس" إلى الجنرال "دوجا" المؤرخة فى ٢٧ أبريل سنة ١٧٩٩ والمنشورة فى : La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 646.

(٤) الفرسخ : مقياس طولى يساوى أربعة كيلو مترات تقريبا .

الثوار والفرنسيين، وبدأ الأهالي فى مهاجمة الفرنسيين الذين اتخذوا خطة الدفاع لقلعة أعدادهم، واستمر الفرنسيون يدفعون هجمات الثوار لمدة ساعتين ويبدو أن هجوم الثوار كان عنيفا، ونجح الأهالي فى الضغط على القوة الفرنسية المكلفة بالدفاع عن الباب الشمالى لمدينة المنيا، فانسحبت هذه القوة أمام هجمات الأهالي إلى داخل المدينة، ولحق بهم ديتريس، وفى نفس الوقت تمكن الثوار من اقتحام أبواب المدينة الأخرى ودخلوا المدينة، وامتألت بهم شوارعها واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم، وهنا جمع ديتريس جنوده وأمرهم بمهاجمة الثوار، وإطلاق النار عليهم، كما أرسل فصائل من جنوده لاحتلال الشوارع الرئيسية بالمدينة، وإخلاء الثوار منها وإعادة سلطة الفرنسيين عليها، ونجحت القوات الفرنسية فى السيطرة على المدينة، وطرد الثوار منها بعد أن حلت بهم خسائر فادحة (١) .

وفى اليوم الثالث الموافق ٢٥ أبريل، أقبل أربعمائة فارس من العرب المصريين يظاهرم جماعة من المماليك، وهاجموا الفرنسيين وكادت تدور الدائرة على الفرنسيين لولا وصول الجنرال دافو بقواته فى الوقت المناسب فهزم الثوار، وعاد الهدوء إلى المدينة من جديد بعد أن انسحب الثائرون منها تاركين خلفهم العديد من الجرحى والقتلى أما الخسائر التى لحقت بالثوار فى الثلاثة أيام فلقد بلغت على حد تقدير ديتريس ٦٠ قتيلا من بينهم عشرة من المماليك، إلى جانب ما يزيد على ١٥٠ جريحا من الأهالي والمكيون، أما الخسائر التى لحقت بالفرنسيين فى الثلاثة أيام أيضا فلقد بلغت كما قدرها "ديتريس بعشرة من القتلى إلى جانب ٢٧ من الجرحى (٢) .

ومن العرض السابق يتضح لنا أن ثورة المنيا لم تكن ثورة المدينة نفسها بل كانت ثورة القرى المجاورة للمدينة، وإذا كنا قد أطلقنا عليها ثورة المنيا، فلأن مدينة المنيا كانت هى البؤرة التى دارت فيها هذه المعارك، أما غالبية الثوار فكانوا من القرى المجاورة للمنيا، وكان معهم عربان المناطق المجاورة أيضا إلى جانب جماعة من المماليك، وجماعة من

(١) انظر رسالة "ديتريس" إلى الجنرال "دوجا" المؤرخة فى ٢٧ أبريل سنة ١٧٩٩ المنشورة فى :

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. PP 646, 647.

(٢) انظر رسالة ديتريس إلى الجنرال دافو المؤرخة فى ٢٧ أبريل سنة ١٧٩٩ المنشورة فى :

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 647.

عرب الحجاز، أما أهل مدينة المنيا فلم ينضم غالبيتهم إلى الثوار ضد الفرنسيين ويؤكد ذلك ديتريس في رسالته إلى الجنرال دوجا حيث يقول إن حماية المنيا سلمت من القتل بفضل السلوك الهادئ لمشايخ البلد في المنيا، والغالبية العظمى من سكانها فلو أنهم حملوا السلاح في وجه الفرنسيين لما بقي منهم أحد^(١).

وهكذا يمكن القول بأن الأقلية من سكان المنيا هم الذين انضموا إلى الثوار، بينما وقفت أغلبية السكان موقفا سلبيا فلم ينضموا إلى الثوار ضد الفرنسيين، وأدى موقفهم السلبي هذا إلى تمكن ديتريس وجنوده من القضاء على الثوار وتكبيدهم خسائر جسيمة ولكن موقفهم السلبي هذا من وجهة نظر الثوار، كان بالنسبة للفرنسيين موقفا ايجابيا يستحق سكان المنيا مكافأة عالية، وبالفعل فلقد قام ديتريس بإنقاص المال المفروض على سكان مدينة المنيا في ذلك العام بمقدار الثلث Tiers لحسن تصرفهم، وقرر ديتريس حمل هذا الثلث على ثلاث قرى من البلاد التي اشتركت في الثورة^(٢) عقابا لهم على اشتراكهم في الثورة ضد الفرنسيين.

La Jonquiére. Op. Cit. T. III. P. 647

(١)

Ibid. P. 647.

(٢)

الفصل الثالث

الحملة الفرنسية على الصعيد
الأعلى وحركات المقاومة

الفصل الثالث

الحملة الفرنسية على الصعيد الأعلى وحرركات المقاومة

- تمهيد
- معركة سمهود (٢٢ يناير سنة ١٧٩٩)
- سير حملة الجنرال ديزيه من فرشوط حتى أسوان
- المقاومة في جزيرة فيلة
- تجدد القتال بين جرجا وأسوان
- معركة الرديسية (١١ فبراير سنة ١٧٩٩)
- معركة قنا (١٢-١٣ فبراير سنة ١٧٩٩)
- معركة أبو مناع (١٧ فبراير سنة ١٧٩٩)
- معركة إسنا (٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩)
- معركة أبنود النيلية (٣ مارس سنة ١٧٩٩)
- معركة ققط (٨ مارس سنة ١٧٩٩)
- معركة أبنود (٨-٩-١٠ مارس سنة ١٧٩٩)
- معركة بئر عنبر (٢ أبريل سنة ١٧٩٩)
- معركة أسوان (١٦ مايو سنة ١٧٩٩)
- احتلال القصير (٢٩ مايو سنة ١٧٩٩)

الحملة الفرنسية على الصعيد الأعلى

وحركات المقاومة

تمهيد :

زحفت حملة الجنرال ديزيه على الصعيد الأعلى أو مصر العليا لإخضاعها للإدارة الفرنسية، ولم تكن مهمة الجنرال ديزيه سهلة، حيث اشتعلت الثورة في كل مكان، وتوالى هجمات الأهالي على القوات التي تجتاز البر وتلك التي تجتاز البحر وواجهت القوات الفرنسية في هذا القطاع من صعيد مصر ثلاث قوات مجتمعة ممثلة في العرب القادمين من الحجاز والمماليك والأهالي، ودارت معارك عديدة بين أهالي الصعيد وحلفائهم وبين القوات الفرنسية، وهذا ما سنتعرض له بالتفصيل من خلال عرضنا لأحداث هذا الفصل .

معركة سمهود (٢٢ يناير سنة ١٧٩٩)

علم مراد بك بهزيمة جيشه في طهطا، لكنه بالرغم من ذلك لم يفقد الأمل في أن يلتقى بالفرنسيين في موقعة حاسمة يحقق فيها انتصارا يعوضه عن هزائمه السابقة، وخصوصا بعد أن جاءت الأنباء مبشرة بصلحه مع حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن وانضمام رجالهما إليه في معركته ضد الفرنسيين، وكذلك بمجئ قوات من الحجاز ومن عرب جدة وينبع الذين عبروا البحر الأحمر متجهين إلى ميناء القصير ومن هناك اتجهوا إلى قنا حيث انضموا إلى مراد بك لمساعدة إخوانهم المصريين في حربهم ضد الفرنسيين، ولقد انضم إلى مراد بك جمع غفير من أهالي الصعيد الثائرين حيث ذكرت المصادر الفرنسية "أنه بسبب الكتابات المهيجة المنتشرة بواسطة المماليك كان جميع سكان مصر العليا من الشلالات إلى جرجا مجندين ومستعدين للزحف ضد الفرنسيين"^(١).

(١) Berthier, Mémoires du maréchal Berthier Campagne d'Egypte, Ire partie paris 1827, P. 118., Bièces Diverses Relatives aux opération militaires et politiques du général Bonapart, Paris an VIII, P. 194.

والواقع أن أهالي الصعيد لم يكونوا بحاجة إلى منشورات أو رسائل كى تحثهم على قتال الفرنسيين، فهم قد هبوا من أنفسهم للذود عن وطنهم وعن عرضهم ضد الغاصب المحتل . وهكذا تكون لدى مراد بك جيش كبير يضم ألفين من المماليك، وسبعة آلاف من الفرسان المصريين، وثلاث آلاف من المشاة المصريين، بالإضافة إلى ألفين من المشاة من عرب ينبع وجدة، أى أن قوات مراد بك بلغت ما يقرب من أربعة عشر ألف مقاتل كما قدرتها المصادر الفرنسية(١) .

وعلى الجانب الآخر فإن الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال ديزيه كان مؤلفا من خمسة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان، وأربعة عشر مدفعا. وعمارة بحرية صغيرة فى النيل(٢) . وعلم ديزيه أن قوات مراد بك مرابطة فى سمهود(٣) الواقعة على ترعة بهجورة فانتقل إليها بجيشه وهناك حدثت موقعة حامية يوم ٢٢ يناير ولكن ماذا عن أحداث هذه الموقعة؟

بدأت هذه الموقعة صباح يوم ٢٢ يناير بقاء بين طلائع الجيشان، حيث تقابلت الفرقة السابعة من الخيالة بقيادة القومندان دوبليسى Duplessis مع طلائع الجيش المصرى التى كان يقودها عثمان بك حسن، وحدثت مناوشات بين طلائع الجيشين، انتهت بفرار مقدمة الجيش المصرى تاركة خلفها عدد من الرجال يتراوح بين أربعين وخمسين رجلا فى ميدان القتال، وفقد الفرنسيون جنديا واحدا. كما أصيب اثنان من الفرنسيين بجروح فى هذه البداية الساخنة للمعركة الكبيرة كما يذكر الكابتن ديفرنوا أحد المشاركين فى أحداث هذه المعركة(٤) .

(١) La Jonquière, L'Expédition d'Egypte 1798-1801, 5 Vols, Tome III, Paris 1899-1907, P. 526, 528, Desirè Lacroix, Bonaparte en Egypte 1798-1799 Paris 1899, P. 358, Henry Laurens L'Expédition D'Egypte 1798-1801, Paris 1989, P. 159.

(٢) Desirè Lacroix.Op. Cit. P. 358.

- أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر . القاهرة ١٩٢٥، ص ١٨٠ .

- جلال يحيى : مصر الحديثة، منشأة المعارف، الاسكندرية، دون تاريخ، ص ٤١٢ .

(٣) سمهود : قرية كبيرة تقع على شاطئ النيل الغربى وتتبع حاليا مركز نجع حمادى بمحافظة قنا .

- لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٥٤، القسم الثانى، الجزء الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٩٧ .

(٤) Memoires du Gèneral Desvernois, Publiès sous les auspices de sa nièce Mme Boussu-Desvernois D'après les manuscrits originaux avec une introduction et notes par Albert Durourg. Paris 1898, P. 160.

وأثناء تلاحم مقدمات الجيشان كان الجنرال ديزيه يضع جيشه فى وضع القتال، ويعد خطته الحربية بدقة ليضمن لجيشه الفوز فى هذه المعركة الهامة، وقام ديزيه بتشكيل جيشه إلى ثلاثة مربعات متجاورة كالتالى :

- ١- المربع الأيمن : ويتكون من جنود الفرق ٦١، ٨٨ بقيادة الجنرال فريان .
- ٢- المربع الأيسر : ويتكون من جنود الفرقة ٢١، بقيادة الجنرال بليار .
- ٣- فرقة الفرسان : فى القلب على شكل مربع بقيادة الجنرال دافو .

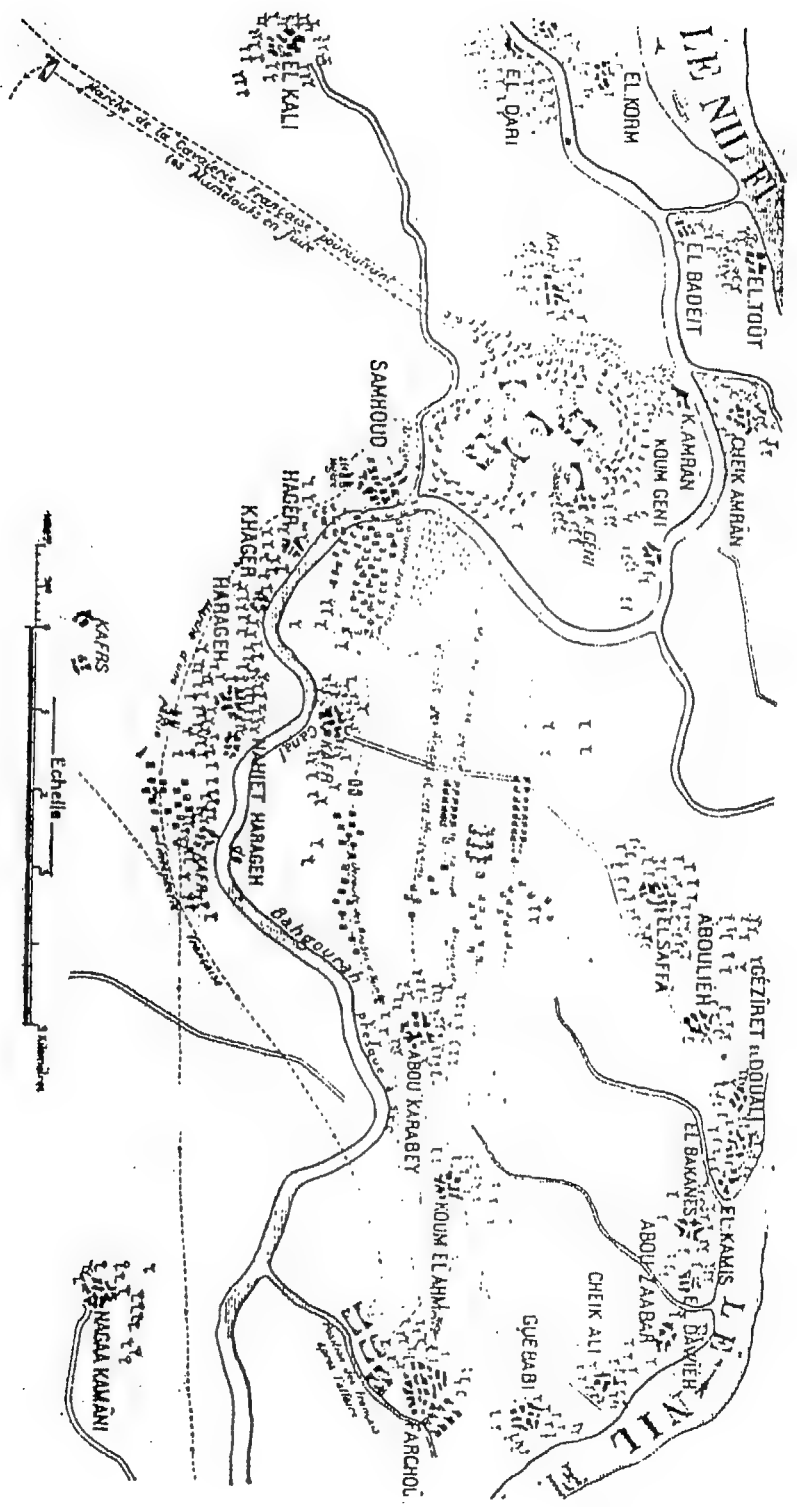
وروى بالنسبة لفرقة الفرسان أن تكون فى فاصل المربعين ليكونوا فى مأمن من نيران المماليك أما المدفعية فكانت فى الجناحين الأيمن والأيسر لحماية جنود المشاة من هجمات المصريين^(١) وواضح من هذا التقسيم أنه يتميز بالنظام والتخطيط الحربى الذى يتبع طرق الحرب الحديثة، بينما نجد الجيش المصرى بقيادة مراد بك بالرغم من كثرة أعداده إلا أنه كان يفتقر إلى النظام وفى هذا يذكر أحد المعاصرين الفرنسيين عن بداية المعركة بعد أن نظم الجنرال ديزيه جيشه على الطريقة السالفة الذكر فيقول "بعد أن تم استعدادنا بهذه الطريقة للقتال، هجم علينا الأعداء (يقصد الأهالى وحلفاءهم) من جميع الاتجاهات بكل قوتهم وكان بإمكاننا تمييز المماليك من هذه المجاميع غير نظامية من فخامة ملابسهم وبلعمة سيوفهم، أما الفلاحين فكانت أعدادهم لا تحصى، وبين هذه الأعداد من المحاربين ارتفعت أعلام من كل شكل ولون، وامتلات الساحة بقعقة السلاح وصهيل الخيل وشعرنا كما لو أن مصر بأجمعها قد اجتمعت فى "سمهود" للقضاء علينا^(٢) .

وهكذا بدأت المعركة بهجوم عام من الجيش المصرى حيث أحاط فرسانه وهم كثيرون العدد بالقوات الفرنسية من جميع الاتجاهات، وبعد ذلك ألفت جماعة من المشاة من عرب ينبع^(٣) فى ترعة كبيرة

(١) Dominique DI Pietro, Voyage Historique en Egypte Pendant Les Campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou, Paris 1827, P. 115, Martin, Histoire de L'Expédition Française en Egypte, 2 Vols, Tome Première, Paris 1815, P. 349, Pièces Diverses, Op. Cit. P. 195, Berthier, Op. Cit. P. 118.

(٢) Dominique Di Pietro. Op. Cit. P. 116.

(٣) تجدر الإشارة إلى أن المصادر الفرنسية قد اختلفت فى كون هؤلاء الجماعة من عرب ينبع أم من عرب مكة فمن المصادر التى ذكرت أن هؤلاء الجماعة من عرب ينبع نذكر على سبيل المثال =



Bataille de Samhoud (2^e action).



La Jonquière, Tome III, P. 529. : نفا عن

وعميقة^(١) ثم بدءوا فى مهاجمة الجناح الأيسر للجيش الفرنسى بنيرانهم فاضطر الجنرال ديزيه إزاء هذا الهجوم الذى بدأ يزعج الجناح الأيسر لجيشه إلى أن يأمر مساعديه راب وسافارى Rapp et Savary بأن يضعوا أنفسهم على رأس كوكبة من الفرقة السابعة من الفرسان للإجهاز عليهم من أحد الأجنحة، وفى نفس الوقت أمر ديزيه فرقة حملة القرايبينات الحادية والعشرين تحت قيادة الكابتن كليمان Clément أن تتقدم على شكل طابور إلى القناة لحصار هؤلاء العرب من الجانب الآخر من القناة، ولقد نفذت أوامر الجنرال ديزيه بكل شجاعة ودقة، وانتهت هذه العملية بهزيمة عرب ينبع ومكة، وفروا من ميدان المعركة تاركين خلفهم خمسة عشر قتيلا وحاملين معهم عددا كبيرا من الجرحى، أما خسائر الفرنسيين فى هذه الجولة من المعركة فإنها بلغت قتيلا واحدا من فرقة حملة القرايبينات، حيث قتل بطعنة خنجر عندما حاول نزع الأعلام الخاصة بعرب مكة، وكان هناك عدد من الجرحى من الفرنسيين منهم الكابتن ديفرنوا وراب مساعدا الجنرال ديزيه وبعض الجنود

Berthier. Op. Cit. P. 118, Pièces Diverses. Op. Cit. P. 195.

أما المصادر التى ذكرت أنهم من أهل مكة فهى :

Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 117, Martin. Op. Cit. T. 1. P. 349.

والواقع أن أفراد هذه الجماعة لم يكونوا جميعا من عرب ينبع فقط أو من أهل مكة فقط بل كانت تضم أفواجا من ينبع ومكة والمدينة والطائف وجدة وغيرها من عرب شبه الجزيرة العربية الذين ركبوا البحر إلى القصير وانضموا إلى المصريين والمماليك فى صعيد مصرن وكان هؤلاء العرب خصوما أشداء للفرنسيين فى الصعيد، لمزيد من التفصيل عن أعداد هؤلاء العرب والأماكن التى قدموا منها انظر :

- عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثانى، حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣هـ، ص ٢٥٠،

- لطف الله بن أحمد جحاف : نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر : نصوص مختارة من المخطوطة اليمنية "درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على رجال دولته الميامين ١١٨٩- ١٢٢٤هـ - ١٧٧٥-١٨٠٩م، نشر وتحقيق : سيد مصطفى سالم، القاهرة ١٩٧٥، ص ٩٦-٩٩ .

- نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك : نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٠، ص ص ٣٢، ٣٣.

(١) كانت هذه التركة جافة فى هذا الوقت من السنة وكانت تقع فى الوسط ما بين المربع الأيسر للفرنسيين وقرية سمهود.

الآخرين من فرقة الفرسان، ولقد انتهت هذه العملية لصالح الفرنسيين بسقوط سمهود في قبضة الفرنسيين، وأصبحت لهم السيادة عليها(١).

ولم تنته المعركة عند هذا الحد ولم ييأس الجانب المصري، بل حاول استرداد سمهود، ونقذت أعداد كبيرة من المماليك يعاونها عرب ينبع وهم يرددون أصواتا عالية وصيحات مدوية ومرعبة أزعجت الجانب الفرنسي، وتقدموا تجاه سمهود في محاولة لاستردادها من أيدي الفرنسيين، ولكن بمجرد أن حاول طابور من عرب ينبع التقدم لدخول سمهود، تصدت لهم فرقة حملة القرايينات الحادية والعشرين، وأطلقت عليهم نيرانها الحامية والكثيفة، وعندئذ اضطر عرب ينبع إلى الانسحاب بعد إصابتهم بخسائر فادحة(٢).

وفي نفس الوقت انقض المماليك على المربع الذي كان يقوده الجنرال فريان، بينما اتجهت عدة طوابير من مشاة الجيش المصري تهاجم المربع الذي كان يقوده الجنرال بليار، وهكذا قامت القوات المصرية بقيادة المماليك بمحاصرة المربع لأيمن والمربع الأيسر للجيش الفرنسي، ولكن الفرنسيين استطاعوا فك هذا الحصار بعد أن انضمت المدفعية الخفيفة إلى جنود المشاة الفرنسيين، وقامت القوات الفرنسية بفتح نيران مدفعيتها المدوية على القوات المصرية، فاضطروا إلى التقهقر تاركين أرض المعركة مغطاه بعدد كبير من القتلى والجرحى.

وفي هذه اللحظة أصدر الجنرال ديزيه أمره إلى الجنرال دافو بالهجوم على جيش المماليك الذي يقوده مراد بك وحسن بك اللذان كانا يريدان الاحتفاظ بموضعهما، واندفع الجنرال دافو ورجاله في هجوم كاسح على قوات المماليك فاضطر مراد بك إلى إصدار تعليماته لجنوده ببدء التراجع والانسحاب من أرض المعركة وقامت القوات الفرنسية

Pièces Diverses. Op. Cit. PP. 195, 196. Berthier, Op, Cit. PP. 118, 119, (١)
Mémoires sur L'Egypte publiés pendant les campagnes du gèneral Bonaparte dans les années VI, et VII, Avec La relation de ses campagnes en Egypte et syrie, seconde partie, paris, Fructidor an IX, P. 90. Désirè lacroix. Op. Cit. PP 358, 359.

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 196, Désirè Lacroix. Op. Cit. P. 359.

(٢)

بمطاردة المماليك لمدة أربع ساعات، ولم تتوقف إلا في فرشوط حيث وجدوا كثيرا من قتل المماليك متأثرى بجراحهم(١) .

وبلغت خسائر الجيش المصرى فى هذه المعركة حسبما قدرتها المصادر الفرنسية بأكثر من ٢٥٠ رجل من القتلى منهم ١٠٠ من عرب ينبع، هذا إلى جانب عدد كبير من الجرحى أما خسائر الفرنسيين فلقد بلغت أربعة من القتلى وبعض الجرحى(٢) .

وإذا كانت هذه المعركة قد انتهت بانتصار الفرنسيين بالرغم من قلة أعدادهم عن جيش مراد بك، فإن ذلك يرجع إلى كفاءة الجيش الفرنسى وما يملكه من أسلحة متطورة عن أسلحة المماليك، وفى ذلك يذكر الجنرال برتية أن نجاح هذه المعركة كان راجعا خاصة إلى المدفعية الخفيفة التى كان يقودها قائد الفرقة لاتورنييرى Latournerie وهو ضابط جدير بالاحترام(٣) .

وعلى كل حال فلقد انتهت هذه المعركة بانتصار الفرنسيين وهزيمة مراد بك وانسحابه جنوبا، وإذا كان لهذا الانتصار من نتائج فإنه فتح الطريق أمام الجيش الفرنسى لمواصلة زحفه جنوبا دون أن تعترضه عقبات لها قيمتها(٤) . وإن كان البعض من المعاصرين الفرنسيين قد غالى فى تقدير النتائج التى ترتبت على هذه الانتصار حيث ذكر الجنرال ديفرنوا أن هذا النصر كانت له نتائج عديدة، فقد أثار الرعب فى قلوب حلفاء مراد، وجعل للفرنسيين مهابة فى الصعيد والجزيرة العربية والنوبة وأثيوبيا(٥) وإذا كان هذا رأى مغالى فيه فإن هناك من المعاصرين الفرنسيين من ذكر أنهم (لو كانوا فى أوروبا لكانت

(١) Mémoires sur L'Egypte. op. Cit. PP. 90, 91, Pièces Diverses. Op. Cit. PP 196, 197.

(٢) Berthier. Op. Cit. P. 120, Mémoires sur L'Egypte. Op. Cit. P. 91, Pièces Diverses. Op. Cit. P. 197.

(٣) Berthier, Op. Cit. P. 120.

(٤) جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٤١٢.

(٥) Memoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 163.

موقعة سمهود قد أعطتهم السيطرة على الصعيد كله، ولكن مراد بك لم يستطع تقبل فكرة تفوق الفرنسيين، وبالرغم من معرفته بقوتهم، وعدم وجود الإمكانيات لديه إلا أن شجاعة هذا الرجل وقوة شخصيته وتفاؤله لم يمساوا (١) .

ولكن أهم النتائج التي ترتبت على هذه المعركة تتلخص في أن مراد بك قد غير خطته الحربية بعد هذه المعركة ويذكر المؤرخ الفرنسي المعاصر دومينيك دي بيترو أن مراد بك قرر بعد معركة سمهود أن ينهك قوانا في تحركات طويلة ومرهقة وهذا الأسلوب قد سلبنا ثمار انتصار سمهود فاضطررنا للعدو خلف عدو لا يتركنا نقترّب منه إلا عندما تسمح له ظروفه بالقتال (٢) . وهكذا أدت هذه المعركة إلى تغيير مسار الحرب في الصعيد، وجعلت كلا الطرفين المتحاربين يغيران من خططهما الحربية طبقاً لظروف كل منهما .

ويمكن القول بأن معركة "سمهود" يمكن إضافتها إلى معركة "سدمنت" ومعركة "إمبابة" بصفتها من المعارك الفاصلة، والتي تستحق هذا الاسم في تاريخ مصر الحربى في عهد الحملة الفرنسية .

سير حملة الجنرال ديزيه من فرشوط حتى أسوان

فر مراد بك جنوباً بعد هزيمته في سمهود، وقامت القوات الفرنسية بمطاردته حتى وصلت إلى فرشوط، ثم تابعت سيرها حتى وصلت إلى هو (٣) ثم الوقف (٤) التى وصلتها يوم ٢٣ يناير سنة ١٧٩٩، وبلغت دندرة (٥) يوم ٢٤ يناير، ثم واصلت القوات الفرنسية

(١) Martin. Op. Cit. T. 1. P. 351.

(٢) Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 120.

(٣) تتبع مركز نجع حمادى بمحافظة قنا . لمزيد من التفصيل انظر : - محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ١٩٩.

(٤) من بلاد مركز دشنا بمحافظة قنا، انظر : - محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ١٧٢ .

(٥) تتبع حالياً مركز قنا بمحافظة قنا . لمزيد من التفصيل . - انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ١٧٦ .

سيرها جنوبا وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير فى دنفيق^(١) ثم وصلت إلى طيبة مدينة المائة باب^(٢).

ولاشك فى أن هذا السير المتواصل للقوات الفرنسية قد أصاب رجالها بحالة نفسية سيئة، ولكن كانت مشاهدة آثار البلدان التى يمرون بها كقيلة بإزالة المتاعب التى يحسون بها، فلقد توقفت القوات الفرنسية عند آثار دندرة مبهورين بها وبعظمتها^(٣)، ثم توقفوا عند طيبة للاستمتاع بآثارها الخالدة، وفى ذلك يقول ديفرنوا منظر الآثار المهيّب، وهذه المعابد الضخمة التى لها مكانة هامة فى تاريخ الإنسانية، أجبرت الجنود الفرنسيين على التصفيق بشدة، ودون أن يصدر أمر للجنود وقفوا فى طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى^(٤).

وغادر الجيش الفرنسى طيبة، وأسرع يتعقب المماليك فوصل إلى أرمنت^(٥) يوم ٢٦ يناير ثم غادرها فى اليوم التالى مواصلا زحفه جنوبا حتى إسنا^(٦)، التى وصلها يوم ٢٨ يناير سنة ١٧٩٩، وكان مراد بك وقواته قد غادروها فى الليلة السابقة لوصول الفرنسيين إليها^(٧).

وتجدر الإشارة إلى أنه قد حدثت تغيرات فى القوات المصرية قبل أن تصل إلى اسنا أدت إلى قلة أعداد جنود مراد بك، وهى انفصال مقطوعو مكة عن مراد بك بعد موقعة سمهود واختفاؤهم فى ريف قنا على الضفة اليمنى من النيل، ثم جاءت ظروف أخرى لتقلل من عدد جنود مراد بك حيث انفصل عنه بعض البكوات واتجه بعضهم إلى الضفة اليمنى

(١) تتبّع مركز قوص بمحافظة قنا - انظر : محمد رمزى المرجع السابق، ج٤، ص ١٨٦.

(٢) Louis Reybaud, Histoire Scientifique et militaire de L'expédition française en Egypte. Tome IV, Paris 1830-1836, PP. 377, 384.

(٣) Dominique DI Pietro, Op. Cit. PP. 121, 122.

(٤) Mémoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 164.

(٥) من بلاد مركز الأقصر بمحافظة قنا - انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ١٦٠.

(٦) هى قاعدة مركز إسنا بمحافظة قنا وهى من المدن القديمة وتقع على الضفة اليسرى من النيل - انظر

محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ص ١٥١، ١٥٢.

(٧) Louis Reybaud. Op. Cit. T, IV, P. 419-428.

والبعض الآخر اتجه إلى أسبوط، ولكن بقي العدد الأكبر مع مراد بك متجهين في طريقهم إلى الشلالات (١) .

وأدت هذه التغيرات في الجيش المصرى إلى تغيرات مماثلة في الجيش الفرنسى، فلقد تلقى الجنرال فريان الأمر بالتوقف في إسنا على رأس فرقتين، وأن يترك بعض الجنود لحماية هذه المدينة، ثم يتجه لمحاربة المكيين والمماليك الذين عبروا للجهة اليمنى، بينما احتفظ ديزيه ببقية الجيش لمحاربة مراد بك (٢) .

ثم سار ديزيه بقواته من "إسنا"، واتجه جنوبا حتى وصل إلى إدفو (٣) يوم ٢٩ يناير (٤)، وزحفت القوات الفرنسية بعد ذلك زحفا سريعا نحو أسوان، في محاولة منها للحاق بمراد بك والقضاء على قواته، وأحس الجنود الفرنسيون بالإرهاق الشديد بعد إدفو، لأن الضفة الغربية كانت قد غدت بعد إدفو أميل إلى الجذب والإفقار (٥) . وبالرغم من ذلك فلقد واصلت القوات الفرنسية زحفها جنوبا حتى وصلت تجاه أسوان في اليوم الأول من شهر فبراير سنة ١٧٩٩ (٦) .

واجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا إلى البر الشرقى حيث توجد أسوان على الضفة اليمنى للنيل فاحتلوها وبذلك تم للجيش الفرنسى احتلال الصعيد بأكمله، وبالرغم من ذلك فإن حملة الجنرال ديزيه لم تحقق هدفها وهو القضاء على مراد بك وقواته، لأن فلول المماليك بزعامة مراد بك وحسن بك وسليمان بك، وثمانية بكوات آخرون لما رأوا أنهم مطاردون

(١) Dominique DI Pietro. Op. Cit. PP. 124, 125.

(٢) Ibid. P. 125.

(٣) هي قاعدة مركز إدفو بمحافظة أسوان . لمزيد من التفصيل انظر : - محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ص ٢١١، ٢١٢.

(٤) Vivant Denon, Voyage dans La Basse et La Haute Egypte Pendant Les
Campagne du gèneral Bonaparte, Tome Second, Quatrieme Édition, Paris
1803, P. 45.

(٥) آلان مورهد : النيل الأزرق، ترجمة نظمي لوقا، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٦٦.

(٦) Berthier. Op. Cit. P. 121.

بعنف لا يترك لهم أية حيلة، وأن مماليكهم منهكين من التعب، وليس في إمكانهم القتال، وأن عدد الفارين منهم يزداد يوما بعد يوم، وأنهم فقدوا كثيرا من الجياد وكمية كبيرة من معداتهم، وأنه ليس لديهم أى أمل في التوقف من ناحية الفرنسيين، اتخذوا قرارا بالاندفاع إلى بلدة إبريم (١) أعلى الشلالات، وعلى مسافة أربعة أيام من أسوان (٢) .

وفي يوم ٢ فبراير سار الجنرال ديزيه نحو جزيرة فيلة ووجد الفرنسيون بقرب شلالات النيل نحو خمسين مركبا محملة بالأمثلة تركها الممالك خلفهم أثناء فرارهم فاغتنمها الفرنسيون، ولم يستطع ديزيه دخول جزيرة فيلة في ذلك الوقت، وترك للجنرال بليار مهمة الاستيلاء عليها فيما بعد (٣) .

واستراح الفرنسيون لهذه النتيجة وهللو طربا، وحفروا لوحة تذكارية فخمة على الجرانيت أقاموها تخليدا لانتصاراتهم على طول مجرى النهر، ووضعوا العلم الفرنسي على أعلى صخرة في الشلالات وأطلقوا الرصاص في الهواء تعبيرا عن فرحتهم باكمال احتلالهم للصعيد مشبهين أنفسهم بالرومان الذين امتلكوا مصر من أقصاها إلى أقصاها (٤) .

وبالرغم من ذلك فإن انسحاب فلور الممالك بزعامه مراد بك إلى ما وراء الشلال كان يزيد من قلق الفرنسيين رغم احتلالهم للصعيد، لهذا نجد الجنرال ديزيه قبل أن يغادر أسوان قد ترك فيها الجنرال بليار مع الفرقة الحادية والعشرين الخفيفة (٥) ليمنع عودة الممالك من وراء الشلال ويضطرهم إلى البقاء في بلاد النوبة حيث يتسرب اليأس إلى نفوسهم في تلك البلاد النائية فظل بليار يرقب حركاتهم، وبقيت فلور الممالك في حالة ضنك شديد مشتتين بالقرب من النيل قريبا من الدر وإبريم وعلى بعد نحو مائتي كيلو متر من

(١) يتبع مركز عنبة بمحافظة أسوان، لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزي : المرجع السابق، ج٤، ص ٢٣٠.

(٢) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 198, Berthier, Op. Cit. P. 121.

(٣) Ibid. P. 198.

(٤) Mémoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 165.

(٥) Berthier. Op Cit. P. 121.

جنوب أسوان(١) ولم يطل مكث الجنرال ديزيه بأسوان أكثر من يومين، ففي ٤ فبراير سنة ١٧٩٩ رحل ديزيه من أسوان ببقية جيشه في طريقه إلى إسنا التي وصلها يوم ٩ فبراير(٢)، وعزم على اتخاذها مؤقتاً معسكراً لجيشه، وبينما كان ديزيه في إسنا يرقب منها حالة الوجه القبلى كان الجنرال "بليار" يستخدم الجواسيس بسخاء فأنبأوه أن المماليك الموجودين جنوبى مدار السرطان يتضررون جوعاً لأنهم أتوا على كل شئ استطاعوا ابتزازه من الأهالى السودانيين، وأنهم فى بأسهم موشكون على الرجوع واستئناف الهجوم(٣).

وسرعان ما انتشرت الأنباء عن اقتراب مراد بك من أسون بفرقة استطلاع، فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده، وتعبهم حتى انسحبوا جنوب دهميت(٤)، وأوغلوا ثانية في بلاد النوبة، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع المماليك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزاً للمناوشة الفرنسيين، وحتى يحرّمهم من الحصول على مزيد من الأغذية، فإنه أمر بإتلاف مزروعاتها والاستيلاء على ما فيها من الماشية واعتزم أيضاً احتلال جزيرة فيلة والجزر الواقعة فى شلال أسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى(٥).

المقاومة فى جزيرة فيلة

فى السادس من فبراير سنة ١٧٩٩ توجه بليار ومعه كتيبة من جنوده قاصداً جزيرة فيلة، ولما وصلوا تجاه الجزيرة وأرادوا أن يعبروا النيل إليها على مراكب الأهالى، رفض

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، ج١، ط٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ص ٣٦٦ .

(٢) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 199.

(٣) كرسنوفر هيرولد : بونابرت فى مصر : ترجمة فؤاد أندراوس مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ص ٢٦٦، ٢٦٧ .

(٤) تتبع حالياً مركز أسوان ويسمىها العامة "دمهيت" لمزيد من التفصيل . انظر: محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ٢٢٧ .

(٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٦٦، كرسنوفر هيرولد : المرجع السابق، ص

الأهالى جميعهم بكل شجاعة أن يسلموا للفرنسيين أى مركب من مراكبهم، فما كان من بليار إلا أن عاد بجنوده إلى أسوان(١) .

ولكن فكرة احتلال جزيرة فيلة كانت قد اختمرت فى ذهن الجنرال بليار، فحاول فى الأيام التالية أن يحقق هدفه بالاستيلاء عليها، وكان قد فكر فى أكثر من وسيلة ليعبر عليها هو وجنوده نهر النيل إلى جزيرة فيلة، ولكنه وجد مقاومة شديدة من النوبيين فى جزيرة فيلة، حيث كانوا مصممين على الدفاع عن عائلاتهم ضد الفرنسيين، ولم تتوقف مقاومتهم إلا عندما تم الاستيلاء على الموقع عنوة، ووصف الجنرال بليار فى يومياته هذه المقاومة فقال "حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال، وخرجت النساء ينشدن أناشيد الحرب، ويقذفن التراب فى وجوهنا، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر، وكنت قد أحضرت معى مدفعا لإرهابهم Pour les intimider فدعوتهم إلى الصلح والسلام، فكان جوابهم، أنهم لا يقبلون منا كلاما، وأنهم لا يفرون أمامنا كما يفر المماليك وأستأنفوا إطلاق الرصاص، فجرح ثلاثة من رجالنا، وفى المساء حاولنا أن نتخذ من جذوع النخل وسيلة لعبور الجنود إلى الجزيرة، وعندما قمنا بتنفيذ ذلك فى الرابعة صباحا غمرت المياه جذوع النخل، فاضطررنا أن نؤجل احتلال الجزيرة، ومكثت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطئ النهر تجاه الجزيرة، واستجلبت من أسوان بعض ألواح الخشب des bois للعبور عليها"(٢) .

وفى اليوم التالى الموافق ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩ نجح الجنرال بليار وجنوده فى الوصول إلى الجزيرة، فقابلهم الفلاحون بإطلاق نيران بنادقهم عليهم، ولكن لم تحدث إصابة فى الجانب الفرنسى، وهجم الفرنسيون على الأهالى الذين فروا أمام الفرنسيين تاركين مواشيهم ومؤونتهم وقام الفرنسيون باحتلال الجزيرة(٣) .

ويستطرد الجنرال بليار مشيرا إلى ما حدث بعد ذلك من احتلال الفرنسيين للجزر الأخرى المجاورة لجزيرة فيلة وعن الخسائر التى لحقت بالأهالى والغنائم التى استولى

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 546.

(١)

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 547.

(٢) نقلا عن :

Ibid. T. 111. P. 547.

(٣)

عليها جنوده فيقول "وفى يوم ٢١ فبراير احتلنا الجزر الأخرى المجاورة لجزيرة فيلة، والتي اشترك أهلها في الثورة وفى المساء عاد الجنود وبقيت فصيلة منهم لتستولى على ما فى أحد المخازن الضخمة من التمر، وكانت نتيجة أحداث هذين اليومين أن قتل من الأهالى إحدى وثلاثون رجلا، واستولينا على ٢٠٠ بندقية و ٢٠٠ من الطبنجات والسيوف وكميات كبيرة من التمر واللحم" (١) .

وهكذا نجح الفرنسيون فى إنزال الهزيمة بأهالى جزيرة فيلة والجزر المجاور لها، ولكن هناك حقيقة يجب أن نذكرها وهى أن الأهالى لم يستسلموا إلا أمام قوة مدافع ونيران الفرنسيين التى فتكت بالكثيرين منهم، وواضح مما ذكره الجنرال بليار ما حاق بالأهالى من خسائر فى الأرواح والسلاح والأقوات على يد الفرنسيين الذين انتقموا من الأهالى شر انتقام نتيجة لموقفهم البطولى منذ أن رفضوا التعاون مع الجنرال بليار وإمداده بالمراكب التى تنقل جنوده إلى الجزيرة، وإطلاقهم رصاصات بنادقهم على الفرنسيين وعدم استجابتهم لدعوة بليار لهم بالصلح والاستسلام، وما كان ذلك إلا لأن النوبيين ينفرون ويمقتون الأجانب (٢) . Le etrangers . لذلك نجدهم قد دافعوا عن أرضهم وعرضهم بكل ما يملكون من قوة ضد الغاصب الفرنسى .

تجدد القتال بين جرجا وأسوان

عندما هرب مراد بك إلى بلاد النوبة، لم يكن ذلك معناه تركه للسلاح إلى الأبد، فهو لم يستسلم للفرنسيين إلا فترة بسيطة، وذلك لأن موقعة خلف الشلال كان سيؤدى لموته جوعا إن أجلا أو عاجلا، يضاف إلى ذلك أنه كان من الصعب على مراد بك أن يتقبل فكرة طرده من الدولة التى حكمها كل هذه السنوات، لذلك قرر أن يعاود القتال عندما تتيسر له الظروف، وخلال ذلك أرسل مماليكه فى كل مكان وعندما نفذت منه المون فى الجنوب، عاد

La Jonquière. Op. Cit T, 111. P. 547.

(١)

Costaz, Mémoire sur La nubie et les barabras, in Description de L'Egypte. (٢)
Seconde Édition Etat Moderne. Tome 12, Paris 1823. P. 255.

إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية بدون أى علم من الجنرال بليار، ثم واصل مراد ومن معه من المماليك مسيرتهم حتى وصلوا إلى قلب الصعيد(١).

وأحس الجنرال بليار بأن وجوده فى أسوان بلا فائدة لأنه ترك مراد بك يفر منه، لذلك قرر أن يترك موقعه ليلحق بمراد بك أو ليتجنب على الأقل قطع مراد بك للاتصال بينه وبين ديزيه، ولكن مراد بك كان أسرع من بليار، فعبر الصحراء بمن معه من المماليك حتى وصلوا إلى جرجا(٢)، واعتزموا مهاجمة الجيش الفرنسى هناك وتهديد المواصلات بين كتائب الجيش الفرنسى فيما بين أسىوط وأسوان، وهكذا يتضح أن وصول الفرنسيين إلى أسوان لم يكن له ضرورة أو داع، اللهم إلا فرحة الجند برويتهم طيبة(٣).

ووصل بليار إلى إسنا يوم ٢٨ فبراير سنة ١٧٩٩ وهناك تلقى تعليمات ديزيه لمواجهة هذه الحركة الهجومية التى قام بها المماليك(٤). وعلم ديزيه وهو فى إسنا أن جماعات من عرب الحجاز جاءوا لنجدة المصريين، وأنهم ينوون احتلال قنا لقطع مواصلات الجيش الفرنسى، وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى ورجالهما تحركوا بالبر الشرقى قبالة إدفو، فعهد إلى الجنرال فريان احتلال قنا، وذلك لكى يحول بين العرب واتصالهم بالنيل، كما أرسل فى نفس الوقت الجنرال دافو للتصدى لقوات عثمان بك حسن، وحسن بك الجداوى تجاه إدفو(٥).

(١) Dominique DI·Pietro. Op. Cit. PP. 133, 134.

(١)

Ibid. P. 135.

(٢)

(٣) كرسنوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٦٧.

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 549.

(٤)

(٥) مرسى أحمد إبراهيم : أسوان وعلاقتها مع جنوب الوادى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ١٧٩٨-١٨٣٩م/١٢١٢-١٢٥٥هـ، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بأداب المنيا عام ١٩٨٢، ص ٤٦ .

معركة الرديسة (١١ فبراير ١٧٩٩)

أرسل الجنرال ديزيه الجنرال دافو لمطاردة عثمان بك حسن وقواته، فالتقى بهم الجنرال دافو يوم ١١ فبراير بالرديسة^(١)، وكانت قوات الجنرال دافو تتكون من جنود الفرقة ٢٢ من القناصة والفرقة ١٥ من الجنود الخيالة. وشكل الجنرال دافو فرسانه في صفين ثم تقدم بسرعة تحو المماليك الذين تظاهروا في البداية بالانسحاب، ثم غيروا موقفهم فجأة وشنوا هجوما عنيفا على الفرقة الخامسة عشرة من جنود الخيالة والتي سرعان ما ردت بنيرانها على المماليك، وأسفرت نتيجة الجولة الأولى من المعركة عن قتل الكثيرين من المماليك والفرنسيين في ساحة المعركة وكان من بينهم قائد الفرقة فونتيت Fontète الذي قتل بطعنة سيف وجرح عثمان بك حسن جرحا خطيرا^(٢). وفي الجولة الثانية من معركة الرديسة^(٣) انقضت الفرقة ٢٢ للقناصة على المماليك، وقد تقاتلوا مجابهة، وبالرغم من تفوق المماليك في العدد والسلاح إلا أنهم اضطروا إلى ترك ساحة القتال وتخلف فيها

(١) بلدة واقعة بالبر الشرقي للنيل جنوبى إدفو الواقعة على البر الغربى، وهى تتبع حاليا مركز ادفو بمحافظة أسوان.

Berthier. Op. Cit. P. 123.

(٢)

(٣) نود أن نشير إلى أن بعض المصادر الفرنسية قد اختلفت فى اليوم الذى وقعت فيه هذه المعركة

والمكان الذى حدثت فيه، فلقد سماها الجنرال ديزيه فى تقريره إلى نابليون بمعركة طيبة Combat

de Thèbès انظر : Pièces Diverses. Op. Cit. PP. 200, 201. ويسمى أيضا

مارتان معركة طيبة. انظر : Martin. Op. Cit. T. 1, PP. 353, 354. أما ريبو فيسميها معركة

الأقصر Combat de Louqsor ويذكر أنها وقعت يوم ١٢ فبراير. انظر :

Louis Reybaud, Histoire Scientifique et Militaire de L'Expédition française en Egypte. Tome. V. Paris, 1830; 1836. P. 58-61.

ولكن بعد رجوعنا إلى بيانات الجنرال دافو الذى قاد المعركة تبين لنا أن المعركة وقعت بالرديسة يوم

١١ فبراير، لمزيد من التفصيل حول بيانات الجنرال دافو انظر :

La Jonquière. Op.Cit. T. 111. PP. 557; 558

ولعل مرجع التباين والاختلاف فى تسمية هذه المعركة أنه لم يكن يوجد فى ذلك الوقت المبكر خرائط

تفصيلية توضح هذه البلدان بل كان الاعتماد فى ذلك على ما يتردد بالأسنة أهالى هذه المناطق ومهما

يكن من أمر فإن الفاصل فى هذا كله ما يرويه قائد تلك المعركة. حيث أنه شاهد عيان وكذلك الحال

بالنسبة لتاريخ بدء هذه المعركة.

عددا كبيرا من ذويهم وعددا من الكشاف قتلى، ثم أسرعوا للحاق بجمالهم التي استمرت أثناء المعركة في السير في الصحراء(١) .

أما عن الخسائر التي لحقت بالمماليك في هذه المعركة فلقد بلغت كما قدرتها المصادر الفرنسية ٣٧ مملوكا بالاضافة إلى أربعة من الكشاف، أما عدد الجرحى من المماليك فلقد بلغ ٥١ جريحا من بينهم عثمان بك(٢) . أما خسائر الفرنسيين فقد بلغت ٣٧ قتيلا و ٤٤ جريحا(٣) .

وانتهت المعركة بانسحاب قوات المماليك بقيادة عثمان بك إلى قلب الصحراء على طريق القصير، ولم يتمكن أحد الفريقين في هذه المعركة من الانتصار على الفريق الآخر وإن كان من الممكن أن يتحقق الفوز للمماليك لولا حرصهم على الاحتفاظ بالقافلة الكبيرة من المؤن والتي كانت معهم وخشيتهم من أن تقع في أيدي الفرنسيين، ولذلك كان هدفهم الوحيد في هذه المعركة هو إنقاذ هذه القافلة من أن تقع في أيدي الفرنسيين، لذلك عندما حصل عثمان بك على هدفه، وضمن سلامة المؤن ترك ميدان القتال للحاق بجماله التي قادها في الصحراء على طريق القصير(٤) .

واعتقد الجنرال ديزيه أن عثمان بك لن يستقر به الحال طويلا في هذه المنطقة، وأنه سيتجه إلى الضفة اليسرى إلى قرية يسيطر عليها بالقرب من ادفو وبناء على ذلك أرسل ديزيه إلى هذه القرية فرقة مكونة من ١٦٠ رجلا من الصف ٢١ الخفيف بقيادة مساعده "كليمان Clément (٥) .

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 201, Berthier. Op. Cit. P. 123.

(٢) La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 558.

(٣) Ibid. P. 559.

- مرسى أحمد إبراهيم : المرجع السابق، ص ٤٨.

(٤) Martin. Op. Cit. T. 1. PP. 353, 354.

(٥) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 202, Berthier. Op. Cit. P. 124.

معركة قنا (١٢-١٣ فبراير سنة ١٧٩٩)

عندما علم الجنرال "فريان" أن بقايا عرب الحجاز يتجمعون في ضواحي قنا على طريق القصير، وأنهم بصدد مهاجمة المدينة، بدأ فريان منذ يوم ٦ فبراير في تشكيل طابور متحرك مكونا من الفرقة ٦١، ورماة القنابل من الفرقة ٨٨ تحت قيادة الضابط كونرو Conroux (١) الذي مضى سريعا بجنوده إلى قنا لمطاردة عرب الحجاز والقضاء على قوتهم قبل أن يهاجموا مدينة قنا ولدى وصول الجنرال ديزيه إلى إسنا يوم ٩ فبراير وعلمه بتحركات عرب الحجاز، أرسل في الحال الجنرال فريان وبقية فرقته لمطاردتهم والقضاء على قوتهم وفي ذلك الوقت كان الشريف حسن الذي كان يقود عرب الحجاز قد قرر الاستيلاء على قنا وطرد الفرنسيين منها وبالفعل ففي تمام الساعة الحادية عشرة مساء يوم ١٢ فبراير سنة ١٧٩٩ شن ما يقرب من ثمانمائة من عرب الحجاز ومعهم العديد من الفلاحين هجوما على جميع مراكز الفرقة ٦١، ولكن القوات الفرنسية قامت بالرد على هذا الهجوم، وجرح الضابط "كونرو" أثناء الهجوم جرحا بليغا، فأسرع جنوده حوله وحملوه وسط خطوط الدفاع، وقد أقسموا أن ينتقموا له (٢) .

وأجبرت هجمات الفرنسيين المتتالية المصريين وعرب الحجاز على الانسحاب، وتولى قيادة القوات الفرنسية الضابط دورسين Dorsenne الذي لم يألو أو يدخر جهدا للدفاع وصد هجمات المصريين حتى أقبل الليل وتوقف القتال (٣) وفي اليوم التالي الموافق ١٣ فبراير شن المصريون هجوما على الفرنسيين مردين صيحات ملوها الرعب والفرع، ومن ثم فقد بادرت المدفعية الفرنسية بإطلاق نيران مدافعها وأنزلت بالمصريين هزيمة فادحة وتكبدوا خسائر جسيمة، وبالرغم من قوة نيران المدفعية الفرنسية فإن الأهالي لم يستسلموا، بل استبسلوا في المقاومة ويؤازرهم عرب الحجاز غير مكترئين بضعف إمكانياتهم وسوء حالتهم (٤) . وتكشف المصادر الفرنسية الخسائر التي لحقت بعرب الحجاز

Berthier. Op. Cit. P. 122.

(١)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 203.

(٢)

Berthier, Op. Cit. P. 125.

(٣)

Ibid. P. 126.

(٤)

فى هذه المعركة وتقدرها بحوالى ٣٠٠ قتيل كما قتل العديد من الفلاحين بينما تمثلت الخسائر التى لحقت بالفرنسيين فى ثلاثة من الجرحى من بينهم القائد دورسين^(١) ووصل الجنرال فريان إلى قنا فى اليوم التالى للمعركة الموافق ١٤ فبراير ومعه الفرقة السابعة من الفرسان^(٢)، بينما انسحب عرب الحجاز بقيادة الشريف حسن ورابطوا بالقرب من أبو مناع^(٣).

معركة أبو مناع (١٧ فبراير سنة ١٧٩٩)

بعد معركة قنا انسحب عرب الحجاز بقيادة الشريف حسن بالقرب من "أبو مناع" واستطاع الشريف حسن أن يقوى من عزيمة رجاله، واستطاع بحماسة الدينى أن يثير سكان الضفة اليمنى للنيل فحملوا السلاح وانضموا إليه، وأسرع إلى أبو مناع عدد وافر من العرب ومن المماليك الهاربين أو الذين لا يجدون ملجأ أو ملاذا لينضموا إليه فى حربه ضد الفرنسيين^(٤)، وهكذا تمكن الشريف حسن من أن يكون جيشا من العرب والفلاحين والمماليك بالإضافة إلى عرب الحجاز، ولكى يرفع من همتهم وعدهم بالقضاء على الفرنسيين بواسطة تعزيزات قادمة فى الطريق^(٥).

ولما عام الجنرال فريان بذلك توجه إلى أبو مناع فوصلها يوم ١٧ فبراير ووجدها مملوءة بالرجال المسلحين وكان عرب الحجاز فى المقدمة، فأعد الجنرال فريان جيشه فى الحال ووضع حملة القنابل فى وضع الاستعداد بقيادة رئيس الفرقة كونرو Conroux^(٦).

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 204.

(٢) La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 562.

(٣) قرية تتبع مركز دشنا بمحافظة قنا. انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ١٧٠

(٤) Bertheir. Op. Cit. PP. 126, 127.

(٥) Martin. Op. Cit. T. 1. PP. 355, 356.

(٦) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 206.

ووجه الفرنسيون طلقات مدافعهم على الفريق المصرى وعند اقتراب رماة البنادق فر الفرسان والفلاحون وبقي عرب الحجاز متماسكين، فقام الجنرال فريان بتكوين طابورين للالتفاف حول القرية ومهاجمتها ومنعهم من الانسحاب، فلم يستطيعوا حينئذ أن يتحملوا ضربات القنابل، فاندفعوا إلى القرية، فقام الجنود الفرنسيون بمهاجمتهم والقضاء عليهم^(١).

وأثناء ذلك كان هناك طابورا آخر يقوده المواطن سيلى Silly قائد الفرقة ٨٨ كان يطارد الفارين لمدة خمس ساعات فى الصحراء، وأخيرا وصلوا إلى معسكر عرب الحجاز، واستولوا على ما فيه من مؤن وملابس، ودهش الجنرال فريان عندما رأى جنوده يعودون سالمين ومحملين بالغنائم، وهو الذى كان يعتقد أنهم فقدوا فى الصحراء أو ماتوا من الجوع والعطش^(٢) وانتهت هذه المعركة بانتصار الفرنسيين على المصريين وحلفائهم من عرب الحجاز، ولم يكن انتصار الفرنسيين إلا انتصارا للمدفعية الفرنسية الحديثة على السيوف والحراب والبنادق القديمة التى كان يستعملها الأهالى وعرب الحجاز، وفقد عرب الحجاز فى هذه المعركة أربعمئة قتيل إلى جانب العديد من الجرحى، كما قتل عدد كبير من الفلاحين فى هذه المعركة، أما خسائر الفرنسيين فقد تمثلت فى عدد من الجرحى كما تذكر المصادر الفرنسية^(٣). وبعد المعركة توجه الجنرال فريان إلى جرجا تنفيذا لتعليمات الجنرال ديزيه فوصلها يوم ٢١ فبراير سنة ١٧٩٩^(٤).

معركة إسنا (٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩)

استطاع مراد بك أن يخدع جواسيس الجنرال بليار فى أسوان، واتجه شمالا حتى ظهر أمام إسنا يوم ٢٥ فبراير ومعه عدد من الرجال يتراوح ما بين سبعمئة وثمانمئة من الفرسان إلى جانب حشد هائل من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية فى إسنا.

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 206. (١)

Berthier. Op. Cit. PP. 127, 128. (٢)

Ibid. P. 128. (٣)

Reybaud. Op. Cit. T. V. PP. 68, 69. (٤)

وعلى الفور تحرك الكابتن كليمان Clément على رأس كتيبة مكونة من مائة وستين جندي من الفرقة ٢١ وخرج من إسنا للتصدي لمراد بك ورجاله، واشتبك الفريقان في معركة استمرت لمدة ساعة من الزمن، وانتهت بتفهم مراد بك ورجاله إلى أرمنت^(١).

معركة أبنود النيلية (٣ مارس سنة ١٧٩٩)

تحرك الجنرال ديزيه من قوص في طريقه إلى أسيوط تاركاً خلفه أسطولاً الذي كان يسير ببطء في النيل ليلحق بالجيش في أسيوط، وكان هذا الأسطول تحت قيادة القومندان موراندي Morandi ويتألف من اثنتي عشرة سفينة (مركبا) محملة بالمدافع والذخائر والمؤن الخاصة بالجيش، وتتقدمها السفينة الحربية "إيطاليا" التي كانت تحمل ذخيرة نصف الفرقة ٦١ وبعض الرجال المسلحين إلى جانب بعض المرضى والجرحى^(٢).

وبينما كان الأسطول الفرنسي يسير في النهر اعترضته رياح شمالية شديدة اضطرت به إلى التوقف عند مرسى أبنود^(٣) وفي ذلك الوقت كان الشريف حسن قد جاءته

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 209, Berthier. Op. Cit. P. 129, Reybaud, Op. Cit. T.V. PP. 69, 70.

(٢) Berthier. Op. Cit. PP. 129, 130, Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 136.

(٣) Berthier. Op. Cit. P. 131, La Jonquière, Op. Cit. T. 111. P. 595, Dominique DI Pietro, Op. Cit. P. 137, Mémoire du Général Desvernois. Op. Cit. P. 168, Reybaud. Op. Cit. T. V. P. 74, Martha Beker. Op. Cit. P. 328.

لطف الله بن جحاف : المصدر السابق، ص ١٠١.

وتجدر الإشارة إلى أن كل هذه المصادر والمراجع الفرنسية إلى جانب مصدر باللغة العربية قد ذكروا جميعاً أن هذه المعركة النيلية قد حدثت في النيل عند مستوى قرية أبنود، لذلك رأى الباحث أن يطلق على هذه المعركة اسم معركة أبنود النيلية، نسبة إلى المكان الذي حدثت فيه وهذه التسمية ترد لأول مرة في المكتبة العربية حيث أن كل المؤرخين والمحدثين الذين تعرضوا فيما كتبوه عن عهد الحملة الفرنسية قد ذكروا أن هذه الموقعة قد حدثت عند قرية "تجع البارود" بالقرب من قوص.

وأول من ذكر ذلك هو أحمد حافظ عوض، ثم تبعه الراحل، وتبين للباحث أنهما قد نقلتا عن لأكروا، وكان المرجع الفرنسي الوحيد الذي صادف الباحث وذكر أن مكان هذه الموقعة كان عند قرية البارود. لمزيد من التفصيل انظر : Dèsière Lacroix. Op. Cit. PP. 366, 367.

وجدت من بلاد الحجاز دعمته بألف وخمسمائة عربى، وانضم إليهم من تبقى من موقعتى أبو مناع وقنا، وزادت قوتهم بانضمام عدة آلاف من الفلاحين، وقرر الجميع التواجد فى أبنود (١) حيث كانت تقف السفن الفرنسية (٢) وهاجم الأهالى ومعهم عرب الحجاز السفن الفرنسية وأطلقوا عليها الرصاص، فردت السفينة إيطاليا بإطلاق مدافعها عليهم فقتلت العديد من العرب والأهالى ولكنهم لم يضطربوا وهجموا على السفن والقوارب الصغيرة، واستولوا عليها وأفرغوا شحنتها من المؤن والذخائر وقطع السلاح اللازمة لهم، ثم ركبوها وقصدوا إلى السفينة الحربية إيطاليا لمهاجمتها والاستيلاء عليها وحينئذ ضاعف قائد السفينة القومندان موراندى من قذائفه على الثوار، ولكنه لم يصمد طويلا، وذلك لإصابة عدد كبير من رجاله بجروح، كما أنه رأى عددا كبيرا من الأهالى على الشاطئ الأيسر يتحفزون للهجوم عليه فقرر الهرب ولكن لسوء حظه أن عدد بحارته كان قليلا، والرياح كانت عاتية فمالت سفينته، وانتهاز الأهالى والعرب هذه الفرصة وهجموا عليها من كل جانب وصعدوا على ظهرها ورفض موراندى الاستسلام، ولم يكن لديه أى أمل فى النجاة، لهذا قام بإشعال النار فى مستودع البارود وألقى هو ورجاله بأنفسهم فى اليم قاصدين النجاة، فانفجر مستودع البارود، وانفجرت السفينة، وتفجرت شظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عددا كبيرا من الأهالى ولكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم فمات متأثرا بجراحه هو ومن معه.

• - أحمد حافظ عوض : المرجع السابق، ص ص ١٨٤، ١٨٥.

- عبد الرحمن الرفاعى : المرجع السابق، ج١، ص ص ٣٧٤، ٣٧٥. وكل الكتابات العربية التى ظهرت حديثا قد نقلت من أحمد حافظ عوض والرفاعى، وذكرت أن مكان المعركة هو قرية "تجع البارود" ومن هذه المراجع على سبيل المثال نذكر :

عبد العزيز رفاعى : الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة صور تاريخية من البطولات الشعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٥، محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٥٦، ص ص ٧٨، ٧٩، محمد فرج : النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ، ص ٥٦.

ولكن بعد أن رجع الباحث إلى المصادر الفرنسية المعاصرة وجد أن هذه الموقعة حدثت عند مرسى أبنود كما ذكرنا.

(١) اسمها القديم Benout كما وردت فى قاموس "جوتيه" ثم وردت فى معجم البلدان لياقوت الحموى باسم أبنود وتذكر حاليا باسم أبنود وتتبع مركز قنا لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزى : المرجع السابق، ج٤، ص ١٧٤.

(٢) Berthier. Op. Cit. P. 131, Dominique DI Pietro. Op. Cit. PP. 136, 137.

وجميع الأحياء من الفرنسيين الذين نجوا من خريق السفينة إيطاليا والذين كانوا على ظهر السفن الأخرى اقتادهم الأهالي وعرب الحجاز إلى البر، وهناك أمر المنتصرون فرقة موسيقى نصف اللواء الحادى والستين أن تعزف، وعلى أنغام مارشات الثورة الفرنسية قتل الأسرى الفرنسيون وأكثرهم من العميان أو المرضى، ثم جاء دور الفرقة الموسيقية فتم قتلهم جميعاً(١) .

وكانت خسارة الفرنسيين فى هذه المعركة فادحة، فقد بلغت على حد تقدير المصادر الفرنسية مائتى بحار matelots وثلاثمائة جندي من المرضى malingres الذين كانوا على ظهر السفن الفرنسية، أى أن خسارة الفرنسيين فى هذه المعركة بلغت خمسمائة قتيل(٢) وهى أكبر خسارة تعرض لها الجيش الفرنسى فى حملته على صعيد مصر وغنم المصريون وعرب الحجاز فى هذه المعركة الكثير مما كانت تحمله السفن الفرنسية من عتاد وذخائر ومدافع استغلوها فيما بعد فى معاركهم ضد الفرنسيين كما سترى وبالإضافة إلى ذلك فإنهم استولوا على ماكان فى سفن الفرنسيين من أموال فيذكر أحد المصادر المعاصرة أنهم "وجدوا بأحدها ثمانين ألف ريال"(٣) .

ولاشك فى أن هذا الانتصار رفع من أمال المصريين ومعهم عرب الحجاز فى حربهم ضد الفرنسيين إلى حد أن أعلن الشريف حسن "أن هزيمة الفرنسيين أصبحت مؤكدة، وأنه سيسحق حفنة الكفرة الموجودة بالقرب منه(٤)" ولكن هل سيغض الفرنسيون الطرف عما لحق بهم من خسائر جسيمة فى هذه المعركة أم أنهم سينتقمون من الأهالي وحلفائهم عرب الحجاز لما لحق بهم من خسائر هذا ما سنراه من خلال عرضنا للمعارك التالية .

Pièces Diverses. Op. Cit. PP. 211, 212, Martin, Op. Cit. T. 1. P. 359, Berthier, (١)

Op. Cit. P. 132, Mémoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 169.

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 596. (٢)

(٣) لطف الله بن جحاف : المصدر السابق، ص ١٠١.

Berthier. Op. Cit. P. 132. (٤)

معركة قفط (٨ مارس سنة ١٧٩٩)

عندما علم الجنرال بليار بما حدث للفرنسيين فى موقعة أبنود النيلية، وأنهم انهزموا شر هزيمة، اتجه الجنرال بليار وجنوده فى طريقهم إلى أبنود للانتقام من الأهالى وعرب الحجاز، ولاسترداد الأسلحة والمدافع الفرنسية التى استولوا عليها حتى يجردوا المقاومة الشعبية من أى سلاح حديث.

وبينما كان الجنرال بليار يسير فى طريقه إلى أبنود، كانت قوات الأهالى ومعهم عرب الحجاز فى انتظاره عند قفط^(١) لتعوق مسيرته، وفى الثامن من مارس سنة ١٧٩٩ التقت قوات الجنرال بليار بقوات الأهالى وعرب الحجاز والمماليك^(٢) عند قفط، ودارت بين الفريقان معركة حامية، انتهت بهزيمة الأهالى والعرب وانسحابهم إلى أبنود^(٣).

معركة أبنسود (٨-٩-١٠ مارس سنة ١٧٩٩)

بعد هزيمة الأهالى وعرب الحجاز فى قفط انسحبوا إلى أبنود، فلما وصلوها تحصنوا فيها، ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى موقعة أبنود النيلية، وكان هناك جيش من المماليك قد انضم لهم لمساعدتهم فى هذه المعركة، وقد أخذ موقع الاستعداد فى الصحراء بالقرب من أبنود انتظار للحظة الالتحام^(٤).

(١) بلدة تقع شرقى النيل بصعيد مصر الأعلى، وتتبع حالياً مركز قنا بمحافظة قنا. لمزيد من التفصيل :

- انظر : محمد رمزى، المرجع السابق، ج٤، ص ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢) قدر الجنرال بليار قوات الأهالى وعرب الحجاز بحوالى ثلاثة آلاف، أما قوات المماليك فقدرها ما بين ٣٥٠ إلى ٤٠٠ مملوك. انظر :

- رسالة الجنرال بليار إلى الجنرال ديزيه المؤرخة فى ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ والمنشورة فى :

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 597.

(٣) لمزيد من التفصيل. انظر :

Pieces Diverses. Op. Cit. P. 213, Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. PP. 169, 170.

Dominique DI Pietro. Op. Cit. PP. 139, 140.

(٤)

وفى ذلك الوقت كانت فرقة الجنرال بليار تواصل تقدمها خلف الأهالى وعرب الحجاز حتى وصلت على مشارف أبنود يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩، ورأى الجنرال بليار استعدادات الأهالى وحلفائهم، ثم أعطى لجنوده إشارة بدء الهجوم وفى هذه اللحظة أطلق الثوار نيران مدافعهم على الفرنسيين ففتكت بهم فتكا ذريعا .

وشعر الفرنسيون لأول مرة بشدة نيران مدفيعتهم عليهم وهى فى أيدى الخصوم، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين، وهنا أدرك الجنرال بليار أن موقفه سيظل محفوفا بالخطر مادامت هذه المدافع فى يد المصريين، وأنه لكى يتمكن من السيطرة على الموقف، يجب عليه أن يعمل على الاستيلاء على هذه المدافع ليجرد المصريين من أقوى سلاح فى أيديهم .

وبالفعل فلقد أمر الجنرال بليار حاملى البنادق من الفرقة الحادية والعشرين بالتوجه للاستيلاء على هذه المدافع ولقد أتموا هذه المهمة بكفاءة عالية وتمكنوا من الاستيلاء على المدافع ووجهوها على الأهالى وعرب الحجاز (١) .

ولم يصمد الثوار طويلا أمام طلقات البنادق والمدافع الفرنسية فانسحبوا إلى داخل القرية، ولحق بهم الفرنسيون وتجدد القتال بين الفريقين فى شوارع وبيوت القرية واستبسل الأهالى وعرب الحجاز فى الدفاع، وهنا أدرك الفرنسيون أن الدائرة ستدور عليهم، فأسرعوا بإشعال النيران فى منازل القرية، وفى لحظة تحولت القرية إلى أكوام من الخرائب، وامتلاّت الشوارع بالقتلى (٢) من الأهالى وعرب الحجاز، وكان ما حل بالثوار عبارة عن مذبحه رهيبه أو مجزرة لم يشهد الفرنسيون لها مثل من قبل على حد تعبير المصادر الفرنسية (٣) . وبالرغم مما حل بالثوار من الحريق والدمار فإن البقية الباقية منهم لم تستسلم وتجمعوا فى منزل حصين كان فيما مضى مقرا لكشاف المماليك، وفى مسجد يجاوره

Dominique DI. Pietro. PP. 141, 142, Pièces Diverses. Op. Cit. P. 214. (١)

Martin. Op. Cit. T. 1. PP. 362, 363. (٢)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 215, Berthier. Op. Cit. P. 135. (٣)

وتحصنوا فيهما، وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين واشتد القتال مرة أخرى، وتبادل الفريقان إطلاق النار وحاول الفرنسيون دخول المسجد فخرجت منه نيران طلقات قوية اضطرتهم للتراجع، فما كان منهم إلا أن أشعلوا النيران في هذا المسجد وأحرقوه ومات من بداخله جرقاً (١) .

وبقى المنزل المملوكى صامداً، وكان به عدد كبير من المكيين تحصنوا بداخله وصمموا على المقاومة حتى الموت، وظل الفرنسيون يحاصرون هذا المنزل طوال ليلة ٨ مارس ونصبوا حوله المدافع لاستئناف القتال فى اليوم التالى، واستؤنف القتال فى اليوم التالى (٩ مارس) وأصدر الجنرال بليار أمره باقتحام المنزل ونجح جنوده فى شق طريق لهم إلى فناء المنزل، ثم قاموا بإشعال النار فى البناء، وحينئذ نزل المكيون عدوا إلى الحوش ويمسك كل منهم سيفاً بيد والبندقية فى يده الأخرى وظلوا يطلقون رصاص بنادقهم على الفرنسيين، ويقاثلونهم بشجاعة وبسالة اعترف بها الجنرال بليار فى رسالته إلى الجنرال ديزيه (٢) .

ظل المكيون يقاومون الفرنسيين فى فناء المنزل ومن داخل حجراته، حتى أرخى الليل سدوله، وكان قد قتل كثير منهم، وتمكن البعض الآخر منهم من الهرب من داخل المنزل فى جنح الظلام (٣) ناجين بأنفسهم من الحريق ومن القتل، ومع ذلك فقد فتك الجنود الفرنسيون بالكثيرين منهم خارج المنزل، وفى صباح اليوم التالى الموافق ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ دخل الفرنسيون المنزل وكان قد تخلف به نحو ثلاثين من المكيين أعجزهم عن الفرار مرضهم أو جراحهم. ويقول بليار فى رسالته إلى الجنرال ديزيه عنهم وكانوا لا يزالون يريدون الدفاع عن أنفسهم، فقتلوا جميعاً إلا ثلاثة تونسيين استبقيتهم لاستجوبهم (٤) .

(١) Pièces Diverses. Op. Cit. P. 216, Martin. Op. Cit. T. 1, P. 363.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

- رسالة الجنرال بليار إلى الجنرال ديزيه المؤرخة فى ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ والمنشورة فى

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 597-600.

Ibid. T. 111. P. 598. (٣)

Ibid. P. 598. (٤)

ومن العرض السابق يتبين لنا أن الأهالي وعرب الحجاز أو المكيين كما تنعتهم المصادر الفرنسية قاوموا الفرنسيين مقاومة مستميتة شهدت بها المصادر الفرنسية حيث يقول دومينيك دى بييترو "وفى الحقيقة أننا لم نشهد أبدا منذ قدومنا إلى مصر مقاومة بهذا العنف وبهذه الضراوة"^(١). أما عن دور المماليك فى هذه الموقعة التى استمرت ثلاثة أيام فكان دورا سلبيا إذ أنهم طوال أيام المعركة ظلوا فى معسكرهم فى الصحراء يشاهدون هزيمة حلفائهم من الأهالي وعرب الحجاز دون أن يتحركوا لمساندتهم، وبالتالي ظلوا فى مأمن من ضربات الفرنسيين^(٢).

وهكذا تم النصر للفرنسيين فى هذه المعركة واستعاد الفرنسيون كل المراكب التى فقدوها فى معركة أبنود النيلية ماعدا السفينة ايطالية التى احترقت أثناء المعركة كما غنموا تسع قطع مدفعية ورايتان^(٣).

أما عن الخسائر التى لحقت بالثوار فى هذه المعركة فقد اختلفت المصادر الفرنسية فى تقديرها فبيما قدر الجنرال بليار فى رسالته إلى الجنرال ديزيه خسائر الأهالي وحلفائهم الحجازيين ما بين خمسمائة إلى ستمائة قتيل وثمانية إلى عشرة من المماليك وكثير من الجرحى^(٤)، يذكر الجنرال ديزيه فى رسالته إلى نابليون أن "الجنرال بليار أخبره بأن العرب فقدوا فى هذه المعركة ألف ومائتان رجل غير الجرحى"^(٥) ويتفق برتية مع ديزيه فى نفس التقدير لعدد القتلى^(٦) ويبدو أنه نقل من تقرير ديزيه الذى أرسله إلى نابليون.

ولكن رواية الجنرال بليار أدعى إلى الثقة لأنه قائد المعركة، أما ديزيه فيبدو أنه حاول أن يضح من خسائر العدو ليظهر قوته وتفوقه وروعة الانتصار الذى حققه جنوده.

Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 144.

(١)

Ibid. P. 145.

(٢)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 216.

(٣)

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 599.

(٤)

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 216.

(٥)

Berthier. Op. Cit. P. 136.

(٦)

أما عن الخسائر التي لحقت بالفرنسيين في هذه المعركة فلقد اختلفت أيضا المصادر الفرنسية في تقديرها فبينما يقدرها الجنرال بليار بـ ٣٥ قتيلا و ١٣٤ جريحاً (١) يذكر ديزيه أن خسائر الفرنسيين بلغت ثلاثون قتيلا وثلاثون من الجرحى (٢) .

وهنا نلاحظ أن الجنرال ديزيه يقلل من عدد الخسائر التي لحقت بجنوده، بينما كان يزيد من الخسائر التي لحقت بالثوار وحتى الجنرال بليار لم يذكر الحقيقة كاملة بدليل أن هناك مصادر فرنسية أخرى ذكرت أن خسائر الفرنسيين بلغت ثلاثون قتيلا وبضعة مئات من الجرحى (٣) .

ومما يؤكد أن عدد الجرحى من الفرنسيين كان أكثر مما ذكره كل من بليار وديزييه ما يؤكد مصدر معاصر آخر حيث يقول "كان ثمن الانتصار الذي حصلنا عليه بعد كل هذا الجهد هو خسارة في كل أنواع المون والرجال، لقد فقدنا إتراننا تحت وطأة المعركة، لأنه كانت تقودنا فكرة واحدة هي تدمير الحواجز التي وضعت أمامنا ولكن بعد هزيمة الأعداء (يقصد الأهالي وحلفاءهم) عندما أعدنا الحسابات وجدنا أن ثلاثمائة من رجالنا أصبحوا غير قادرين على القتال، وأن كل الذخيرة قد انتهت مما عطل كل خطط الجنرال بليار، فقد كانت نيته أن يتجه للصحراء لكي يحارب المماليك وبضعة مئات من المكيين الذين لجأوا إليهم عند بدء معركة أبنود لكنه أرجأ هذه العملية لحين حصوله على إمدادات من الجنرال ديزيه" (٤) .

ومن العرض السابق يتبين لنا أن عدد الجرحى من الفرنسيين كان لا يقل عن ثلاثمائة جريح، وأن عدد القتلى من الفرنسيين كان يزيد على ٣٥ قتيلا بكثير وإن لم تذكر المصادر الفرنسية ذلك، كما يتضح أنه بالرغم من انتصار الفرنسيين في هذه المعركة فقد أنهكهم القتال وتكبدوا خسائر في الأرواح والسلاح والذخيرة .

La Jonquière. Op. Cit. T. 111. P. 599.

(١) نقلا عن :

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 216.

(٢)

Mémoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 170.

(٣)

Dominique DI Pietro. Op. Cit. PP. 145, 146.

(٤)

وبالرغم من قيام الفرنسيون بحرق مدينة أبنود^(١) إلا أن الأهالي وعرب الحجاز ظلوا يدافعون بكل ما يملكون من قوة لمدة ثلاثة أيام متوالية . وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولاً وأطولها مدة، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفزع مأساة وقعت في معارك الحملة الفرنسية^(٢) .

معركة بئر عنبر (٢ أبريل سنة ١٧٩٩)

اتجه الجنرال بليار بعد معركة أبنود إلى قنا في انتظار المدد والذخيرة من الجنرال ديزيه ليواصل عملياته العسكرية ضد الأهالي والعرب والمماليك، وفي ذلك الوقت كانت معلومات قد وصلت إلى الجنرال ديزيه علم منها بما حدث من كارثة للسفن الفرنسية في معركة أبنود النيلية، وعن انتصار الفرنسيين في معركة أبنود، وبناء على هذه المعلومات ترك الجنرال ديزيه أسبوط واتجه إلى قنا على رأس مجموعتين من الفرسان وفرقة مشاة، وقد قرر أن يقوم بنفسه بقيادة العملية التي قررها بليار^(٣) خصوصاً بعد وصول الجنرال ديزيه بقوات جديدة ومؤن تكفي الجيش في هذه العملية .

وفي قنا وضع الجنرال ديزيه مع الجنرال بليار خطة لهزيمة الأهالي وحلفائهم، وبناء على هذه الخطة شرع الجنرال ديزيه في توجيه قواته لسحق رجال حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن الذين انسحبوا بعد معركة أبنود إلى جهة "الجطة Gittah" في طريق القصير^(٤) .

وكانت خطة الجنرال ديزيه تهدف إلى قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى حتى لا يصلوا إلى النيل بأحد الطريقين الموصولين إليه من الجطة وهما طريق بئر عنبر وطريق "حجاجة" الواقعة جنوبى قوص بقرب الجبل الشرقى .

(١) لطف الله بن جحاف : المصدر السابق، ص ١٠١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٧٩ .

(٣) Dominique DI Pietro, Op. Cit. P. 146-150

(٤) Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. P. 171.

لذلك قام ديزيه بإعداد حملة مكونة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده، وسار بها إلى بنر عنبر وقام باحتلالها، ثم عهد إلى بليار باحتلال حجازة فاحتلها، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأس الطريقين الموصلين إلى النيل، وأخذ الجنرال بليار وهو في حجازة يستطلع حركات المماليك وحلفائهم الذين كانوا في الجطة يتحفزون للتقدم يريدون النيل، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بجنوده في صباح يوم ٢ أبريل لمنازلتهم^(١). وبالقرب من بنر عنبر على الطريق بين قنا والقصير قامت معركة عنيفة بين طلائع جيش ديزيه من الفرسان وقوات الأهالي وعرب الحجاز والمماليك^(٢) حيث تلقت كتيبة الفرسان من الفرنسيين صدمة الهجوم المصرى بقيادة المماليك، حيث تأخر المشاه من الفرنسيين عن المعركة لصعوبة السير في الطريق^(٣)، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى فى هذه المعركة الجنرال ديزيه ويعاونه الجنرال دافو، بينما كانت القوات المصرية تحت قيادة المماليك بزعامة حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن.

وبينما فشل الجنرال ديزيه فى تحقيق انتصار على القوات المصرية، نجح المماليك فى قيادة المعركة واستطاعوا أن يحققوا انتصارا خاطفا وسريعا ثم انسحبوا ببطء تاركين أرض المعركة مغطاة بجثث ٥١ ضابط وجندى فرنسى من بينهم الكولونيل "دوبليسى Duplessis و ٢ برتبة كابتن و ٤ ضباط، أما عدد الجرحى من الفرنسيين فبلغ ٤٣ فارس و ٥٠ ضابط على حد تقدير الجنرال "ديفيرنوا"^(٤) الذى شارك فى أحداث هذه المعركة. وواضح أن خسارة الفرنسيين فى هذه المعركة كانت كبيرة إلى حد أن أهملت بعض المصادر الأخرى ذكر أعداد الجرحى والقتلى من الفرنسيين^(٥).

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ص ٣٨١، ٣٨٢ .

(٢) قدر الجنرال ديفيرنوا فى مذكراته أعداد المماليك بما يزيد على خمسمائة، ومعهم ألف من الأهالي بالإضافة إلى عرب ينبع وجده (عرب الحجاز) الذين اشتركوا فى هذه المعركة ولم يذكر ديفيرنوا أعدادهم انظر :
Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. P. 176.

(٣) Martin, Op. Cit. T. 1. P. 367.

(٤) Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. P. 179.

(٥) ذكرت هذه المصادر أن هذه المعركة كلفت الفرنسيين عدة ضباط من بينهم الضابط "بوفاتييه Bouvatier وعدة جنود وبعض الجرحى ولم تذكر أعدادهم انظر :
Pièces Diverses. Op. Cit. P. 220, Berthier, Op. Cit. P. 139.

أما خسائر المصريين فى هذه المعركة فقد بلغت ٤٤ قتيل من بينهم سليمان بك^(١). وبالرغم من إخلاص الكولونيل دوبليسى فى أداء مهمته على أكمل وجه، ولولا إخلاصه لانتهد حياة الجنرال ديزيه فى هذه المعركة، فإن الجنرال ديزيه قد اتهمه فى تقريره إلى نابليون عن هذه المعركة^(٢) بعدم الحرص وعدم إطاعة الأوامر، ويعلق الجنرال ديفيرنوا على ماكتبه ديزيه بقوله "إن الطريقة التى كتب بها الجنرال ديزيه تقريره عن هذه المعركة فى وصفه للحملة على الصعيد، يعتبر إهانة بالغة لذكرى الكولونيل دوبليسى الشجاع *est une grave injure a la mémoire du brave colonel Duplessis* حيث اتهمه فيه بعدم الحرص وعدم إطاعة الأوامر، والدخول فى مخاطر بلاذاع، فى الوقت الذى قام فيه دوبليسى بمهمته على أكمل وجه وبدون إخلاصه الشديد لكأن انتهد حياة الجنرال ديزيه على هضبة بئر عنبر ومعه الذين كانوا فى خدمته^(٣) ثم يعلق الجنرال "ديفيرنوا" على ذلك بقوله "لا يحق لأى جنرال أو أى رجل عسكرى أن يمسح أخطاؤه بهذا الظلم الفادح كما حدث فى هذه المناسبة، ولكى يبرر ديزيه ودافو موقفهما تم تبديل الحقائق وقد رأيت إعادة الحق لأصحابه بذكر الأحداث الحقيقية لهذه المعركة^(٤)".

ويتبين لنا مما ذكره الجنرال ديفيرنوا أن الحقيقة التاريخية تزيف أحيانا على يد القادة عندما تكشف سلبياتهم أو أخطاءهم فهم يزيفونها حتى تظل صورتهم ناصعة البياض فى أعين التاريخ.

معركة أسوان (١٦ مايو سنة ١٧٩٩)

بعد معركة بئر عنبر انسحب كل من حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن جنوبا حتى وصلوا إلى أسوان فأسرع خلفهم الجنرال بليار وأجبرهم على اللجوء جنوب الشلالات،

(١) Mémoires du Général Desvernois. Op. Cit. P. 179.

(٢) انظر ما كتبه ديزيه فى تقريره إلى نابليون عن هذه المعركة فى :

Pièces Diverses. op. Cit. P. 220.

(٣) Mémoires du Général Desvernois; Op. Cit. P. 179.

(٤) Ibid. P. 179-181.

ثم ترك في أسنا القائد الشجاع إبلر Eppler مع خمسمائة جندي لحماية المدينة، وليقوم بمراقبة المماليك وليمنعهم من الإلتجاء مرة أخرى إلى الأراضي المصرية^(١)، ثم عاد إبلر بعد ذلك إلى قنا ليعمل دون توقف في بناء القلعة والاعداد لحملة القصير .

وعلم إبلر يوم ٩ مايو أن المماليك بزعامة حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن عادوا إلى أسوان، ويعيشون فيها في سلام، ويقومون بإعداد قواتهم، ونتيجة لهذه الأحداث، أمر إبلر الكابتن رينو Renaud الذي كان قد أرسله منذ بضعة أيام إلى ادفو مع مائتي رجل أن يزحف على أسوان، وأن يطرد المماليك إلى جنوب الشلالات^(٢) .

وفي تمام الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٦ مايو سنة ١٧٩٩ وعلى بعد نصف فرسخ من أسوان نشبت معركة حامية بين القوة الفرنسية والقوات المصرية بزعامة المماليك، وبدأت المعركة بهجوم عام من المماليك، فردت القوة الفرنسية بعنف شديد ونجحت في اختراق القوات المصرية وإصابتها بخسائر فادحة .

وانتهت المعركة بهزيمة المماليك وجرح حسن بك الجداوى وقتل حصانه، كما أصيب عثمان بك حسن بعيارين ناريين، وبلغت خسائر المماليك على حد تقدير المصادر الفرنسية خمسين قتيلًا وستين جريحًا^(٣) .

ولاشك في أن فوز الفرنسيين على المماليك في هذه الموقعة يعد انتصارا عظيما إلى حد أن وصفه نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال "برتران" في سانت هيلين بأنه "أجمل انتصار في حملة مصر^(٤) أما خسائر الفرنسيين فبلغت أربعة قتلى و ١٥ جريحًا^(٥) .

(١) Berthier. Op. Cit. P. 146., Dominique DI Pietro. Op. Cit. P. 155, Martin. Op. Cit. T. 1, P. 368.

(٢) Pièces Diverses. Op. Cit. PP. 228, 229. (٢)

Ibid. P. 229, Berthier. Op. Cit. P. 147. (٣)

(٤) نقلا عن عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٤.

Pièces Diverses. Op. Cit. P. 229, Berthier, Op. Cit. P. 148. (٥)

وبعد المعركة انسحبت فلول المماليك إلى ما وراء أسوان وهذه هي المرة الثالثة التي انسحب فيها المماليك إلى ما وراء الشلال منذ ابتداء الحملة على الوجه القبلى، ولم يتبق من زعماء المماليك سوى مراد بك الذى ظل معتصما بالواحة الخارجة التى تبعد عن أسيوط ثلاثة أيام فى انتظار تحسن الأوضاع حتى يواصل هجماته على الفرنسيين من جديد لذلك فكر الجنرال ديزيه فى أن يجرّد حملة من أسيوط على الواحة التى كان مراد بك مرابطا بها للقضاء عليه وعلى قواته.

احتلال القصير (٢٩ مايو سنة ١٧٩٩)

عنى ديزيه أشد العناية بالحملة على القصير إلى حد أنه كتب يلح على الجنرال بليار فى الزحف على القصير، لأن الاستيلاء على القصير كان ضرورة لا مناص منها، لأنه الثغر الوحيد الواقع على البحر الأحمر الذى يصل منه المدد إلى بلاد الوجه القبلى، فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالى فى مقاومة الفرنسيين، ثم كان لظهور السفن الإنجليزية فى البحر الأحمر وشروعها فى مخر عباب البحر بين جدة والقصير^(١) أثر كبير فى ازعاج القيادة الفرنسية، لذلك عملت كل طاقتها على التعجيل بالاستيلاء على القصير وتحصينه.

وكان الجنرال بليار يقدر أهمية القصير ويتوق إلى الزحف عليها ولكنه كان ينتظر الفرصة المناسبة ولذلك عندما أرسل ديزيه إلى بليار جميع ما طلب من ذخيرة ومؤن^(٢) وأرسل إليه أيضا مساعده العام. المواطن "دونزلو" لكى يأخذ مكانه فى قيادة الحملة فى حالة تدهور حالته، حيث كان الجنرال بليار فى ذلك الوقت مصابا بألم شديد فى عينيه^(٣).

وبعد أن أتم الجنرال بليار استعداداته غادر قنا يوم ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ فى طريقه للزحف على القصير، أخذ معه ٣٥٠ من الجنود المشاه على ظهور الجمال و ٤٠٠ جمل

(١) ج. ٠ كرستوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٧٣.

Berthier. Op. Cit. P. 148.

(٣)

تحمل مؤنًا، ومدفعًا، وحرسًا من ٦٠ أعرابيا من قبيلة موالية يمتطون الجمال أيضا(١) واتجهوا في طريقهم إلى القصير التي وصلوها بعد مسيرة أربعة أيام في الصحراء التي تفصل النيل عن البحر الأحمر، وتوقفوا في المحطات وعند الآبار ومراكز القوافل التي أعدت لهم(٢) ووصلوا أخيرا إلى القصير يوم ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ وقاموا باحتلالها واحتلال قلعتها بدون مقاومة وكانت القصير في ذلك الوقت قرية صغيرة بالرغم من أهميتها الإستراتيجية(٣).

وغادر الجنرال بليار القصير يوم أول يونية وترك بها الجنرال دونزلو ومعه قوة من الجنود ومعهم ما يلزمهم من العتاد والذخائر، وعاد هو إلى قنا(٤).

وطرب الفرنسيون لاحتلال ميناء القصير التي تعد مفتاح الوجه القبلى من طريق البحر الأحمر واعتبروا احتلالها ختام الحركات الحربية التي تم بها فتح الصعيد وكتب ديزيه إلى نابليون قائلا إن احتلال هذا الميناء قد حقق كل آمالي(٥).

وكافأ نابليون كلا من الجنرال ديزيه والجنرال بليار والجنرال فريان على حسن بلائهم في الحملة على الصعيد فأهدى الجنرال ديزيه سيفًا جميلا مكتوبا على صفحته "فتح مصر العليا" وأهدى الجنرال بليار سيفًا مكتوبا عليه "معركة أبنود - فتح القصير" وأهدى الجنرال فريان سيفًا آخر(٦).

وعلى الرغم من هذه الانتصارات التي حققها الفرنسيون في صعيد مصر، فقد ظلت الاضطرابات في الصعيد، وكان من الواضح أنه مادام مراد حرا طليقا ويلزم جانب الحيطه

(١) ج ٠ كرسثوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢) F. Martha-Beker, Le Général Desaix, Paris, 1852, P. 339.

(٣) ج ٠ كرسثوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٤) عبد الرحمن الرفاعي : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٥.

(٥) F. Martha-Beker, Op. Cit. P. 339.

(٦) عبد الرحمن الرفاعي : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٥.

والحذر فلا يلتحم مرة أخرى فى معارك كبيرة مع الفرنسيين، فإن هؤلاء لن يستطيعوا إخماد المقاومة الأهلية فى الصعيد، وظل مراد يسبب قلقا للفرنسيين حتى وجد كليبر أن من الخير أن يصل إلى اتفاق مع مراد بك الذى شعر من جانبه هو الآخر أن من المتعذر عليه الاستمرار على مقاومة الفرنسيين بصورة جدية، فعقد الاثنان معاهدة ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ (١) ليدخل الصعيد منذ ذلك الوقت مرحلة جديدة ينقسم فيها الصعيد إلى شطرين، شطر يحكمه مراد بك ويكون تابعا للإدارة الفرنسية، وشطر آخر تحت الإدارة الفرنسية وهذا ما سنراه عند حديثنا عن الأوضاع الادارية فى الفصل التالى.

(١) سنشير إليها بالتفصيل عند حديثنا عن الأوضاع الإدارية فى الفصل التالى.

الفصل الرابع

الأوضاع الإدارية في صعيد
مصر في عهد الحملة الفرنسية

الفصل الرابع

الأوضاع الإدارية في صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية

- تمهيد

- ١- التقسيم الإداري للصعيد في عهد الحملة الفرنسية
- ٢- معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك (٥ إبريل سنة ١٨٠٠)
- ٣- الصعيد بين الإدارة الفرنسية والمملوكية
- ٤- نظام الدواوين
- ٥- تنظيم البريد

الأوضاع الإدارية فى صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية

تمهيد :

لقد طرأت تغييرات كثيرة على الأوضاع الادارية فى مصر أثناء الحملة الفرنسية، حيث عمد الفرنسيون إلى تقسيم الصعيد إلى مديريات وعين على رأس كل مديرية حاكم عسكرى فرنسى فضلا عن إقامة دواوين مكونة من أعيان المديريات على أن تكون وظيفتها استشارية، كما اهتم الفرنسيون بتنظيم البريد والإكثار من مكاتبه بصعيد مصر وذلك تسهيلا لسرعة نقل المراسلات وسوف نتناول الإدارة الفرنسية فى صعيد مصر على النحو التالى :

١- التقسيم الإدارى للصعيد فى عهد الحملة الفرنسية :

انتهج الفرنسيون فى تسييرهم لمختلف نواحى الإدارة بمصر على أسلوب المركزية فى الحكم وتجميع السلطة فى يدهم حتى يضمنوا حسن سير العمل بما يحقق مصالحهم، ومظهر هذا تعيين نابليون جنرالات يحكمون مختلف أقاليم مصر، وكان هؤلاء الجنرالات تابعين مباشرة لمركز القيادة الرئيسى بمدينة القاهرة، حيث كانوا يسهرون على تنفيذ أوامر القائد العام من حيث إخضاع الأقاليم وتسييرها، أما السلطة المركزية فقد تجمعت فى يد القائد العام الفرنسى سواء كانت مدنية أم عسكرية وكان لهذا الأخير حرية اتخاذ القرارات التى يراها ملائمة ومحقة لمصالح الفرنسيين فى مصر ويصدر أوامره بتنفيذها(١).

ويمكن القول أن بوناپرت قد قام بتأسيس حكومة عسكرية على رأسها القائد العام نفسه وكبار الضباط فى الوحدات والأقاليم ولقد مر التقسيم الإدارى للصعيد بمراحل متعددة طوال فترة الحملة الفرنسية، وسار هذا التقسيم جنبا إلى جنب مع العمليات العسكرية بصعيد مصر، وتأثر بها إلى حد كبير، ونظرا للمساحة الشاسعة التى يشغلها الصعيد، فإن التقسيم

(١) فاطمة الحمراوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بآداب القاهرة عام ١٩٨٨، ص ص ٢٣٧، ٢٣٨.

الإدارى لم يحدث فيه فجأة، بل حدث على فترات، فمنذ أن عين نابليون الجنرال ديزيه قائدا للحملة على الوجه القبلى للقضاء على مراد بك من جهة، واخضاعه للسيطرة الفرنسية، فقد صاحب هذا الفتح واخضاع مديرياته تعيين حاكم عسكري لكل مديرية، فعندما فتح الجيش الفرنسى فى طريقه ثلاث مديريات وهى بنى سويف والمنيا والفيوم، أصدر نابليون أمره بتعيين الجنرال زايونشك قومنداناً لمديرية بنى سويف فى أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨، وأرسل معه كتيبة من الجنود، وكلفه تنظيم هذه المديرية، كما كلف الجنرال ديزيه تنظيم مديرتى المنيا والفيوم^(١).

ومما يجدر ذكره أن هؤلاء الحكام لم يكونوا مستقرين بصفة دائمة، بل كثيراً ما جريت تنقلات بين هؤلاء الحكام أنفسهم وذلك حسب مقتضيات الظروف، وعلى سبيل مثال إزاء إلحاح الجنرال ديزيه بتعزيز قواته فقد رأى نابليون تكليف الجنرال بليار الذى كان فى ذلك الوقت قومنداناً للجيزة^(٢) ثم عين نابليون بعد ذلك الجنرال بليار قومنداناً لمديرية بنى سويف بدلاً من الجنرال زايونشك الذى مرض وعاد إلى القاهرة^(٣) ولقد نهج الجنرال ديزيه هذا الأسلوب حيث كان يقوم بتعيين قائد من ضباطه لكل مديرية، كما كان يقوم بتوزيع قواته على طول النيل فى إسنا وقنا وفرشوط وجرجا وطهطا وأسيوط، واتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات الفرنسية. كما رتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لإخضاعها وقمع حركات الثورة التى تبدو فيها.

وعندما وصل الجيش الفرنسى إلى أسوان ترك الجنرال ديزيه بها الجنرال بليار ليمنع عودة المماليك من وراء الشلال، ثم كلف الجنرال ديزيه بعد ذلك الجنرال بليار بإدارة مديرية طيبة (قنا) وتنظيمها بما يكفل تسهيل جمع الأموال الميرية المستحقة عليها، وتنظيم رجال الشرطة بما يحقق صيانة الأمن الداخلى، حيث أن من صالح الفرنسيين أنفسهم عدم

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، الطبعة

الخامسة، دار المعارف ١٩٨١، ص ٣٤٨ .

(٢) نفس المرجع: ج١، ص ٣٥٣ .

(٣) نفس المرجع: ج١، ص ٣٥٤ .

إثارة القلاقل بين سكان الأقاليم الخاضعة لهم أو اضطراب الأمن بها، كما أوصاه باستخدام كل أسلوب يتسم بالصرامة والقسوة ضد الخارجين على النظام^(١) ومن ثم لقد كان من أولى مهام حاكم الإقليم أو المديرية إخضاع الأهالي والقضاء على ثوراتهم والإشراف على الإقليم إداريا وجمع الميرى والضرائب^(٢).

وبعد أن انتهز الجنرال ديزيه من فتح الصعيد واطمأن إلى مركزه فيه رأى أن يتفرغ إلى تنظيم البلاد إداريا، فقسم الصعيد إلى إدارتين، الأولى مركزها أسيوط والثانية مركزها قنا وتولى ديزيه إدارة الأولى، وترك إدارة الثانية للجنرال بليار^(٣)، وأظهر الجنرالان قدرة فائقة فى الأعمال الإدارية لم تكن أقل من قدرتهما فى الأعمال العسكرية.

وظل التقسيم الإدارى للصعيد على هذا الوضع حتى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩، حين أدخل الجنرال كليبر تعديلاً فى التقسيم الإدارى للمديريات يجعل عدد مديريات القطر المصرى ثمانية أقاليم منها ثلاث فى الوجه القبلى هى :

- ١- إقليم طيبة أو قنا ويتبعه جرجا وأسيوط وحاضرته أسيوط.
- ٢- إقليم المنيا ويتبعه بنى سويف والفيوم وحاضرته بنى سويف.
- ٣- إقليم القاهرة : ويضم مديرتى الجيزة وأطفيح من الصعيد ومديرية القليوبية من الوجه البحرى وحاضرته القاهرة^(٤).

(١) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ج١، ص ٣٩١، ٣٩٢.

(٢) Correspondance de Napoléon Ier, Publiee par ordre de L'Empereur III. (٢) Paris, 1858-1870, 32 Vols, T.V doc. No. 2923, en date du II pluviôse an VII (30 Janvier, 1799).

(٣) Martha Beker. Le Gèneral Desaix Paris, 1852, P. 336.

(٤) Rousseau, M. F. Kleber et Menou Depuis le Départ de Bonaparte (Aout 1799- Septembre 1801) Documents publiés pour La société D'Histoire Contemporaine. Paris 1900, Doc. no 34, PP. 31, 32, Sala Din Boustany, The Journals of Bonaparte in Egypt 1798-1801 (in 10 Volumes) volumeNine, Part, I, First Edition, Cairo, 1971, P. 71.

ويبدو أن الدافع الذى حدا بكليبر إلى دمج هذه المديریات فى أقالیم كبرى والإقلال من عدد الوحدات الإدارية هو إحكام السلطة العسكرية على الأقالیم وتركيز العمل والحكم فى أیدی قلة من الحكام الفرنسيین العسكريین(١) .

ولقد عين كليبر لكل إقليم من هذه الأقالیم حاكما فرنسيا وكاتبا ومترجما وأميناً أو ناظراً قبطيا مهمته إمداد الوكيل الفرنسى بكافة المعلومات التى يتطلبها وملازمته فى جولاته فى المديرية(٢) .

وبعد ذلك بشهور حدثت مفاوضات للصلح بين الفرنسيین والعثمانيين، وعين الجنرال كليبر الجنرال ديزيه قائد الجنود الفرنسية فى الصعيد والمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية مندوبين عنه فى المفاوضات، وانتهت هذه المفاوضات بتوقيع معاهدة العريش فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠، والتى كان من أهم شروطها جلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم(٣) . وبادر جماعة من أقطاب الحملة إلى السفر لفرنسا دون انتظار رحيل الجيش وكان من بينهم الجنرال ديزيه(٤) .

وبناء على معاهدة العريش بدأت الجيوش الفرنسية فى الاستعداد للرحيل، وفى نفس الوقت كان يوسف باشا الصدر الأعظم يتقدم بجنوده فى داخلية البلاد تنفيذاً للمعاهدة، وعين الصدر الأعظم درويش باشا واليا على الصعيد فمضى إلى الوجه القبلى ليتولى حكمه وبدأ

(١) أمين محمود عبد الله : تطور الوحدات الإدارية فى مصر العليا منذ العهد العربى، رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم الجغرافيا بكلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٦٥، ص ٢١٢.

(٢) فرغلى على تسن : أسبوط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٨٠٠ - ١٨٥٠، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بآداب سوهاج، عام ١٩٨٥، ص ص ٧، ٨ .

(٣) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨١، ص ١٣١-١٣٩ .

(٤) كان بوناپرت قد عهد إلى الجنرال كليبر فى رسالته إليه المؤرخة فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ أن يكلف الجنرال ديزيه بالسفر إلى فرنسا مالم تحل دون سفره موانع قهرية انظر :

Henry Laurens : Kléber en Egypte 1798-1800, Kléber et Bonaparte 1798-1799, institut Francais D'archéologie orientale 1988, Tome 2. P. 511.

درويش باشا فى جمع الضرائب من الوجه القبلى بالفعل^(١) . ولكن حدث من الأحداث ما عجل بنهاية هذه الإجراءات، فلقد رفضت انجلترا معاهدة العريش وأذرت الجنرال كليبر بأنها لن تقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسى إلا إذا قبل أن يلقى السلاح من يده ويسلم ماله من الأسلحة والذخائر والأمتعة والسفن ويسلم الجنود أنفسهم كأسرى حرب، ورفض كليبر هذا الإنذار واشتعلت الحرب من جديد بين القوات الفرنسية والقوات العثمانية وانتصر الفرنسيون على العثمانيين فى معركة عين شمس سنة ١٨٠٠ (٢) .

واشتعلت ثورة القاهرة الثانية من ٢٠ مارس إلى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠، وأثناء اشتعال ثورة القاهرة عقد الجنرال كليبر معاهدة صلح مع مراد بك فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠، وعلى أساس هذه الاتفاقية قسم الصعيد إلى قسمين إداريين، قسم يرأسه مراد بك تحت الحكم الفرنسى، وقسم يحكمه الفرنسيون، فماذا عن هذه المعاهدة وعن نصوصها؟

٢- معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك (٥ إبريل سنة ١٨٠٠) :

وجد كل من الجنرال كليبر ومراد بك مصلحته فى عقد هذه المعاهدة فقد أمن كليبر بعقده هذه الاتفاقية قيام أى ثورة فى الوجه القبلى وهو إقليم مترامى الأطراف لم تستقر فيه دعائم الحكم الفرنسى، وأصبح فى مقدور كليبر أن يوجه اهتمامه إلى القاهرة والدلتا، كما أنه استطاع بمقتضى هذه الاتفاقية أن يتلقى النجيدات من مراد بك، فضلا عن أن هذه الاتفاقية ضمنت لكليبر تموين القاهرة بما تحتاج إليه من غلال وأقوات .

وفيما يتعلق بمراد بك فقد كفلت له حقوقا شخصية على حساب المصلحة العليا لمصر التى آوته وجعلت منه أميراً من حيث أنه ضمن لنفسه حجم النصف الجنوبى من

(١) Daure a Jacquain a Benisouef, B6148 Doc. no: 496, en date du prairial an 8 (25 (١) May 1800).

بمحافظة فترتها التاريخية من ١٠ أكتوبر سنة ١٧٩٩ إلى ٥ يوليو سنة ١٨٠٠ .

(٢) لمريد من التفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج٢، ص ١٤٤ - ١٤٨ .

الصعيد تحت حماية فرنسا، وكان لقبول مراد بك الدخول في معاهدة مع الفرنسيين أسباب عدة منها ما تكبده من خسائر فادحة أثناء مطاردة ديزيه له، علاوة على ذلك نفور مراد بك نفسه من العثمانيين وخوفه من أن يسترجع العثمانيون سلطانهم القديم وسؤددهم في البلاد بعد إقصاء الفرنسيين، ومن ثم فقد يعمد الأتراك المنتصرون إلى طرد المماليك أنفسهم بعد ذلك^(١).

وكان مراد بك في طره عندما جاءه وكلاء كليبر يتفاوضون معه فأرسل مراد إلى كليبر عثمان بك البرديسي مزوداً بتعليمات فحواها أنه يطلب الاستقرار في جزء من البلاد المصرية حتى إذا تركها الفرنسيون استطاع بمعاونة النجيدات التي يمدونه بها الاستحواذ على بلاد هو صاحبها، وليس هناك غير الفرنسيين من يستطيع حرمانه منها، ثم قطع على نفسه عهداً بأن يظل أميناً على اتفاقاته معهم، ورحب كليبر برسول مراد بك، وقطع هو الآخر عهداً على نفسه بعدم تعرض الفرنسيين لمناوأة مراد ومماليكه وإزعاجهم في شئ بعد ذلك، وأعلن أنه يضع الاهتمام بمصلحة مراد بك في المرتبة التالية لاهتمامه بجيشه مباشرة، وبعد ذلك أصبح ميسوراً بدء المفاوضة بصورة جدية وعقدت الاجتماعات لبحث قواعد الصلح في القاهرة في أثناء اشتعال الثورة بها^(٢)، فماذا عن شروط هذه المعاهدة؟

نصوص المعاهدة

بسم الله القدير

نظراً لما أبداه الأمير سامي المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد من الرغبة في أن يعيش في سلام ووفاق مع الجيش الفرنسي بمصر، ولما يرغب القائد العام كليبر من الإعراب عما له في نفوس الفرنسيين من الاحترام الذي استوجبه شجاعته واقتضاء مسلكه حيالهم، فقد تم الاتفاق على ما يأتي :

(١) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، دون تاريخ،

ص ص ٢٠٧، ٢٠٨ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢٠٩ .

المادة الأولى :

يعترف القائد العام للجيش الفرنسى بالنيابة عن الحكومة بمراد بك أميراً وحاكماً للوجه القبلى ويخوله بهذه الصفة سلطة الحكم والانتفاع فى البلاد الكائنة بالبر الشرقى والبر الغربى للنيل ابتداء من ناحية "بلصفورة"^(١) بمديرية جرجا إلى أسوان فى مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه عن تلك الجهات لصاحب الولاية على مصر .

المادة الثانية :

يحدد هذا الخراج السوى بمبلغ ٢٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠,٠٠٠ بارة علاوة على ١٥,٠٠٠ أردب قمح و ٢٠,٠٠٠ أردب شحير وغلل أخرى .

المادة الثالثة :

الخراج الذى يدفع نقداً يؤدى على أربعة أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر قسط، وتبدأ السنة بحساب التقويم الفرنسى، أما الخراج الذى يؤدى نوعاً فيورد فى شون القاهرة من أول فلوريل إلى ٣٠ فركتيدور ويحاسب مراد بك على مصاريف نقل الغلال بواقع الأردب اربعين بارة تخصص من الخراج الذى يدفع نقداً .

المادة الرابعة :

يكون لمراد بك دخل جمر ك القصير وجمر ك إسنا وتحتل ميناء القصير حامية فرنسية لا تقل عن مائتى جندي، وعلى مراد بك أن يؤدى نفقات هذه الحامية ويصرف لها ضعف ما يدفع عادة للجند، وعليه أن يخصص كتية من المماليك ترابط فى القصير لمساعدة الحامية الفرنسية، وما يدفعه لنفقات الحامية يخصم له من الخراج المذكور فى المادة الثانية .

(١) هى من القرى القديمة، وتتبع مركز سوهاج بمحافظة سوهاج حالياً، لمزيد من التفصيل انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٥٤، القسم الثانى، الجزء الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٢٥ .

المادة الخامسة :

بما أن أمير الوجه القبلى ليس له إلا الدخل الناتج من الضرائب فليس له أن يتصرف فى ملكية أى بلد إلى حاشيته المتصلين به، ولكن له إدارة هذه البلاد بالطريقة التى يراها مرضية، والحكومة الفرنسية تضمن للأهالى ملكية الأراضى التى يملكونها بالطرق المشروعة وتمنع وقوع أى اعتداء عليها .

المادة السادسة :

على كل طرف أن يرد إلى الطرف الآخر الجنود اللاجئين إليه من جيش الطرف الآخر، وليس لمزارعى القرى التابعة لأى من الفريقين أن يلجأوا إلى البلاد التابعة للفريق الآخر بقصد التخلص من أداء الضرائب أو لأى سبب آخر من هذا النوع .

المادة السابعة :

يجعل الأمير حاكم الصعيد مدينة (جرجا) مقراً له وعليه أن يرسل للقائد العام حرساً من خمسة وعشرين مملوكاً، وعليه أن يوفد أحد البكوات من أتباعه مندوباً مفوضاً عنه يقيم باستمرار فى القاهرة .

المادة الثامنة :

يضمن قائد الجيش الفرنسى لمراد بك الانتفاع بدخل حكومته ويتعهد بحمايته فى حالة مهاجمته، وإذا استهدفت الجهات التى تحتلها الجنود الفرنسية لهجوم عدائى أيا كان نوعه فعلى مراد بك أن ينفذ عدداً من جنوده يبلغ على الأكثر نصف قواته لمعاونة القوات الفرنسية وعليه أن يقدم بالثمن المعتاد أدوات النقل المطلوبة ومؤونة الجنود التى ينفذها تكون على نفقة الحكومة الفرنسية .

المادة التاسعة :

يعد القائد العام كليبر بأن لا يوافق على أى اقتراح أو اتفاق يحرم مراد بك من المزايا المبينة أعلاه وعليه أن يبلغ المعاهدة الحالية إلى الحكومة الفرنسية لترعى مصالح مراد بك فى المعاهدات التى قد تبرم بشأن مصر .

المادة العاشرة :

إن الشروط الواردة فى المعاهدة الحالية والتي تقررت بمعرفة كل من الجنرال داماس Damas قائد فرقة ورئيس أركان الحرب العام والمواطن جلوتيه Gloutier قوميسير الحكومة (لدى الديوان) ومدير الشؤون المالية المفوض عن القائد العام كليبر، وعثمان بك البرديسى المفوض عن مراد بك يصير التوقيع عليها من القائد العام كليبر ومن الأمير المعظم والملاذ الأفخم مراد بك محمد(١) .

وواضح من نصوص الاتفاقية السالفة الذكر أن مراد بك قبل أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية، وغنى عن البيان أنه لم يراع فى هذه المعاهدة إلا مصلحته الشخصية دون أن يأبه بالمصلحة العامة، وقد بالغ مراد بك فى الولاء للفرنسيين بعد هذه المعاهدة، فلم يكذب التوقيع عليها حتى أنفذ إلى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال والمؤن، وأعطاهم ماكان جمعه درويش باشا من الصعيد من الميرة والأغنام وغيرها(٢)، كما سلمهم بعض العثمانيين اللاجئين إليه، وطرد من الصعيد درويش باشا الذى جعله يوسف باشا الصدر الأعظم واليا على الصعيد، وظل مراد بك بعد توقيع هذه المعاهدة مخلصا للفرنسيين وتابعاً وفيما يحكم جزءاً من الصعيد تحت سيادتهم .

٣- الصعيد بين الإدارة الفرنسية والمملوكية :

وضعت معاهدة الصلح بين كليبر ومراد حداً للصراع الدائر فى الوجه القبلى بين الفرنسيين والمماليك بزعامه مراد بك، وأصبح مراد بك حاكماً للنصف الجنوبى للصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية، ولإجـدال فى أن الفرنسيين قد استفادوا فائدة كبيرة من هذا الاتفاق، فقد أصبحوا الآن مطمئنين إلى التزام مراد بك الهدوء والسكينة، فلا يـنـحـاز إلى جانب أعدائهم فى النضال القائم فضلاً عن أنه سوف يصبح فى وسعهم أن يتفرغوا لمنازلة أعدائهم فى الوجه البحرى، فيحتل مراد بك بأجناده المواقع التى يخلونها فى الصعيد، ولا

(١) Convention entre Kleber et Mourad Bey, le 15 Germinal an 8 (5 Avril)

وثيقة بدون رقم بدوسيه رقم ٤ بحفظه فترتها التاريخية من ١ إبريل إلى ٣٠ إبريل سنة ١٨٠٠ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، تحقيق وشرح : حسن محمد جوهر

وعمر الدسوقي، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربى ١٩٦٩، ص ٢٣٢ .

يجد الفرنسيون ضرورة إلى بعثرة قواتهم فى أنحاء القطر، لا سيما وأن هذه القوات قد أصبحت قليلة(١) .

وهكذا أثرت الأوضاع السياسية على التقسيم الإدارى للصعيد فأصبح لمراد بك حكم النصف الجنوبى من الصعيد من جرجا حتى أسوان تحت حماية الحكومة الفرنسية، ثم دخل النصف الآخر من الصعيد ضمن التقسيم الإدارى للقطر المصرى ككل حيث قام الفرنسيون بتقسيم مصر إلى ثمانية أقاليم منها ثلاث فى الوجه القبلى وهى :

١- الإقليم الأول : ويشمل كل من أسيوط والمنيا ويحكمه الجنرال دونزلو .

٢- الإقليم الثانى : ويشمل كل من بنى سويف والفيوم ويحكمه الجنرال زاو نيك .

٣- الإقليم الثالث : ويشمل كل من أطنح والجيزة ويحكمه الجنرال فريان(٢) .

وقد حصلت فيما بعد بعض التغييرات فى الجنرالات حكام الأقاليم حسب ما كانت تقتضيه الظروف، وكان على هؤلاء الجنرالات أن يحكموا الأقاليم الذى يوجدون به ويهتموا بنواحى عديدة عسكرية وإدارية وبالأخص الاقتصادية(٣) حيث ذكر داماس فى رسالة إلى دونزلو قائد الإقليم الأول ما يلى إن أكبر نشاط لك سيكون عند تحصيل الضرائب المالية والعينية(٤) وهذه الرسالة تكشف مدى ماكان يعانيه الفرنسيون فى مصر من نقص فى الأموال بسبب تدمير اسطولهم فى موقعة أبى قير البحرية وأصبحت حاجتهم إلى المال ملحة بعد قطع اتصالهم بفرنسا البلد الأم ولأن الإقليم الذى يحكمه الجنرال دونزلو يجاور مباشرة المنطقة التى يحكمها مراد بك فقد نبه الجنرال داماس على دونزلو بما يلى : إن نية القائد الأعلى أن تعيش فى توافق مع مراد بك مع عدم السماح له أن يتدخل فى الشؤون خارج

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق، ص ص ٢١٠، ٢١١ .

(٢) Du quartier gèneral du kaire, order du jour du 17 floréal an 8.

ملف رقم ٧، B6 44 بمحظة فترتها التاريخية من أول مايو إلى ٣١ مايو سنة ١٨٠٠ " ١١ فلوريال إلى ١١ بريريال العام الثامن الجمهورى".

(٣) لمزيد من التفصيل : انظر :فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ص ٢٤١، ٢٤٢ .

(٤) Damas au gèneral Donzelot, Doc no, 140, le 17 floréal an 8.

ملف رقم ٧، B6 44 بمحظة فترتها التاريخية من أول مايو إلى ٣١ مايو سنة ١٨٠٠ .

الاختصاصات المسموح له بها تبعا للمعاهدة التي بينه وبين القائد الأعلى وقد أرسلت لك نسخة منها، عليك أن تراقب أعماله وتحركاته دون أن يدري ومع أخذ الحذر" (١) .

وكان على الجنرال "دونزلو" أن يقيم في أسيوط وأن يترك في المنيا الفرق التي يراها لازمة لتأمين هذه المنطقة تحت قيادة القائد الذي يختاره" (٢) ، وهذا يبين لنا أن القائد الأعلى كان يعين الجنرالات حكام الأقاليم، وكان حكام الأقاليم بدورهم يعينون قادة في المناطق التابعة لإقليمهم لمعاونتهم في حكم الإقليم .

ولقد توطدت العلاقات بين مراد بك والفرنسيين وتأثر مراد بك لمقتل الجنرال كليبر الذي كان يعتبره صديقا وراعيا مخلصا (٣) وكان مراد بك يخشى ألا يجد من خليفته (منو) نفس المشاعر تجاهه، وأرسل الجنرال منو رسالة إلى الجنرال دونزلو الذي أرسلها بدوره مع أحد الضباط إلى مراد بك، وذكر دونزلو في رسالة إلى منو أنه لن يتوانى عن طمأننة مراد بك برغبته في الحفاظ على المعاهدة، وأنها ستقوم بتنفيذ كل ما سبق أن اتفق معه عليه القائد السابق (٤) .

Damas au général Donzelot, Doc. No. 140, le 17 Floréal an 8. (١)

ملف رقم ١٧، B6 44 بمحظفة فترتها التاريخية من أول مايو إلى ٣١ مايو سنة ١٨٠٠ .

(٢) نفس الوثيقة .

(٣) ذكر مراد بك في رسالة إلى دونزلو عندما علم بمقتل كليبر "وحصل لنا غم شديد وبكاء لأنه كان محبا لطرفنا ويعشمنا بكل خير" وثيقة رقم ٦٠ مؤرخة في غرة شهر صفر سنة ١٢١٥ هـ بمحظفة بدون رقم ولا تاريخ بمكتبة جامعة القاهرة .

ثم بعث مراد بك إلى الجنرال منو برسالة عقب توليه قيادة الجيش الفرنسي يبدى فرحته بذلك قائلا: "وحصل لنا غاية الفرح والسرور لأن سابق بلغنا عنكم الأخبار الطيبة وزاد حبنا لطرفكم، وإن شاء الله تعالى يكون راحتنا على الله تعالى وعلى حضرتكم السعيدة وإننا على المحبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإن شاء الله تعالى تزيد المحبة والتوفيق"، وثيقة رقم ٦٧ مؤرخة في ١٥ شهر صفر سنة ١٢١٥ هـ بنفس المحظفة السابقة .

(٤) رسالة دونزلو إلى منو مؤرخة في ٢ يولية سنة ١٨٠٠ بملف رقم ٣، B6 47 بدوسيه رقم ٢ بمحظفة فترتها التاريخية من أول يونيو إلى ٩ يوليو سنة ١٨٠٠ .

وفى رسالة أخرى من دونزولو إلى منو يذكر له أن مراد بك قد اطمأن من التأكيد الكامل بأنك ستلتزم من ناحيته بكل ما وعد به سلفك(١) .

ويؤكد دونزولو فى رسالته إلى الجنرال منو بأن مراد بك شديد الوفاء والصداقة مع الفرنسيين، وله كلمة واحدة يحافظ عليها بحياته، وأنا لا يجب الشك فيه، وأن مصيره مرتبط بمصيرنا، وإذا حدث لا قدر الله مكروه وانقلب الحظ ضدنا سينضم لنا فوراً، وليس لديه أى جانب آخر يناصره وسينتهز الفرصة المتاحة الآن لتدريب بعض المماليك لتكون على مستوى مشاركتنا كل الأعمال إذا دعت الضرورة لذلك وسيستمر فى مراسلة عدونا المشترك ولن يضيع دقيقة فى تبليغنا أى شئ، وفى حالة الهجوم علينا حلف برأسه أنه سيحافظ على أمن صعيد مصر من أول أسوان حتى أبواب القاهرة(٢) .

وهذا يدل على عمق الصلة والصداقة بين مراد بك والفرنسيين وكان مراد بك يطلع الجنرال دونزولو(٣) قائد الإقليم الأول بكل ما يدور فى المنطقة التى يحكمها، وأيضاً بالأخبار التى كانت تصله عن استعدادات الأتراك والإنجليز للزحف على مصر(٤)، وكان مراد بك يوصى الجنرال دونزولو بأن يرسل إلى صارى عسكر أمير الجيوش الفرنسية ليعلمه بهذه الأخبار(٥) .

كما كان الجنرال منو يرسل مراد بك ويؤكد عليه بأن يوافيه بكل الأخبار التى ترد إليه عن استعدادات الإنجليز والأتراك(٦) .

(١) Le gèneral Donzelot au gèneral en Chef, le 14 juillet 1800.

ملف بدون رقم، B6 47 بمحفظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٢) Le gèneral Donzelot au gèneral en chef, le 14 Juillet 1800.

ملف بدون رقم، B6 47 بمحفظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٣) عن هذه المراسلات انظر :محفظة بدون رقم ولا تاريخ بمكتبة جامعة القاهرة .

(٤) وثيقة رقم ٧٣ مؤرخة فى ٢٩ شهر صفر سنة ١٢١٥هـ بنفس المحفظة السابقة .

(٥) وثيقة بدون رقم مؤرخة فى ١٠ شعبان سنة ١٢١٥هـ بنفس المحفظة .

(٦) وثيقة رقم ١٠٤ مؤرخة فى ٢٩ شعبان سنة ١٢١٥هـ بنفس المحفظة .

كما كان مراد يرسل الجنرال منو ليؤكد له أن علاقته بالفرنسيين وطيدة، ويرجوه ألا يسمع كلام أعدائه أو كما يقول في رسالته إلى الجنرال دونزلو "إن الواصل لكم الأمير محمد كاشف تابعنا متوجه مصر بجوابات إلى حضرة محبنا العزيز صارى عسكر أمير الجيوش الفرنسية لأجل مقابلته ويفهمه عن أمور المكرمين لنا، لأن فى هذا الوقت الذى يكرهونا كثير إن كان عثمانلى والا خلافه على شان صلحنا معكم ويسلطوا الناس المنافقين لأجل ما يفسدوا ما بيننا وما بينكم"(١) .

وهذا يدل على أن مراد بك كان يخشى أن تسوء العلاقة بينه وبين الفرنسيين فيخسر الفرنسيين والأتراك لهذا نجد مراد يؤكد على حبه للفرنسيين فيذكر لدونزلو "واحنا لم بقى لنا أحدا محبين خلاف الجمهور ولم بقى لنا أمن من طرف العثمانلى مطلقا وأنتم تعرفوا ذلك لم تعودوا من يعرفكم"(٢) .

وكان مراد بك يعين كشافا فى المنطقة التى يحكمها ففى رسالة من مراد إلى دونزلو يذكر له فيها "وحضر لنا جواب من الأمير عثمان كاشف قنا"(٣) .

وهكذا كانت هناك إدارة مملوكية بقيادة مراد بك فى النصف الجنوبى من الصعيد، بينما كانت هناك إدارة فرنسية فى النصف الشمالى من الصعيد يقوم على إدارتها جنرالات فرنسيون تحت قيادة القائد الأعلى الفرنسى .

وظل مراد بك وفيا ومخلصا للفرنسيين حتى وفاته سنة ١٢١٥هـ - ١٨ أبريل سنة ١٨٠١م(٤)، وكنت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين لأنهم فقدوا بموته حليفا قويا

(١) وثيقة رقم ٩١ مؤرخة فى ٦ جماد أول سنة ١٢١٥هـ بمحظة بدون رقم ولا تاريخ بمكتبة جامعة القاهرة .

(٢) وثيقة رقم ٦٦ مؤرخة فى ١٥ شهر صفر سنة ١٢١٥هـ بنفس المحظة السابقة .

(٣) وثيقة رقم ٨٩ مؤرخة فى ٢٢ جماد أول لسنة ١٢١٥هـ بنفس المحظة .

(٤) كان مراد بك فى طريقه إلى القاهرة لمساعدة الفرنسيين فى حربهم مع الحملة الإنجليزية التركية التى قدمت لإخراجهم من مصر لكنه لم يكد يصل إلى سوهاج حتى أصيب بالطاعون وأدركته الوفاة .

- انظر : عبد الرحمن الراعى : المرجع السابق، ج٢، ص ٢٤٠ .

كان يمكن أن يمددهم بما لديه من حول وقوة، وحزنوا عليه حزناً شديداً، واختار المماليك عثمان بك الطنبورجى خلفاً له، واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميراً على الصعيد.

وذكر الجنرال بليار فى رسالة إلى عثمان بك الطنبورجى قائلاً "لقد ذكرت أن الصداقة بيننا وبين مراد بك سوف تستمر معك، نحن نتمنى ذلك أيضاً، واعتقد أنها ستكون جيدة جداً"^(١). وفى رسالة أخرى من بليار إلى عثمان بك الطنبورجى ذكر له "أن الجنرال منو قد كلفنى بالتعبير عن عظيم أسفه لوفاة صديقنا مراد بك، ولقد كلفنى أيضاً بإخبارك أنه يمكنك دائماً أن تعتمد على صداقة الجمهورية الفرنسية والقنصل الأول بونابرت وصداقتى الشخصية، ويمكنك أن تتجه حتى بنى سويف وتسهر على حماية الصعيد ونظامه، وأن تمنع العرب من إيقاع الأذى بالأهالى، وسوف يصل الجنرال منو قريباً إلى القاهرة وسوف يخبرك بخططه الشخصية فيما يتعلق بمصالحنا المشتركة"^(٢).

فأرسل عثمان بك الطنبورجى إلى بليار يعرب له عن ولاءه وولاء المماليك للفرنسيين، لكنه بعد ذلك نقض المعاهدة لما رأى كفة الإنجليز والأتراك راجحة، واتصل بإبراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الأعظم^(٣) لينتهى بذلك التعاون المملوكى الفرنسى فى إدارة الصعيد وحكمة.

ومن العرض السابق للتقسيم الإدارى للصعيد يتبين لنا أن هذا التقسيم قد مر بمراحل متعددة طوال عهد الحملة الفرنسية وأنه كان متمشياً إلى حد كبير مع الظروف السياسية والحربية التى عاشتها الحملة الفرنسية فى مصر طوال ثلاث سنوات.

Doc. no, 1594, le 10 May 1801

(١)

ملف رقم ١١، B6 68 بمحفوظة فترتها التاريخية من ٢١ أبريل سنة ١٨٠١ إلى ١٢ مايو سنة ١٨٠١.

Ordres de Belliard, B6, 133, a, Aosm an Bey Tambourgi, Doc. no. 1691, le (٢) 22 Floréal an IX (12 May 1801).

ملف رقم ١٥، B6 68 بمحفوظة فترتها التاريخية من ٢١ أبريل سنة ١٨٠١ إلى ١٢ مايو سنة ١٨٠١.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج٢، ص ٢٤٠.

٤- نظام الدواوين :

استتبعَت السياسة التي وضعها الجنرال بوناپرت في إجتذابه للمصريين وضع نظم جديدة لحكم البلاد، وإشراك الأهالي معه في السلطة أو في الرأي، وغنى عن البيان أن بوناپرت كان يستهدف من وراء ذلك كله التفاهم مع المصريين، واستمالتهم إليه من أجل توطيد سلطة الفرنسيين في مستعمرتهم الجديدة وتطبيقاً لهذه السياسة صدر أمر بوناپرت بتكوين ديوان القاهرة في ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ (١) .

وعمل الجنرال بوناپرت على تعميم نظام الديوان في جميع مديريات القطر المصري، ففي ٢٧ من يوليو سنة ١٧٩٨ صدر أمر بوناپرت بتأليف ديوان في كل مديرية من سبعة أعضاء، يقومون بالسهر على مصالح المديرية، ويعرضون عليه كل الشكاوى التي تصل إليهم، ويمنعون إعتداء القرى بعضها على بعض ويراقبون ذوى السمعة السيئة ويعاقبونهم مستعينين في ذلك بالقوات الخاضعة لأوامر القواد الفرنسيين ويرشدون الأهالي إلى ما فيه مصلحتهم، واشتمل هذا الأمر على تعيين أغا أو رئيس للاستشارية في كل مديرية، يتصل دائماً بالقومندان الفرنسي وتكون تحت إمرته قوة تبلغ ستين رجلاً مسلحاً، يحافظ بها على الأمن والنظام والسكينة وكذلك على أن يعين في كل مديرية "مباشر" لجباية أموال الميرى والضرائب، وإيراد أملاك الممالك التي صودرت لصالح الجمهورية، ويكون إلى جانبه وكيل فرنسي لكي يتصل بمدير المالية، ويراقب تنفيذ الأوامر التي يصدرها وتكون من اختصاص الادارة المالية (٢) .

واستقر رأى نابليون بعد ذلك على أن ينشئ في القاهرة "ديوانا عاما" يجمع مندوبين عن ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم، وذلك حتى يستعين بهم في تنظيم شؤون القضاء وحقوق الملكية، وطرق توريثها، وتحديد الضرائب وجبايتها واستقرار الحكومة الإقليمية (٣) .

(١) لمزيد من التفصيل عن ديوان القاهرة : انظر : وجيه على أبو حمزة: القاهرة في عصر الحملة الفرنسية، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بآداب المنيا، عام ١٩٨١، ص ١٠٧، وما بعدها .

(٢) Sala Din Boustany : The Journals of Bonaparte in Egypt 1798-1801 (in 10 volumes) volume Ten, First edition, Cairo, 1971, P. 39.

(٣) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص ١٠٣ .

واجتمع الديوان العام يوم ٦ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ لمناقشة الأمور المتعلقة بنظم الحكم الإدارية والمالية والقضائية التي يريد بونابرت تطبيقها في مصر (١) .

هذا ولقد ضم الديوان العام الذي عقد في السادس من أكتوبر وفوداً من القاهرة ومديريات الوجه البحرى، ومن مديريات الوجه القبلى شاركت وفود من مديرية الجيزة وأطفيح وبنى سويف والفيوم والمنيا وأسيوط وجرجا، وكان كل وفد يتكون من تسعة أفراد، ثلاثة من العلماء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى (٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية في الأمور التي عرضت عليه، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه .

وبالنسبة لدواوين الأقاليم فقد أصدر بونابرت أمراً في ٢٠ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ "بأن يكون في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية Assemblée عمومية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع، وهؤلاء يعينهم قومندان المديرية ويكون لديوان القاهرة الرئاسة على دواوين المديريات ولكل ديوان في مديريته الرئاسة والإشراف على القضاة ومشايخ البلاد" (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن نابليون هو الذي كان يختار أعضاء الديوان العام، أما قائد الإقليم أو المديرية فهو الذي كان يختار أعضاء الديوان في المديرية التي يحكمها، لهذا من الخطأ أن تعتبر هذه الدواوين مجالس نيابية فإن أعضاءها لم ينتخبهم الشعب، وإنما عينهم بونابرت وجنرالاته تعييناً، ولم تكن هذه الدواوين في الحقيقة سوى مجالس استشارية يعرض

(١) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج١، ص ١٠٩ - ١١٦ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف ١٩٦٩، ص ٥٠٢ .

(٣) لمزيد من التفصيل انظر :

Correspondance de Napoléon Ier op. Cit. T.V. Doc. no. 3516, en date du

20 Vendémiaire an VII (20 Octobre, 1798).

عليها القائد العام ما يرى عرضه عليها من شئون البلاد، وهو غير ملزم باتباع ما يقرره الأعضاء .

والواقع أن المرجع الأعلى كان بونابرت نفسه، وكان حكم مصر عسكرياً محضاً، ولم تكن هذه الدواوين سوى واسطة بين الاحتلال الفرنسي والشعب المصري، وقد حاول بها بونابرت أن يوجب الحكم الفرنسي إلى الشعب .

وكان بونابرت يتابع أوضاع دواوين الأقاليم ويصدر أوامره إذا ما حدثت مشكلة ما تتعلق بهذه الدواوين ففي رسالة منه إلى "بوسليج" يذكر له الآتي "ارفض تماماً إغلاق ديوان الفصير، يجب أن يكون لهذا الديوان نظام ديوان السويس، أرجو أن ترسل لي تقريراً غداً عن هذا الأمر" (١) .

وكانت دواوين الأقاليم تقوم بمعاونة حاكم الإقليم أو المديرية في تصريف شئون المديرية لذلك كان يتم اختيارهم من بين الذين اشتهروا بالعلم والكفاءة، وعرف عنهم حسن استقبالهم للفرنسيين وتعاونهم معهم .

وكان أعضاء الدواوين يحصلون على مرتبات شهرية مقابل عضويتهم في الدواوين ومعاونتهم للفرنسيين ففي رسالة من رينيه إلى بوسليج يقول له فيها "أرسل إليك قوائم خاصة بالأشخاص الذين يكونون الديوان والوحدة الانكشارية لإقليم الفيوم، وأرجوك إرسال أمر دفع لهم لشهر فروكتيدور" (٢) .

وكلما أظهر أعضاء ديوان ما تعاوناً وإخلاصاً في خدمة الفرنسيين، كلما كان ذلك موضع تقدير لهم من جانب الفرنسيين، فيذكر رينيه في رسالة له إلى بوسليج "أن ديوان انكشارية المنيا يستحقون أن يميزوا عن أقرانهم في الفيوم وبنى سويف بسبب ميلهم

(١) Correspondance de Napoléon Ier Op. Cit. T.V. Doc. no, 4252 en date du 16 messidor an VII (4 Juillet, 1799)

(٢) Reynier à poussielgue, B 6 161 le 28 vendémiaire an VIII

بمحافظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونية سنة ١٨٠١ .

للتعاون" (١) وهو هنا يقصد أن يميزوا مادياً أى أن يحصلوا على مرتبات أكثر من ذويهم فى الفيوم وبني سويف .

وكانت دواوين الأقاليم تقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة إليها وعمل اللازم كلما كانت هناك ضرورة لذلك، ففي رسالة من دوجا إلى ديوان الجيزة يقول فيها "احتاج إلى ٢٠٠ جمل لحمل أمتعة إلى بلبيس، وعلى ديوان الجيزة جمعها وإرسالها إلى القاهرة بعد غد صباحاً، سفر هذه الجمال سوف تدفع مصاريفه بالكامل، إذا كان الديوان يحتاج إلى قوة عسكرية فليطلبها من قائد المنطقة، تنفيذ هذا الأمر يتحمله أعضاء الديوان" (٢) .

وكانت دواوين الأقاليم تستقبل شكاوى الأهالى وتعمل على حلها، ولكن فى حالة ما إذا عجز ديوان إقليم ما فى حل أحد المشاكل التى تعرض عليه كان يرسلها إلى ديوان القاهرة الذى كانت له الرئاسة على دواوين المديريات، وهذا دليل على المكانة التى كانى يتمتع بها هذا الديوان فى نظير باقى دواوين أقاليم مصر، ومن هنا كانت تصله الشكاوى من مختلف المناطق، فعلى سبيل المثال فلقد أرسل ديوان الفيوم برسالة إلى ديوان القاهرة يعرض له فيها للظروف الصعبة التى مر بها فلاحو إحدى قرى الفيوم والذين اضطروا إلى الهجرة من قريتهم نظراً لتعرضهم للسلب والنهب على يد غارات العرب ولذلك لم يزرعو قريتهم وهم يطلبون اعفائهم من دفع ضرائب عام ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م لكى يعودوا إلى قريتهم، لكن يبدو أنه رغم ذلك فإن الفرنسيين كانوا يقررون الحل الذى يتمشى مع مصلحتهم بغض النظر عن طلب أعضاء الديوان (٣)، ويبدو من خلال ذلك أن سلطة الديوان كانت محدودة؛ ولم يكن فى مقدوره رفع المظالم، ولأمنع إقرار المغارم التى يتسبب فيها الفرنسيون، وتبين من تجربته على حد تعبير الرافعى "أنه لا حول له ولا قوة" (٤) .

(١) Reynier à poussielgue, B 6 161, le 28 vendémiaire an VIII

بمحافظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونية سنة ١٨٠١ .

(٢) Dugua au Divan du ghize, le 24 nivôse an 8, Doc. no. 530.

ملف بدون رقم فترته التاريخية من ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٢٩ يناير سنة ١٨٠٠، بمحظة فترتها التاريخية من ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٣) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق :ص ١٩٦ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج٢، ص ٢١٢ .

ويتضح من خلال وثائق الحملة أن دواوين الأقاليم كان يقوم على رئاستها فرنسيون، ففي رسالة من دونزلو إلى القائد العام يذكر له فيها "أن ديوان أسيوط الذى يرأسه المواطن لابانوز Lapanouse" تكمن مشكلته فى نقص عدد الموظفين الذين يعملون مع المواطن لابانوز، وهو قد قام بتقديم طلبات بخصوص هذا الأمر ولم يتلق أى رد (١) .

ولقد قامت دواوين الأقاليم بدورها فى مساعدة حكام الأقاليم، وقدمت لهم مشورتها، ونفذت أوامره وهكذا نجحت السلطة الفرنسية فى أن تجعل من الدواوين واسطة بين الفرنسيين والمصريين، وكان هدف الفرنسيين من تأليف هذه الدواوين التقرب إلى المصريين عموماً، والعمل على الاستقرار فى البلاد وبالتالي إعطاء أكبر فرصة للفرنسيين للقيام بما كانوا يرغبون، وكانت استمالة المصريين تساعد على القضاء على كل سلطة ونفوذ للمماليك، الأمر الذى استتبع مواصلة مطاردتهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم .

وعلى كل حال فإن قيام الفرنسيين بإنشاء الدواوين بمختلف أنحاء مصر كان فيه رحمة بأهلها نظراً لأنهم كانوا يشاورون أعضاءها من المشايخ فى بعض المسائل التى تتصل بالشريعة الإسلامية (٢) .

والواقع أن الفرنسيين لم يفعلوا ذلك إلا لخشيتهم من أن تصطدم نظمهم الإدارية مع تعاليم المصريين الدينية وتقاليدهم وعاداتهم، لأن ذلك لو حدث سيعنى مزيد من ثورة المصريين على الفرنسيين، لذلك عمل الفرنسيون قدر استطاعتهم على تجنب كل ما قد يستثير شعور المصريين الدينى .

٥- تنظيم البريد :

رأى الجنرال ديزيه وهو فى جرجا أن ينظم البريد بين الحاميات الفرنسية لجعل بينها اتصالاً مستمراً يقيها المفاجآت، وناط حمل البريد بفرسان مسلحين يقطعون مراحل

(١) Le général Donzelot au général en chef, le 30 vendemaire an 9.

ملف رقم ١٢، B6 55، بمحظة فترتها التاريخية من ١٥ أكتوبر إلى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٠٠ .

(٢) عبد الله الشرقاوى: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة ١٢٨١هـ، ص ٧٥.

محدودة، ويتغيرون عن كل مرحلة إلى أن تصل الرسائل إلى الجهة المقصودة، وأمر أن يسافر البريد كل يوم من جرجا وقنا إلى المراحل الآتية :

من جرجا إلى برديس، ومن برديس إلى فرشوط، ومن فرشوط إلى هو، ومن هو إلى دشنا، ومن دشنا إلى السمطا، من السمطا إلى قنا، وطلب ديزيه من بليار أن ينظم البريد على هذه الطريقة من قنا إلى إسنا، وكلفه أن يأمر قائمقام كل بندر أن يكون معداً لنقل البريد يوميا في منطقته^(١) كما كان هناك مكتب للبريد في كل من بنى سويف وأسيوط وكان على أفراد المراسلة أن ينتقلوا يوميا في الثانية عشرة ظهراً طبقاً لأوامر القائد الأعلى^(٢) وفى رسالة من الجنرال فريان إلى الجنرال كليبر يذكر له "أن قادة بنى سويف والمنيا وأسيوط وجرجا يملك كل منهم أربعة أشخاص يركبون الجمال لكي يتم نقل الرسائل بسرعة"^(٣).

ومن خلال وثائق الحملة الفرنسية يتبين لنا أن إدارة الاتصالات في الصعيد كانت ذات مستوى عال^(٤) ومما لا شك فيه أن ذلك كان لصالح الفرنسيين، حيث كانت الإدارة المركزية بالقاهرة تتعرف على ما يحدث في الأقاليم من خلال رسائل حكام الأقاليم كما كانت المراسلات بين الجنرال ديزيه وضباطه هامة جداً خصوصاً في مرحلة الصراع الحربى بين الفرنسيين والأهالى والمماليك، حيث كان الجنرال ديزيه يعد خطته الحربية ويوجه الأوامر إلى ضباطه من خلال الرسائل المتبادلة بينه وبينهم.

وفى نهاية حديثنا عن الإدارة الفرنسية فى صعيد مصر تجدر الإشارة إلى أن كل ما استحدثه الفرنسيون من تنظيم إدارى فى صعيد مصر فى عهد الحملة كان يخدم بالدرجة الأولى الوجود الفرنسى فى صعيد مصر ولم يكن التنظيم الإدارى الفرنسى من أجل صالح الأهالى أو للعمل على راحتهم يوماً ما.

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٢، ٣٩٣.

(٢) Au quartier général du kaire, ordre du jour du 17 floréal an 8.

ملف رقم ٧، B6 44 بمحظة فترتها التاريخية من أول مايو إلى ٣١ مايو سنة ١٨٠٠.

(٣) Doc. No. 1247, le 17 November, 1799.

ملف رقم ١، بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

(٤) Daure a Duval, le 13 Fructidor an VIII, Doc. No. 1644, B6 149.

بمحظة فترتها التاريخية من ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ٨ أغسطس سنة ١٨٠١.

الفصل الخامس

الأوضاع الاقتصادية للصعيد
في عهد الحملة الفرنسية

الفصل الخامس

الأوضاع الإقتصادية للصعيد فى عهد الحملة الفرنسية

- تمهيد

أولا : الزراعة

- اهتمام الفرنسيين بالرى
- الحملة الفرنسية وملكية الأرض
- الضرائب على الأراضى الزراعية فى عهد الفرنسيين

ثانيا : الصناعة

ثالثا : التجارة

- التجارة الداخلية فى الصعيد
- دور الصعيد فى التجارة الخارجية لمصر

الأوضاع الإقتصادية للصعيد فى عهد الحملة الفرنسية

تمهيد :

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وكان من بين أهدافها تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية تمدّها بكل ما تحتاج إليه من منتجات زراعية وعلى رأسها السكر والقطن والنيلة وكلها منتجات هامة بالنسبة للصناعة الفرنسية وأن تصبح مصر سوقا رائجة لتصريف المنتجات الفرنسية هذا إلى جانب الإستفادة من الموقع الاستراتيجى لمصر من حيث سهولة إقامة علاقات تجارية مع مختلف أنحاء العالم، وحاولت الحملة الفرنسية خلال فترة وجودها إنعاش التجارة الداخلية والخارجية لمصر، ولكن نظرا لظروف الحملة وخرج موقفها فى مصر وبخاصة بعد موقعة أبى قير البحرية (أول أغسطس ١٧٩٨) بالإضافة إلى أن البلاد خلال مدة الحملة لم تتمتع بفترة سلام إلا نادرا فمن غارات البدو إلى معارك المماليك إلى ثورات المدن إلى حركات الثورة فى القرى، كل ذلك ولا شك قد انعكس أثره على الحالة الاقتصادية فى مصر .

وسوف نعرض للأوضاع الاقتصادية للصعيد فى عهد الحملة الفرنسية لنرى مدى ما أصابه من التطور فى ذلك الوقت وسنعرض له فيما يلى :

أولا : الزراعة :

اعتنى الفرنسيون بالزراعة فى مصر حيث أصبحت الحاجة إلى الإصلاح الزراعى أمرا حيويا بالنسبة للفرنسيين خصوصا بعد أن وجدوا أنفسهم معتمدين اعتمادا كليا على موارد الدخل المحلية بعد أن دمر نلسون الأسطول الفرنسى فى أبى قير، ولقد تمثلت اهتمامات الفرنسيين بالزراعة من خلال محاور ثلاثة نعرض لها كالتالى :

١- اهتمام الفرنسيين بالرى :

كانت الزراعة فى أواخر القرن الثامن عشر فى حالة يرثى لها ويرجع ذلك إلى اختلال السياسة المائية، حيث أهملت الترعة ولم يعن بتطهيرها، فترتب على ذلك حدوث

سدود فى قنوات الري وبقيت كذلك سنين متوالية وتحولت مساحات زراعية واسعة إلى ما يشبه الصحراء (١) .

وكان نظام الري المتبع فى ذلك الوقت فى الصعيد هو نظام الري بالحياض حيث تقسم الأرض المزروعة إلى حياض، وإذا حل الفيضان غمرت المياه الأرض وتظل فيها فترة من الزمن ثم تصرف المياه الباقية إلى النيل (٢) .

وتبعاً لنظام الري الحوضى كانت مساحة الأراضى الزراعية غير ثابتة، إذ تزداد وتتنقص بالنسبة لدرجة الفيضان، فإن كان عاليا غمرت المياه الأراضى وكثر الإنتاج الزراعى وإن كان منخفضاً قل الإنتاج الزراعى، وهكذا فإن عيوب هذا النظام تتمثل فى الاعتماد على منسوب مياه الفيضان، والتأثير على إنتاج البلاد من الغلات الزراعية حيث لم يوجد نظام دقيق لضبط المياه وعدم العناية بالجسور، ووقوع العبء الأكبر على الأهالى لتصليح وصيانة هذه الجسور، ونتيجة لعدم تدخل السلطات المحلية فى تنظيم عملية الري بين القرى، حدثت عداوات ومشاحنات لا تحصى بين هذه القرى، وهذا العداء متواصل لا مهادنة فيه ولا صلح وأحيانا قد تحدث القلاقل بين المزارعين فيترتب عليها هجر قرى بأكملها لأن جيراناً لهم قد استولوا بالقوة على المياه التى كانت مخصصة لهم (٣) .

ولهذا السبب وجد الفرنسيون أنفسهم أمام ضرورة وضع خطة عامة لإصلاح وصيانة الترع والجسور وتنظيم عملية توزيع مياه فيضان النيل على مختلف الأراضى الزراعية لتلافى ترك أراضى بدون ري (شراقى) لأن ذلك سؤدى إلى تلف الزراعة وهذا يفضى إلى نقص الغلات وبالتالي إلى نقص الضرائب .

(١) محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة، القاهرة ١٩٤٤، ص ٦٤

(٢) Girard, Memoiresur L'Agriculture L'industrie et le commerce de L'Egypte Description de L'Egypte, Tome 17, seconde Edition, Panckoucke, Paris, 1824, P. 11-13.

Girard. Op. Cit. PP. 14, 15.

(٣)

وخلال الفترة الأولى اهتم الفرنسيين بالأشغال المتعلقة بإصلاح القنوات الرئيسية، والسدود، ووجهت الأوامر الى قواد الأقاليم بأن يعتنوا بهذا الأمر لكل واحد فى نطاق اقليمه^(١) واعتنى الفرنسيون بالرى وعين لوبير Le père مديراً للطرق والجسور وقام بإرسال مهندسين فرنسيين لى يفحصوا الترع والقنوات المختلفة والطريقة التى تسقى بها القرى، واهتم لوبير بمياه النيل وارتفاعه حتى يتمكن من وضع خطة شاملة لإصلاح نظام السقى أو على الأقل الإهتمام الجدى بتنظيمه^(٢).

ويذكر مارتان Martin أحد مهندسى الطرق والجسور بمنطقة البهنسا والفيوم ما يلى "أما مهندسو الطرق والجسور الذين أوكل إليهم بشكل خاص بكل ما يتصل بنظام الرى فقد شغلوا معظم أوقاتهم بدراسة نظام النيل وترع الملاحة والرى والتجفيف، وكان من نصيبى ولايتا البهنسا والفيوم وتوجهت الى بنى سويف واتخذت قرارى الحاسم باجتياز هاتين الولايتين من كل أجزائهما وأن أنشئ لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى"^(٣).

كما قام أحد الفرنسيين ببعض الأبحاث بخصوص منطقة الفيوم متعلقة بتنظيم السقى واقترح حفر بحيرة الفيوم حتى تستغل وقت الفيضان لمياه النيل التى يمكن الإنتفاع بها فى الصيف للسقى، وقد قام جيرار (Girard) المهندس العام للطرق والجسور بقراءة هذا البحث فى المجمع العلمى^(٤)، وحرص الفرنسيون على الإهتمام بتنظيم عملية الرى بعد فيضان النيل حتى لا يحدث هناك نزاعات بين القرى، وحتى لا تستفيد قرى وتتضرر أخرى، وحرص القائد العام منو على الكتابة للجنرالات الفرنسيين الذين كانوا يحكمون مختلف أقاليم مصر لى يشرفوا بأنفسهم على تنظيم عملية الرى ويساعدوا المهندسين على القيام بتلك العملية، حيث توجد عدة وثائق هى عبارة عن مراسلات بين كل من لوبير مدير الطرق والجسور والقائد العام منو، وبين هذا الأخير قواد الأقاليم، وهذا يظهر اهتمام (منو) الكبير بتنظيم

(١) فاطمة الجمر اوى: الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، رسال ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بأداب القاهرة عام ١٩٨٨، ص ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٧٠.

(٣) Martin, Description Hydrographique des provinces de Benysouef et Fayoum, (٢) Dans Description de L'Egypte, tome Seizieme, Paris 1825 pp. 4,5.

(٤) فاطمة الجمر اوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

عملية الري علما منه مدى ضرورة رى جميع الأراضي الزراعيه حتى يتمكن الفلاحون من دفع الضرائب التى عليهم فيما بعد، وحتى يزد الإنتاج الزراعى لأنهم كانوا فى امس الحاجة إليه لسد احتياجات الجيش من المنتجات الزراعية(١) ٠ ١

وبالرغم من حرص الفرنسيون على صيانة الترع والجسور إلا أنه كانت تحدث بين الحين والآخر انهيار أحد السدود مثلما حدث فى بنى سويف أن انهار أحد السدود وتسبب فى غرق نصف بنى سويف وبخصوص ذلك يذكر المعلم يعقوب الوكيل القبطى فى رسالة له الى الجنرال منو يطلب منه قطع خشبية يحتاجها هذا السد ويرجوه أن يأمر المهندس المختص بتقديم هذه القطع الخاصة بالسد أو أن يكلف أحدا بإصلاحه لأن ذلك يهدد المحاصيل(٢) وكان المخالفون للأوامر التى يصدرها الفرنسيون بخصوص فتح أو إغلاق السدود يعاقبون بدفع غرامة مالية تقدر بحوالى ٤٠٠ بوظاقة(٣)، وقد دفعها شيخ احدى القرى لإخلاله بتلك الأوامر، وكان شيوخ القرى المخالفون لتلك الأوامر يحبسون لحين دفعهم الغرامة المالية التى تفرض عليهم(٤) وفى نفس الوقت فإن الجنرال ديزيه كان يوزع القبطان على شيوخ القرى الذين كانت حالة الزراعة والقنوات عندهم تشير اهتمامه، وتبعا لأوامر الجنرال ديزيه تم حفر القنوات وترميم الجسور بالصعيد(٥) وهذا يدل على عنايته واهتمامه بنظام الري.

وكانت صيانة السدود والترع الخاصة بكل قرية فى الصعيد يقرم بها فلاحو القرية وجرت العادة على أن تكاليف هذه الأعمال كانت تخصم من الضرائب ولكن فى حالة، ما إذا

(١) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ٢٧٥ .

(٢) وثيقة بدون رقم مؤرخة فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٠٠ بملف رقم ٤ ، B6 50 ، بمحظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ (٢١) ميسيدور الى ١ فرو كتيديور العام الثامن (الجمهورية) .

(٣) البوظاقة: قطعة نقدية تساوى ٩٠ مدينى .

(٤) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٥) Martha Beker, Le general Desaix, Paris 1852, P. 342.

قامت الحكومة بصيانة الترع والجسور مثلما حدث في عام ١٨٠١ فلن يكون هناك خصم لتلك المصاريف من الضريبة التي يدفعها الفلاحون لأن الحكومة هي التي قامت بها(١) .

وبداية من عام ١٨٠١ زاد نشاط الهندسة المدنية التي سيطرت على كل الإدارة العامة، وبعد أن كانت كل الأعمال التي تتعلق بصيانة الترع والجسور تقوم بها القرى قامت بها الهندسة المدنية، وبدأت رقابة الهندسة المدنية تشرف على كل هذه الأعمال(٢) وهكذا قام الفرنسيون بدراسة نظام الري المصري، وقام مهندسو الري بتنفيذ بعض الأعمال العاجلة وفحصوا القنوات والجسور، لأنهم أدركوا أن ثروة مصر تتوقف على تدبير مياه النيل وأنه بدون نظام ملائم للري لا يمكن تحقيق أقصى ربح من زراعة الأرض، ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا أقلمة بعض النباتات الأجنبية في مصر، وتقدم المواطن نكتو Nectoux إلى المجمع العلمي بمشروع لإنشاء مؤسسة زراعية في مصر، وطالب نكتو السلطات الفرنسية أن تزرع في مصر ما تحتاج إليه فرنسا وما لا يمكن زراعته فيها، ولكن يجب تأجيل ذلك حتى يستند الأمن في مصر تماما(٣) .

وهذا يدل دلالة قاطعة على نظرة الفرنسيين لمصر على كونها مستعمرة فرنسية، فالاهتمام بالري وتطوير الزراعة كان على أساس أن الفرنسيين سيستقرون بمصر وأنهم سيستفيدون من كل هذه الأعمال وأنها ستعود عليهم بالنفع، وفي نفس الوقت فإن هذا كان سيقربهم من الأهالي الذين سيعود عليهم هذا التطوير بنفع مادي الى حد ما وبالتالي سيعي السواء الأعظم من السكان أن الحكم الفرنسي أتى بشئ جديد فيه كسب مادي يعود عليهم، فيكون ذلك سببا من الأسباب الداعية الى الهدوء والسكينة وتوطيد الأمن في البلاد .

(١) Reynier à Estève, le 30 Pluviose an IX (18 Fevriir 1801) Doc. No. 425.

ظرف B6 162 فترته التاريخية من ٦ فبراير إلى ١٨ يونية سنة ١٨٠١، بمحفظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١. (١٠) فاندميير العام الثامن الجمهوري إلى ٢ ميسيدور العام التاسع الجمهوري.

(٢) نفس الوثيقة السابقه .

(٣) La Décade Egyptinne, volume Premier, Beyrouth, Sans Date, PP 104, 105.

٢- الحملة الفرنسية وملكية الأرض:

لم تغير الحملة الفرنسية في مرحلتها الأولى من نظام ملكية الأراضي الزراعية نظرا للظروف التي كانت تعيشها الحملة والتي جعلت قائدها بوناپرت يتوخى الحذر لأنه كان معزولا عن فرنسا، ويعيش بين ظهرائى شعب يناصبه العداء، ولكن بالرغم من ذلك كان على بوناپرت أن يوفر مصادر مالية مضمونة للجيش في أقرب وقت لذلك قرر الإبقاء على نظام الملكية كما كان من قبل مجئ الفرنسيين، ولكنه شهد بعض التغيرات حيث طالب الفرنسيون الملتزمين بتقديم عقود الإلتزام لتسجيلها على أن يدفعوا رسوم تسجيل مقابل ذلك قدرت بـ ٢٪ من قيمة الأرض ومن عجز عن تقديم "عقد الإلتزام" تصادر أرضه وتضم إلى أملاك الحكومة (١) .

واستطاعت الحملة بهذه الطريقة أن تستولى على ثلثى أراضي مصر التي كانت بأيدي المماليك وأن تضيفها إلى أملاك الدولة لصالح الجمهورية الفرنسية وأدارها موظفون فرنسيون إدارة مباشرة (٢) .

وكان هذا شيئا طبيعيا بعد أن دارت الحرب بين الفرنسيين والمماليك أن تصادر الحملة أملاك الملتزمين من المماليك الذين قاموا بالحرب ضد الحملة، كما صادرت الحملة أملاك الملتزمين من المماليك الذين قتلوا في ساحة القتال وحتى الذين فروا كما استولت على أملاك الذين لم يستطيعوا أن يظهروا سندات إلتزامهم (٣) .

وقد حدث بالفعل أثناء الإحتلال الفرنسي أن ضمت الأراضي التي كانت في أيدي المماليك في الوجه القبلى إلى الدولة لصالح الجمهورية الفرنسية، وأشرف عليها موظفون فرنسيون حتى عام ١٨٠٠ الذي وقع فيه الجنرال كليبر ومراد بك اتفاقا أقر الاعتراف بمراد

(١) محمد فهمى لهبطة: المرجع السابق، ص ٦٥، سلوى العطار: التغيرات الإجتماعية في مصر منذ الحملة الفرنسية حتى بناء الدولة الحديثة: رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٧٩، ص ١٤٦ .

ن أن ريفلين: الإقتصاد والإدارة في مصر في ~~مصر~~ القرن التاسع عشر: ترجمة أحمد عبد

مصطفى ومصطفى الحسيني: دار المعارف بمصر ١٩٦٧ . ص ٦٧ .

: المرجع السابق، ص ١٤٦ .

حاكما على الصعيد بشرط أعرافه بالسيادة الفرنسية، وتجاهل مراد حقوق حائزى الارص السابقين ومنح "إلتزمات لأهم انصاره" (١)، وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ أصدر بونابرت مرسوما نص على أن السندات التى فى أيدي الفلاحين بأراضيهيم لا تكفى لأثبات ملكيتها بالبيع أو الميراث، بل يجب الكشف عنها فى سجلات الروزنامة نظير دفع رسم لذلك وإذا وجدت حجتهم مقيدة بالسجلات يكتب لهم سند جديد "تمكين" جديد على أن يقدر ثمن الأرض من جديد ويدفع صاحبها رسما بنسبة ٢٪ من الثمن كرسم تسجيل نهائى، وإذا لم تكن لدى الفلاح حجة أو سند أو لم تكن أرضه مقيدة بالسجلات فإنها تضبط لصالح الجمهورية ويصير من حق الديون الخاص بذلك والذي عرف باسم "ديوان محكمة القضايا" أن يتصرف فيها من جديد (٢).

وقد أقر المرسوم نظام التواريث كما تنص عليه الشريعة الإسلامية حيث أوجد له نظاما لابد من دفع رسم للحكومة فى كل خطوة فيه، فرسم يدفع عند الوفاة، وآخر عند حصر التركة بعد ٢٤ ساعة من الوفاة على الأكثر، فإذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان، ورسم ثالث عند اثبات الوراثة ومدى علاقة الوارث بالمتوفى، ثم ضريبة الميراث التى تفرض عند تمكن كل فرد من الحصول على ميراثه، ورسم لمن يريد أن يثبت أن له دينا فى ذمة المتوفى (٣).

وإذا كانت هذه هى كل النظم التى قامت بها الحملة الفرنسية نحو الملكية فمن الواضح أنه لم يقصد بها إلا وجود وسيلة من الوسائل التى بها تحصل الحكومة على أموال تسد بها بعض أوجه نفقاتها، ويؤكد ذلك مؤرخنا المعاصر عبد الرحمن الجبرتي حيث ذكر عند تعرضه لهذا المرسوم معلقا على هذه الشروط التى يتضمنها المرسوم سالف الذكر "أن

(١) هيلين ان ريفلين: المرجع السابق، ص ٤٦، سلوى العطار: المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، حوادث شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣، ص ص ٢٠٩، ٢١٠، ابراهيم عامر: الأرض والفلاح

المسألة الزراعية فى مصر، مطبعة الدار المصرية ١٩٥٨، ص ٧٥.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٠.

محصلها التحيل^(١) على سلب أموال الناس ونزع ما بأيديهم من مال وعقار وميراث، وهذا من أخبث التحيل على نزع الأملاك والعقارات من أيدي أربابها^(٢).

ولم يكن الأهالي في مصر على استعداد للتجاوب مع قرارات هذا المرسوم مما أشاع التذمر وعدم الرضا عن الفرنسيين، ويمكن القول بأن مرسوم ١٦ سبتمبر السالف الذكر قد قدر ثمننا للأرض، وأقر حق التوريث، ووضع نظاما لتسجيل سندات التمكين الفردي فإنه وضع بذلك النواة الأولى لنشأة الملكية الفردية في الأرض الزراعية في مصر وزرع أسس نظام ملكية الدولة ونظام الإنتفاع، غير أن الأمل المعقودة على هذا المرسوم بالنسبة لسياسة تمليك الأرض سرعان ما فشلت بسبب الظروف التي تعرضت لها الحملة وذلك على أثر تدمير الأسطول الفرنسي في أبي قير (أول أغسطس ١٧٩٨) والذي ترتب عليه اعتماد الفرنسيين على موارد الدخل المحلية، هذا إلى جانب قصر مدة الحملة وعدم استقرار الحكم نتيجة لاشتعال الثورات في كل أنحاء مصر، كل هذه العوامل أدت الى عدم تنفيذ هذا المرسوم على الوجه الأكمل، واضطرت الحملة في أواخر أيامها إلى التغاضي عن تنفيذه واضطر الجنرال منو إلى زيادة نصيب الدولة في تملك الأرض بينما لم تسنح له الفرصة لكي ينفذ نظاما وضعت سلطات الحملة لمسح الأراضي الزراعية في مصر^(٣) ومما هو جدير بالذكر أن الجنرال ديزيه قد شغلته كثيراً فكرة تقسيم جزء من أرض الصعيد على الفلاحين، وكان ينظر الى هذه الفكرة باعتبارها الوسيلة الأكيدة للإسراع بخطى الحضارة في هذه البلاد ولجعلها تتمتع على وجه السرعة بثمرات التطورات الأساسية التي تصاحبها^(٤) ولكن ما كان يتمناه ديزيه لم يحدث بالطبع، ولكن يمكن القول بأنه لو كان الفرنسيون قد استمروا في مصر فترة أطول أو بمعنى آخر لو كانوا قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في البلاد فإنهم كانوا سيعملون على تمليك الأرض للفلاحين، لأن وجود نظام يجعل الفلاح

(١) يقصد الإحتيال.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين : تحقيق وشرح : حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربي ١٩٦٩، ص ٦٦.

(٣) ابراهيم عامر : المرجع السابق ص ٧٥، ٧٦.

Girard. Op. Cit. P. 403.

(٤)

مساهما فى امتلاك الأرض سيعمل على زيادة غلة الأرض لأن الفلاح فى ذلك الوقت لم يكن يزرع الأرض إلا لى يقتات ولكى يسدد الضرائب Pour vivre acquitter L'Impot ولكن فى حالة امتلاك الفلاح للأرض فسوف يزرعها ليحيا بشكل أفضل وأيسر، وحين يثق الفلاحون فى أنهم سيستفيدون من جهودهم الشاقة فسيكون فى متناولهم حصادا أكثر وفرة، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصبة المعطاء^(١).

وعلى كل حال فلم يسمح الوقت ولا الظروف للفرنسيين بتنفيذ ما عزموا عليه من أفكار وتمنيات ومراسيم تتعلق بملكية الأرض وبالتالي فإن وضعية الفلاحين لم تلحقها أية تغيرات تذكر، بل يمكن القول أن وضعيتهم ازدادت سوءا عما كانت عليه من قبل، فالفرنسيون لم يعملوا على إصلاح نظام ملكية الأرض وإنما تركز اهتمامهم الأول حول التحايل على تحصيل أكبر قدر ممكن من الضرائب التى كانت تلقى على عاتق الفلاحين كما سنرى^{*}.

٣- الضرائب على الأراضى الزراعية فى عهد الفرنسيين :

حرص الفرنسيون منذ وصولهم الى مصر على تحصيل جميع الضرائب التى كانت تحصل من قبل بغض النظر عن شرعيتها وبما أن الفرنسيين كانوا حديثي العهد بالاستقرار فى مصر فقد كانت تعوزهم الخبرة الكافية للأشراف على عملية تحصيل الضرائب. على الأراضى الزراعية فإنهم وجدوا أنفسهم مضطرين للأعتماد على فئة الوكلاء الأقباط وعلى رأسهم الوكيل العام جرجس الجوهري^(٢).

وسبق أن ذكرنا فى الفصل الأول أنه كان من بين أسباب احتلال الفرنسيين للصعيد أنه كان من الضروري طرد مراد بك من مصر الوسطى والعليا قبل أن يجد من الوقت متسعا لجمع الضرائب هناك، لئلا يفلت هذا المورد من الخزانة الفرنسية وهى فى أمس الحاجة إليه، فحملة ديزيه لم تكن مطاردة لمراد بك فحسب بل كانت أيضا سباقا بين جامعى

(١) Girard, Op. Cit. P. 402, Chabrol, Essai sur Le moeurs des Habitans Modernes de L'Egypte in Description de L'Egypte, Tome, XVIII, Premiere Partie, Seconde Edition, Pankouk, Paris 1826, PP 248, 249.

(٢) فاطمة الحمر أوى : المرجع السابق ص ٢٧٩ .

الضرائب المتنافسين، ومما هو جدير بالذكر أن أهالى الصعيد قد تعرضوا فى الفترة الأولى من الاحتلال الفرنسى والتي نشبت فيها رعى الحرب بين قوات الجنرال ديزيه وقوات مراد بك من أجل السيطرة على الصعيد إلى مزيد من العسف والظلم فى جمع الضرائب حيث كان مراد بك وجنوده يجمعون الضرائب من الفلاحين ويأتى بعد ذلك الجنرال ديزيه وجنوده ليجمعوا مابقى فى أيديهم بل ويصادرون الأغذية والخيول^(١). حدث هذا طوال رحلة الصراع بين كل من ديزيه ومراد بك من أجل السيطرة على الصعيد.

وأحياناً كانت تنشعب الحرب بين المماليك والفلاحين فى بعض القرى نتيجة لافض الفلاحين امداد المماليك بما يطلبونه من ضرائب باهظة. وماشية وجمالاً حدث ذلك مع أهل صنبو حيث نهب المماليك قريتهم فبعثوا يستغيثون بالجنرال ديزيه يطلبون حمايته، ولكن أية حماية كان فى استطاعة ديزيه أن يمنحها إياهم؟! لقد كان هو أيضاً مضطراً لفرض ضرائب والإستيلاء على الماشية والجمال والخيول، ثم المضى قدماً ليخلفه المماليك فى الغالب، وكانت تويلات القرويين أن يعفوا من الضرائب لأنهم دفعوها فعلاً لمراد تلقى فى مقر القيادة بالقاهرة الرفض بلا استثناء^(٢) حيث كانت أوامر بونابرت تنص فى هذا الصدد على تحصيل الميرى وأى ضرائب أخرى سواء فى الصعيد أو فى باقى أنحاء البلاد بدون أى تحفيض أو إعفاءات لأى سبب كان ويجب على مشايخ البلد الذين يقدمون إيصالات بالمبالغ المدفوعة للمماليك أن يعاملوا بشدة ويهددون بالعقاب، كما أصدر أوامر مماثلة لبعض مديري الأقاليم بمنع أية تخفيضات أو تسهيلات لأنها تؤثر تأثيراً خطيراً على خزانة الدولة ومن يلجأ لذلك تخصم من حسابهم وأموالهم الخاصة وتلغى تلك الإعفاءات ويتم تحصيلها من القرى^(٣).

ويدل ذلك على حاجة الفرنسيين الماسة الى الأموال لسد نفقات الجيش الذى انقطع عنه كل مدد بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعه أبى قير البحرية، وكانت النتيجة مزيد

(١) ج. كرسنوفر هيرولد: بونابرت فى مصر، ترجمة فؤاد اندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦، ص ٢٤٨.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٥٤.

(٣) نقلاً عن سلوى العطار: المرجع السابق، ص ١٥٤.

من التعسف الواقع على الفلاحين، وتجدر الإشارة الى أن فلاحى الصعيد قد قاموا فى بداية الإحتلال الفرنسى للصعيد بدفع الضرائب لكل من الفرنسيين والمماليك حيث عمل كل منهما على الحصول على أكبر قدر ممكن من المال والغذاء لسد متطلبات وقت اشتعال الحرب بين الفريقين .

ويمكن القول أن الضرائب فى هذه الفترة كانت تجمع اعتباطا وبدون أية دراسة لأحوال البلاد الضرائبية، فكل شئ كان مباحا لهم خصوصا وقت اشتعال الحركات العسكرية بينهما . وكانت أوامر الجنرال ديزيه لقواده فى المديرىات التى يسيطرون عليها أن يجرى الإهتمام فى كل مكان بنشاط لجمع الخيول وجباية الضرائب^(١) ولقد سببت الحرب الدائرة فى صعيد مصر بين الفرنسيين والمماليك والأهالى بعض الإضطراب فى جمع الضرائب ولم يكن الأهالى يسلمون الضرائب بسهولة وكانوا يماطلون حتى يروا الجنود الفرنسيين وسط القرية حاملين أسلحتهم وهنا فقط يستطيع الفرنسيون جمع الضرائب المسماة الميرى، لذلك رأى الجنرال ديزيه تقسيم جيشه فى صعيد مصر الى فرق صغيرة لتوزيعها على القرى لجمع الضرائب حتى ديزيه الذى كان يقيم فى أسيوط تحرك بنفسه للإشراف على عمليات الأقباط الذين يتولون النظام المالى للبلاد^(٢) وقد أكدت كثير من وثائق الحملة الفرنسية على أن عملية جمع الضرائب من الفلاحين لم تكن تتم إلا بمعاونة الفرق المسلحة ففى رسالة من رينيه Reynir إلى Pini يذكر له "أنا أسف جدا لضياح وقتك ولكن الفلاحين لا يدفعون الا عند رؤية الجنود، منذ وصولى الى الصعيد وأنا أعد الأيام لكى أحصل على الفرق اللازمة لجمع الضرائب"^(٣) ثم يذكر له فى رسالة أخرى "نحن لا نملك أية قوات لجمع الضرائب"^(٤) وهذا يدل دلالة كافية على أن الضرائب لم تكن تجمع إلا بالقوة المسلحة .

Berthier, Memoirs du Maréchal Berthier. Campan d'Egypte 1er Partie, Paris, (١) 1827, PP. 122, 126.

Martha Bker. Op. Cit. PP. 341, 342. (٢)

Reynier au citoyen Pini, Benisouef, Le 20 Brumaire an 8. (٣)

ظرف B6 161 بمحظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيه سنة ١٨٠١ .
Reynier au citoyen Pini, Benisouef, Le 26 Frimaire an 8. (٤)

ظرف B6 161 بنفس المحظة السابقة .

وكانت القوات العسكرية التي تساند الوكلاء الأقباط والمفتشين الفرنسيين تتفاوت في تعدادها من مكان لآخر وحسب ظروف كل منطقة، فلقد أرسل فريان إلى رينبيه الوكيل الفرنسي ببنى سويف طابورا من ٢٠٠ رجل لجمع ٢٥٠ من الخيول من مديرية بنى سويف ومراقبة جمع ضريبة الميرى وتسليم الحبوب(١) .

ولقد اتبع الفرنسيون وسائل وطرقا لا تختلف كثيرا عما كان يفعله المماليك قبيل مجئ الحملة الفرنسية، فلقد كانت القوات الفرنسية المتنقلة التي تجوب للإشراف على تحصيل الضرائب تحصل على تموينها من الفلاحين علاوة على الرواتب النقدية التي تحصلها طوال تحركها وتجوالتها، وقد حض كليبر قواد الطوابير المتنقلة على تأمين تحصيل الضرائب والإستمرار في تحصيل حق الطريق من القرى لتخصيصه في سداد مرتب الطابور المتنقل مع ضرورة معرفة عدد من يقومون بهذه المهمة والمدة التي استغرقوها في هذه الأمور(٢) .

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على مدى الأعباء المالية التي كان الفلاحون يتحملونها مما أثار سخطهم على الفرنسيين ورفضوا في كثير من المناطق أن يدفعوا الضرائب حيث تذكر وثائق الحملة الفرنسية أن ثمان قرى في إقليم المنيا قاموا بالثورة ضد السلطة العسكرية رافضين دفع أية ضريبة، ولما أبلغهم القائد العسكري للإقليم الجنرال بوييه Boyer بحتمية دفع الضرائب ردوا عليه بأنهم لن يسمحوا لأى فرنسى بأن يطأ أرضهم، ولكن الجنرال بوييه ذهب ومعه ١٢٠ من رجاله وحاصر ثلاث قرى فاضطرت هذه القرى إلى الإذعان ودفعوا الضرائب ويذكر الجنرال بوييه في رسالته إلى الجنرال كليبر قائلا "فأعدمت السفاحين لكي يكونوا عبرة، بينما تسلخت خمس قرى ضدى وهددوني بدلا من الاتعاظ من القرى السابقة فهاجمت أكبر تجمع منهم وقتلت ٦٠ من العصاة وحرقت أكثر

(١) Friant general de division au citoyen Reynier agent Français a Benisouef, le 30
Primaire an 8 Doc. No. 1736.

بملف رقم ١٥ Carton 38 بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ (٢٥ فرمبير

الى ١٠ نيفور العام الثامن الجمهورى)

(٢) سلوى العطار : المرجع السابق . ص ١٥٠

القرى عصيانا وقطعت ٣٠٠ من أجود أشجار النخيل فانسحبوا الى دير القصير حيث وجهوا ضدى نفس التحدى بصلابة وهنا لم يكن مصيرهم أفضل من غيرهم مات منهم ١٢٠ واستولى رجالى على ٥٠٠ من خرافهم وأحرقت القرية وفقدنا رجلاً آخر من رجالنا وقد رضخت بقية القرى لهذا العمل، ونأمل أن ترتدع هذه القرى بهذا العقاب، وقد طلبت دير القصير العفو والسماح بالعودة للقرية فأجبتها لذلك^(١) وفى رسالة أخرى يذكر بوييه للجنرال فريان "أنه يداوم على تحصيل الميرى ومعاقبة القرى الثائرة"^(٢).

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على الصرامة والشدة والعنف التى كان يقابل بها الفرنسيون الفلاحين الرافضين لدفع ما عليهم من ضرائب، ويدل أيضا على أن الفلاحين كانوا لا يدفعون الضرائب إلا بعد مقاومة مستميتة وتحت تهديد السلاح، وإذا كان الفلاحون قد نجحوا فى كثير من الأحيان فى الإفلات من مظالم الممالك قبيل مجئ الحملة الفرنسية، فإن جباة الضرائب الفرنسيين لم يتركوا ثغرة لمثل هذه المراوغة، بل إن القرى المتمردة كانت تحرق وتدمر على أيدي الفرق الفرنسية المعسكرة فى الريف كما مر بنا.

ومن الواضح أن الضغوط الاقتصادية قد أرغمت الفرنسيين على التردى فى مظالم لا تختلف كثيرا عن مظالم الممالك إن لم تكن قد زادت عليها حتى أصبحت عبئا ثقيلا على الفلاحين، وعندما قاوم الفلاحون هذه المظالم بما يملكونه من سلاح وعتاد وفشلوا آخر الأمر أمام نيران الفرنسيين، لم يجدوا وسيلة أخرى للصمود أمام هذه الإجراءات التعسفية إلا الهروب من القرى وبأعداد كبيرة حيث يذكر رافيه Ravier فى رسالة له إلى الجنرال

L'Adjudant général Boyer au général en chef Kleber, à Miniet Le 28 Fructidor (١)
an 7 (14 Septembre 1799) Doc. No. 218.

ملف رقم ١٨ بمحظلة فترتها التاريخية من ٢٠ أغسطس إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ (٢ إلى ١٣ فريكتيدور العام الثامن الجمهورى).

L'Adjudant général Boyer au général Friant à siout, le 26 Fructidor an 7 (٢)
(12 Septembre 1799) Doc. No. 184.

بملف رقم ١٦ بنفس المحظلة السابقة.

فريان أن "دخل المال بسيط بالنسبة للأعوام السابقة لأن الفلاحين الذين عليهم أكبر كمية قد هربوا من القرى ولم أحصل إلا على ٢٠٠٠ ريال^(١) Deux Mille réals. وكثيرا ما توقفت القوات الفرنسية بإحدى القرى للقبض على شيخ البلد وإيداعه فى السجن حتى يفى أهل بلدة بالأموال المطلوبة وكانت هذه الوسيلة بطيئة ولا تصادف نجاحا كل مرة^(٢).

ولم تقتصر هذه المعاملة على مشايخ القرى فقط بل على بعض الأفراد أيضا ممن يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي ويتأخرون فى دفع الضرائب فيذكر رينييه فى رسالة له الى المعلم جرجس الجوهري أنه "وضع فى السجن الأمير سليمان أبو صير Soliman D'Aboussir لأجبره على دفع ما عليه عن عام ١٢١٣هـ، وقد علمت أنه لم يدفع أيضا عن عام ١٢١٢هـ وسأقوم باللائم لكى أجعله بدفع المتأخر عليه"^(٣).

(١) Le chef bataillon Ravier au general de division Friamt, Miniet Le 22 Nivos, an 8, Doc. No. 2073.

بدوسيه رقم ١، ملف رقم ١٢، B6.3٥ بمحفظه فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ (١٨) نيفوز الى ١١ بلوفيز العام الثامن الجمهوري).

والريال: عملة من العملات السائدة فى ذلك العصر، وقد كان الأسبان أول من تداولوا هذا النقد فى الأسواق التجارية وهو عبارة عن النقد الفضى المسمى "بيزو" وأطلق "الريال" فى العالم العربى منذ القرن السابع عشر الميلادى على نفود فضية كبيرة: فرنسية وأسبانية، وهولندية، وألمانية، ونمساوية، وسمى الريال النمساوى أيضا "بالتالير" أو ريال مارياتريزا" الذى ضرب لأول مرة سنة ١٧٥١م وسمى فى مصر باسم الريال أبو طاقة "نسبة للنافذة أو الطاقة المرسومة على صدر النسر المصور على أحد وجهى الريال، أما الريال الهولندى فعرف باسم "الريال أبو كلب" كما سمي الريال الأسباني بالريال أبو مدفع أو "الريال المغربى" كما يسميه الجبرتي لإرتباط هذا النقد بجماعات التجار المغاربة الذين كانوا يجلبونه معهم من المغرب واسبانيا، وقد اختلفت أسعار هذه الريالات عند تناولها فى مصر العثمانية بطريقة شاذة، ولم تغلح أوامر تحسين العملة فى معالجتها. لمزيد التفصيل انظر. عبد الرحمن فهمى النقود المتداولة أيام الجبرتي، بحث ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتي، دراسات وبحوث تحت اشراف أحمد عزت عبد الكريم الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦ ص ٥٧٨.

(٢) ابراهيم زكى : الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهدى الحملة الفرنسية ومحمد على، المطبعة المصرية بمصر، بدون تاريخ، ص ٩٥.

(٣) Reynier a Mhallem Djeorgis Edjori, Benisouef Le 18 Frimaire an 8.

ظرف B6. 161 فترته التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ بمحفظه فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١.

ولم يأت الأسر بالنتيجة المرجوة التي أرادها الفرنسيون، فالقرى التي أخذوا منها اسرى لم تدفع الضرائب أسرع من غيرها^(١). وإزاء هذه المعاملة تعددت حالات هروب الفلاحين من القرى، ولكن صدرت الأوامر من قادة الأقاليم إلى الوكلاء الفرنسيين بمنعهم من أن يتركوا قراهم وفي حالة العصيان سيعاملون معاملة الأعداء^(٢). وفي أحيان أخرى كان الفرنسيون يوجهون نداء إلى الفلاحين الذين هجروا قراهم بسبب القحط للعودة إلى قراهم وزراعتها من جديد، وكانت هذه النداءات تجد استجابة أحيانا من الفلاحين^(٣) وكثيرا ما كانت تصل القائد العام شكاوى من بعض القرى بخصوص تخفيض الضريبة بسبب الشراقي، حيث تقدمت قرية اللاهون بإقليم الفيوم بشكوى إلى القائد العام منو بخصوص تخفيض الضريبة بسبب الشراقي^(٤).

كما قدمت قرية الفشن شكوى بخصوص تخفيض الضرائب وذكرت في شكاواها أن حقوق الحملة قد دفعت مع حق الميرى والذي جمعه المالك قبل وصول الفرنسيين ويذكر ريبييه في رسالة له إلى بوسليج "أرجو أن تراجع مع المعلم جرجس الجوهري إذا كان قد ضم مال الحملة لقرية الفشن مع الميرى وهذا عن عام ١٢١٣" ^(٥).

(١) Reynier au général Friant, Benisouef, Le 2 Nivose an 8.

ظرف B6 161 بنفس المحفظة السابقة .

(٢) Ala Hauteur de Benesouef le 7 nivose an 8, Friant général de division citoyen

agent Français au 2 arronds, Doc. No. 1860.

ملف رقم ٧، B6 38 بمحفظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٣) Regnier au citoyen Petrucci Payeur, a siout, le 9 Brumaire an IX Doc. No. 149.

ظرف B6 162 فترته التاريخية من ٧ سبتمبر إلى ٧ نوفمبر سنة ١٨٠٠ بمحفظة فترتها التاريخية من

٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو .

(٤) فاطمة الحمراوي: المرجع السابق ص ٣٠١ .

(٥) Reynier au Possielgue Benisouef le 8 Frimaire an 8.

ظرف B6 161 فترته التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ بمحفظة فترتها

التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١ .

و على كل حال فإن الفرنسيين لم يعطوا تلك الشكاوى كثيراً من الأهمية لأنها تتعارض في الأساس مع مصلحة الفرنسيين ألا وهي تحصيل أكثر ما يمكن من الضرائب، بل في كثير من الأحيان ونتيجة للأوضاع العسكرية التي كانت تعيشها الحملة الفرنسية في مصر والتي تطلبت الإعداد للحملات العسكرية لمواجهة الأخطار الخارجية، ومن ثم مزيداً من الحاجة إلى الأموال والخيول والجمال، وبالتالي مزيداً من الضرائب الإضافية التي نفع على عاتق الفلاحين .

و على سبيل المثال فعندما أحس الجنرال كليبر أنه مهدد بالغزو من ناحية سوريا بعث يطلب من الجنرال ديزيه قائد الصعيد ما قيمته ٣٠٠ ألف جنيه كما يذكر ديزيه في رسالة له إلى الجنرال بليار حيث يقول "أنت تعلم أن هذا رقم مستحيل تحقيقه، لكن علينا أن نبذل أقصى ما في وسعنا لنجمع له أي مبلغ، لقد طلب أيضاً خيول وجمالاً" (١) ثم يقول له "عجل بجمع ٣٠ ألف جنيه ضرائب إضافية لكي تعوض ما خسره في إيطاليا، هذه العملية تأخرت كثيراً، يجب التعجيل بها و عليك أن تدير إقليمك بشدة فهم لم يدفعوا ويجب أن يدفعوا هذا العام لتعويض العجز ولا تتأخر في إرسال ٢٠٠ جمل إلى القاهرة و ٣٠ ألف جنيه ضرائب إضافية" (٢) .

وإلى جانب الضرائب الإضافية التي تعرض لها الفلاحون بين الحين والآخر كانت ضريبة النباري (٣) تحصل بطريقة تقريبية مما يعد إجحافاً يقع على عاتق الفلاحين .

(١) Le general Desaix au General Belliard, Siout le 28 Fructidor an 7 (14 Septmbre 1799) Doc. No. 219.

بملف رقم ١٨، بمحظفة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٢) نفس الوثيقة السابقة .

(٣) يطلق اسم نباري على الضريبة المفروضة على الأراضي التي تزرع بالذرة أو الأعلاف عندما تروى بشكل صناعي أي بواسطة الشادوف، ويطلق على نفس المحاصيل اسم بعلي إذا ما كان الفيض الطبيعي

قد وفر الري الطبيعي لها . انظر

Esteve : Mémoire sur les Finances d L'Egypte depuis sa conquête Par Le sultan slym Prier Jusqu,a celle du general en chef Bonaparte in Description de L'Egypte, Etat Moderne, tome Douzieme, Paris 1823 P. 90

وحول هذا الموضوع أشارت إحدى وثائق الحملة الفرنسية وهى عبارة عن رسالة بعث بها الديوان الى تاليان Tallian المدير العام للمالية بخصوص الشكوى التى قدمها شيوخ وفلاحو الكثير من قرى إقليم بنى سويف، وشرحوا الظروف القاسية التى يعيشونها حيث تحصل ضريبة النبارى بطريقة تقريبيه، ولم يأخذ الوكيل الفرنسى بالاقليم ما جرت عليه العادة بتحصيل النبارى حسب المساحة ذلك أن حقل الذرة يزداد وينقص كل عام، لذلك طلب من الديوان أن يبعث للوكيل الفرنسى ببنى سويف لكى يحصل النبارى على المساحة حسب ما جرت به العادة من قبل (١) وكانت الضريبة فى مصر العليا تنقسم الى قسمين أساسيين المال وهو والضريبة نقداً، والخراج وهو الضريبة عيناً (٢)، الأولى عن محصول الذرة والثانية عن محصول القمح والشعير لذلك ينبغى فى كل عام أن تقاس المساحة المخصصة لهاتين الزراعتين بغرض حساب ما على كل فلاح أن يسدده إلى الادارة.

وكان بونابرت قد كلف لجنة خاصة ببنى سويف سميت لجنة الحبوب Commission des grains بتحصيل الضرائب العينية بمصر العليا (٣) ووفقاً لأوامر اللجنة الإدارية (٤) Commission administratif كلف الأقباط بمهنة جمع الحبوب وإرسالها للقاهرة (٥) وكانت عملية تحصيل الضرائب العينية تعترضها صعوبات كثيرة منها أنه لا بد من اللجوء إلى قوة السيف والبندق للحصول عليها، ولا بد من نقل الغلال الى مخازن وشون قريبة من شواطئ النيل لتسهيل تصديرها للقاهرة فإذا زلت العقبتان المذكورتان وجدت عقبة

(١) Le Divan au Citoyen Tallien a dministrateur général, du finances Caire Le 10 Nivose an 8 (31 Décembre 1799).

بملف رقم ١٦ ، B6 . 38 ، بمحفظه فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٢) Reynier à Binot, Le 17 Vendemiran 8.

ظرف B6 161 فترته التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ بمحفظه فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١ .

(٣) فاطمة الحمراوى: المرجع السابق . ص ٢٨١ .

(٤) هى لجنة فرنسية تشرف على أعمال الحكومة الإدارية ويدخل فى اختصاصها الشؤون المالية والزراعية والاقتصادية .

(٥) Daure a gard au Caire, Le 12 Prerial an 8, Doc. No. 539, B6 148.

بمحفظه فترتها التاريخية من ١٠ اكتوبر سنة ١٧٩٩ إلى ٥ يوليو سنة ١٨٠٠ (٢٠ فاندمير الى ١٩ ميسيدور العام الثامن الجمهورى) .

أخرى وهى /قلة المراكب المتوفرة لنقل الغلال حيث قام الفرنسيون بتعطيم الكثير من المراكب لاستخدامها كخشب وقود وتدفئة، كما أن النيل لم يكن صالحا للملاحة فى الوجه القبلى إلا فى أربعة أشهر الفيضان حين يكون النيل صالحا للملاحة(١) .

وكانت القاهرة بحاجة ماسة إلى غلال الصعيد لأجل مؤونة الجيش الفرنسى وتؤكد وثائق الحملة الفرنسية ذلك فى رسالة من استيف المحاسب العام ورئيس لجنة المؤن الى لجنة الحبوب ببنى سويف يقول "نحن نرجوكم أن تقوموا بكل استطاعتكم لكى تصل كمية الـ ٢٠,٠٠٠ أردب قمح لأن وصولها إلى القاهرة حيوى وبدونها ستكون حالة مؤن الجيش سيئة"(٢) .

وهذا يدل على أن غلال الصعيد كانت هامة وضرورية للجيش الفرنسى بالقاهرة والوجه البحرى ويذكر أحد علماء الحملة الفرنسية أن الضريبة العينية المقررة على صعيد مصر كانت فى عهد الحملة الفرنسية تقدر ب ٥/٤ إجمالى الضرائب المقررة على الصعيد وهو الأمر الذى يبرهن على أن منتجات هذا الإقليم تتكون بصفة أساسية من الحبوب(٣) .

وكان الفرنسيون يجمعون أكبر قدر ممكن من الحبوب من صعيد مصر لسد حاجات الجيش من الغذاء، وفى رسالة من رافيه الى الجنرال فريان يقول فيها لقد جمعت أكبر كمية ممكنة من القمح للقاهرة وهى من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ أردب وسأوصل الإرسال(٤) .

(١) ابراهيم زكى: المرجع السابق ص ٩٦ .

(٢) Estève Payeur general President des commission Substances a la Commission des grains a Benisouef au Caire, Le 18 nivose an 8 (8 Janvier 1800) Doc. No. 2040.

بملف رقم ٨، B6 39 بدوسيه رقم ١ بمحفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ (١١) فاننوز إلى ١١ جير منال العام الثامن الجمهورى) .

Estève, Op. Cit, P. 90.

(٣)

Le chef Bataillon Ravier au général de division Fraint, Miniet Le 22 nivose an 8, (٤) Doc. No. 2073.

بدوسيه رقم ١، ملف رقم ١٢، B6 39 بمحفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ .

وظل المماليك والفرنسيون يجمعون الضرائب من الفلاحين بضعيد مصر، وإذا كان المماليك قد حصلوا على جزء من هذه الضرائب^(١)، فإن الفرنسيين قد حصلوا على الجزء الأكبر منها، وظل الحال على هذا الوضع حتى تم عقد معاهدة للصلح بين الجنرال كليبر ومراد بك في ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ تم على أساسها الاعتراف بمراد بك حاكما على مصر العليا في مقابل أن يؤدي للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصالح الولاية على مصر، وقد حدد هذا الخراج في الإتفاقية بـ ٢٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠,٠٠٠ بارة، علاوة على ١٥,٠٠٠ أردب من القمح و ٢٠,٠٠٠ أردب من الشعير والحبوب^(٢).

تم ضمت في عهد الجنرال منو قرى من مديرية سوهاج لمراد بك على أن يكون له حق الانتفاع بالدخل الناتج من الضرائب وبنفس الشروط الواردة في المادة الخامسة من معاهدة كليبر ومراد، بك ونتيجة للتعديل المذكور والمقدم من القائد العام منو إلى الأمير مراد بك يتعهد هذا الأخير بدفع زيادة في العائد السنوي من ١٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠,٠٠٠ بارة بالإضافة إلى ٢٥٠ كيس التي كان يدفعها سنويا طبقا للمادة الثانية من معاهدة كليبر ومراد، وبالتالي سيدفع مراد بك ٤٠٠ كيس بواقع الكيس ٢٠,٠٠٠ بارة علاوة على ١٥,٠٠٠ أردب قمح و ٢٥,٠٠٠ أردب شعير طبقا لمعاهدة كليبر ومراد^(٣) ولم تكن هذه التنازلات من جانب الفرنسيين لمراد بك إلا محاولة لكسب تأييده ومن ثم المحافظة على السلام بجنوب مصر.

(١) Le general Desaix au général Kleber, Siout le 26 Fructidor an 7 (12 Septembre 1799) Doc. No 180.

بملف رقم ١٦ بمحفظه فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠

(٢) لمزيد من التفصيل عن شروط هذه المعاهدة، أنظر الفصل الرابع

(٣) لمزيد من التفصيل حول شروط هذه المعاهدة الموقعة بين كل من داماس رئيس أركان حرب الجيش

الفرنسي والمسيو استيف المحاسب العام للجيش الفرنسي المكلفان بالسلطات من القائد العام منو من

جهة وبين ابراهيم كخيا أمين خزانة الأمير مراد بك من جهة أخرى أنظر .

Au quartier général du Caire, Le 26 Messidor an 8 (15 juillet 1800).

وثيقة بدون رقم بملف رقم ٦، B6 47 بمحفظه فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة

١٨٠٠ (٢١ ميسيدور إلى ١ فروكتيدور العام الثامن الجمهوري).

ومنذ توقيع معاهدة كليبر ومراد بدأ المماليك بزعامة مراد بك يجمعون الضرائب من المناطق المخولة لهم من قبل الإدارة الفرنسية، وكانوا من قبل توقيع معاهدة كليبر ومراد بك يجمعون الضرائب من أى مكان يتواجدون فيه بصعيد مصر .

وكان الفرنسيون يحصلون الضرائب نقداً إذا كان فيضان النيل غير كاف لأن ذلك يترتب عليه وجود جزء كبير من الأراضي شراقي لم تسقى كما حدث عام ١٨٠٠ فالقرى التي لم تسقى كانوا يرغمونها أيضا على دفع الضرائب مما كان يؤدي إلى هروب الفلاحين في أغلب الأحيان، وتصبح كثير من القرى مهجورة^(١)، وهذا يصور مدى الظلم الواقع على الفلاحين من قبل الفرنسيين .

٤ ولقد حاول الجنرال منو أن ينظم عملية جباية الضرائب ويتضح ذلك من خلال منشور وجهته إلى أهالي مصر بتاريخ ٦ برومير العام التاسع الجمهورى الموافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠م يتضمن تحديد مبلغ الضرائب على كل قرية، وقيام الفلاحين بدفع الميرى المفروض عليهم، وينبغى عليهم أن لا ينتظروا وصول الصيارفة لتحصيلها، وينبغى عليهم أن يتوجهوا بأنفسهم لدفعها فى خزائن الحكومة فى مختلف الولايات، وطبقا لهذا المنشور، سوف تقسم عملية سداد المال الميرى الى أربعة أقسام متساوية يدفع كل قسط منها كل ثلاثة أشهر بحيث أنه فى نهاية كل عام يكون الفلاحون قد سدّدوا ما عليهم من المال دون أن يتعرضوا لأى سلب أو مظالم، وعلى العكس من ذلك اذا انتظروا مجئ الصيارفة للجباية فإن ذلك سيكلفهم مصاريف أكثر^(٢) . /

ويمكن أنقول بأن هذا المنشور كان بداية لأصلاح نظام الضرائب على الأراضي الزراعية التى اعتزم الجنرال منو تنفيذها، ومن أهم تلك الإصلاحات المشروع الذى أعده منو فى ٣٠ نيفوز من العام التاسع الجمهورى الموافق ٢٠ يناير سنة ١٨٠١م لإصلاح نظام

(١) فاطمة الحمراوى: المرجع السابق . ص ص ٢٩٥، ٢٩٦ .

(٢) لمزيد من التفصيل عما جاء بهذا المنشور انظر :

Sala din Boustany, the Journals of Bonapart in Egypt 1798 -1801 (in 10 volumes)
volume Nine, Part 1, Frist Edition, Cairo 1971 , PP. 148 150 .

الضرائب، وقد تألفت نصوص هذا المشروع من ثمان وعشرين مادة تناولت موضوع الضرائب وتنظيمها وتتلخص بنود هذا المشروع فى النقاط التالية:

- ١- الغاء كل الضرائب القائمة والمفروضة على الاراضى (الميرى، الفايط، المضاف، والبرانى وغير ذلك) • والاستعاضة عنها بضريبة واحدة تتحدد نسبتها على أساس عدد الأفدنة فى القرية ونوع الأرض التى تفرض عليها الضريبة •
- ٢- تقسيم الاراضى الى ثلاث فئات ويجدد القائد العام قيمة الضريبة عن كل فئة بعد كل فيضان سنوى •

٣- تعهد القائد العام بالآلا يزيد مقدار الضريبة على الإطلاق وبأن ينقصها فى سنوات الفيضان الضعيف عندما تكون الاراضى شراقى بشرط أن يسرع الفلاحون فى دفع الضريبة، وإلا حصلت الضرائب بمساعدة العسكر وبالتالى تتحمل القرية النفقات الإضافية المترتبة على إرسال القوات •

٤- الأموال المتحصلة من هذه الضريبة الواحدة تقسم الى أربعة وعشرون جزءا، يخصص ٢٤/١٢ منها لخزانة الجمهورية الفرنسية، و ٢٤/٧ للملزمين تعويضا لهم عما فقدوه من الأموال التى كانوا يأخذونها لأنفسهم من الفلاحين، ٢٤/٣ لمشايخ البلد تعويضا لهم عن الإتاوة التى كانوا يحصلون من القرى وتشجيعا لهم على تأدية أعمالهم، و ٢٤/١ لتغطية نفقات أعمال الرى ولدفع أجور العمال حتى يعفى الفلاحون من السخرة، و ٢٤/١ لتغطية مرتبات جباة الضرائب، وطبقا للمشروع حرم الملتزمون من حق جباة الضرائب فى القرى كما حرم عليهم التدخل فى شئون القرية الإدارية أو القضائية •

٥- جعل أرض الوسية ملكا للملزمين وأرض الفلاحة ملكا للفلاحين •

٦- إعطاء جميع ملاك الاراضى مطلق الحرية فى زرع أطيانهم كما يشاءون •

٧- تخضع كل الاراضى للضريبة، سواء أكانت أراضى "وسية" يحوزها الملتزمون، أو أراضى "أثر" يحوزها الفلاحون •

٨- لا تفرض ضرائب على "الرزق" أو "الأوقاف" الموقوفة على مساجد أو مؤسسات دينية بشرط أن تسجل العقارات على الوجه السليم ويكون تسجيلها مجانيا، وتصادر الجمهورية كل الرزق والأوقاف التى لا يتم تسجيلها حتى تاريخ معين •

٩- تلغى الضرائب الخاصة Particulières التى تجبى عينا من الصعيد فيما عدا الضرائب المفروضة على قرى معينة(١) .

وكان من المتعذر تنفيذ هذا المشروع قبل أن تتم مساحة جميع الأراضى الزراعية، لهذا أنشأ منو فى ٢ مارس سنة ١٨٠١ لجنة للمساحة من أعضائها المهندس لوبير Le père والمهندس الجغرفى جاكوتان Jacotin وذلك من أجل الوصول الى تحديد قيمة ضريبة الأرض السنوية أو الميرى وتحصيلها بالعدل والقسطاس فى مصر، وكان من أهم أعمال هذه اللجنة ضبط مساحة الفدان المصرى وتوضيح هذه المساحة بالمقاييس الفرنسية المعروفة، وفى ٥ مارس عرضت اللجنة على مو جميع القرارات التى وصلت إليها فى كل ما من شأنه أن يمهّد الطريق أمامها لقيامها بالمهمة الملقاة على عاتقها(٢) .

ولم يقدر لعملية المسح أن تخرج الى حيز التنفيذ لمجئ القوات الإنجليزية والعثمانية الى مصر فى ذلك الوقت لإخراج الفرنسيين منها، وبدأت الحرب بين الطرفين فتعذرت مساحة الأراضى الزراعية، وتعذر كذلك تنفيذ المشروع بأسره(٣) وذلك نتيجة للهزائم العسكرية التى لحقت بالقوات الفرنسية والتى أدت الى اضطراب الجيش الفرنسى للإنسحاب من مصر .

ثانياً الصناعة

إذا كانت الحملة الفرنسية قد اهتمت بإحداث تغيير فى الزراعة المصرية وذلك من خلال اهتمامها بالرى وبمحاولتها تغيير نظام ملكية الأرض وإصلاح نظام الضرائب على الأراضى الزراعية، فإن ذلك يرجع الى أنها كانت تنظر الى مصر باعتبارها مستعمرة فرنسية تمد فرنسا بالمنتجات الزراعية وعلى رأسها السكر والقطن والنيلة وغيرها من

(١) لمزيد من التفصيل حول مواد هذا المشروع انظر .

Roussea M, F- Kléber et Menou en Egypte depuis Le Départ de Bonapart (Aout ١799 - Septembre 1801) Paris 1900, P. 382 -393 .

(٢) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، دون تاريخ، ص ٢٤٨ .

(٣) أحمد أحمد الحقة: تاريخ مصر الإقتصادى فى القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٥، ص ٤٤ .

المنتجات الهامة اللازمة للصناعات الفرنسية، وفي نفس الوقت تكون مصر سوقاً رائجة بالنسبة للمنتجات الصناعية الفرنسية.

ومن هنا لم تحاول الحملة الفرنسية إحداث تغيير في الصناعة المصرية في الفترة التي قضتها بمصر. ولم يكن ذلك معناه أن الحملة الفرنسية لم تقم بإنشاء مصانع في مصر في الفترة التي قضتها بها، بل اضطرت الحملة نتيجة لانقطاع الصلة بين مصر وفرنسا بسبب موقعة أبي قير البحرية إلى التفكير في إقامة بعض المصانع لكفاية حاجات الجيش الفرنسي.

ومن المنشآت الصناعية التي أقامها الفرنسيون في مصر في هذا العهد: إصلاح دار الترسانة التي كان قد أنشأها مراد بك في الجيزة لصنع المدافع والسفن وآلات الحرب، وإنشاء مصنع للبارود في الروضة^(١) ومصانع للجوخ والقبعات والبيرة ودبغ الجلود والميكانيكا والنجارة الميكانيكية، كما أن الفرنسيين استعملوا الهواء كقوة محرك فأنشأوا طواحين الهواء في باب الحديد وفي جزيرة الروضة^(٢)، وفي الصعيد ظلت الصناعات الأهلية التي كانت سائدة قبيل مجيء الحملة الفرنسية^(٣) سائدة في طريقها متبعة أساليبها العتيقة ونظمها القروية والمحلية المعروفة ولم يعمل الفرنسيون على تطويرها.

ومن الصناعات التي نجد لها ذكر في الوثائق الفرنسية والمصادر المعاصرة صناعة البارود حيث أكدت إحدى وثائق الحملة الفرنسية أن أحد الرجال بإسنا يملك مصنع Fabrique للبارود وأن الفرنسيين يشترون منه ما هم بحاجة إليه من البارود حيث يذكر

(١) اهتم الفرنسيون منذ البداية بصناعة البارود نظراً لأهميته البالغة للجيش، ولقد كان البارود الذي يصنع في جزيرة الروضة أكثر جودة من البارود الآتي من فرنسا مما جعل الجنرال منو يتقدم بالشكر إلى شامبي champy المدير العام للبارود وإيضاً إلى كونتيه conté رئيس الورش الميكانيكية وعضو اللجنة الإدارية للأعمال التي قام بها لإنشاء هذه المؤسسة لصنع البارود، والتي لاقت كل نجاح، لمزيد من التفصيل حول صناعة البارود انظر: فاطمة الحمرأوى: المرجع السابق، ص ٣١٠.

(٢) محمد فهمي لهيطة: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر: الفصل التمهيدى.

المساعد العام، جيلى فيو Gilly Vieux إلى قائد اللواء الجنرال بليار مايلى "صانع البارود الذى اشترى منه بالأمس قنطارين و ٢٠ رطلا وملا ٩ أوعية وسأرسل لك ٦ منها غدا" (١) .

ثم يقول له فى نفس الرسالة "صانع البارود قال لى إنه لا يستطيع العمل بدون دفع مقدم لأنه رجل فقير، كما أنه لا يستطيع السفر إلى قنا لأن ذلك سيؤخره جدا كما أنه لا يمكنه ترك مصنعة" (٢) ويتضح من ذلك أن الفرنسيين كانوا يعانون من نقص فى البارود وأن المصنع الذى أقاموه فى الروضة لم يكن يغطى احتياجات الجيش الفرنسى فى القطر المصرى كله بدليل شراء الفرنسيين للبارود ممن يقومون بتصنيعه فى الصعيد .

وفى نفس الوقت يجب أن نذكر أن الفرنسيين كانوا يعاقبون الرجال الذين يصنعون بارودا فاسدا ويبيعونه لهم، ففى رسالة من فاليت Vallet الى الجنرال بليار يذكر له مايلى "سوف أرسل لك كل البارود الفاسد والرجل الذى صنعه لكى يدفع مقابل فعلته كما أمرتني (٣) وعمل الفرنسيون وقت اشتعال الثورة بينهم وبين الأهالى على غلق مصانع البارود الموجودة بالصعيد، ففى رسالة من رينييه إلى بوشليج يذكر له "لقد وصلنى خطابك الذى تطلب فيه غلق مصانع البارود، أرجو أن تلاحظ أنه لا يوجد فى الصعيد أى مصنع للبارود، وأن الفلاحين يصنعون الرصاص الخاص بهم، ولن يفيد أن تقوم بعمليات قبض لأنهم لا يوشون بعضهم ببعض، وتستطيع أن تعوقهم عن طريق نشر بعض الرجال الموثوق فيهم لشراء الكبريت من القرى بأعلى الأسعار، هذا كان كافيا لمنع صناعة البارود، ولكن القائد دومارتان قد عرقل أوامر القائد شامبى، سوف أقوم بكل ما أستطيع لتنفيذ هذه الأوامر، ولكنى أشك فى تأثيرها فى الوقت الحالى الذى كان سيختلف بالتأكيد إذا كانت قد نفذت فى

L'Adjutant général gilly Vieux au general de brigad Blliard, Esné, le 1 nivos an 8 (١)
(22. Decembre 1800), Doc. No. 762.

بملف رقم ١٧ بمحفظه فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٢) نفس الوثيقة السابقة .

Vallet chef, de bataillon au general de brigade Belliard commandant la (٣)
province de thebes, girge le 21 Frimaire an 8 (12 Décembre 1799) Doc. No.
1628.

بملف رقم ١١، بدوسيه رقم ٢، بمحفظه فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة

١٧٩٩ (٢٥ برومير إلى ٢٤ فرمير العام الثامن الجمهورى) .

وقت نشرها الأول^(١)، ويتضح من ذلك أن الفرنسيين كانوا يخشون من انتشار صناعة البارود في الصعيد حتى لا يعمل على اشتعال المقاومة الوطنية أكثر مما كانت عليه.

وبالنسبة لصناعة السكر فقد كانت هذه الصناعة موجودة بالصعيد قبيل مجيء الحملة الفرنسية، بطرقها العتيقة التي لم تتغير في عهد الحملة ولم يطرأ عليها أى تغيير يذكر والدليل على ذلك أن القائد العام منو تلقى رسالة من بلودى Bloudy يعرض فيها خدماته على كل ما سيعود بالخير على الفرنسيين ويخبر القائد العام أنه لديه المعلومات الهندسية التي اكتسبها خلال إقامته بسانت دومنج التي دامت عشر سنوات بالخصوص حول مصانع السكر، ويقترح عليه أنه إذا تعاون مع "نيكتو" سيتمكنان سويا من إقامة مؤسسة لصنع السكر وأخبره أنه أخبر لورى Le roy عضو اللجنة الإدارية الذى شجعه على أن يوجه طلبه هذا إلى القائد العام، ووافق القائد العام على طلب بلودى بإقامة مصنع السكر لكن شريطة أن يتم بالإشتراك مع فرنسيين آخرين لهم خبرة واسعة في مجال الزراعة والصناعة، وبعد مناقشة اللجنة الإدارية لموضوع مصنع السكر وبعد موافقتها اختار كل من (Prix Real, Bloudy) إقليم جرجا كمكان لمصنع السكر باعتبار أن هذه المنطقة مركز لزراعة قصب السكر، وطلبا بناء على ذلك من القائد العام أن يصدر أوامره بهذا الشأن لمراد بك باعتباره يحكم تلك المنطقة، لكن طلبه هذا رفض لأن القائد العام منو رأى أنه ليس من الحكمة أن تنتقل الصناعة الفرنسية إلى المنطقة التي يحكمها مراد بك^(٢).

١ وإذا كان الجنرال منو يخشى أن تنتقل فنون الصناعة الفرنسية إلى المنطقة التي يحكمها مراد بك في الصعيد فإنه لم يعمل على إنشاء مصانع في المنطقة التي يحكمها الفرنسيون بصعيد مصر خوفا من انتقال فنون الصناعة الفرنسية إلى الأهالي.

وفي نفس الوقت فإن الفرنسيين قد قاموا بصناعة الطوب الأحمر^(٣) وذلك لاستخدامه في بناء وترميم القلاع التي قاموا ببنائها في الصعيد لتكون حصونا منيعة لصد هجمات

(١) Reynier à poussielgue, Benesouef, le 16 vendmaire an 8 (8 Octobre 1799).

ظرف B6 161 بمحظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١ .

(٢) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٣) Duzelot au général Belliard, Cossier, le 19 Fructidor an 7 (5 Septembre 1799).

ملف رقم ٤ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

الأهالى، وكانوا يستخدمون البنائين المصريين فى هذه الصناعة جنبا إلى جنب مع البنائين الفرنسيين (١) لكون هذه الصناعة ليست صناعة ميكانيكية وبالتالي لم يخش الفرنسيون من وجود البنائين المصريين معهم لأن هذه الصناعة ليس بها جديد يذكر .

ومن الصناعات التى نجد لها ذكرا فى وثائق تلك الفترة صناعة تفريخ الدجاج، فتذكر سجلات المحاكم الشرعية الخاصة بمحكمة إسنا أن مراد بك قد أعطى تصريحاً لفخر السادات الأشراف (السيد بدر جودة حباتى) ببناء معمل فراخ فى الأرض التى تقع فى وسط السوق بناحية إسنا (٢) .

// ويتضح من العرض السابق أن الصناعات الأهلية فى صعيد مصر ظلت سائدة فى طريقها متبعة أساليبها العتيقة ونظمها القروية والمحلية المعروفة، ولم يطرأ عليها أى تغيير يذكر فى عهد الحملة الفرنسية، وذلك لأنه لم يكن من سياسة الحملة الفرنسية التفكير فى إنهاض الصناعة المصرية، والدليل على ذلك أنه عندما فكر منو فى إنشاء مصنع للجوخ فى القاهرة لسد الحاجة الماسة إلى الأجواخ التى انقطع ورودها من أوروبا، عارض أعضاء اللجنة الإدارية فكرة قبول العمال المصريين فى هذا المصنع بحجة الضرر الذى يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها، وصرخ المسيو كونتى Conté مدير المصنع الميكانيكى الذى أنشأه الفرنسيون أنه لا يقبل البتة تعليم أحد من الأهالى أساليب الصناعة، وأخيراً تم الاتفاق بين (منو) واللجنة الإدارية على إنشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كونتى على ألا يقبل فيه عاملاً مصرياً، كما اشترط كونتى على الجنرال منو أنه فى حالة موافقة حكومة الجمهورية على إرجاع مصر إلى السلطان العثمانى أن يتم تحطيم

(١) Dnzlot au général Belliard, Cossier, le 19 Fructidor an 7 (5 Septembre 1799).

ملف رقم ٤ بمحفوظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : سجلات محكمة إسنا الشرعية سجل رقم ٥٢ فترته التاريخية من ٥ ربيع

الأول سنة ١٢١٥ إلى ٢٦ محرم سنة ١٢١٦هـ، وثيقة رقم ١٧٤ مؤرخة فى ٢١ شهر ربيع الأول

سنة ١٢١٥هـ، ص ٧٨ .

أدوات الصناعة والمنتجات الصناعية جميعها أو تنقل هذه إلى فرنسا(١) . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على خوف الفرنسيين من إمكانية انتقال تقنية الصناعة للمصريين، لذلك حرصوا كل الحرص على إبعادهم عن المشاريع الصناعية التى أقاموها فى مصر . ومن ناحية أخرى فإن الفرنسيين كانوا يريدون استغلال موارد الثروة الزراعية لمصر دون التفكير فى توجيهها وجهة صناعية، وذلك حتى تبقى السوق المصرية منفذا للمصنوعات الفرنسية . //

ثالثا : التجارة :

إذا كانت الحملة الفرنسية لم تعمل على إنهاء الصناعة المصرية حتى لا تضر بالصناعة الفرنسية، فإنها عملت كل طاقتها لإنعاش التجارة الداخلية والخارجية لمصر رغم كل الظروف السياسية والعسكرية التى أدت إلى عرقلة النشاط التجارى، ذلك لأن إحياء التجارة المصرية يخدم المصالح التجارية الفرنسية . وسوف نتناول التجارة فى صعيد مصر فى تلك الفترة من خلال نقطتين كالتالى :

١- التجارة الداخلية فى الصعيد :

تأثرت التجارة الداخلية فى صعيد مصر فى الفترة الأولى من الاحتلال الفرنسى للصعيد نتيجة لاشتعال الحرب بين المماليك والأهالى من جهة والفرنسيين من جهة أخرى، وأدى اضطراب الأحوال إلى كساد فى السوق التجارية مما جعل قطع حبل التجارة أمرا محتوما فى تلك الفترة . وبالتالي أصبح الفائض من حبوب الوجه القبلى والفائض من صناعاته لا يجد طريقه إلى القاهرة بسبب انقطاع طرق المواصلات الناتج عن اضطراب الأمن ونعطى مثلا على ذلك فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال، وفى أثناء حملته النيلية إلى أسىوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها(٢) .

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨١، ص ص ٢١٥، ٢١٦، محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق، ص ص ٢٥١، ٢٥٢، فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ٣١١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٨١، ص ٣٤٨ .

وفى أسواق المدن كانت تحدث مشاجرات بين الأهالى والفرنسيين لرفض الفرنسيين دفع ثمن مشترياتهم حدث ذلك فى سوق المنيا^(١) عندما نزلت فصيلة من الجنود الفرنسيين ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية، وكاد يستشري الهياج لولا الحكمة من سكان البندر^(٢). ويمكن القول بأنه إذا كانت أسواق القرى والمدن بصعيد مصر^(٣) قد استمرت فى انعقادها إلا أنها تأثرت باضطراب الأمن الناتج عن الصراعات العسكرية، ونتيجة لحرق الكثير من القرى بصعيد مصر إبان الصراع العسكرى والثورات فى المدن تعطلت أسواق الكثير من القرى والمدن فى صعيد مصر فى تلك الفترة.

ومن جهة أخرى فإن مجئ الفرنسيين قد قلص بصفة عامة من النشاط التجارى الذى كان يتم قبل مجيئهم بمختلف المواسم الدينية كالمواسم التى كانت تقام للإحتفال بمولد أحد الأولياء الصالحين والذى كان مناسبة دينية وتجارية تساهم فى نشاط التجارة، ومن هذه الأسواق الدينية على سبيل المثال سوق مولد سيدى عبد الرحيم القنائى بقنا. وبعد أن تم إبرام الصلح بين الفرنسيين ومراد بك بمقتضى معاهد كليبر - مراد (٥ إبريل سنة ١٨٠٠) أنشأ الفرنسيون جمركا بأسىوط وبالتالي أصبحت البضائع التى تنتقل من المنطقة التى يوجد

(١) ذكر فافيه Favier فى تقرير له عن المنيا أن المنيا بها سوق كبير نوعا ما، وأهم ما يباع به هو السكر والأقمشة الصوفية انظر :

Notes et observations pendant mon séjour a miniet, au Caire, le 25 Thermidor an 8.

ملف رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى ١٤ أغسطس سنة ١٨٠٠ (١٣ إلى ٢٦ تيرميدور العام الثامن الجمهورى).

(٢) عبد الرحمن الراقى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٩ .

(٣) لمزيد من التفصيل عن القرى والمدن التى يوجد بها أسواق فى صعيد مصر انظر :

Reynier au général en chef, B6 162, le 4 Complémentaire an VIII.

بظرف فترته التاريخية من ٧ سبتمبر إلى ٧ نوفمبر سنة ١٨٠٠ بمحظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١ .

بها مراد بك نحو المنطقة التى يحكمها الفرنسيون أو العكس تؤدى رسوما جمركية عند أسيوط تقدر بواحد من عشرين سواء نقدا أو عينا من القيمة الإجمالية للبضائع (١) .

حيث كانت مدينة أسيوط من أهم مدن الصعيد ومركزا تجاريا كبيرا تنتقل عبرها كل التجارة القادمة من مدن مراد بك والحبشة والواحات فى طريقها إلى القاهرة أو رشيد أو الإسكندرية، كما كانت كل التجارة القادمة من القاهرة ورشيد والإسكندرية تفرغ فى أسيوط وتخزن ومنها تنتقل إلى مدن مراد بك والحبشة والواحات .

وقد كان الغرض من إحداث الفرنسيين لجمرك أسيوط هو تحصيل أكبر ما يمكن من الضرائب كى يعوضوا دخل جمرك القصير التى توجد بيد مراد بك . وقد حصل مراد بك على إمتياز بإدخال مقدار من بضائع معينة إلى مصر دون أن يدفع عليها رسومات جمركية بأسيوط حيث ذكر الجنرال منو فى رسالة له إلى الجنرال دونزولو ما يلى "أيها المواطن القائد لقد أعطيت أمرا إلى مدير الشؤون المالية المسيو "استيف" أن تدفع حقوق الجمارك فى أسيوط من أى مواطن يتقدم للدخول إلى مصر، مراد بك فقط سيكون معفى بالنسبة لشخصه ولأهل بيته على أن يكون هذا الإعفاء على وزن محدد (٢) .

وكان مراد بك يدفع جمركا على أى بضائع تزيد على الكمية المسموح له بها من قبل الفرنسيين، وأحيانا يقوم بدفع الجمرك لبضائع أو متعلقات لأحد البكوات المماليك أو حريمه ممن يهيمه أمرهم (٣) .

ويمكن القول بأن إقامة الفرنسيين لجمرك أسيوط قد حد نوعا ما من نشاط التجارة والمبادلات بين الوجه القبلى والوجه البحرى، تلك التجارة التى كانت مزدهرة قبل مجيئهم

Lapanouse Directeur des Douanes de siout au général en chef Menou, Asiou, (١) le 22 Thermidor an 8 (10 Aout 1800).

ملف رقم ٥، ٤٩، بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى ١٤ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

Menou au général Donzelot, le 12 Frimaire an 9 (3 Decembre 1800) Doc. No. (٢) 1254.

ملف رقم ٣، B6 58 بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٠٠ .

(٣) انظر رسالة مراد بك إلى الجنرال دونزولو . مؤرخة فى ٢٤ جماد أول سنة ١٢١٥ هـ بمحظة بدون رقم ولا تاريخ بمكتبة جامعة القاهرة .

ولقد اهتم الفرنسيون بالرسوم التي كانت تدفع على استهلاك البضائع والسلع نظرا لما تدره للخبزينة الفرنسية من أموال، وقد اتبعوا نفس العادة التي كانت جارية بخصوص إعطاء بعض الرسوم من هذا النوع كالتزام لبعض الأشخاص مقابل مبلغ مالي يدفعوه كل شهر (١) .

ولقد قام الجنرال منو بتغيير في الرسوم التي تحصل على مختلف المواد الاستهلاكية في أمره اليومي بتاريخ ٢٤ فركتيدور السنة الثامنة من التقويم الجمهوري الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٨٠٠ حيث تضمن البند الأول من هذا الأمر تغييرا في الرسوم التي تحصل على أسواق المدن والقرى ابتداء من أول فاندوميير العام التاسع الجمهوري الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠٠ .

بينما نص البند الثاني بأن يبقى العمل جاريا ببعض الرسوم مثل الرسوم التي تحصل على بيع الخيول والجمال والبغال وهي ١٪ من ثمن البيع، وسيحصل هذا الرسم في كافة أنحاء الديار المصرية، كذلك ابتداء من التاريخ المذكور أعلاه سيحصل رسم نصفين فضة عن كل ذراع pic على القماش الرفيع ونصف فضة واحد عن كل ذراع على باقى جميع الأقمشة أما البند الثالث فقد تضمن تحديد الرسوم التي ستدفعها كافة السلع والبضائع من داخل مصر (ابتداء من أول فاندوميير العام التاسع الجمهوري) عند دخولها المدن التالية : مصر، مصر القديمة، بولاق، دمياط، المنصورة، سمند، المحلة الكبرى، دمنهور، بلبيس، طنطا، المنيا، الفيوم، منفوط، أسيوط، طهطا . سوف تدفع الرسوم التالية :

- على الحبوب ٨٪، على القطن، السكر، العسل ١٠٪ على النيل L'indigo، الدخان، قماش صوف، قماش حرير ٨٪ .

- على الفواكه والأسماك الطازجة، الطيور، الزبدة، الجبن، الزيوت ٥٪ .
- على الفحم، والحصر، التبغ، أوانى الفخار، الأخشاب ٥٪ .
- على الخرفان والماعز والأبقار ٦٪ .

وأشار البند السادس من الأمر إلى أن جميع الرسوم أو العوائد المذكورة أعلاه يوزجروا على قدر الإمكان، وأن يكون ذلك من خلال مزاد enchère علنى في الأقاليم .

(١) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ص ٣٣٢، ٣٣٣ .

كما أشار البند السابع من الأمر إلى أنه سيتم تعيين أربعة مفتشين للرسوم وستنحصر مهمتهم في مراقبة تصرفات المحصلين والسهر على ألا يدفع أكثر من المقدار الذى حدده هذا الأمر لكل سلعة، أما البند الثامن من الأمر فنص على أن يساعد حكام الولايات والبنادر المفتشين ومستأجرى العوايد في تأدية مهامهم كلما طلبوا منهم المساعدة بالحق^(١).

ولقد أثر هذا الأمر على التجارة، فعمل على الحد من النشاط التجارى والمبادلات بين مختلف أنحاء البلاد، ومن ثم تعطيل مصالح الرعية، وكان ذلك ما دفع بأهالى طهطا تقديم التماس إلى الجنرال دونزولو شاكين من كثرة الرسوم على كل ما يباع ويشترى فى غلال ومواشى وتبن ووقد وطيور وتجارات وخلافه وذلك لم يكن معتادا قبل حضور الفرنسية ولا بعده فبسبب ذلك امتنع جميع ما يدخل البلد من معاش الرعية وتعطل حال البلد وحصل لأهلها تعب ومشقة عظيمة بسبب التعطيل الحاصل فى هذه الحوادث ونرجو من حضرة جنابكم أن تشفعونا فى رفع هذه الحوادث التى عطلت أحوال الرعية لأجل راحة الناس وبييعوا ويشترى ويدفعوا الجمرك المعتاد عليهم للديوان^(٢).

ويبدو أن الجنرال دونزولو لم يستجب للتماس أهالى طهطا برفع الرسوم المقررة على السلع والبضائع السالفة الذكر، لأنها تدخل ضمن قرار الجنرال منو بتعديل الرسوم المقررة على السلع والبضائع، ومن ثم فهي سياسة عامة لا يستطيع الجنرال دونزولو أن يبيت فيها.

وتجدر الإشارة إلى أن التجارة التى أرهقتها المكوس والإتاوات المختلفة قد ازداد كسادها وحل بها البوار بعد الأمر الذى أصدره الجنرال منو بفرض إتاوات جديدة على

(١) Voir copie de L'ordre du général en chef inséré dans L'ordre du jour du 24 Fructidor an 8, dans Sala Din Boustany.Op.Cit. Volume Nine, Part. 1, P.118-124.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر وثيقة بدون رقم مؤرخة فى ٢٣ شهر رجب عام ١٢١٥هـ بمحظة بدون رقم ولا تاريخ بمكتبة جامعة القاهرة، والوثيقة عبارة عن عرضحال من أهالى ناحية طهطا إلى الجنرال دونزولو صارى عسكر الجيوش الفرنسية بولاية المنيا والأسيوطية.

نقابات الحرف والتجار^(١)، ويبدو أن الجنرال منو لم يكن يعنيه من أمره هذا إلا زيادة الثروة العامة بصورة تمكنه من الحصول على الموارد اللازمة للإنفاق منها على جيش الشرق في مصر.

ومن المعروف أن نقل الغلال من الصعيد إلى القاهرة كان يتم عن طريق نهر النيل، ومن هنا كان اهتمام الفرنسيين بالملاحة عبر النيل، نظرا لأنها كانت تمثل مواصلة سهلة بالمقارنة بالطرق البرية. وحرص الفرنسيون على تعيين بعض الضباط في مختلف المراكز الموجودة على النهر لكي يسهروا على كل ما يتعلق بالمواصلات خاصة تلك التي تتم بين الوجه القبلي والوجه البحري، وليسهروا من جهة أخرى على تأمين وصول الحبوب إلى القاهرة^(٢). وكان القائد العام بالقاهرة يأمر بعض القواد الفرنسيين بمصر العليا بتوفير جميع المراكب الموجودة على النيل لاستغلالها في نقل الغلال من مصر العليا إلى القاهرة، وبالرغم من ذلك فإن عدد المراكب الموجودة لم يكن كافيا بسبب غرق الكثير منها وتحطيم الفرنسيين لجزء آخر بقصد استعمال أخشابه للوقود لقلّة الوارد من الأخشاب للقطر المصري.

ولهذا نجد الفرنسيين يعانون من نقص المراكب ويلجأون إلى مراد بك يطلبون منه إرسال كل المراكب الفارغة Les barques vides التي لديه إلى أسيوط، لأنهم في أمس الحاجة إليها لنقل غلالهم من أسيوط إلى القاهرة^(٣) حيث كانت أقاليم مراد بك تنتج مراكب كبيرة جدا مما يسرع في حركة النقل. وتذكر سجلات المحاكم الشرعية أن رئيسي المراكب كانوا يقومون بنقل الغلال لحساب الفرنسيين وكانوا يأخذون أجورهم مقابل ذلك^(٤).

(١) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) فاطمة الحمرأوى : المرجع السابق، ص ٣٢٩ .

(٣) Daure au prince de La Haute Egypte Mourad Bey, B6 142, Le 7 Fructidor (٣) an VIII (25 aout 1800).

بمحافظة فترتها التاريخية من ٢٣ يناير سنة ١٨٠٠ إلى ٨ يناير سنة ١٨٠١ (٥) بلوفيز العام الثامن الجمهوري إلى ٢١ نيفوز العام التاسع الجمهوري).

(٤) لمزيد من التفصيل انظر : سجلات محكمة منفلوط الشرعية، سجل رقم ٤، وثيقة رقم ٢١٩ ص

ص ٦٩، ٧٠، ووثيقة رقم ٢٧٧، ص ٧٣، ووثيقة رقم ٥٠٠، ص ١٦١ .

ولقد قام الجنرال منو بتأسيس لجنة لمراقبة تحصيل الأموال المفروضة على المراكب والسفن المسافرة في مصر لصالح الجمهورية، وكان هدفه من ذلك على حد قوله إسكات شكاوى ريسى المراكب، وأن يثبت لهم أن الحكومة الفرنسية تريد أن تكون عادلة وخيرة.

وبمقتضى الأمر اليومي للقائد العام منو الصادر في ١٣ فركتيدور العام الثامن الجمهوري (٣٠ أغسطس سنة ١٨٠٠) قسمت المراكب السارية في المنطقة التي يحكمها الفرنسيون بصعيد مصر إلى ثلاث درجات حسب سعة المراكب ومقدار الحمولة التي تحملها، وحدد الأمر أجرة Nolis المراكب التي تستخدم في خدمة الجيش الفرنسي حسب الرحلة التي تسلكها من بولاق إلى بنى سويف أو المنيا أو أسيوط في الذهاب والعودة (١).

ثم أصدر الجنرال منو أمرا يوميا آخر في ٧ فاندميير العام التاسع الجمهوري (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٠٠) بدأه بقوله "القائد العام رغب دون أن يؤثر على التجارة أن يرفع عن الملاحة النيلية ضريبة كانت مع بقية الضرائب والعوائد الأخرى المأخوذة من مصر لتوفير متطلبات الجيش الفرنسي" لذلك أمر الجنرال منو في أمره المذكور أعلاه بالغاء جميع الضرائب القديمة التي كانت تدفع على جميع أنواع المراكب التي تعبر النيل ابتداء من أول فاندميير العام التاسع الجمهوري (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠٠) وفرض ضرائب جديدة على جميع أنواع المراكب، التي تعبر النيل تسدد سنويا حسب حمولة المراكب، وأن يعطى لكل مركب رقما يعلق على إحدى أجزائها الخارجية وسيكتب عليه حمولة السفينة.

ونص هذا الأمر أيضا على أن الضريبة المفروضة سنويا على المراكب سوف تدفع على أربع دفعات متساوية كل ثلاثة شهور. ونص البند السابع من هذا الأمر على أن

(١) لمزيد من التفصيل انظر :

Ordre du jour, du 13 fructidor an 8 no. 17, dans ordres du jour du général en chef Menou.

وتجدر الإشارة على أننا اعتمدنا هنا على أوامر الجنرال منو المحفوظة في دوسيه يحتوى على أربعة وتسعون وثيقة مطبوعة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل.

الرسوم على المراكب سوف تؤجر بمزاد Enchères علنى لمن يتقدم بطلبها وذلك حسب الأقاليم (١) .

ومن العرض السابق يتبين لنا أن/الجنرال منو عمل على توحيد فئات النقل المائى فى داخل البلاد . وتجدر الإشارة إلى أن النقل عن طريق النيل كان معرضا للقرصنة على يد سكان بعض القرى التى تقع على ضفاف النيل والذين لا يتعيشون إلا على السرقات وقطع الطريق على الصنادل المحملة والتى تمر قريبا منهم، وخير مثال على ذلك قرية نزلة النوايل التى تقع على الشط الأيمن إلى الشمال قليلا من منفوط كمثال لقرية كل سكانها لصوص Voleurs محترفون (٢) .

وأدرك الفرنسيون أن هذه الأعمال تقف عائقا فى سبيل ازدهار التجارة الداخلية بصعيد مصر فعملوا على القضاء عليها، ففي رسالة من بوييه Boyer إلى الجنرال كليبر يذكر له فيها "أن إحدى القرى بالمنيا نهبت مركبا عليه ١٥ رجلا وقتلوه، وسأقوم بمعاقبته مساء الغد لأن الملاحه فى النيل ستكون خطرة إن تركنا مثل هذه الأعمال دون عقاب" (٣) .

وبالرغم من كل الإجراءات السالفة الذكر التى قام بها الفرنسيون لإنعاش التجارة، فإن التجارة الداخلية فى الصعيد لم تشهد ازدهارا فى عهد الفرنسيين بسبب حالة الإضطراب التى لازمت الحكم الفرنسى، هذا إلى جانب تقسيم الصعيد بين الفرنسيين والمماليك مما أدى إلى قيام التنافس بينهما بطريقة أضرت بالتجارة، حيث ترتب على ذلك إقامة الحواجز الجمركية مثل إنشاء الفرنسيين لجمرك أسبوط ليعوضوا دخل جمرك القصير التى توجد بيد مراد بك .

(١) لمزيد من التفصيل عن بنود هذا الأمر انظر :

Ordre du jour, du 7 Vendémiaire an 9, no. 36, dans ordres du jour du général en chef menov.

(٢) Girard, Op. Cit. PP. 275, 276, Jomard. Observation sur les Arabes de L'Egypte Moyenne in Description de L'Egypte, Etat Moderne, Tome Douzième, Seconde Édition, Paris, 1823, P. 283.

(٣) Miniet, Le 28 Fructidor an 7 (14 Septembre 1799) Doc. No. 218.

ملف رقم ١٨ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ أغسطس إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

وإذا أضفنا إلى ذلك كثرة الرسوم على كل ما يباع ويشترى لأدركنا كيف أن كل هذه العوامل قد حدثت من إنتشار التجارة الداخلية فى صعيد مصر بل وأثرت على نشاط التجارة والمبادلات التجارية بين الصعيد والوجه البحرى .

٢- دور الصعيد فى التجارة الخارجية لمصر :

شهدت تجارة مصر الخارجية مع البلدان المجاورة لمصر والتي كانت صادراتها ووارادتها تأتى إلى مصر وتخرج منها عبر الصعيد انخفاضا ملموسا فى عهد الحملة الفرنسية نتيجة للإضطرابات التي شهدتها الصعيد فى عهد الحملة بسبب الصراع العسكرى الدائر بين الفرنسيين من جهة والأهالى والمماليك من جهة أخرى، ومن ثم قل ورود قوافل دارفور وسنار فى عهد الحملة عما كانت عليه قبل مجئ الحملة .

وتأثرت تجارة بلاد العرب عبر ميناء القصير، وبعد انتهاء الاضطرابات العسكرية فى الصعيد عمل الفرنسيون على انعاش تجارة مصر الخارجية مع هذه البلدان . فماذا عن أحوال هذه التجارة فى تلك الفترة؟ استمرت قوافل دارفور وسنار فى المجئ إلى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، حيث أشارت المصادر المعاصرة إلى وصول قافلة أتية من دارفور فى مطلع عام ١٧٩٩ وكانت تحمل معها سن الفيل وتبر الذهب^(١) .

ولقد تعرضت هذه القافلة للنهب على يد الفرنسيين فى صعيد مصر، حيث هاجمها الكابتن ديفرنوا واستولى منها على ٨٩٧ جملا، فلما أقبل بغنيمته كاد الجنرال دافويجن فرحا فقال له "لقد أقبلت عليك الدنيا يا كابتن، فهذا العمل الذى أتيت به قضى على خطط أعدائنا"^(٢) وهو هنا يقصد المماليك، ولكنه لم يكن هناك دليل واضح على أن مراد بك كان يضع الخطة لمهاجمة القافلة، ومن غير المحتمل أنه كان مهاجمها حتى إذا استطاع لأنه لم

(١) Vivan Denon, Voyage Dans la Basse et la Haute Égypte pendant les campagnes du-général Bonapartl Quatrieme Edition, Tome Premier, Paris 1803, PP.307, 308.

(٢) نقلا عن ج. كرسوفر هيرولد : بونايرت فى مصر : ترجمة فؤاد اندراوس، مراجعة: محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦، ص ٢٧١ .

يرد إضعاف التجارة بين السودان ومصر، ولكن قطع الطريق على هذا النحو اقتضى دافو وديفرنوا انتحال عذر يبرره، وقد اعتذر بونايرت بعد ذلك لسلطان دارفور من هذه الفعلة (١) .

كما أشارت وثائق الحملة الفرنسية إلى وصول قافلة أتية من سنار حيث ذكر دونزلو في رسالة منه إلى الجنرال منو يعلمه بذلك قائلاً "وصلت قافلة سنار إلى أسوان، ولقد أرسلت لها مندوب يحمل إليها جواز سفر بالأمان والحماية" (٢) .

ثم يطمئن الجنرال دونزلو الجنرال منو أنه يعمل من أجل ازدهار التجارة قائلاً "أرجو يا سيدي أن تكون على يقين أنه لا أحد يهمل سلامة التجارة وتوفير الحماية لها مثلي" (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كانت قوافل دارفور وسنار والحبشة قد استمرت في المجئ إلى مصر في عهد الحملة الفرنسية فإنه يلاحظ أن ورود هذه القوافل قد قل بكثير عما كانت عليه قبيل الحملة الفرنسية خصوصاً في الفترة الأولى التي شهدت الصراع العسكري الدائر في الصعيد بين الفرنسيين والأهالي والمماليك، ومن ثم اضطراب الأمن وتعرض تلك القوافل للنهب على يد الفرنسيين أحياناً، ولكن بعد أن استقرت الأحوال في الوجه القبلي بعد إتفاقية كليبر -مراد في ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ وعم السلام الوجه القبلي، انتعشت التجارة إلى حد ما خصوصاً في فترة حكم الجنرال منو الذي عمل على تشجيع التجارة مع سنار ودارفور ومع أقاليم السودان المختلفة، ومع الحبشة .

(١) ج. كريتوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٧١ .

(٢) Le général de brigade Donzelot au général en chef, Asiout le 19 Messidor, an 8 (8 Juillet 1800).

ملف رقم ٩، B6 47 بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من أول يونيو إلى ٩ يوليو سنة ١٨٠٠ (١٢) بريريال إلى ٢٠ ميسيدور العام الثامن الجمهوري) .
(٣) نفس الوثيقة السابقة .

وكتب منو في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ إلى وزير الخارجية الفرنسية يعلمه بأنه بعث بكتبه إلى إمبراطور الحبشة، كما أدلى بمقترحات معينة إلى كل من سلطان سنار و سلطان دارفور و سلطان دنقلة لعقد محالفة مع الفرنسيين في مصر (١) .

وأراد الجنرال منو أن تعمل هذه المراسلات على مزيد من التبادل التجاري بين مصر و هذه البلدان . ولقد نجحت سياسة الجنرال منو في هذا الشأن بدليل ما تذكره وثائق الحملة الفرنسية من وصول مبعوثي سلطان دارفور ليطلعوا على الأوضاع السياسية بمصر، و وعد الجنرال دونزلو الجنرال منو بأنه سيستقبلهم استقبالا حسنا وأنه سيكتب نيابة عنه لسلطان دارفور وسيبعث له هدايا لتقوية مشاعر الثقة والصداقة وإحياء التجارة (٢) . وقد ذكرت كوربيه دي لجيبيت في عددها الصادر بتاريخ اليوم الثالث التكميلي من العام الثامن الجمهوري الموافق ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٠ أن قافلة سنار في طريقها إلى القاهرة، وقد منحت المعونة والحماية والحرية Protection et liberte في كل شيء، وذكرت أيضا أن هناك قوافل أخرى قادمة من دارفور والسودان ومن بلاد الحبشة (٣) . وبالفعل لم ينقض زمن طويل حتى كانت القوافل قد وصلت من دارفور والحبشة إلى أسيوط في طريقها إلى القاهرة .

وكانت قافلة دارفور مكونة من ٢٠٦ عبد من الذكور و ٣٥٠ من الإناث و ١٥٣ جمل محملة ببضائع متنوعة خاصة العاج والصبغ و ٣٩٥ جمل غير محملة، وقد دفعت هذه القافلة الرسوم الجمركية حسب ما جرت عليه العادة حيث دفعت بجمرك أسيوط ٤٨٠ مدينى على كل رأس من العبيد الذكور والإناث و ٢٤٠ مدينى على كل رأس جمل

(١) Rousseau, Op. Cit. P. 359.

(٢) Donzelot au général en chef, Asiout, le 10 Vendemaire an 9 (2 October, 1800)

ملف رقم ٥، B6 54 بمحظة فترتها التاريخية من ٢٥ سبتمبر إلى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٠ (٣) إلى ٢٢ فاندميير العام التاسع الجمهوري) .

(٣) Courrier de L'Egypte. No. 81, le 3 Complémentaire an VIII (19 Septembre 1800)

و كوربيه دي لجيبيت جريدة إخبارية سياسية كانت تصدرها الحملة الفرنسية في مصر، ولقد اعتمدنا هنا على نسخة مصورة بمكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

محمل أو غير محمل^(١)، وما لبث دونزلو فى الوجه القبلى أن بعث إلى الجنرال منو بكتاب من سلطان دارفور يطلب فيه هذا الأخير صداقة الفرنسيين ويخطب ودهم ويخبرهم باستعداده لتجهيز قافلة كبيرة وإرسالها إلى مصر إذا خفض الفرنسيون الضرائب الجمركية التى كان البكوات المماليك يحصلونها من القوافل، وفضلا عن ذلك فقد أحضر "سفراء" السلطان إلى منو ثلاثة من العبيد وسنورين هدية^(٢)، وعندما وصلت قافلة الحبشة إلى أسيوط اشترى الفرنسيون ما يلزمهم من الأدوية التى تحملها هذه القافلة^(٣).

ومن العرض السابق يتبين لنا أن محاولات الجنرال منو لتشجيع التجارة بين مصر وأقاليم السودان المختلفة ومع الحبشة قد لاقت نجاحا معقولا فى تلك الفترة، ولكن ماذا عن التجارة البحرية بين ميناء الصعيد على البحر الأحمر ألا وهو ميناء القصير وبين مينائى بلاد العرب ينبع وجدة فى تلك الفترة؟

استمرت التجارة البحرية بين ميناء القصير وبين مينائى بلاد العرب ينبع وجدة فى عهد الحملة الفرنسية، وكانت مصلحة الفرنسيين تتفق مع مصلحة بلاد العرب فى استمرار النشاط التجارى فيما بينهما فبينما كانت إيرادات الجمارك من البضائع الواردة من بلاد العرب ذات قيمة للفرنسيين الذين أقفرت خزانته من النقود، نجد أن بلاد العرب قد استمرت تجارتها مع مصر لأنها كانت تعتمد على منتجات مصر الزراعية مقابل البن الذى كان من أهم السلع التى كانت تحملها السفن الآتية من مينائى بلاد ينبع وجدة. ومنذ أن احتل الفرنسيون القصير فى يوم ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ وهم يعملون على انعاش التجارة بين ميناء القصير ومينائى بلاد العرب، تلك التجارة التى قلت بعض الشئ عما كانت عليه قبيل مجئ الحملة الفرنسية.

(١) فاطمة الحمراوى : المرجع السابق، ص ٣٧٠.

(٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٣) Daure a Boudet Pharmacien en chef, le 26 Vendémiaire an IX (18 October 1800) Doc. No. 461, B6 157.

بمحافظة فترتها التاريخية من ١ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٠١ (١٥) فروكتيدور العام السابع الجمهورى إلى ١٠ نيفوز العام العاشر الجمهورى).

ونتيجة لقلّة ورود السفن القادمة من ينبع في الفترة الأولى من الإحتلال الفرنسي للصعيد، ارتفعت أسعار البن في القصير (١) حيث كان البن بمثابة السلعة الأساسية التي تحملها هذه السفن على ظهرها. ونتيجة لقلّة ورود السفن القادمة من ينبع وجدة قلت إيرادات جمرك القصير في تلك الفترة.

لهذا نجد سياسة الفرنسيين تتسم بالعمل على انشاء العلاقات الودية بينهم وبين شريف مكة وحاكم مدينة ينبع لكسب صداقتهم وحثهم على إرسال التجار بالتوجه إلى ميناء القصير.

وقد أشارت وثائق الحملة الفرنسية إلى عدد من المراسلات بين الجنرالات الفرنسيين في صعيد مصر وبين كل من شريف مكة وحاكم مدينة ينبع ومن هذه المراسلات نجد رسالة من شريف مكة إلى الجنرال دونزولو حاكم القصير يرد فيها على رسالة بعثها له ويقول "ليكن في علمكم أن رسالتكم وصلتنا وفهمنا كل ما بها، وأعلمنا تجار مكة أن يضعوا ثقتهم فيكم، وقد وثقوا في كلامنا ونفذوه وبعد المراكب التي وصلتكم سيصلكم غيرها، وتأكدوا بعد الثقة التي وضعتوها فينا أنكم سترون الكثير من التجار (٢).

ويوصي شريف مكة في رسالته الجنرال دونزولو بمعاملة التجار معاملة حسنة ويخبره أيضا أنه سيرسل معهم ابنه الشريف حسن ويوصيه أن يعتنى به ويعامله معاملة طيبة (٣).

(١) Donzelot au général Belliard, Cosseir, le 19 Fructidor an 7 (5 Septembre 1799) Doc. No. 61.

ملف رقم ٤ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠

(٢) Traduction de la litter en Francais de la lettre en arabe du grand cherif de la Mecque au général de brigad Donzelot, le 21 Decembre 1799, Doc. No. 1744.

ملف رقم ١٠، بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

(٣) نفس الوثيقة السابقة.

كذلك بعث محمد أغا حاكم مدينة ينبع برسالة إلى الجنرال دونزلو حاكم القصير يطلب فيها منه أن يرسل إليه الفرنسيون الحبوب وهو سيرسل لهم البن في المراكب القادمة إلى القصير، ويخبره أن السنة الماضية كان البن قليلا في اليمن ولم يكن مثل الأعوام التي سبقتة ولكن هذا العام سوف يصل الكثير من البن، ويؤكد له في رسالته أن بن جديد قد وصل من اليمن إلى جده، وعندما يصل إلى ينبع قريبا سوف تحمله المراكب أو السفن القادمة إلى القصير (١) .

وفي رسالة من لابانوز الوكيل الفرنسي لإقليم طيبة إلى شريف مكة يطلب منه استمرار علاقات الصداقة والتجارة بين الفرنسيين وبينه ويعدده بإرسال الحبوب إليه قائلا "نحن نعلم إحتياجكم للحبوب لهذا سوف نرسلها لكم على وجه السرعة، وتبعا لاختصاصى فى موقعى هذا كوكيل Commissaire للحكومة الفرنسية، فتأكدوا أنى لن أدخر جهدا لكى أكلف التجار بتحميل الحبوب من القصير، ومن جانبكم أرجو أن ترسل لنا الكثير من البن، وهذا التبادل بيننا سينتج عنه غنى مصر ومكة على السواء (٢) . وواضح من المراسلات السالفة الذكر أنها كانت ترمى إلى مزيد من التبادل التجارى بين مصر وبلاد العرب .

ومن الجدير بالذكر أن الجنرالات الفرنسيين بصعيد مصر كانوا فى مراسلاتهم السالفة الذكر يسировون على نفس النهج الذى سار عليه نابليون حيث كان نابليون هو أول من اتبع سياسة التفاهم مع شريف مكة من أجل انعاش التجارة بين مصر وبلاد العرب .

وكانت تفرض ضريبة على الجمال المحملة بالبن والمتجهة إلى قنا، حيث كانت البضائع التى تصل إلى القصير تنتقل إلى قنا على جمال مستأجرة، وكانت هذه الجمال

Traduction de la lettre en arabe écrite par mohamed aga gouverner de la ville (١) de limba au général donzelot, le 22 Decembre 1799, Doc. No. 1745.

ملف رقم ١٠، بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

Lapanouse agent de la province de thebes au grand cherif de la Mecque, en (٢) date du Janvier 1800.

ملف رقم ١٦، B6 40 بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ .

فى رجوعها من قنا إلى القصير تحمل القمح وحبوب أخرى للسفن الراسية بالقصير كى تحملها لى عودتها إلى بلاد العرب، وكانت تفرض على الجمال المحملة بالقمح ضرائب قدرت قيمتها بـ ٦٠ بارة (١) Para على الجمل المحمل بالقمح (٢) بالإضافة إلى ثمانى بارات على كل جمل والتي تجمع لصالح الوكيل القبطى لديوان القصير، يضاف إلى ذلك أن القائمين على جمع هذه الضرائب كانوا يحصلون زيادة عن الضرائب المقررة من ١ إلى ٢ بارة عن كل جمل لأنفسهم. ويعلق دونزلو فى رسالته إلى الجنرال بليار على ذلك بقوله "كل هذه الإجراءات تزعج Deplaire التجار جدا" (٣).

وعمل الجنرال دونزلو على الحد من هذه الإجراءات يعاونه فى ذلك الجنرال بليار الذى قام بمعاينة القبطى الذى أخذ ٢ بارة عن كل جمل بدون تصريح لهذا بعث إليه الجنرال دونزلو يشكره على ذلك ويقول له "سأعلن هذا العقاب لسكان القصير لى يعلموا أن الفرنسيين أعداء لكل من يحاول إعاقة التجار" (٤).

كما عمل الجنرال دونزلو طوال التسعة شهور التى أقامها فى القصير على اجتذاب الكثير من التجار وتوفير الأمان لهم سواء فى حياتهم أو بممتلكاتهم (٥). وهكذا

(١) البارة : عملة نقدية من العملات السائدة فى ذلك العصر وقيمتها ربع مليم وبالتالي فهى تساوى ١ : ٤٠ من القرش، ولقد أطلق الأتراك على الفضة اسم "بارة" الفارسية ويرادف اسم "البارة" و"الفضة" فى عصر الجبرتى اسم "تصف فضة" و"مؤيدى" وقد كانت هذه العملة وسيلة هامة لتحقيق مرونة العمليات التجارية فى مصر.

لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق، ص ٥٧٣، ٥٧٤ .

(٢) Donzelot au général Belliard, Cosseir, le 19 Fructidor an 7 (5 Septembre 1799) Doc. No. 61.

ملف رقم ٤، بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٣) Donzelot au général Belliard, Cosseir le 19 Fructidor an 7 (5 Septembre 1799) Doc. No. 61.

ملف رقم ٤ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٤) Donzelot au général Belliard, Cossier, le 26 Fructidor an 7 (12 Septembre, 1799).

ملف رقم ١٦ بنفس المحظة السابقة.

(٥) Le général de brigade Donzelot au général en chef, Assioute, Le 9 Messidor an 8 (8 Juillet 1800).

ملف رقم ٩ B6 47 بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١ يونيو إلى ٩ يوليو سنة ١٨٠٠ .

قام الفرنسيون في صعيد مصر بكل ما فى وسعهم من أجل انعاش التجارة بين ميناء القصير وبين مينائى بلاد العرب ينبع وجدة فى الفترة التى كان فيها ميناء القصير يقع تحت السيطرة الفرنسية، ولكن بعد أن وقع الفرنسيون مع مراد بك معاهدة صلح فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ والتى بمقتضاها تخلى الفرنسيون عن ميناء القصير لمراد بك، بدأ الفرنسيون يفكرون تفكيراً جدياً من أجل انعاش التجارة بميناء السويس مع مينائى بلاد العرب أكثر من ميناء القصير الذى أصبح تحت سيطرة مراد بك^(١).

ولما كان تجار شبه الجزيرة العربية يفضلون ميناء القصير لأنه يسهل لهم التزود بحبوب مصر العليا رأى الفرنسيون أن يقوموا بالإجراءات اللازمة لتوفير الحبوب بالقرب من السويس لتشجيع تجار بلاد العرب للمجئ إلى السويس، ورأى رينييه من خلال بحث قدمه إلى الجنرال منو فى ٧ يوليو سنة ١٨٠٠ أنه لكى يرغم تجار شبه الجزيرة العربية على اختيار ميناء السويس بدلاً من ميناء القصير ينبغى رفع تكاليف الواردات عبر ميناء القصير بجمرك أسيوط^(٢).

ويبدو أن الجنرال منو قد اقتنع بما جاء فى بحث رينييه وعمل على تطبيقه بالفعل، ويتضح ذلك من خلال أمر أصدره منو فى ١٦ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠ حدد من خلاله الرسوم التى ينبغى دفعها على مختلف البضائع سواء الصادرة أو الواردة إلى مصر، وما يهمننا من هذا الأمر هو البند الثالث الذى ينص على أن البضائع الواردة من القصير سوف تدفع فى أسيوط رسم يقدر بـ ١٨٪ من القيمة الإجمالية للبضائع^(٣).

وكان الغرض من زيادة نسبة الرسوم إلى هذه الدرجة أن تتحول تجارة بلاد العرب من القصير التى تتبع مراد بك إلى السويس التى تتبع الفرنسيين وبدأ منو فى

(١) فاطمة الحمر اوى : المرجع السابق، ص ٣٥١ .

(٢) نفس المرجع، ص ص ٣٥١، ٣٥٢ .

(٣) لمزيد من التفصيل عن بنود هذا الأمر انظر :

مراسلة شريف محة من أجل إرسال رعاياه إلى السويس فكتب إليه في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٠ بأن بونابرت قد كلفه بأن يعمل على تجديد معاهدات الود والصداقة مع الشريف، وأن ينتهز هذه الفرصة حتى ينبئه بأن جميع رعايا الشريف في وسعهم أن يحضروا إلى السويس دون خوف أو وجل ويؤكد له أن التجار لن يدفعوا أية إتاوات أو مغارم كما أنه لن يقع لهم ما يزعجهم، وقد أفلحت خطة منو فجاءت السفن من جدة وينبع إلى السويس في شهرى نوفمبر وديسمبر محملة بالأنسجة القطنية والشيلان الصوفية والحرائر والبن^(١) وأثر ذلك على حركة التجارة بالقصير وتأثرت معها الحركة الملاحية في النيل وقلت يوما بعد يوم ويذكر لوروى Le roy مدير البحرية في رسالته إلى الجنرال منو عن هذا الموضوع قائلا "أعتقد أن تعطيل التجارة بالقصير قد أضر بالزراعة والملاحة بصعيد مصر^(٢)".

وهكذا أدى اهتمام الفرنسيين بميناء السويس إلى قلة ورود سفن ينبع وجدة إلى ميناء القصير مما أدى إلى تعطيل التجارة بالقصير، ولم يحدث أن تعطلت التجارة بالقصير إلا بعد أن تنازل الفرنسيون عنه لمراد بك.

ومن العرض السابق يتبين لنا أن ميناء السويس قد نافس ميناء القصير في الفترة الأخيرة من عهد الحملة الفرنسية خصوصا بعد أن تنازل الفرنسيون عن ميناء القصير لمراد بك، ولم يستطع مراد بك أن يقوم بمحاولة لانتعاش حركة التجارة من جديد بين ميناء القصير ومينائى بلاد العرب خصوصا بعد أن رفع الفرنسيون نسبة الرسوم على البضائع الآتية من القصير بجمرك أسيوط.

وهكذا أدى تقسيم الصعيد بين الفرنسيين والمماليك إلى خلق حواجز جمركية وإلى عرقلة التجارة الداخلية بالصعيد وانكماش دور الصعيد في التجارة الخارجية لمصر أحيانا.

(١) نقلا عن : محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق، ص ٢٥٦ .

(٢) Le préfet maritime de L'Egypte Le roy au général en chef, au Kaire, le 13 Fructidor an 9 (30 Aout 1801) Doc. No. 401.

ملف رقم ٤٠، B6 58 بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٠٠

ومن العرض السابق للأوضاع الاقتصادية للصعيد يتضح لنا أن معظم الإصلاحات التي شملت النواحي الاقتصادية سواء تعلق الأمر بتشجيع الزراعة وإصلاح نظم الري وإصلاح نظام الضرائب وتنشيط التجارة، كلها مشاريع حدثت فى فترة حكم الجنرال منو، وبدون شك أن المبادرة الأولى فى هذا المجال كانت على بونايرت الذى لم تسنح له الظروف لتنفيذ محاولاته، بينما سنحت الفرصة للجنرال منو للقيام بتنفيذ محاولاته إلى حد ما، وليس هناك شك فى أن محاولات الجنرال منو كانت تدل على أنه كان ينظر إلى مصر على أنها قد أصبحت قاعدة فرنسية فى الشرق أو أنها مستعمرة فرنسية يرتبط مصيرها بمصير فرنسا . وتبقى فى النهاية كلمة وهى أنه مما لا شك فيه أن الظروف الحربية قد وقفت عائقا أمام الجنرال منو لتنفيذ خططه ومشاريعه الاقتصادية فى مصر بعد الهزائم العسكرية التى لحقت بالفرنسيين فى مصر على يد القوات الإنجليزية والعثمانية مما أدى إلى اضطرار الجيش الفرنسى للإنسحاب من مصر . وفى نهاية حديثنا عن الأوضاع الاقتصادية يمكن القول بأن الفرنسيين قد وضعوا مشروعات للإصلاح الاقتصادى فى مصر ولم يتمكنوا من تنفيذها لجلائهم عن البلاد، ومع ذلك فقد مهدت تلك المشروعات الطريق للإصلاح ووجهت الأنظار إليه، وكان محمد على أول من نفذها على طريقته الخاصة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

الفصل السادس

موقف القوى الاجتماعية في
صعيد مصر من الحملة الفرنسية

الفصل السادس
موقف القوى الإجتماعية فى صعيد مصر
من الحملة الفرنسية

تمهيد

المماليك

الفلاحون

العربان

الأقباط

موقف القوى الإجتماعية فى صعيد مصر من الحملة الفرنسية

تمهيد :

سوف نتناول فى هذا الفصل موقف القوى الإجتماعية فى صعيد مصر من الحملة الفرنسية، والدور الذى لعبته هذه القوى فى حركة الصراع الدائر فى الصعيد بين الفرنسيين وبين هذه القوى، وسوف نتعرف أيضا على موقف الفرنسيين من هذه القوى، حتى نستطيع أن نحكم على دور هذه القوى فى تلك الفترة الهامة من تاريخ الصعيد، تلك الفترة التى شهدت بالرغم من قصرها العديد من المواقف والأحداث للقوى الإجتماعية فى صعيد مصر و التى سنعرض لها كالتالى :

١- المماليك :

شكل المماليك فى مصر العثمانية قوة عسكرية ممتازة شاركت العثمانيين فى السيطرة على الشعب المصرى، وكان ذلك حسب أوامر السلاطين العثمانيين لكى يكونوا عنصر موازنة إزاء الباشا ورجال الحامية العثمانية، وقبيل مجئ الحملة الفرنسية كانت الحامية العثمانية قد ضعفت إلى حد كبير ولم يعد لها وجود يذكر، وفى نفس الوقت كانت قوات المماليك تزيد من سيطرتها على البلاد وعلى حساب سلطة العثمانيين منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ودخلت بذلك فى صراع طويل مع الدولة صاحبة السيادة . وفى نهاية القرن الثامن عشر كان الأمراء المماليك قد نجحوا فى أن تكون لهم السيطرة فى كافة المجالات السياسية والعسكرية والإقتصادية، وبالتالي كانوا قوة إجتماعية ذات شأن كبير .

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر بحجة تأديب البكوات المماليك الذين كانوا يلحقون الضرر بمصالح التجار الفرنسيين، كما أوضح بونابرت فى منشوره الذى وجهه إلى سكان مصر عقب وصوله أنه جاء أيضا ليخلصهم من ظلم المماليك^(١)، وحتى يؤكد بونابرت

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا المنشور انظر : عبد الرحمن الجبرى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٨٢-١٨٤ .

للأهالى أن الحرب ستكون بينه وبين المماليك طلب منهم أن يقفوا على الحياد وحذرهم من أن يعتمدوا على المماليك فى محاربة الفرنسيين قائلا "طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين ينفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر" (١) .

وهكذا اتضح للماليك موقف الفرنسيين منهم فماذا عن موقف المماليك من الحملة الفرنسية؟ . عندما سمع المماليك بأن حملة بوناپرت قد استولت على جزيرة مالطة وأنها فى طريقها إلى مصر للاستيلاء عليها لم يعطوا لها أهمية تذكر واستهانوا بقوة هذا الجيش الغازى وظهر ذلك فى حديث مراد بك لقتل النمسا فى القاهرة المسمى روستى الذى ألح على مراد بك فى اتخاذ وسائل الحيلة للدود عن البلاد، فكان جواب مراد بك عليه أن أغرق فى الضحك وقال "ماذا تريد من إخافتنا من الفرنسيين ألم يكونوا أشباه الخواجات - التجار - الذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفينى إذا نزلوا إلى بر مصر فى مائة ألف من رجالهم، أن أبعث للقائهم بعض التلاميذ من المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب" (٢) .

ويدخل فى هذا السياق ما رواه الجبرتي عن موقف الأمراء المماليك لما جاءهم الخبر بقدم أسطول الأميرال نلسن إلى الإسكندرية للتفتيش عن العمارة الفرنسية فقال "أما الأمراء (البكوات المماليك) فلم يهتموا بشى من ذلك ولم يكثرثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت الإفرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم" (٣) .

وهذه كانت نظرة المماليك للفرنسيين؛ وإذا ما حكمنا على نظرتهم هذه من أول وهلة فإننا سنحكم عليهم بالغرور والجهل، ولكن إذا ما علمنا بأن المماليك لم يكن لديهم فى ذلك

(١) عبد الرحمن الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٣، ١٨٤ .

(٢) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر : ترجمة محمد مسعود، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، دار الموقف

العربي، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٧١، ١٧٢ .

(٣) الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٠ .

الوقت من ذكريات عن الفرنسيين إلا ذكريات الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع، والانتصار العظيم الذى حققه المماليك على لويس التاسع وجنوده عام ١٢٥٠م. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على العزلة التى عاشها الشعب المصرى وعاشها المماليك فى ظل الحكم العثمانى هذه العزلة التى جعلت المماليك القابضون على زمام الحكم والسيادة فى مصر يعتقدون أنهم فى طليعة جيوش العالم منعة وعزة جانب.

وقد ظل المماليك مدة خمسة قرون ونصف على حالهم وقد خيل إليهم - بطبيعة الحال - أن الفرنسيين لم يتغيروا إلا بمقدار ما تغيروا هم أنفسهم، ولذا فإنهم عندما سمعوا بأن نابليون اجتراً على النزول فى الإسكندرية حسبوا أنهم سيذيقونه ما أذاقوه من قبل للقديس لويس التاسع^(١)، فقد كان ظن المماليك أن المسألة لا تتعدى فرسانا يقاتلون فرسانا، ولما كان المماليك خير من ركب جواد، ولعب بسيف فليس هناك شك أن هزيمة الفرنسيين لن تستغرق منهم وقتاً طويلاً، وهكذا ركب المماليك خيولهم وانطلقوا وفى نيتهم أن يطأوا الغزاة تحت سنايك خيولهم، ولكن سرعان ما حلت بهم الهزيمة فى موقعة شبراخيت (١٣ يوليو سنة ١٧٩٨ ثم تلتها هزيمة أخرى فى موقعة (إمبابة ٢١ يولية سنة ١٧٩٨) وهنا أدرك المماليك أن جنود بوناپرت يختلفون من حيث التسليح عن جيوش لويس التاسع، وفرنسا الثورة غير فرنسا العصور الوسطى، وأحس المماليك أنهم قد تخلفوا كثيراً عن مسايرة تطور الفنون العسكرية العالمية ولكن هل كان بمقدورهم أن يتصدوا للحملة الفرنسية؟.

تجدر الإشارة إلى أن المماليك كانوا فى ذلك الوقت قد تخلوا عن تقاليدهم الموروثة وخرجوا عليها فلم يكن لهم رأى موحد ولا قيادة موحدة، فبعد معركة إمبابة انسحب مراد بك إلى الصعيد ومنه إلى الواحات للاستمرار فى مقاومة الفرنسيين من داخل مصر، وخرج إبراهيم بك من مصر إلى الشام وانضم إلى قوات الدولة العثمانية، وهكذا يمكننا أن نقول بأن المماليك قد انقسموا إلى فريقين : الأول يحاول استعادة سيطرته على البلاد وانتزاعها من أيدي الفرنسيين وهذا الفريق يتزعمه مراد بك، والثانى بز عامة إبراهيم بك يحاول الاستعانة بالعثمانيين على إخراج الفرنسيين من مصر ويقوم فى ذلك بدور التابع للدولة العثمانية والذى يعنينا هنا هو موقف الفريق الأول الذى يتزعمه مراد بك الذى انسحب إلى الصعيد

(١) آلان مور هيد : النيل الأزرق، ترجمة نظمي لوقا، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٠٩ .

ليستمر فى مقاومة الفرنسيين فى محاولة منه لانتزاع البلاد من أيديهم، ولكن هل نجح مراد بك فى تحقيق ما عزم عليه؟ فى البداية يمكن القول بأن مراد بك لم يكن وحده فى الميدان بل كانت معه مماليكه وانضم إليه حسن بك الجداوى بمن معه، كما انضم إلى جانبه معظم القبائل العربية المنتشرة فى الصعيد، بالإضافة إلى عرب الحجاز، بالإضافة إلى القوة الأساسية والتي لعبت دوراً أساسياً فى المقاومة ضد الفرنسيين ألا وهى قوة أهالى الصعيد .

كل هذه القوى شجعت مراد فى حربه ضد الفرنسيين واستمر فى مقاومته للفرنسيين كما سبق أن ذكرنا منذ موقعة سدمنت (٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨) وحتى احتلال الفرنسيين للقصر فى (٢٩ مايو سنة ١٧٩٩)^(١) واعتبر الفرنسيون احتلال ميناء القصر ختام الحركات الحربية التى تم بها فتح الصعيد، ولكنهم فى نفس الوقت قد أدركوا أن سلطتهم مهددة باستمرار طالما ظل المماليك بقيادة مراد بك فى الصعيد، حيث كان الفرنسيون يخشون دائماً من دور المماليك فى إثارة الأهالى على الفرنسيين بصعيد مصر وعلى سبيل المثال فلقد ذكر الجنرال ديفرنوا فى مذكراته "أن كل القرى من بنى عدى حتى القاهرة قد ثارت على الفرنسيين لأن محمد بك الألفى ينتقل فيما بينها مع المماليك، وأقنع الجميع بأن الفرنسيين قد دمروا Exterminés فى مصر العليا"^(٢).

وتذكر وثائق الحملة الفرنسية أن مراد بك ينشر منشورات الصدر الأعظم ومنشورات الباب العالى فى كل مكان يصل إليه ليشعل الثورة بين الأهالى^(٣) وخشى الفرنسيون من أن ينجح المماليك فى إشعال الثورة بين الأهالى من جديد، وإذا ما نظرنا إلى المماليك على أنهم بطبيعتهم رجال حرب لا يعرفون مهنة سواها فإن القضاء عليهم سوف يجعل مركز الفرنسيين أقوى أمام الأهالى، ومن ثم يمكن السيطرة على الأهالى بسهولة،

(١) عن مقاومة مراد بك وقواته والقوى التى تسانده للفرنسيين فى تلك الفترة انظر الفصل الأول والثانى والثالث .

Memoires due général Desvernois, Paris 1898, P. 188. (٢)

Kleber général en chef au directoire exécutif, Kaire, le 16 Novembre 1799, (٣)
Doc. No. 1241.

ملف رقم ١٤ بدوسيه رقم ١ بمحفظه فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ (٢٥)
برومير إلى ٢٤ فرمير العام الجمهورى)

وهذه كانت نظرة الفرنسيين تجاه المماليك فلقد كتب ديزيه إلى كليبر قائلاً إذا تخلصنا من المماليك مصر العليا ستكون هادئة وفي سلام، فالشعب فيها أفضل من أى مكان آخر، فهو صاحب أرض وقد دافع بقوة عن حريته ولكنه أسهل فى القيادة من أهل مصر السفلى^(١) وفى رسالة من الجنرال كليبر إلى قائد المنيا ذكر له فيها ما يلى "أشجع القضاء على مراد بك حتى يستتب الأمن فى الصعيد^(٢)"، كما كتب الجنرال ديزيه إلى الجنرال فريان قائلاً "أود القضاء على مراد بك بأى ثمن Prix كان^(٣)"

وفى تلك الفترة كان مراد بك ومن معه من المماليك يفرون إلى الصحراء كلما أحسوا بأن الفرنسيين يجهزون حملات للحاق بهم والقضاء عليهم، وكانت الصحراء هى الملاذ للمماليك بل هى الحصن الحصين الذى لم يستطع الفرنسيون أن يقتحموه وأن يقضوا على ما فيه من المماليك .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من تقدم الفرنسيين على المماليك عسكرياً بما يملكون من مدافع وأسلحة حديثة متطورة بالقياس بما يملكه المماليك إلا أنهم لم يستطيعوا القضاء على المماليك، والسر يرجع إلى أن الفرنسيين لم تكن لديهم فى تلك الفترة أية خبرة بإقامة المعسكرات وإدارة الحملات فى الصحراء، ويؤكد هذا حديث دار بين الجنرال فريان ومساعدوه من الضباط فى منطقة تقع ما بين أسيوط والمنيا نقله لنا ديفرنوا على النحو التالى "تكلم أحد الضباط قائلاً منذ ثلاثة أيام لم نسمع أى شئ عن الأعداء (أى المماليك) فزد عليه فريان قائلاً : هذا بالرغم من أنهم همج Barbares ويبدو أنهم شديداً الجهل بفنون الحرب

(١) Le général Desaix au général Kleber, Doc. No. 180, Le 12 Septembre 1799. ملف رقم ١٦ بمحظلة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ (٢ إلى ١٣ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى).

(٢) B6 112, Kleber à Boyer Commandant La Province de Miniet, Le 6 Vendemaire an 8 (28 Septembre 1799, Doc. No. 436. بمحظلة فترتها التاريخية من ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٠ (٨ فروكتيدور العام السابع الجمهورى إلى ٥ تكميلي من العام الثامن الجمهورى)

(٣) Le général Desaix au général Friant, Kené, le 4 Septembre 1799. ملف رقم ١ بمحظلة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

إلا أنهم أساتذة لنا فى الحرب هنا، فقد قاموا بتفرقتنا فى أماكن عديدة وبعد ذلك ستفقد قوتنا.
فقال لاسال هذا هو رأيى لكنى كنت أخشى قوله(١)٠

والواقع أن فريان ولاسال لم يقولوا ذلك إلا بعد العناء والمشقة الذى بذلها الفرنسيون فى اللحاق بمراد بك وباقي البكوات المماليك وفشلهم فى ذلك فشلا ذريعا بالرغم من كل إمكاناتهم العسكرية الحديثة والمتطورة والتى كانت تعد أحدث معدات عسكرية فى العالم فى تلك الفترة٠ وبالرغم من ذلك لم يفقد الفرنسيون الأمل فى اللحاق بالمماليك والقضاء عليهم، لأن المماليك لم يقضوا كل الوقت فى الصحراء، وسوف يعودون بسرعة منها لأن الصحراء حيث يلجأون تجبرهم على العودة سريعا إلى الأراضى الخصبة، واعتقد الفرنسيون أنهم بعدد قليل من الجبال يستطيعون طردهم والقضاء عليهم(٢) وجمع الجنرال ديزيه ٦٠٠ جمل وكون بهم صفيين كاملين من الجنود القناصة على درجة عالية من الكفاءة وأرسل ديزيه إلى الجنرال فريان قائلا "سأرسل لك عمال المدفعية، قم بتشغيلهم فورا لكى ينتهوا من إصلاح المدافع التى ستصحب الجبال، إذا كانت تنقصك قطع غيار أرسل فى طلبها من القاهرة لأننى أريد أن تكون القوات كاملة عندما ألاحق مراد بك وينتهى الأمر فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩"(٣)٠

ولا شك فى أن استعدادات الجنرال ديزيه هذه تدل على رغبته الأكيدة فى القضاء على المماليك بصعيد مصر حتى ينعم بالراحة، وعلى حد تعبيره فى رسالته إلى الجنرال كليبر "لا أطلب غير القضاء على المماليك والعرب لأنعم بالراحة، وإذا تم ذلك لن يكون

Mémoires du général Desvernois, Op. Cit. PP. 191, 192. (١)

ويؤكد فيان دينون ذلك بقوله "إن المماليك كانوا يملكون الصحراء ويتحدوننا فيها فى القدرة على التحمل"
انظر :

Nivant Denon, Voyage dans La Basse et La Haute Egypte Pendant Les campagnes – du général Bonaparte, Tome Premier, Quatriem, Édition, Paris, 1803, P. 269.

Le général Desaix au général Kleber, Doc. No. 180, Le 12 Septembre 1799. (٢)

ملف رقم ١٦ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠.

Le général Desaix au général Friant, Kéné, Le 4 Septembre, 1799. (٣)

ملف رقم ١ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠.

هناك داعى لوجود الفرسان فى الصعيد، وتستطيع أن تأخذهم جميعا إذ سيصبحون أكثر فائدة فى أماكن أخرى" (١) .

ولكن ماذا عن موقف المماليك فى تلك الفترة؟

تذكر وثائق الحملة الفرنسية أن موقف المماليك فى تلك الفترة كان كالتالى :

حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن وسليمان بك أبو دياب يرابطون جنوب الشلالات على بعد يومين ومعهم ٢٠٠ فارس ويحيون حياة بانسة، لكن عندما تترك الجنود الفرنسية أسوان سيتجهون إليها وسينظمون صفوفهم ويبرهنون أنهم أعداء شديدا السطوة يهددون الوجود الفرنسى فى تلك المنطقة .

ويوجد بالقرب من أسىوط ثلاثة من البكوات ومعهم حوالى ١٠٠ عربى، أما مراد بك، ومحمد بك المنفرخ، وعثمان بك البرديسى، وعثمان بك الطنبورجى، فلقد اتحدوا بعد المفاجأة التى حدثت لهم بالقرب من جرجا ومجموعهم حوالى ٢٠٠ رجل . وتبعاً للتقارير الأخيرة فهم الآن ما بين أسىوط والفيوم، ويذكر ديزيه فى تقريره إلى الجنرال كليبر "أنه من العبث الذهاب وراءهم لأنهم يهربون باستمرار (٢)" وذكر له أيضا أن الفرق فى إسنا وأسوان مهمتها منع حسن بك الجداوى من التحرك بدلا من استخدام فرقة من ٢٠٠ رجل لمهاجمته لأنه يهرب بمناورات ليس لها عدد .

ومما هو جدير بالذكر أن المماليك لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسى وتركوا عبء القتال على عاتق الأهالى وفى غالبية المعارك التى وقعت فى صعيد مصر كانوا يفرون إلى الصحراء تاركين عبء القتال على عاتق الأهالى، ولكن هل كان هذا جبنا من المماليك الذين عهدنا فيهم الشجاعة فى الظروف العادية أم ما هو السبب الذى كان وراء هذه الظاهرة؟

(١) Le général Desaix au général Kleber, Siout, Le 15 Septembre, 1799, Doc. No. 290.

ملف رقم ١٩ بمحفظه فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٢) Le général Desaix au général Kleber, Doc. No. 180, Le 12 Septembre, 1799.

ملف رقم ١٦ بنفس المحفظه السابقة .

لا شك في أن المماليك لم يثبتوا في ميادين القتال في الوجه القبلى أمام الفرنسيين، ويرى الباحث أن سبب هذه الظاهرة هو خوف المماليك من نيران البنادق والمدفعية الفرنسية المتطورة التي كانت ستحصدهم عن آخرهم إذا ما حاولوا الوقوف أمامها، وكانت أمنية الفرنسيين أن يلحقوا بالمماليك ليضربوهم بنيران مدفعتهم وبنادقهم أو أن يقف المماليك أمامهم في ميدان القتال، ولا شك أن النصر سيكون حليف الفرنسيين فى هذه الحالة لما يملكونه من إمكانات عسكرية متطورة، لذلك كان الفرنسيون فى غاية الضيق من فرار البكوات المماليك الذين كانوا يهربون منهم بمناورات ليس لها عدد، بينما يفسر هيرولد ظاهرة انسحاب المماليك إلى الصحراء بقوله "وكان أهم سبب دفع المماليك الذين عهدنا منهم الشجاعة فى الظروف العادية إلى المبادرة فى كل معركة بالهرب إلى الصحراء، هو أمل كل منهم فى الإبقاء على قواته بينما يحطم الفرنسيون جيوش منافسيه وهذا الضرب من السياسة بين الحلفاء إبان المعركة مسلك شائع مألوف فى الحرب، وإن تستر وراء مختلف الحجج والمعاذير، ولم يحل منتصف مارس من عام ١٧٩٩ حتى كانت قوات المماليك قد انقسمت أشأتا تحاول كل فصيلة منها أن تدبر لنفسها ما تستطيع من أقوات، وتقهر مراد بك إلى الراحة الخارجية ومعه عثمان بك البرديسى، وعثمان بك الطنبورجى ومحمد بك المنفوخ، أما حسن بك فقد يمم صوب قنا جنوبا مع عدة أمراء بقواتهم، كما فعل محمد بك الألفى هو وكتيبته وراح غيرهم من البكوات والكشاف يضربون فى أرجاء الريف، أما سليمان بك فقد جاوز أسوان جنوبا" (١) .

ونعتقد أن هيرولد قد جانبه الصواب فيما ذكر لأن البكوات قد اتحدوا جميعا فى وجه الاحتلال الفرنسى (٢) الذى جاء إلى مصر واضعاً فى الدرجة الأولى نصب عينيه القضاء

(١) كرسنوفر هيرولد : بونايرت فى مصر : ترجمة : فؤاد أندراوس، مراجعة، محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ص ٢٧٠، ٢٧١ .

(٢) والدليل على ذلك اتحاد حسن بك الجداوى مع مراد بك ويندهش "هيرولد" عن انضمام حسن بك الجداوى إلى مراد بك ويقول "ولا يعلم أحد على التحقيق ما الذى وعد به حسن بك ولكن لابد أنه أجزل له الوعود" هيرولد : المرجع السابق . ص ٢٥٧ .

ونحن نقول لم يعده بشئ بل أن حسن بك الجداوى رأى أن الوضع الجديد المتمثل فى وجود الحملة الفرنسية يفرض عليه الإنضمام لمراد بك ومقاومة الغازى المحتل وهنا تجدر الإشارة إلى أن =

على المماليك، ومن الملاحظ أن المماليك كانوا يفرون جميعا من ميدان القتال، ولو فرت مجموعة منهم وتركت الأخرى فى ميدان القتال تلقى حتفها لقلنا أن وجهة نظر "هيرولد" صحيحة، ومن ناحية أخرى ربما يكون فرار المماليك بهذا الشكل أى فرار كل منهم فى جهة معينة خطة مملوكية الغرض منها تشتيت الجيش الفرنسى فى أكثر من مكان وبالتالي لو تمكن الفرنسيون من القضاء على مجموعة من المماليك لبقيت مجموعة أخرى منهم تحاول أن تلم شمل المماليك فى الصعيد وأن تجمع حولها الفلاحين والعربان وأن تنظم صفوفها فى محاولة لإعادة سلطة المماليك من جديد وقد يكون رأى "هيرولد" سليما فى حالة عدم وجود الجيش الفرنسى أى قبيل الحملة الفرنسية عندما كان الصراع بين المماليك بعضهم البعض فى محاولة سيطرة أحدهم على النفوذ والسلطة.

وفى الفترة السابقة للحملة الفرنسية كان المماليك يفرون إلى الصعيد لينظموا صفوفهم أو هربا من السلطة بالقاهرة وبالتالي كانوا يعرفون الصعيد جيدا ولهم علاقات وطيدة بمشايف القبائل العربية وبمشايخ القرى فى الصعيد، لهذا نجد كل بك من البكوات المصرية بالصعيد يفر إلى المنطقة التى يتمكن فيها من تدبير حاجاته من الأقوات، والتى يحس فيها بالأمان وبمعاونة الأهالى والعربان له.

وأحيانا يتحد البكوات المماليك عندما يجدون فرصة لذلك بل ويجمعون الأهالى حولهم فى محاولة لشن هجوم على الجنود الفرنسية بالصعيد، وتؤكد ذلك إحدى وثائق الحملة الفرنسية فى رسالة من بليار إلى فريان يقول له "لقد أخبرتك أن ساكرو Sacrot قد اشتبك مع حسن بك وعثمان بك وإنهما قد اتجها لملاقاة مراد بك ووفقا لما قاله لى قائد جرجا كل البكوات كانوا بالقرب من أخميم منذ أربعة أيام، فاليث Valette قال لى إنهم جمعوا ٥٠٠٠ رجل، اعتقد أن هذا رقم مبالغ فيه وإلا كان كل الأهالى اتحدوا معهم، على أية حال سوف أهاجمهم إذا كانت الأخبار صحيحة سوف أجمع فرقة إسنا على فرقتى" (١).

= فرمانات (منشورات) السلطان العثمانى كانت تحت على ترابط المماليك فيما بينهم ضد الفرنسيين الكفرة انظر ٠ سجلات محكمة إسنا : سجل رقم ٥٠، وثيقة رقم ٢٧٨ مؤرخة فى ٣ جمادى أول سنة ١٢١٣هـ، ص ١١٦-١١٨ .

Belliard au général Friant, Kéné, Le 15 Décembre, 1799, B6 104. (١)

ملف رقم ١٥ بدوسيه رقم ٢ بمحفظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

وكان الفرنسيون بخشون من التقاء البكوات المماليك بعضهم ببعض وكانوا يعملون على منعهم من الالتقاء^(١). ويجب أن نذكر أنه لولا ما كان يتلقاه مراد بك ومماليكه من مساعدة من جانب فلاحى وعرب الصعيد ما استطاع المماليك فى الصعيد أن يستمروا فى مراوغة الفرنسيين طوال هذه الفترة، وكانت سياسة الفرنسيين إزاء مراد بك ومماليكه هى العمل على منعهم من التزود بالمؤن من القرى^(٢)، ومهاجمة مراد بك باستمرار حتى لا تزداد قوته فى حالة تركه بلا هجوم وبالتالي مهاجمته باستمرار حتى يظل دائما فى الصحراء على أقل تقدير^(٣).

ويدل هذا على أن الفرنسيين كانوا يريدون القضاء على مراد بك إما بالمواجهة العسكرية وإما بملاحقته هو ومماليكه فى الصحراء ليموتوا جوعا، وهنا يظهر دور أهالى الصعيد من فلاحين وعربان الذين وقفوا بجوار المماليك وأظهروا تعاطفا كبيرا معهم كما تذكر وثائق الحملة الفرنسية، فلقد ذكرت إحدى وثائق الحملة أن مماليك مراد بك وحسن بك وعثمان بك اتحدوا الآن وجمعا معهما عددا يتراوح ما بين أربعة إلى خمسة الاف من العربان والفلاحين، وهنا يذكر بليار إلى جيلى فيو "ويبدو أنهم سيصعدون فى النيل وأنا لا أعتقد ذلك لكن يجب أن نكون مستعدين لذلك، وحد صفوفك فى إسنا واستعد للتحرك عند أول أمر أرسله لك، وأرسل بعد ذلك إلى قنا السفينة المسلحة واشحنها بالبارود الذى تحتاجه"^(٤).

(١) Rovier au général Friant, Minieh, Le 5 nivôse an 8 (26 Décembre 1799) Doc. No. 1890.

ملف رقم ٥، B6 38 بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ (٢٥ فرمير إلى ١٠ نيفوز العام الثامن الجمهورى).

(٢) Friant au général Kleber, à Charouné, Le 6 Décembre 1799, Doc. No. 1514.

ملف رقم ٥ بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

(٣) Damas au Friant, Le 17 Novembre 1799, Doc. No. 1245.

ملف رقم ١ بدوسيه رقم ١ بنفس المحظة السابقة.

(٤) Belliard au gilly vieux, Kéne, Le 14 Décembre 1799, B6 106.

ملف رقم ١٣ بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

وفى رسالة من فاليت إلى بليار يذكر له فيها "أن مراد بك وحسن بك وعثمان بك قد باتوا ليلتهم أمام أخميم على بعد ميل فى اتجاه الجبل ومعهم الكثير من العرب والكثير من شيوخ القرى وأنه عندما تزداد قواته سوف يهجم على الفرنسيين الضعاف. فى مواقعهم، وأنه بهذه الوسيلة سيهزمنا فى الوقت الذى سيهجم فيه الصدر الأعظم على القاهرة" (١).

وهكذا شكل مراد بك مع من معه من المماليك قلقا كبيرا بالنسبة للفرنسيين زاد من حدته انضمام الأهالى والعربان للمماليك، وخشى الفرنسيون من ازدياد قوة المماليك خصوصا وأن مراد بك كان يغير معسكره كل يوم (٢)، وبالتالي لم يكن يعطى الفرنسيين الفرصة كي يمسكوا به أو يحاربوه فهو وباقى البكوات المماليك ومماليكهم لم يكونوا مستقرين بمكان معين وإنما كانوا فى حالة دائمة من التحرك والترحال من منطقة لأخرى فى شتى أنحاء الصعيد مما كان يسبب قلقا كبيرا على الوجود الفرنسى بالصعيد، لهذا نجد القائد العام للجيش الفرنسى فى مصر يامر الجنرال فريان بإنزال كل الفرق الموجودة بمصر العليا وملاحقة مراد بك بـ ٥٠٠ أو ٦٠٠ رجل (٣).

ولم تشهد تلك الفترة اشتباكات حقيقية بين المماليك والفرنسيين إلا نادرا ومن هذه المعارك معركة دارت رحاها فى صحراء سدمنت فى ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ بين الجنود الفرنسيين بقيادة المساعد العام بوايه Boyer وبين المماليك والعرب بقيادة مراد بك وكان المماليك والعرب ماهرين فى حربهم فوق الجمال وكادوا أن ينتصروا لولا أن استمات

(١) Vallet au général Belliard, Girgé, Le 13 Décembre 1799, Doc. No. 1636.

ملف رقم ١٢ بدوسيه رقم ٢ بنفس المحفظة السابقة.

(٢) Le général de brigade Rampon au général de division Dugua, Le 30 Novembre 1799 Doc. No. 1439.

ملف رقم ١٤ بدوسيه رقم ١ بمحفظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

(٣) Kleber général en chef au général Friant à Benisouef, Le 27 brumaire an 8 (18 Novembre 1799). Doc. No. 1262.

بمحفظة فترتها التاريخية من ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠٠ (١٢ فروكتيدور العام السابع الجمهورى إلى ٢٥ تيرميدور العام الثامن الجمهورى).

الفرنسيون في الدفاع بقوة بما يملكون من بنادق وسيوف، وانتهت المعركة بهروب المماليك والعرب، وقام الجنود الفرنسيون بملاحقتهم وكانت خسارة الفرنسيين في هذه المعركة جندى واحد قتيلا وسبعة عشر جريحا، أما المماليك والعرب فقد بلغت خسارتهم أربعون قتيلا^(١). وبعد هذه المعركة ظل مراد بك ينتقل من مكان إلى آخر، وأحيانا يقترب من القاهرة، وهنا يكتب كليبر إلى الجنرال فريان قائلا "أعتقد أنك حاليا تلاحق مراد بك وتجبره على العودة إلى الصعيد لأنه لا يجب أن يظل مطلقا absolument بالقرب من القاهرة، إذا تمكنت من القضاء عليه فقد كتبت مجدك Gloire بيدك"^(٢). وظل مراد بك طليقا حرا ولم يتمكن الفرنسيون من القضاء عليه، وبالتالي لم يستطع أحد منهم أن يكتب مجده بيده.

وعلى كل حال فلقد استمر الصراع المملوكى الفرنسى في صعيد مصر فترة طويلة تدهورت فيها حالة المماليك الإجتماعية إلى حد أن باع كثير منهم سلاحه للأهالى لكي يعيشوا Pour vivre وفضل آخرون أن يختبئوا في القرى، وعرض بعضهم نفسه على

(١) Kleber général en chef au directoire exécutif, Kaïre, Le 16 Novembre 1799, Doc. No. 1241.

ملف رقم ١٤ بدوسيه رقم ١ بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ . وتجدر الإشارة إلى أن الجبرتي قد أشار إلى هذه المعركة في عبارة واحدة حيث قال ضمن أحداث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٤هـ (أكتوبر سنة ١٧٩٩) "وفيه أرسلوا جملة عساكر من الفرنسيين إلى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق تفصيلها" انظر : الجبرتي : المصدر السابق، ج٢ حوادث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٤هـ، ص ٣٠٧، وهذه الأمور التي لم يتحقق الجبرتي من تفصيلها هي المعركة التي دارت بين الفرنسيين وبين مراد بك في صحراء سدمنت بالفيوم في ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ والتي عرضنا لها بأعلاه، ثم ذكر الجبرتي عبارة أخرى تلي العبارة السالفة الذكر قائلا وترددت بين مراد بك وبين سارى عسكر الرسال والمراسلات ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة، واصطاح معهم على شروط منها تقليده إمارة الصعيد تحت حكمهم" نفس المصدر، ص ٣٠٧ وهنا سبق الجبرتي الأحداث حيث كان الفرنسيون في تلك الفترة وبعدها بشهور يطاردون مراد بك ويودون القضاء عليه.

(٢) B6 123, Kleber au général Friant, Le 4 Décembre 1799, Doc. No. 1446.

ملف رقم ١ بدوسيه رقم ٢ بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

الفرنسيين ليضموهم إليهم^(١)، وتذكر بعض المصادر أن حالتهم كانت سيئة جدا^(٢)، وبصرف النظر عن الحجج التي تعلل بها هؤلاء المماليك القارين من جيشهم عندما هربوا للانضمام إلى الجيش الفرنسي، فإن الفرنسيين قد قبلوهم في صفوفهم وصاروا من رجالهم الأمناء الشجعان^(٣).

ولا شك في أن طول فترة الحرب والترحال الدائم من مكان إلى آخر، والمطاردة الدائمة من الفرنسيين للمماليك قد جعلت البعض من المماليك الذين لم تتحمل نفوسهم مشقة الترحال في الصحراء الانضمام إلى الفرنسيين طمعا في مصير أفضل. وبالطبع كان الفرنسيون يرحبون بانضمام المماليك القارين من جيشهم إليهم ويعاملونهم بإكرام ليحصلوا منهم على معلومات عن باقي المماليك ومقدار قوتهم والأماكن التي يفرون إليها ومعرفة العديد من الأخبار التي تساعد الفرنسيين في القضاء على المماليك.

وأحيانا يهجم الفرنسيون على معسكر أحد البكوات المماليك ويأسرون البعض منهم ويتم قتلهم رميا بالرصاص في القلعة بأمر القائد العام للجيش الفرنسي وذلك بعد الحصول منهم على المعلومات المطلوبة^(٤)، وأحيانا يتشفع أرباب الديوان في أسرى المماليك فيطلق الفرنسيون صراحهم^(٥).

(١) Berthier, mémoires du maréchal Berthier, Campagne d'Egypte. Ire parti, Paris, 1827, P. 131.

كرستوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٦٠ .

(٢) Memoires du général Desvernois, Op. Cit. P. 180.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر . عبد الرحمن الرفاعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٨١، ص ٣٧٣ .

(٤) Damas au général Dugua, Le 31 Décembre 1799, Doc. No. 1410.

ملف رقم ١٦، B6 38 بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٥) الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، حوادث شهر صفر عام ١٢١٣هـ، ص ١٩٦ .

ولم يكن ظاهرة انسحاب بعض المماليك من جيشهم قاصرة على المماليك فقط فنحن نجد لها مقابل أيضا في الجيش الفرنسي حيث تذكر وثائق الحملة الفرنسية حالات لفرار بعض الفرنسيين وانضمامهم للمماليك طمعا في مصير أفضل بدون شك (١) .

ولا شك في أن المماليك استقبلوهم أيضا بترحاب شديد ليتعرفوا منهم على معلومات عن خطط الفرنسيين العسكرية وكيفية مواجهتها وفي الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يحاولون القضاء على قوة المماليك العسكرية بصعيد مصر كان الفرنسيون بالقاهرة يعملون من جهة أخرى على القضاء على نفوذهم ومركزهم الإجتماعي المستمد من وضعهم الإقتصادي المتميز فقاموا بمصادرة ممتلكات البكوات والمماليك الذين كانت لهم قصور وبيوت فخمة فيها كل ما يمكن أن يعبر عن غنى وترف أصحابها، وصادروا أيضا حصص الإلتزام التي كانت بيد البكوات والمماليك بحيث استحوذ الفرنسيون بهذه الطريقة على ثلثي أراضي مصر (٢) . أما عن معاملة الفرنسيين لنساء الأمراء المماليك فلقد أعلن الفرنسيون لهن بالأمان والسماح لهن بسكنى بيوتهن ولكن على أساس إظهار ما لديهن من أمتعة أزواجهن فإن لم يكن عندهن شيء من متاع أزواجهن يصلحهن على أنفسهن ويأمن في دورهن فذهبت السيدة نفيسة زوجة مراد بك، وصالحت على نفسها وأتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرانسا وأخذت في تحصيل ذلك من

(١) أشارت وثائق الحملة الفرنسية إلى أن هؤلاء الفرنسيين لم يعد لهم أي أهمية أو موقع عند المماليك بعد أن عقد الفرنسيون اتفاقية سلام مع مراد بك في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ لذلك رغب البعض منهم في العودة إلى المعسكر الفرنسي انظر رسالة :

Le général Donzelot au général en chef, à siout, le 30 vendemaire an 9 (22 Octobre 1800).

ملف رقم ١٢، B6 55 بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٥ أكتوبر إلى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٠٠ (٢٣) فاندميمير إلى ٧ برومبير العام التاسع الجمهوري) .

ولقد استمر البعض من الفرنسيين لدى المماليك بالصعيد حتى بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر، وانتفع محمد علي باشا بخدماتهم حيث كانوا يعلمون جنوده علوم حرب الإفرنج . لمزيد من التفصيل انظر : نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك . نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٢٣ .

(٢) فاطمة الحمراوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في عهد الحملة الفرنسية : رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٨٨، ص ٤٠٦ .

نفسها وغيرها" (١) وتمكن الفرنسيون بذلك من جمع أموال كثيرة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان الفرنسيون يلقون القبض على بعض زوجات البكوات المماليك الموجودين بالصعيد بحجة أنهم يرأسون أزواجهن ويبعثن إليهم بالنقود التي تعينهم في حربهم ضد الفرنسيين، وحدث ذلك مع زوجة عثمان بك الطنبورجي التي ألقى الفرنسيون القبض عليها بحجة أنها بعثت لزوجها بنقود، ورغم أن القاضى لم يثبت عليها شيئا فإنهم قرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرانس (٢)، كما قرروا على زوجات حسن بك الجداوى مبلغ وقدره ثلاثة آلاف فرانسه والسبب في ذلك "أن حسن بك التف على مراد بك وصار يقاتل الفرنسيين معه، وقد كانت الفرنسية كاتبت حسن بك وأمنتته وأقرته على ما بيده من البلاد وأن لا يخالف ويقاوم مع الأخصام فلم يقبل منهم ذلك" (٣).

وهكذا يتبين لنا أن الفرنسيين لم يكتفوا بمصادرة ممتلكات وأموال البكوات المماليك بل استولوا أيضا على ممتلكات زوجات البكوات المماليك الموجودين بالصعيد خشية أن يبعثن لأزواجهن بالأموال التي يحتاجونها، وبذلك يستفيد الفرنسيون بذلك الأموال ويحرمون البكوات المماليك منها حتى تضعف شوكتهم وبالتالي يسهل القضاء عليهم.

ولكن هل استطاع الفرنسيون رغم كل هذه الإجراءات السالفة الذكر أن يقضوا على بكوات المماليك الموجودين بالصعيد؟

في الحقيقة لم يتمكن الفرنسيون من القضاء على مراد بك ومماليكه وأعوانه من البكوات المماليك، وضاعت نفسية الفرنسيين من الإقامة في الصعيد وتمنوا أن يأتي اليوم الذى يسحقون فيه الشيطان daible مراد بك كما تمنوا الرحيل إلى مرسيليا ليستدفعوا بالشمبانيا بدلا من ماء النيل الذى تلج أحشاءهم (٤).

(١) الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، حوادث شهر صفر عام ١٢١٣هـ، ص ص ١٩٦، ١٩٧ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، حوادث شهر ربيع الأول عام ٢١٣ هـ . ص ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٣) نفس المصدر : ج٢، حوادث شهر المحرم عام ١٢١٤هـ، ص ٢٩١ .

(٤) Lasalle au général Dugua, Atfeh, Le 4 Décembre 1799. (٤)

ملف رقم ٩ بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

ويبدو أن مراد بك هو الآخر قد مل من حياة الترحال فى شتى أنحاء الصعيد وهو الذى اعتاد على حياة الترف والبذخ فبدأ يفكر فى نفسه وفى استقراره حتى ولو كان ذلك على حساب مصر، ومن هنا بدأ مراد بك يرقب تطورات الموقف بالنسبة للفرنسيين خاصة بعد عقد كليبر لمعاهدة العريش (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠) مع العثمانيين من أجل الإنسحاب من مصر ثم إلغاء تلك المعاهدة والأحداث التى أعقبتها من إحراز الفرنسيين النصر فى معركة عين شمس (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) على القوات العثمانية، وفى هذه الأثناء كان مراد بك معكسرا بالجيزة مع مماليكه يرقب نتيجة القتال بين الأتراك والفرنسيين لينضم إلى الفريق الغالب، فلما رأى أن النصر حليف الفرنسيين فى معركة عين شمس صمم على إبرام الصلح مع الفرنسيين بشرط أن يتركوا له حكم الصعيد ويكون تابعا لهم، وأرسل مراد بك حسين كاشف ومصطفى كاشف لمقابلة الجنرال كليبر وأخبروه باقتراحات مراد بك لعقد سلام مع الفرنسيين ورحب كليبر بمقترحات مراد بك حيث كانت مصلحته تقتضى بأن يتم هذا الاتفاق لذلك أرسل إلى مراد بك قائلاً "من كليبر القائد العام إلى مراد بك المحارب الشهير الذى سبب الكثير من المشاكل للفرنسيين وأظهر قوة تحمل وشجاعة كبيرة، حسين كاشف ومصطفى كاشف قابلونى وأخبرونى باقتراحاتكم للسلام، ومنذ فترة طويلة وأنا أعد لعقد سلام معكم ولكن الأحوال لم تكن جيدة، ولقد أخبرت رسلك باقتراحاتى بخصوصكم وسوف يخبرونك بها، وكذلك بكل اقتراحاتى عما يجب أن تقدمونه، إن حياتكم وسمعتكم ستعتمدان على الاتفاق الموقع بيننا وأنا سأقدم كل الوسائل اللازمة للحفاظ عليها"^(١).

وانتهت هذه المباحثات بعقد معاهدة صلح بين كليبر ومراد بك فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠^(٢)، والحقيقة أن الفرنسيين قد أحسنوا صنعا بإتفاقهم مع مراد بك نظرا لما سبقت الإشارة إليه من القلق الذى كان يسببه لهم مراد بك باستمرار، ونظرا أيضا لما كانت ملاحقة هذا البك تكلف الفرنسيين الكثير من العتاد والجنود بالإضافة إلى ذلك التأثير الذى يمكن أن يكون لهذه المعاهدة على سكان مصر، ويرى البعض أنه بفضل تحالف كليبر مع مراد بك

(١) Kleber général en chef à Mourad Bey, Kaire, Le 2 avril 1800.

ملف رقم ١، B6 43 بمحفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣٠ إبريل سنة ١٨٠٠ (١١ جرمينال إلى ١٠ فلوريال العام الثامن الجمهورى).

(٢) لمزيد من التفصيل عن نصوص هذه المعاهدة: انظر الفصل الرابع.

كان الفرنسيون يتسلمون من الصعيد ضريبة ثابتة دون أن يضطروا إلى إدارته وبفضل هذا التحالف وما يتمتع به مراد بك من سمعة وهيبة توقفت الثورات فى القاهرة والوجه البحرى^(١).

هذا إلى جانب أن كليبر قد ضمن بهذا الإتفاق هدوء الأحوال بالوجه القبلى فلقد توقفت ثورات الفلاحين بعد توقيع هذا الإتفاق، كما استكانت القبائل العربية التى كانت تساعد مراد بك فى حربه ضد الفرنسيين، بل إنها عقدت معاهدات صلح مع الفرنسيين بعد اتفاق كليبر مع مراد، وكان مراد بك هو الواسطة بينهم وبين الفرنسيين^(٢).

وهكذا فإن مراد بك كان مثلاً أعلى لعربان وفلاحى الصعيد فى الخنوع والاستسلام بعد أن كانوا ينظرون إليه على أنه المثل فى الصمود والمقاومة، ولا شك فى أن مراد بك بعقده هذه المعاهدة يدل على أنه كان يتمتع بجهل فاضح وقصر نظر قل أن وصل إليه واحد من حكام مصر، ففى الوقت الذى كان فيه الشعب يعانى الأحوال خلال ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠) كان مراد بك ومماليكه يعقدون صلحا مع الفرنسيين ويلتزم مراد بك فى نصوص هذا الإتفاق بمساعدة الفرنسيين فى حالة وقوع عدوان عليهم بأن يوفر قوات تعادل نصف قواته العسكرية وأن يوفر وسائل المواصلات^(٣) أو ما كان من الأولى أن يوفر مراد بك قواته للانضمام فى صفوف ثوار القاهرة الذين كانوا يأملون أن تلوح لهم جنود مراد بك من الجنوب، ولكن خاب أملهم فى ذلك لأن مراد بك كان لا يعبا بشئ غير أن يضمن لنفسه الحكم وأن يقبض على الأمر، فلم يتحرك لمساعدة الشائرين بالقاهرة، ولم يقتصر أمر مراد بك على أنه تخلى عن مساعدة الشائرين فى ذلك المأزق الحرج، بل جعل يرسل إليهم ينصح لهم بالتسليم والمصالحة^(٤).

(١) كرسوفر هيروld : المرجع السابق، ص ٣٨٤ .

(٢) Binot a Friant, Chéronné, Le 29 Thermidor an 8 (17 Aout 1800).

ملف رقم ٣، B6 50 بمحفظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ (٢١ ميسيدور إلى ١ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى).

(٣) انظر المادة الثامنة من معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بالفصل الرابع.

(٤) محمد فريد أبو حديد : زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم : سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم ٧،

القاهرة ١٩٥١، ص ٨٨ .

هكذا كان موقف مراد بك الذى عمل مع الفرنسيين على إذلال الشعب إبان ثورة القاهرة الثانية، ولو أنه انضم بمماليكه مع ثوار القاهرة وبعث برسله إلى عربان الصعيد وفلاحيه وأنت هذه الجموع للانضمام إلى ثوار القاهرة لما انتهت الثورة بهذا الشكل وما استطاع الفرنسيون القضاء عليها بهذه الصورة الوحشية، ولكن خيانة مراد بك للقضية الوطنية جعلت الفرنسيين يتمكنون من القضاء على الثورة ومن الانتقام من أهالى القاهرة بأبشع ما يكون الانتقام.

وهنا يمكن القول أن مقاومة مراد بك للفرنسيين بصعيد مصر لا تعد عملا من أعمال الوطنية أو الغيرة على الدين، لأن مراد بك استغل مقاومته للفرنسيين فى الحصول على مكاسب شخصية على حساب مصر، وتجدر الإشارة إلى أنه فى الوقت الذى تولى فيه مراد بك ومماليكه عن ثوار القاهرة وقبل أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية كان هناك قلة من الأمراء المماليك الشرفاء الذين كان لهم موقف ثابت من الوجود الفرنسى يتمثل فى تحرير مصر من الاستعمار الفرنسى ونذكر من هؤلاء محمد بك الألفى^(١) وهو الذى حارب الفرنسيين فى صعيد مصر ورفض أن ينضم لمراد بك فى صلحه مع الفرنسيين حيث يذكر الجبرتى عنه ما يلى "ولما اصطلح مراد بك مع الفرنسيين لم يوافقهم على ذلك واعتزله"^(٢) وانضم محمد بك الألفى إلى الثوار فى ثورة القاهرة الثانية حيث ذكر الجبرتى "وجاء محمد بك الألفى فى ثانى يوم وتترس بجهة الأربكية وبذل الهمة وظهرت منه ومن مماليكه شجاعة وإقدام"^(٣).

كما رفض حسن بك الجداوى الانضمام إلى مراد بك فى صلحه مع الفرنسيين واشترك مع الثوار فى ثورة القاهرة الثانية وأبلى الأمير المصرى الشجاع حسن بك الجداوى

(١) عن ترجمته انظر : عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، حوادث عام ١٢٢١هـ، ص ١٤٧-١٧٣ .

(٢) الجبرتى : المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٢ .

وتؤكد وثائق الحملة الفرنسية على أن محمد بك الألفى لا يطيع أوامر مراد بك، انظر رسالة

La général Donzelot au général en chef, le 14, Juillet 1800.

ملف بدون رقم، B6 47، بمحفظه فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر

وعمر الدسوقي، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربى ١٩٦٩، ص ٢٠٨ .

بلاء حسنا فى هذه الثورة فما يكاد يسمع أن العدو يزحف على أحد أحياء القاهرة حتى يسرع بجنوده لنصرة ثوار هذا الحى ويأخذ الفرنسيين أخذا وببلا وعلى حد تعبير الجبرتي "ورأى الناس من إقدامه على الحرب وشجاعته على مجادلة العدو ليلا ونهارا ما ينبئ عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو همة، وقل إن وقع حرب فى جهة من الجهات إلا وهو مدير رحاها ورئيس كماتها"(١) .

ويذكر أحد الكتاب أن حسن بك الجداوى كانت الأقدار تدخره "لكى يكفر عن كل سيئات المماليك بما بذله فى هذه الثورة من جهد"(٢) . ولو أن مراد بك كان لديه من شجاعة وإقدام حسن بك الجداوى ومحمد بك الألفى وانضم إلى الثوار فى ثورة القاهرة الثانية لكان من الممكن أن ينتصر الثوار ولكنه ظل يقدم خدماته للفرنسيين وظل وفيا معهم إلى أبعد ما يكون الوفاء والإخلاص وتفانى فى خدمتهم بعد توقيع معاهدة الصلح معهم لأنه كان يعلم أنه ليس له اتجاه آخر إلا مشاركة الفرنسيين فى مصيرهم "لأن العثمانيين لن يغفروا له أبدا وأنه لا يثق فى وعودهم ومتوقع خداعهم له، وفى هذه الظروف ليس له ملجأ آخر إلا الإلتجاء للفرنسيين والإحتماء بجمهوريتهم"(٣) .

وكان الفرنسيون يعملون على التوافق فيما بينهم وبين مراد بك، وظل مراد بك وفيا لهم حتى وفاته فى ١٨ أبريل سنة ١٨٠١ وحزن عليه الفرنسيون حزنا شديدا لأنهم فقدوا بموته حليفا قويا مخلصا لهم . وهكذا انتهت حياة مراد بك(٤) وهو يسعى لنجدة الفرنسيين ولم نجد أبلغ من كلمات الجبرتي الذى أبناه بقوله "إنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم

(١) الجبرتي : المصدر السابق، ص ٢٠٨، ويذكر الجبرتي فى ترجمته عنه "أنه أبلى بلاء حسنا شهد له بالشجاعة والإقدام كل من العثمانية والفرنساوية والمصرية"

لمزيد من التفصيل عن ترجمته انظر : الجبرتي : عجائب الآثار، ج٢، حوادث عام ١٢١٥هـ، ص ٤٥٠-٤٥٢ .

(٢) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر، دار المعارف ١٩٧٨، ص ٣٠٨ .

(٣) Donzelot au général en chef, à siout, le 10 Frimaire an 9 (1 Decembre 1800)

ملف رقم ١، B6 58 بمحفوظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٠٠ .

(٤) عن ترجمته انظر الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، حوادث عام ١٢١٥هـ، ص ٤٤٤ - ٤٥٠ .

المصري بما تجدد منه ومن ممالكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم فلعل لهم
يزول بزواله" (١).

وقد أقلق موت مراد بك المفاجئ الفرنسيين إذ تخوفوا من تغير موقف ممالك مراد
بك تجاههم، كما تخوفوا من استقطاب الإنجليز والعثمانيين لممالك مراد بك لذلك بعث
الفرنسيون بمندوب إلى ممالك مراد بك ليقنعهم أن الإنجليز لم يأتوا إلى مصر خدمة في
الأتراك أو الممالك لكن من أجل مصالحهم الخاصة، وإذا استقر الأتراك في مصر سوف
يعزلون الممالك للتخلص من أى قوة تهدد سيطرتهم على البلاد، وبالتالي فإن من مصلحتهم
أن يظلوا متحدين مع الفرنسيين الذين يتمنون لهم المجد Gloire ويعملون من أجل
مصلحتهم (٢).

وفى نفس الوقت بعث الفرنسيون برسائل تعزية للأمراء المرادية يعزونهم فى
أستادهم مراد بك (٣)، وأمر القائد العام منو بأن يصرف للسيدة نفيسة أرملة مراد بك معاش
سنوى وقدره ٦٠,٠٠٠ جنيه (٤)، كما كان يرسل لها بين الحين والآخر بالخطابات والهدايا
وكانت السيدة زبيدة زوجة الجنرال منو تذهب لزيارتها هى وابنها سليمان لتخفف عنها
مأساتها، وكانت السيدة نفيسة تشكر الجنرال منو على ذلك وتدعو له أن تكون نهايته
حسنة (٥).

(١) الجبرتي المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥٠.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

Orders du Belliard au Citoyen Petruccy, B6 133, Le 6 Floréal an IX (26 Avril, 1801).

ملف رقم ٦٠٦ B6 67 بمحظة فترتها التاريخية من ٢١ أبريل إلى ١٢ مايو سنة ١٨٠١ (١ إلى ٢٢
فلوريال العام التاسع الجمهورى).

(٣) الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، حوادث عام ١٢١٥هـ، ص ٤٢٦.

(٤) Extrait du courrier de L'Egypte. No. 113, Le 20 Floreal an IX (10 Mai, 1801).

ملف رقم ٢٠٦ B6 68 بمحظة فترتها التاريخية من ٢١ أبريل إلى ١٢ مايو سنة ١٨٠١.

(٥) Madame Mouré Bey à Menou, B6 71, Le 17 Messidor an 9 (6 juillt 1801).

ملف ٣٥، B6 70 بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ يونيو إلى ٢٢ يوليو سنة ١٨٠١ (١ ميسيدور إلى ٣
تير ميدور العام التاسع الجمهورى).

ويدل هذا على المكانة التي كانت تتمتع بها هذه السيدة عند الفرنسيين خصوصا وأنها كانت لها دور في معاهدة الصلح بين زوجها والجنرال كليبر^(١)، ولهذا زادت مكانتها لدى الفرنسيين بعد عقد زوجها مراد بك اتفاق صلح مع الفرنسيين، واحترمها الفرنسيون حتى بعد وفاة زوجها كما ذكرنا أما عن موقف مماليك مراد بك فقد اختير عثمان بك الطنبورجى خلفا لمراد بك، واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميرا على الصعيد، وأرسل الطنبورجى إلى الجنرال بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين وتمنى بليار ذلك، لكن الطنبورجى نقض المعاهدة لما رأى كفة الإنجليز والأتراك راجحة، واتصل بإبراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الأعظم^(٢).

ويدل ذلك على أن المماليك كانوا يرتبطون دائما بالطرف الأقوى، ويبدو أن مراد بك كان فى نيته قبيل موته أن ينضم للإنجليز إذا ضمنوا له أن الصدر الأعظم لن ينتقم منه^(٣).

ونجح الجنرال هتشنسون فى ضم المماليك من خلفاء مراد بك إلى صفوفه فانضم عثمان بك الطنبورجى للبريطانيين فى ٢٨ مايو سنة ١٨٠١ هـ و ١٥٠٠ فارس من المماليك^(٤) ويدل هذا على أن مماليك مراد بك كانوا يريدون الإستناد إلى قوة خارجية يستندون إليها ماداموا قد شعروا بعداء كل من العثمانيين والمصريين لهم، حيث أثبتت الأحداث على أنهم كانوا يعملون من أجل مصلحتهم فقط لا غير.

(١) جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٨٠٥ منشأة المعارف، الإسكندرية، دون تاريخ، ص ١٧٤، والجدير بالذكر أن الفرنسيين قد حملوا لهذه السيدة هذا الجميل لذلك نجد الجنرال بليار قبل رحيله من القاهرة يبعث برسالة إلى الصدر الأعظم يوصيه فيها بتمكينها من وضع يدها على عدة قرى دون أن ينالها أى ضرر لأنها تستحق كل تقدير لمميزاتها الشخصية ومن أجل مآساتها Son malheur أنظر : Ordres de Belliard au Grand Vizir, B6 134, Doc. No. 202, Le 6 Juillet 1801. ملف رقم ٢٢، B6 71 بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ يونيو إلى ٢٢ يوليو سنة ١٨٠١. ولأن السيدة نفيسة كانت امرأة متعددة النواحي واسعة الخيلة، فإنها قد احتفظت بمكانتها حتى بعد خروج الفرنسيين.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : الفصل الرابع.

(٣) كرسطوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٤) نفس المرجع، ص ٣٩٢.

وخرجت الحملة الفرنسية من مصر بعد أن ساعدت على تحطيم قوة المماليك، ولكن ماذا عن موقف المماليك المرادية بعد خروج الفرنسيين من مصر؟

عملت الدولة العثمانية بعد خروج الفرنسيين من مصر على إعادة سيطرتها على البلاد، وأصدرت تعليماتها لقادة قواتها في مصر بضرورة التخلص من بقية المماليك حتى لا تقوم لهم قائمة في البلاد بعد ذلك، وفي نفس الوقت كان المماليك يحاولون استعادة حكمهم في مصر وحجتهم أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد السنين الطوال، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأترون عليهم ويريدون التخلص منهم بشكل نهائي، فدفعهم هذا الشعور أو دفع بعضهم إلى محاولة الإستناد إلى القوات الإنجليزية لتثبيت أقدامهم في مصر . وكان هذا القطاع من المماليك بقيادة محمد بك الألفي الذي سيسير مع الإنجليز لعدة سنوات، ولكن هناك قطاع آخر من المماليك المرادية بقيادة عثمان بك البرديسي كان يرى ضرورة الإستناد إلى فرنسا والإستنجاد بها لتثبيت الأوضاع في صالح المماليك واستنادا إلى نصوص اتفاقية مراد بك مع الجنرال كليبر، وكان هناك قطاع ثالث من بين المماليك المرادية يرى اتخاذ موقف الحياد وموالة الأتراك وعلى رأسهم عثمان بك حسن (١).

ولم تنجح محاولات المماليك في الاستنجاد بنابليون لإعادة سلطتهم التي هدمها هو وجنوده (٢) ولم تنجح جهود البريطانيين في ردهم إلى سابق مكانتهم، وكان من الصعب بل من المستحيل بعد أن تمكنت الحملة الفرنسية من زعزعة الثقة في قدرة المماليك، وهزت صورتهم أمام الشعب، وبعد أن ظهر المماليك أنهم يبحثون دائما عن مصالحهم في كل الأوقات أن يعود المماليك إلى الحكم، لذلك فشلت كل محاولاتهم في العودة إلى الحكم من جديد، وتمكن محمد علي أن يقضى على البقية الباقية منهم في مذبحة القلعة عام ١٨١١ لتنتهي دولة المماليك إلى الأبد، وما كان ذلك ليتحقق بهذه السرعة لولا قدوم الحملة الفرنسية التي لم تنجح في مصر في شيء أكثر مما نجحت في القضاء على قوة المماليك.

(١) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر : الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨١، ص ٢٥٩-٢٦١، جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٥٦٠، ٥٥٤ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج٢، ص ٢٩٦، ٢٩٧ .

٢- الفلاحون :

كان الفلاحون يتعرضون لشتى أنواع الظلم والتعسف على يد المماليك قبيل مجئ الحملة الفرنسية، واعتقد الفرنسيون أن فتح هذه البلاد لن يكلف الفرنسيين نقطة دم واحدة وذلك على حد قول تاليران^(١) الذى علل ذلك لعداء المصريين الظاهر للبكوات المماليك إلى حد أنه تصور أنهم لو أعطوا سلاحا لقتال الفرنسيين الغزاه لاستخدموا هذا السلاح فى قتال المماليك الذين طغوا فى حكمهم وبغوا عليهم .

وبذلك تصور الفرنسيون أن غزوهم لمصر سوف يكون رحلة ترفيهية ولن يكلفهم الأمر شيئا إلا معارك بسيطة أمام المماليك الذين سيهزمونهم بأسرع ما يمكن خصوصا أن الأهالى سوف ينضمون إلى الفرنسيين ويرحبون بهم من أجل انقاذهم من المماليك الطغاه .

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وهى تعتقد ذلك وفوجئت بما لم تتوقعه على الإطلاق حيث اشتعلت الثورات فى شتى أنحاء القطر المصرى، وحمل الأهالى فى كل مكان السلاح ضد جنود الاحتلال الفرنسى، فماذا عن موقف فلاحى الصعيد من الحملة الفرنسية؟ بعد موقعة إمبابة فر مراد بك إلى الصعيد فأرسل بونايرت حملة بقيادة الجنرال ديزيه للقضاء على مراد بك وإخضاع الصعيد . ووقف الفلاحون بصعيد مصر موقف الرفض للوجود الفرنسى على أراضيهم وشدوا من أزر المماليك واشتركوا معهم فى كل المعارك التى دارت فى شتى أنحاء الصعيد، ولولا تأييد الفلاحين لمراد بك ومماليكه بصعيد مصر لما سمع للمماليك صوتا ولا اتبعث لهم حركة بعد هزيمتهم فى معركة إمبابة .

وتذكر وثائق الحملة الفرنسية الكثير عن مؤازرة الفلاحين لمراد بك، ففي الوقت الذى كان الفرنسيون يعملون فيه على منع مراد بك من التزود بالمؤن من القرى كان الفلاحون يتعاطفون مع مراد بك ويمدونه بالمؤن^(٢) . كما كان شيوخ القرى يجلبون لمراد

(١) نقلا عن : محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى دون تاريخ، ص ٧٢ .

(٢) Friant au général en chef Kleber, Benisouef, Le 30 Frimaire an 8 (21 Décembre 1799) Doc. No. 1743).

بك ولمماليكه الخيول التى هم بحاجة إليها^(١)، وكان مشايخ القرى يتعرضون بسبب تعاونهم مع المماليك وإمدادهم لهم بالزاد لعقاب صارم من الفرنسيين، فلقد عوقب شيوخ الفيوم بدفع عشرة آلاف بوطاقة كغرامة نقدية بسبب تقديمهم المأوى لكشاف ومماليك مراد بك^(٢)، بل وصل الأمر إلى حد قطع رأس شيخ البنسا لأنه زود مراد بك بالخبز du pain أثناء وجوده بشارونة وضواحيها^(٣).

وكان الجنرال ديزيه يأمر ضباطه بتدمير القرى التى ساعدت مراد بك حيث ذكر فى رسالة له إلى موران Morand بجرجا ما يلى : دمر القرية التى ساعدت مراد بك، يجب أن نتخلص من كل أعدائنا فالذين يحمون المماليك عندهم أمل فى عودة حكمهم وسيكونون دائما معارضين لنا^(٤).

ولم يكن مراد بك يجبر الفلاحين على شئ من ذلك، بل كان وقوف الفلاحين مع المماليك ضد الفرنسيين يؤكد رفض الفلاحين للوجود الفرنسى بصعيد مصر، وهكذا كان توقع الفرنسيين بانضمام الأهالى مع الفرنسيين ضد المماليك توقعا غير صحيح بدليل تحالف الأهالى مع المماليك ضد الفرنسيين، وهذا يدل على أن الفلاحين كانوا يفضلون حكم المماليك المسلمين عن الفرنسيين الكفرة كما تتعتهم المصادر المعاصرة^(٥) ولو كان بونابرت مسلما

(١) Vallet au général Belliard girgé, le 13 Décembre 1799, Doc. No. 1636.

ملف رقم ١٢ بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٢) Kleber général en chef au général Friant, à Benisouef, Doc. No. 1260, Le 18 Novembre 1799

ملف رقم ٢ بدوسيه رقم ١ بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٣) Friant au général Kleber, a charouné, Le 6 Décembre 1799, Doc. No. 1514

ملف رقم ٥ بدوسيه رقم ٢ بنفس المحظة السابقة .

(٤) Le général Desaix au chef de brigade Morand à girgeh.

ملف رقم ١٧ بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٥) لمزيد من التفصيل انظر . سجلات محكمة اسنا . سجل رقم ٥٠، وثيقة رقم ٢٧٢، مؤرخة فى ٢١

ربيع الأول عام ١٢١٣هـ، ص ١١١-١١٤ .

لرضى به المصريون مخلصا لهم من جور المماليك ولكن يونابرت وجنوده الذين كانوا يتبعون الديانة المسيحية ظاهرا وينكرون البعث والدار الآخرة ويحكمون العقل فى كل الأشياء والقوانين ويرون أن الشرائع المنسوبة للأنبياء إنما هى قوانين وضعها هؤلاء لتتناسب أهل زمانهم(١) .

وهكذا كان الأهالى يرون فى الفرنسيين مجرد كفار دخلوا أرض السلطان وينبغى محاربتهم وطردهم بشتى الطرق، وبالرغم من أن الفلاحين كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة غير متكافئة بينهم وبين الفرنسيين، فلا قبل لقرية من القرى بالمدافع والبنادق الفرنسية، ومع هذا فلم يخطر ببال أحد من الفلاحين الفرار ولا فكر فى الاستسلام، وعمت المقاومة الشعبية كل قرى الصعيد حتى ليستحيل أن تذكر قرية على جانبى النهر لم تسجل صفحة بطولة فى سجل مقاومة الغزو الفرنسى ولم تقدم أكثر من شهيد وشهيدة وتؤكد وثائق الحملة الفرنسية أن شعب الصعيد قد دافع بقوة عن حريته(٢) كما أشارت المصادر المعاصرة بشجاعة الفلاحين من أبناء الصعيد(٣) .

ولقد قام الفلاحون من أبناء الصعيد بالدفاع عن أرضهم ضد الغاصب المحتل وقاوموه بكل ما يملكون من أدوات، وكانت حماسة أبناء الصعيد، وعقليتهم، وروح فروسيتهم عوامل تتجمع لكى تخلق منهم قوات هجوم ممتازين يشكلون خطرا على أى جيش يتوغل فى بلادهم . واشتعلت المعارك بين الفلاحين وبين الفرنسيين، وكانت كل معركة تترك لهم ثارا على الفرنسيين، وبذلك لا تنتهى معركة إلا وتولد معركة أخرى، وكانت قوات

(١) عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلطين، القاهرة ١٢٨١هـ، ص ٧٥، ويذكر آلان مورهد "أن جانبا كبيرا من جيش فرنسا الثورى كانوا ملحدين أو - على أقل القليل - غير مكرثين بالبابا وبنى الإسلام على السواء لأن الثورة الفرنسية كانت تسعى إلى إقامة ملكوتها الخاص فى هذا العالم الأرضى . انظر : آلان مورهد : المرجع السابق، ص ٨٦ .

(٢) Le général Desaix au général Kleber, Doc. No. 180, Le 12 Septembre 1799. (٢)

ملف رقم ١٦ بمحفظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. P. 185.

(٣)

الفرنسيين موزعة على خطوط طويلة، وكان من الصعب على الفرنسيين القضاء على المقاومة في هذه المنطقة التي تمتد لما يقرب من ألف كيلو متر

وكانت مقاومة المصريين للفرنسيين تظهر في كل وقت، وفي كل بلدة وقرية من قرى الصعيد وبشكل يصعب على المؤرخ حصرها، أو إعطاء هيكل عام عن تحركاتها^(١). وكان رد الفرنسيين قاسيا وصارما لكل القرى التي تمردت وثار عليهم، وعندما كان الفرنسيون يجدون أنفسهم عاجزين عن القضاء على ثورة قرية من القرى كانوا يقومون بإشعال النيران فيها حدث ذلك على سبيل المثال في قرية أبو جرج^(٢) وفي بنى عدى^(٣) وفي أبند^(٤)، وكان الجنرال ديزيه قائد الحملة التي تولت إخضاع الصعيد يشجع مساعديه على اتباع سياسة إحراق القرى الثائرة حيث كتب ديزيه إلى الجنرال بليار قائد طيبة (قنا) يوصيه بالصرامة والقسوة في إخضاع الأهالي وعلل ذلك بقوله "إن هذه هي الوسيلة التي نحصل بها على كل شئ من النفوذ والسلطة والطمأنينة، عليك أن تأمر بقطع رأس كل من لا يطيع أوامرك من مشايخ البلاد (العمد) وقطع النخيل وإحراق القرى الثائرة"^(٥).

كما كان الجنرال ديزيه يعتقل بعض الأعيان بصفة رهائن من كل بلد ليكونوا مسئولين عن الحوادث والإضطرابات في بلادهم، وبلغ عدد هؤلاء الرهائن الذين اعتقلهم من جرجا وما يليها إلى أسيوط مائتي رجل من الأعيان أبقاهم أسرى في أسيوط، وكتب إلى الجنرال بليار يوصيه باعتقال الرهائن من منطقته وأن يكون عددهم أكثر ما يبلغه الإمكان^(٦). كما بعث كليبر إلى قائد المنيا برسالة جاء فيها "أوافق على معاقبة القرى

(١) جلال يحيى : المجلد في تاريخ مصر الحديثة، الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٧١،

١٧٢ .

Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. P. 188.

(٢)

(٣) لمزيد من التفصيل : أنظر الفصل الثاني .

(٤) لمزيد من التفصيل : أنظر الفصل الثالث .

(٥) نقلا عن عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الأول

الطبعة الخامسة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ٣٩١، ٣٩٢ .

(٦) نقلا عن عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٣ .

الثائرة، وأنا كلى أسف لاتخاذ هذا القرار" (١) وبالرغم من ذلك فإن المقاومة لم تهدأ ويعبر ديزيه عن الواقع الذى عاشته الحملة الفرنسية فى صعيد مصر فى رسالة إلى نابليون قائلاً "على أنى لا أكتمك الحقيقة وهى أننا لن نكون سادة البلاد لأننا إذا أخلىنا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت إلى حالتها القديمة" (٢) .

وعانى الفلاحون بصعيد مصر كل ويلات الاحتلال العسكرى على أيدي الفرنسيين، فكلما نزل الفرنسيون قرية واستقروا بها، وجد الفلاح أدواته ومحاريثه وأبوابه وسقوفه وكل شئ قابل للاشتعال وقد أحرقه هؤلاء الجند لطهى طعامهم، ثم يقدمون على تحطيم أنيته الفخارية، واستهلاك غلاله، وذبح دواجنه وحمامه وشيها على النار والتهامها، ثم الأخطر من كل هذا هتك عرض بناته ونسائه (٣) .

وتحت تهديد السلاح وسباكى جيش الاحتلال تعرضت الكثير من النساء فى كثير من القرى والمدن بصعيد مصر لهتك أعراضهن واغتصابهن (٤)، وكان الجنرالات الفرنسيون يسمحون لجنودهم باغتصاب النساء ليرفعوا من معنويتهم (٥)، وأمام هذه القسوة والوحشية لجنود الاحتلال الفرنسى كانت بعض الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا يغتصبن على يد الفرنسيين (٦) .

وهكذا فإن كل قرية حاربت الفرنسيين كان جراؤها نهب أموالها وقتل رجالها وهتك أعراض نسائها (٧) . وسمع الفلاحون عن سلب ونهب واغتصاب الفرنسيين للقرى التى

B6 112, Kleber à Boyer Commandant La province de Miniet, Le 6 vendemaire (١) an 8 (28 Septembre 1799) Doc. No. 436.

بمحافظة فترتها التاريخية من ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٠ .

(٢) نقلا عن عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٨٠ .

(٣) كرسطوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٥٤ .

(٤) لمزيد من التفصيل أنظر : لىلى عنان : الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، سلسلة كتاب الهلال،

العدد رقم ٥٠٠، دار الهلال ١٩٩٢، ص ٦٩-٧١ .

(٥) كرسطوفر هيرولد : المرجع السابق، ص ٢٦٧ .

(٦) نفس المرجع : ص ٢٦٦ .

(٧) عبد الله الشراقوى : المصدر السابق، ص ٧٦ .

يمرون عليها، وانتشرت الأخبار في قرى الصعيد، وبدأ الأهالي يخلون قراهم ويفرون بعيدا عنها حاملين معهم ما يستطيعون من أمتعة وأموال وغلل وحبوب وماشية، وتركوا مساكنهم خالية خوفا من مهاجمة الفرنسيين لها ونهبها، هذا من جهة ومن جهة أخرى رفضوا رفضا باتا التعاون مع المحتلين، وذكر الجنرال بليار في يومياته عن ذلك قائلا إن كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليها" (١) .

كما كتب بليار إلى الجنرال ديزيه قائلا إننا نعيش هنا عيشة ضنكا، فإن جميع القرى Tous les village تخلو من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئا من القوت ولا نرى فلاحا واحدا يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ولا أدرى السبب فى هذه الحالة، على أننا مع ذلك لا نعمل عملا ضارا فى البلاد التى نجتازها (٢) .

وبعد أن قام الفرنسيون بحرق وسلب ونهب الفلاحين واغتصاب بناتهم وزوجاتهم يتساءل الجنرال بليار عن أسباب هجر الفلاحين لقراهم وعدم تعاونهم مع الفرنسيين، والأغرب من هذا أنه يقول إنهم (أى الفرنسيين) لا يعملون عملا ضارا فى البلاد التى يجتازونها، ويبدو أن السلب والنهب والاعتصاب كانوا من الأشياء النافعة للفلاحين فى نظر الفرنسيين أبناء الثورة الفرنسية، ومن هنا كان الفرنسيون يتضايقون من الفلاحين عندما يقومون بالثورة ضدهم إذ كيف يثور الأهالى على الفرنسيين الذين جاءوا لخيرهم، ولم يجد الفرنسيون الوقت الكافى لموعظة الأهالى بأنهم جاءوا لصالحهم، وإن كانوا قد وجدوا الوقت لعقابهم بشدة أو على حد قول دينون من الضروري أن نعاقب بشدة من يصرون على عدم تصديقنا عندما نقول لهم إن كل ما نفعله ما هو إلا لصالحهم" (٣) .

وإن كان دينون قد ناقض نفسه بعد ذلك قائلا "كان كل ما نقوم به تجاه الأهالى يزيد من حالة الحرب والكرهية وعدم الثقة" (٤) والغريب بعد كل هذا أن تذكر المصادر والمراجع

(١) نقلا عن : La Jonquiére, L'Expédition d'Egypte 1798-1801, 5 Vols, Tome III.

Paris 1899-1907, P. 596.

La Jonquiére, Op, Cit. P. 597-600.

(٢) نقلا عن :

Vivan Denon, Op. Cit. T.I P. 314.

(٣)

Ibid. P. 315.

(٤)

الفرنسية أن الأهالى أطلقوا على الجنرال ديزيه لقب السلطان العادل Sultan le Juste، وأن الجنرال ديزيه أقام على أطلال سلطة طاغية، سلطة أخرى تعمل على إعادة الرخاء إلى الصعيد وترميم ما أصابه خلال الحروب^(١).

ويرى الباحث أن هذا الكلام بعيد عن الواقع الذى عاشه الفلاح فى صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية، فلم يطرأ على الفلاح أى تغيير إلى الأحسن بل ازدادت حالته سوءا عما كانت عليه قبيل الحملة الفرنسية، ولعل التغيير الوحيد الذى طرأ على الفلاح فى تلك الفترة هو ثورته الدائمة على الوجود الفرنسى بأراضيه.

وتجدر الإشارة إلى أنه كانت هناك عقبات كثيرة وقفت حائلا فى طريق الفرنسيين وأدت إلى فشلهم فى محاولة جذب الأهالى إليهم ومنها اختلاف العادات والتقاليد وأهم من ذلك اختلاف الدين واللغة، كل هذه العوامل أدت إلى نفور الفلاحين من الفرنسيين وأدت إلى ثورتهم الدائمة عليهم، ولم يتقاعس الفلاح المصرى فى صعيد مصر عن خوض المعارك حتى الموت طالما كان الهدف هو الدفاع عن الأبناء والزوجة والأرض.

وكانت القوة المسلحة، والقسوة، والإرهاب هى الوسائل التى تمكن بها الفرنسيون من إخضاع ثورات الفلاحين، وكان الفلاحون لا يصبرون على الحكم الفرنسى إلا بأمل التخلص منه. ولا شك فى أن الفلاحين كانوا يشكلوا السواد الأعظم من سكان الصعيد، وهم الذين تصدوا للاحتلال الفرنسى بأراضيه وكانوا يشكلون قوة من أهم القوى التى تصدت

(١) لمزيد من التفصيل انظر :

Dominique DI Pietro, Voyage Historique en Égypte pendant campagnes des Généraux Bonaparte, Kléber et Menou, Paris 1827, P. 174, Martha Beker, Le général Desaix, Paris 1852, P. 344.

ويبدو أن الكتاب الفرنسيين أرادوا أن يجعلوا من الجنرال ديزيه صورة مماثلة لشخص الأمير همام بن يوسف الهوارى عظيم بلاد الصعيد والذى عمل بالفعل على ازدهار الزراعة، وتحقيق الرخاء للأهالى الذين ذكروه فى حياته وبعد مماته بالخير، أما الجنرال ديزيه التى تصر المصادر والمراجع الفرنسية أن تصفه بالسلطان العادل، فهو الذى أمر بإحراق القرى الثائرة وسمح لجنوده بارتكاب كل أعمال القسوة والإرهاب فكيف يكون عادلا إذن؟ وأين الوقت الذى وجده ديزيه ورجاله ليعملوا على رخاء الصعيد، وقد قضوا معظم وقتهم فى محاولة اخماد ثورات الأهالى التى لم تهدأ يوما ما.

للفرنسيين، وإن كانوا فى نفس الوقت هم القوة الوحيدة التى تحملت الكثير من الأعباء والتضحيات طوال فترة الاحتلال الفرنسى لأراضهم .

ويمكن القول بأن تاريخ الحملة الفرنسية فى صعيد مصر كان عبارة عن سلسلة متصلة شبه يومية من أعمال القمع والإبادة والنهب والاعتصاب والتككيل الوحشى يقوم بها جيش الاحتلال الفرنسى، وثورة دائمة ومقاومة مستميتة ومتزايدة باستمرار من جانب الفلاحين الذين أدركوا أن أبشع حكم محلى أشرف وأحسن من أفضل حكم أجنبى استعمارى .

٣- العربان :

لعب عربان الصعيد دورا فى الفتن السياسية والصراعات العسكرية التى كانت كثيرا ما تحدث بين البيوت المملوكية قبيل مجئ الحملة الفرنسية وكان رؤساء العربان بسبب قوتهم الحربية يرجحون كفة طائفة من البكوات المماليك على كفة خصومها(١) . ومن المعروف أن القبائل العربية كانت منتشرة فى شتى أنحاء الصعيد(٢)، وكان العربان يمثلون قوة اجتماعية لعبت دورا كبيرا فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل قدوم الحملة الفرنسية فماذا عن موقف العربان من الحملة الفرنسية بصعيد مصر؟

كان العربان يفتخرون بأنه بدو ويكونون الاحتقار mépris للأوربيين ولكل ما هو غير عربى(٣)، لذلك وقف العربان المستقر منهم والمتجول موقف الرفض للوجود الفرنسى

(١) فعلى سبيل المثال كان الهوارة يرجحون دائما الكفة التى ينضمون إليها من الأمراء المماليك المتنافسين . لمزيد من التفصيل انظر : ليلى عبد اللطيف أحمد : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

(٢) عن القبائل العربية المنتشرة فى الصعيد فى تلك الفترة انظر :

Jomard, Observation sur les Arabes de L'Egypte Moyenne, in Description de L'Egypte, Etat moderne, Tome Douzième, Second Édition, Paris 1823, P. 267-327, Amédée Jaubert, Nomenclature des tribus d'Arabes qui campent enter L'Egypte La Palestin, in Description de L'Egypte, Etat moderne, Tome Seizième, Second Edition, Paris 1825, P. 131-135, Du - Bois - Aymé, Mémoire sur les Tribus Arabes des déserte de L'Egypte, in Description de L'Egypte, Etat moderne, Tome Douzième, Second Edition, Paris, 1823, P. 329-389.

Jomard, Op. Cit. P. 322.

(١) .

فى صعيد مصر، وتعرضت قوات الجنرال ديزيه فى الصعيد لهجمات هؤلاء العربان حتى أصبحت قواته تعمل حسابا لهم فى كل منطقة اتجهت إليها بشهادة رجال الحملة أنفسهم(١) .

واشترك العربان فى معظم المعارك التى حدثت فى صعيد مصر بين الفرنسيين من جهة وبين الأهالى والعربان والمماليك من جهة أخرى، وعلى سبيل المثال فلقد شارك عربان الفيوم الأهالى فى منطقة الفيوم فى مطاردة الفرنسيين أثناء هجوم الثوار على مدينة الفيوم(٢)، كما اشترك العربان فى ثورة بنى عدى(٣)، وقام عربان الجبهة بشد أزر أهالى قرية أبو جرج ضد الفرنسيين(٤) بل إن ديفرنوا قد ذكر فى مذكراته أنهم أى عربان الجبهة قد أثاروا فلاحى قرية أبو جرج ضد الفرنسيين(٥) .

ولم يقتصر دور العربان فى مقاومة الفرنسيين على الاشتراك فى المعارك مع الأهالى ضد الفرنسيين أو تحريض الأهالى ومساندتهم، بل إنهم تعاونوا مع المماليك فى مقاومة الحملة التى دهمت البلاد، وأوى العربان الأمراء المماليك فى المناطق المختلفة بصعيد مصر وقدموا لهم الكلف والمؤن مؤازرة منهم فى مقاومة الحملة(٦) .

بل أكدت العديد من وثائق الحملة الفرنسية على تحالف بعض القبائل العربية بصعيد مصر مع مراد بك مثل عرب أبو كرايم الأقوياء بـ ٨٠٠ فارس(٧) وعرب الجبهة(٨) بـ ٢٥ فارس مما جعل قائد المنيا يعجز عن مقاومة هذه القوات وانتظر وصول الجنرال

Jomard. Op. Cit. P. 275-319

(١)

(٢) لمزيد من التفصيل . انظر : الفصل الأول .

(٣) لمزيد من التفصيل . انظر : الفصل الثانى .

(٤) لمزيد من التفصيل . انظر : الفصل الأول .

Mémoires du Général Desvernois, Op. Cit. P. 188.

(٥)

Le chef de brigade silly au général de brigade Billard commandant premiere errondissement à Kéné.

ملف رقم ١، B6*38 بمحظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٧) سبقت الإشارة إلى مقر إقامتها بالفصل الثانى .

(٨) سبقت الإشارة إلى مقر إقامتها بالفصل الأول .

فريان لمعاونته في الهجوم على مراد بك والعربان المتحالفين معه^(١)، كما أشارت إحدى وثائق الحملة الفرنسية إلى انضمام ٢٠٠ رجل من قبيلة المعازة^(٢) إلى مراد بك لمساندته في مقاومة الفرنسيين^(٣)، وازعج الفرنسيون انضمام هذه القبائل لمراد بك ومماليكه فعملوا كل ما في وسعهم لمنع اتحاد هذه القبائل بمراد بك^(٤) حتى لا تزداد قواته وبالتالي يسهل على الفرنسيين القضاء عليه مما يؤدي إلى هدوء Tranquille البلاد^(٥)، وحاول الفرنسيون إرضاء بعض القبائل العربية الموجودة في مصر الوسطى حتى يبعدوها عن التحالف مع مراد بك، وفي هذا الصدد يذكر الجنرال ديزيه في رسالة له إلى الجنرال كليبر أنه قام "بإغداق الخيرات على قبيلة الجهمة حتى لا يتحالفوا مع المماليك لهذا أعطيتهم أراضى وقمح وكل شئ يكفل لهم حياة كريمة، ولم يكن لهم من قبل وسيلة للعيش سوى بيع الجمال التي يصطادوها من أى مكان ولكن ما أن ابتعدت عنهم قليلا حتى ثاروا وهاجموا الكثير من المناطق وسببوا خسائر"^(٦) وإزاء هذه الحالة قرر الفرنسيون مهاجمة عرب الجهمة الذين أقاموا معسكرهم في الصحراء وكانوا على أهبة الاستعداد للرحيل فى أى وقت، لذلك كان من الصعب على رافيه قومندان مديرية المنيا اللحاق بهم، ويذكر فى رسالته إلى فريان "كان من المستحيل بالنسبة لى اللحاق بهم، حاليا وهم على بعد عدة أميال شمال ملوى، إذا

(١) لمزيد من التفصيل انظر رسالة :

Boyer au général Kleber, Miniet, Le 14 Septembre 1799, Doc. No. 218.

ملف رقم ١٨ بمحفظه فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٢) كانت قبيلة المعازة من أشد القبائل العربية بأسا وأبعدها شهرة في مصر الوسطى. انظر كلوت بك :

المرجع السابق، ج٣، ص ١٠٨ .

(٣) B6 161, Reynier au général Friant, Bénisouef, Le 7 Frimire an 8.

ظرف فترته التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ بمحفظه فترتها التاريخية من

٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١ .

(٤) Silly au général Belliard à siout, Le 20 Décembre 1799, Doc. No. 1711.

ملف رقم ٤، carton 38 بمحفظه فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٥) Ravier au général Friant, Minieh, Le 5 Décembre 1799, Doc. No. 1508.

ملف رقم ١٦ بدوسيه رقم ٢ بمحفظه فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

(٦) Le général Desaix au général Kleber, Le 12 Septembre 1799, Doc. No. 180.

ملف رقم ١٦ بمحفظه فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

سُحِتْ لى فرصة الاقتراب منهم سَابْذِلْ كلْ جهدى فى محاربتهم" (١) وليس هناك شك فى أن عربان الصعيد كانوا يشكلون قلقا للفرنسيين، وأنهم رفضوا الخضوع لهم، وكانوا يقطعون الطريق عليهم ويقتلون منهم كل من يصادفونه، ورفضت بعض القبائل المستقرة فى مصر الوسطى دفع الضرائب للفرنسيين، ولاقى الفرنسيون مشقة فى جمع الضرائب فى كثير من القرى التى يقطنها العربان (٢) .

وبالرغم من ذلك فإن أحد علماء الحملة الفرنسية يذكر أن الفرنسيين وجدوا فى القرى التى يسكنها العربان تعاوناً أفضل مما يجدونه فى القرى التى يسكنها الفلاحون (٣) . ولقد عدد جومار أسباب ذلك بأن القرية العربية يوجد بها مشايخ عديدون لا بد أن يكون من بينهم ولو واحد على الأقل يتقدم الصفوف ويتعهد بتقديم المؤن المطلوبة شريطة أن يحصل على ثمنها، ومنها كذلك أنه مع تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين إلا أن ما لدى العرب من ثروات غذائية ودواب ما يفوق ما لدى الأولين، ومنها أخيراً أن الشيوخ فى القرى العربية يبدون أكثر سطوة على مزارعيهم من ذلك النفوذ الذى يخوزه الشيوخ فى القرى الأخرى (٤) .

وتجدر الإشارة إلى أنه طالما كان مركز الفرنسيين قويا سعى العربان إلى التصالح معهم مؤقتاً بينما كانوا يتبعون عكس هذه السياسة حينما يدب الضعف فى صفوفهم . إذ سرعان ما ينقضون على الحاميات الفرنسية فى عمليات خاطفة ثم يسارعون بالهروب إلى الصحراء، ويبدو أن الفرنسيين قد فهموا ذلك جيداً حيث ذكر الجنرال زاينشك قومندان بنى سويف فى رسالة له إلى القائد العام لجيش الحملة يطلب منه زيادة عدد قواته لكى يرسل

(١) Ravier au général Friant, Miniet, Le 22 Janvier 1800, Doc. No. 2073. (١)

ملف رقم ١٢، B6 39 بدوسيه رقم ١ بمحفظه فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ (١٨) نيفوز إلى ١١ بلوفيز العام الثامن الجمهورى) .

Jomard, Op. Cit. P. 272-275. (٢)

Ibid, P. 278. (٣)

Ibid. P. 278. (٤)

٢٠٠ رجل إلى مدينة الفيوم لأن هذه المنطقة مليئة بالعربان منذ الفيضان^(١) ثم يقول زايونشك والحق يقال أنهم في سلام معنا ولكن لا يجب الاتكال على ذلك لأنى أخشى أن يسبب اقتراب مراد بك عودتهم إلى الحرب^(٢).

ونفهم من ذلك أن الفرنسيين قد أدركوا أن الصداقة مع العربان لن تستمر إلا إذا كانوا هم أقوياء وقادرين على كبح جماح العربان فى أى وقت . وظل العربان متحالفين مع مراد بك حتى عقد مراد بك معاهدة صلح مع الفرنسيين فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ فانضم معظم شيوخ القبائل العربية إلى مراد بك لكى يتفقوا على معاهدة سلام مع الفرنسيين^(٣). وتذكر وثائق الحملة الفرنسية أن شيوخ عرب المعازة قد اتجهوا إلى مراد بك لكى يتفقوا على توقيع معاهدة سلام مع الفرنسيين وكان هذا خبرا سعيدا Bonne nouvelle بالنسبة للفرنسيين^(٤).

(١) يؤكد مارتان ذلك حيث ذكر أنه لم يتمكن من النفاذ إلى الفيوم إلا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العام التاسع الجمهورى (نهاية ديسمبر سنة ١٨٠٠) وتعطل عن العمل لمدة ثلاثة شهور بسبب فيضان غير عادى لبحر يوسف أدى إلى صعوبة الاتصال بين بنى سويف والفيوم وتسبب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصيبها، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقا فى اغتنام هذه الفرصة كى يأتوا لينهبوا السكان، وحدث ذلك خلال هذه الفترة وحين قام قائد بنى سويف بإنفاذ قوات النجدة التى أرسلها إلى مدينة الفيوم كان العربان الذين تلقوا تحذيرا بالأمر قد اختفوا ومعهم أسلابهم قبل أن تصل إليهم الفرق الفرنسية انظر :

Martin, Description hydographique des provinces de Benysoueyf et du Fayoum, Dans Description de L'Egypte, Tome seizième, paris 1825, P. 20.

وتجدر الإشارة إلى أن التجمع العام للقبائل العربية التى تحيط بإقليم الفيوم يطلق عليها اسم السمالو، والسمالو هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر إقامة ثابت فى الفيوم . لمزيد من التفصيل عن القبائل العربية التى تقطن ولاية الفيوم انظر :

Martin, Op. Cit. PP. 67, 68.

(٢) Le général de brigade zayonchek au général en chef, au quartier général de Béhissouéf, le 20 fructidor an 7 (6 Septembre 1799) Doc. No. 69.

ملف رقم ١٠ بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٣) Friant au général en chef Menou, au Caire, Le 23 Aout 1800.

ملف رقم ٤، B6 51، بمحظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

(٤) Binot a Friant, Chéronné Le 29 Thermidor an 8 (17 Aout 1800).

ملف رقم ٣، B6 50 بمحظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ .

ويدل هذا على أن العربان كانوا قوة اجتماعية لها دور مؤثر وإلا ما كان الفرنسيون سعوا إلى الاتفاق معهم لتحقيق مصالحهم من جهة وخشية لبأسهم من جهة أخرى، ويدل أيضا على أن مراد بك كان له نفوذ لدى قبائل العربان بدليل سعيهم إليه ليتوسط لهم لدى الفرنسيين في عقد تحالف معهم والدليل على ذلك رسالة من مراد بك إلى الجنرال دنزلو حاكم ولاية أسيوط ومنفلوط والمنيا يوصيه فيها مراد بك بالعمل على راحة شيخ العرب على محمد كريم شيخ عربان طرهونه^(١) ويقول له "فإن المذكور صادق في الخدمة إن كان في طرفكم أو في طرفنا قبل حضوركم والمراد منكم راحة المذكور في كامل أحواله وترحيوه غاية الراحة، ولم تسمعوا فيه كلام أحد من المكروهين وتعطوه أمانا كافيا من حضررتكم السعيدة ولم نعرف راحة المذكور إلا منكم كما هو العشم فيكم واحنا نعرف ونتحقق أنكم لم تعوزوا وصية من قبل الذين طرفنا وثانيا أن المذكور خدامكم وخدامنا والحال واحد"^(٢). كما أشارت جريدة كوربيه دي ليجييت في عددها الصادر في ٨ يناير سنة ١٨٠١ إلى أن القائد العام لجيش الحملة قد عقد صلحا مع عبد الله بن محمود وافي شيخ قبيلة الطرفة Tاتفه بالقرب من أسيوط^(٣).

ويتضح من ذلك أن القبائل العربية كانت قد ملت من كثرة إغارات الفرنسيين عليهم فرأوا الخلود إلى الراحة عن طريق عقد السلام مع الفرنسيين مثلما فعل مراد بك الذي ضرب لهم المثل الأعلى في التصالح مع الفرنسيين، أما البقية الأخرى من القبائل العربية التي لم تعقد صلحا مع الفرنسيين، فقد قامت القوات الفرنسية بمطاردتهم مثلما حدث مع عربان أولاد علي^(٤)، فعندما حاول الفرنسيون مطاردة فريق منهم عند سمالوط، كان عربان

(١) سبقَت الإشارة إلى مقر إقامتها بالفصل الثاني.

(٢) وثيقة رقم ٥٣ مؤرخة في ١١ محرم سنة ١٢١٥ هـ (٤ يونيو سنة ١٨٠٠ م) بمحفظة بدون رقم ولا تاريخ بمكتبة جامعة القاهرة.

(٣) Courrier de L'Egypte. No. 96, Le 18 Nivose an IX (8 Janvier 1801).

(٤) انسحب عربان أولاد علي أمام ضغط الفرنسيين عليهم من ضواحي الإسكندرية في صيف عام ١٨٠٠ إلى الصعيد، وقدم أكثر من ألف فارس من أفراد القبيلة وأقاموا في ادمو بالقرب من المنيا. انظر: Jomard, Op. Cit. PP. 309, 313.

أولاد على قد علموا بذلك فى الوقت المناسب وفروا بعيدا عن أعين الفرنسيين دون أن يخسروا رجلا واحدا(١) .

ويمكن القول بأن العربان قد أزعجوا جيش الحملة الفرنسية فى صعيد مصر، وأيضا قام البعض منهم بمهاجمة بعض القرى ونهبها ففى رسالة من بليار إلى عثمان بك الطنبورجى يذكر له فيها ما يلى "علمت أن العربان يسيئون جدا للأهالى، أرجوا إبعادهم بأقصى سرعة لتأمين سلامة وأمان القرى"(٢) .

ومعنى ذلك أن المماليك الذين عقدوا صلحا مع الفرنسيين وجب عليهم أن يقوموا بما يجب أن يقوم به الفرنسيون ألا وهو مطاردة العربان والقضاء على المتمردين منهم . وعلى كل حال فإن الحملة الفرنسية لم تتمكن طوال إقامتها فى مصر إلا من التقليل من غارات العربان وتقليل أضرارهم فقط، ولم ينجحوا فى الحد من نفوذهم أو القضاء عليهم باعتبارهم قوة إجتماعية كان لها تأثيرها على المجتمع الريفى أو حتى كمجرد قوة ألحقت بهم هم أنفسهم الكثير من الأضرار(٣) .

وإذا كان الفرنسيون قد فشلوا فى القضاء على قوة ونفوذ العربان نتيجة لقلّة إمكاناتهم المتمثلة فى قلة عدد جنودهم، وانشغال الحملة بأمر عسكري آخرى أكثر أهمية تتمثل فى رد الحملات العثمانية، إلى جانب الاضطرابات التى شملت القطر المصرى ككل مما أدى إلى توزيع الجنود الفرنسيين فى أماكن عديدة. فإن محمد على قد توفر له من الوقت والإمكانات التى مكنته من كبح جماح العربان والسيطرة عليهم .

Jomard, Op. Cit. PP. 309, 313.

(١)

Ordres de Belliard à Aoshan Bey Tombourgi, Le 11 Floreal an IX (1 Mai 1801, (٢)
B6 133, Doc. No. 1594.

ملف رقم ١١، B6-68، بمحفوظة فترتها التاريخية من ٢١ أبريل إلى ١٢ مايو سنة ١٨٠١ .

(٣) سلوى العطار : التغيرات الاجتماعية فى مصر منذ الحملة الفرنسية حتى بناء الدولة الحديثة. رسالة

دكتوراه غير منشورة بم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٧٩، ص ١٧٣ .

٤ - الأقباط :

عاش الأقباط فى صعيد مصر قبيل مجئ الحملة الفرنسية^(١) جنباً إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين فى ونام، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة^(٢)، كما تخصص الأقباط فى الشئون المالية والحسابية، فعملوا فى خدمة الملتزمين بالقرى، كما عهد إليهم البكوات الممالك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأتبان والحاصلات، فكانت لهم فى هذه الناحية من إدارة الحكومة سلطة لا ينازعهم فيها منازع^(٣).

وظل الأقباط يعيشون داخل المجتمع المصرى إلى جانب المسلمين يمرون بنفس الأحداث والمؤثرات التى يمر بها باقى سكان مصر سواء الأحداث السياسية أو الإقتصادية أو الإجتماعية حتى قدوم الحملة الفرنسية فما هو موقف الأقباط فى صعيد مصر من الحملة الفرنسية؟

كان من المنطقى أن يتعاطف الأقباط من "أصحاب المصالح" مع الغزاة الجدد وأن ينظروا إليهم باعتبارهم "مخلصين" سوف يحررونهم من ربة الخضوع لسلطان المسلمين ويرفعون عنهم إصرهم والأغلال التى كانت تقيدهم من غريب الأوامر والعادات^(٤) فاندفعوا

(١) تجدر الإشارة إلى أن الغالبية العظمى من أقباط مصر كانوا يقطنون فى صعيد مصر، وفى بعض أنحاء الصعيد قرى يسكنها الأقباط وحدهم، ويرجع البعض التركيز السكانى النسبى للأقباط فى الصعيد إلى أن الصعيد كان أكثر أمناً من الوجه البحرى. لمزيد من التفصيل انظر : إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم (فى القرن التاسع عشر) ترجمة عدلى طاهر نور، الطبعة الأولى مطبعة الرسالة ١٩٥٠، ص ٣٩٨، محمد عفيفى : الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، العدد رقم ٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢، ص ص ١٩٨، ١٩٩ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن النشاط الإقتصادى للأقباط فى العصر العثمانى . انظر : محمد عفيفى : المرجع السابق، ص ١٥١-١٨٩ .

(٣) لمزيد من التفصيل عن الأقباط والإدارة المالية فى العصر العثمانى، انظر نفس المرجع، ص ١٠٥-١٤٨ .

(٤) كان الأقباط يخضعون من حين لآخر لبعض القيود التى كان جهاز الحكم يفرضها عليهم من حين لآخر ومن بين تلك القيود التى كانت مفروضة عليهم، القيود على الملابس بحيث كانت ملابسهم تتميز بالألوان-

يرحبون بهم، ويعرضون عليهم خدماتهم، فهم قبل كل شئ مسيحيون مثلهم وغزوهم البلاد يمثل تغييرا جذريا لنظام الحكم وبنيتة، وكان من المنطقي كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم، وبخاصة بعد أن لمسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات، فأخذوا منذ أن استقر الأمر لهم فى القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد، ولمساعدة الجهاز الإدارى على تدبير شئون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمحكومين على السواء^(١).

وتذكر المصادر المعاصرة أن أهل مدينة قوص La ville de Kous بصعيد مصر وغالبية سكانها من الأقباط Cophites وبالتالي مسيحيون Chrétiens كانوا يهتمون بأخبار الفرنسيين ويتعاطفون معهم ويتمنون لجيشهم النجاح ويخبرونهم بأخبار القوات المصرية التى سيلتقون بها، وتذكر هذه المصادر أن مصدر هذه المشاعر لم تكن بسبب وحدة الدين فقط ولكن بسبب ما أحاطهم به ديزيه من عناية وكرم حتى أطلقوا عليه لقب العادل Le surnom de Juste وكان هؤلاء الأقباط يخافون على الفرنسيين من أى خطر يهددهم^(٢).

كما تشير وثائق الحملة الفرنسية إلى خوف الأقباط إذا ما فلت زمام الأمور من الفرنسيين ففى رسالة من فاليت قائد جرجا إلى بليار يقول له "الريف عندى هادئ ولكن أهل أخميم قلقين، إن جميعهم مسيحيون وهم يخشون أن يقتلوا إذا ما فلت منا زمام الأمور"^(٣).

- خاصة حتى يتميزوا عن المسلمين، كذلك حرم عليهم ركوب الخيل، وكذا حمل السلاح والتقلد بالسيوف وتعلية منازلهم أكثر من منازل المسلمين وما إلى ذلك من قيود. لمزيد من التفصيل انظر: ليلى عبد اللطيف أحمد: المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٩٨٧، ص ٦٣.

(٢) أحمد حسين الصاوى: المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٣، ١٤.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر:

P. Martin, Histoire de L'Expédition Francaise en Egypte, Tome Premier, Paris 1815, PP. 360, 361, Dominique DI Pietro, Op. Cit. P. 138.

Vallet au général Belliard, 13 Décembre 1799, Doc. No. 1636. (٣)

ملف رقم ١٢ بدوسيه رقم ٢، Carton 37، بمحفظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

وفى رسالة من زاينوشك قائد بنى سويف إلى الجنرال دوجا يقول له "الحالة تبدو هادئة ولكن أهل القرى يكتسبون يوما فيوما بعض الشجاعة، أما الأقباط فيبدو عليهم الخوف" (١) .

ولكن لماذا يخاف الأقباط ولماذا يخشون أن يفلت زمام الأمور من الفرنسيين؟ لا شك أن خوف الأقباط يدل على تعاونهم مع الفرنسيين وتعاطفهم معهم وأن هذا الشعور من الأقباط بالتعاطف تجاه الفرنسيين قد ظهر للمسلمين من أبناء الصعيد، فخشوا إذا ما فلت زمام الأمور من يد الفرنسيون أن ينتقم المسلمون منهم .

ولهذا بادر ديوان القاهرة بإرسال فرمان إلى حضرات القضاة والحكام "حاكم الشرع الشريف بولاية إسنا وإقطاعها وكل العلماء والسادات الأشراف والأعيان والمتكلمين وجميع من يخاطب من مشايخ البلاد والعربان" يوصوهم بأهل الذمة "الطائفة النصرانية والرعايا القبطية تعاملوهم معاملة الأمن والأمان القاطنين بالنواحي والبلدان حيث أنهم يدفعون الجزية الشرعية لهم ما لنا وعليهم ما علينا" (٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن أبرز الشخصيات القبطية التى تعاونت مع الفرنسيين بإخلاص شديد ووفاء لا مثيل له كان المعلم يعقوب (٣) الذى كان الساعد الأيمن للجنرال

(١) Zayounchek au le général Dugua, à Benisouef, Le 22, Janvier 1800.

ملف رقم ٦، B6 40 بدوسيه رقم ٢ بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ .
(٢) سجلات المحاكم الشرعية : سجلات محكمة اسنا، سجل رقم ٥١ فترته التاريخية من ٢٠ ربيع أول إلى ٣ شوال سنة ١٢١٤هـ، وثيقة رقم ٦٧٦ مؤرخة فى ٢٥ شهر ذى القعدة سنة ١٢١٤هـ (٢٠ أبريل سنة ١٨٠٠) ص ٢٨٤ .

(٣) ولد المعلم يعقوب حنا فى ملوى حوالى عام ١٧٤٥ من أسرة قبطية متوسطة، وقد التحق فى طفولته بأحد الكتاتيب القبطية وفيه تعلم مبادئ القراءة والكتاب والحساب، وحفظ بعض المزامير والنصوص الكنسية، وعمل يعقوب فى صباه مساعدا لبعض الكتبة من أبناء طائفته حتى أتقن حرفتهم فالتحق مثلهم بخدمة الأغنياء فى مجال تحصيل الأموال وضبط الحسابات، ثم استقر فى العمل مع سليمان بك أغا الذى كان من كبار أغنياء المماليك، يدبر التزامه فى أسبوط ويجبى أمواله ويضبط دفاتر حساباته وقد جنى يعقوب من نشاطه المالى ثروة طائلة، كما اكتسب خبرة واسعة فى الشئون المالية، وكان يعقوب يتمتع ببنية قوية مكنته من التدريب على مهارات الفروسية مع من عمل فى خدمتهم من المماليك، -

ديزيه فى حملة الصعيد ضد مراد بك وعرب الحجاز وأبناء الصعيد ورفض أن تكون مهمته مقصورة على تدبير المال والإشراف على شئون تموين الجيش الفرنسى بل اشترك اشتراكا فعليا فى الحرب إلى جانب الفرنسيين، ولما انتصر يعقوب فى واقعة القوصية El-Qousieh قلده الجنرال ديزيه فى مساء ذلك اليوم سيفاً كتب على نصله اسم الواقعة (١) .

وكان يعقوب يدل الفرنسيين على المواقع الهامة فى حملة الصعيد، وكان لجهوده هذه كما يقول من أرخوا له أكبر الأثر فى نجاح حملة ديزيه (٢) ويذكر الجنرال بليار فى مذكراته أن "المعلم يعقوب القبطى يلعب الان دورا هاما فى البلاد، فالأهالى يعتبرونه كسلطان Sultan كما كان يطلق على فرقة الجيش الفرنسى بالصعيد جيش المعلم يعقوب (٣) L'armée de moallem Jacob ويؤكد الجبرتي تعاون المعلم يعقوب مع الجنرال ديزيه بصعيد مصر فيذكر "سافر عدد من الإفرنج إلى جهة الصعيد وعليهم صارى عسكر المتولى على الصعيد اسمه دزه (ديزيه) وبصحبته يعقوب القبطى ليدبر لهم الأمور ويعمل لهم أنواع المكر والخداع، ويطلعهم على الخبايا ويصنع لهم الحيل" (٤) ولقد استعان الفرنسيون بعدد وافر من أقباط الصعيد ليسدوا بهم النقص فى صفوفهم، حيث ذكر الجبرتي ضمن حوادث شهر المحرم سنة ١٢١٥هـ (مايو - يونيو ١٨٠٠م) ما يلى : "وفيه طلبوا عسكرا من القبط فجمعوا منهم طائفة وزبوهم بزبهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك

= وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال، وقد حارب يعقوب بالفعل فى صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التى نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثمانى قبيل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة . لمزيد من التفصيل . انظر : أحمد حسين الصاوى : المرجع السابق، ص ١٧، وما بعدها .

(١) Gaston Homsy, Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Égypte (1798-1801) Marseille 1921, P. 60.

(٢) أحمد حسين الصاوى : المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٣) نقلا عن : La Jonquiére. Op. Cit. T. 111. P. 510.

(٤) عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس، حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣هـ، ص ٥٥ .

وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر وأضافوهم إلى
العسكر (١) ٠

ولقد أدى العجز في عدد الجنود الفرنسية إلى دفع الفرنسيين بتجنيد عدد من شباب
الأقباط وتكوين كتيبة قبطية في الجيش الفرنسي تقوم بمساندته في رد الهجمات التي يتعرض
لها، وتؤكد الوثائق الفرنسية على رغبة القائد العام للجيش الفرنسي في تجنيد العديد من
المصريين في الجيش الفرنسي وإن كانت غالبيتهم من الأقباط ففي رسالة من دونزلو قائد
أسيوط إلى القائد العام منو قال فيها "أقوم بتجنيد مصريين كل يوم، ولقد وصل عددهم ٩٨
رجل وهم يذهبون إلى المدرسة à Lécole مرتين في اليوم، وأنا مسرور منهم، وقد حلقوا
ذقونهم وارتدوا ملابس الجيش الفرنسي وحتى وصول أوامر أخرى منك، سأواصل عمليات
التجنيد في منطقتي، أغلب الجنود من الأقباط وأنا احتاج أموالا لصرف مرتباتهم وهي
بسيطة لتكفي احتياجاتهم، أرجو أن تقوم بإرسالها لي" (٢) ٠

فرد عليه القائد العام منو قائلا "سوف تقدم لي خدمة كبيرة وللجمهورية إذا أمكنك أن
تجنّد Recruiter مسلمين وأقباط، فأنا أوافق على تجنيدهم في الجيش الفرنسي على أن
يقوموا بحلق ذقونهم leur barbe Couper ، إذا أمكن حاول أن يكون عددهم ١٥٠ في كل
فرقة لأن هذا مفيد جدا" (٣) ٠

وفي رسالة من بليار إلى قائد جرجا يقول له "قائد الكتيبة القبطية La Légion
cophte ذاهب إلى جرجا للحصول على قائمة بأسماء كل الرجال المنضمين لهذه الكتيبة،

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، ج٢، ص ٣٥٧ ٠

(٢) Donzelot au général en chef au Kaire, Asiout, Le 13, Messidor an 8 (2) 8
Juillet 1800

ملف رقم ٣، B6 47، بدوسيه رقم ٢ بمحفظه فترتها التاريخية من ١ يونيو إلى ٩ يوليو سنة ١٨٠٠ (١٢)

بريريال إلى ٢٠ ميسيدور العام الثامن الجمهوري) ٠

(٣) Ménou à Donzelot à siout le 23 Messidor an 8 (11 Juillèt 1800) Doc. No. 314, (٣)
B6 122.

بمحفظه فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ ٠

أرجوك العمل على عدم مضايقته فى مهمته واعمل على الاتفاق معه بخصوص هذه القائمة بحيث تشمل العدد الكامل لهؤلاء الرجال مع العناية بوضع ملاحظاتك حول سنهم، حالتهم ومقدرتهم" (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن الفرقة القبطية قد أنشأها الفرنسيون وقاموا بتدريبها وتسليحها لتكون أداة لتثبيت الاحتلال الفرنسى فى مصر، وقام الجنرال كليبر بتقليد المعلم يعقوب حنا قيادة الفرق العسكرية التى كونها من شباب الأقباط (٢) ومنحه رتبة أغا ثم رقى فى عهد الجنرال منو إلى رتبة جنرال General فى مارس سنة ١٨٠١ (٣) .

ولا شك فى أن مكافأة الجنرال منو ليعقوب بترقيته إلى رتبة جنرال كانت نظير خدماته المخلصة للفرنسيين، وظل الجنرال يعقوب مخلصا للفرنسيين حتى خرجت الحملة الفرنسية من مصر فرحل معها وركب يعقوب ومن معه الفرقاطه بالاس Pallas وهى السفينة نفسها التى أقلت الجنرال بليار وعددا من جنوده وضباطه وأبحرت بالاس بقيادة

Beillard au commandant de la place de girgeh, le 10 Fructidor an 8 (28 aout (١) 1800).

بمحافظة فترتها التاريخية من ٣١ أغسطس إلى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ (١٥ إلى ١٩ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى) .

(٢) ذكر الجبرتي ضمن حوادث عام ١٢١٥ هـ ما يلى : "ومنها أن يعقوب القبطى لما تظاهر مع الفرنسيه وجعلوه مارى عسكر القبطه جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنسيه مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليه قطعة فروة سوداء من حلد الغنم فى غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصرى التى هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنان عظام وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رمه الفرنسيه ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيه" انظر الجبرتي : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٧، ٤٣٨ .

Homsy, Op. Cit. P. 121.

(٣)

القبطان جوزيف إدموندس Edmonds فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١، وبعد أن أقلعت السفينة بيومين أصيب يعقوب بالحمى وما لبث أن اشتد عليه المرض ومات فى عرض البحر بعد أربعة أيام فى ١٦ أغسطس، وقد كانت آخر كلماته وهو يحتضر للجنرال بليار أن يدفن مع صديقه ديزيه فى قبر واحد، ولم يلق ربان السفينة بجثة يعقوب إلى البحر كالمعتاد فى مثل هذه الحالة، بل استمع إلى رجاء من معه فاحتفظ بالجثة فى دن من الخمر حتى وصلت السفينة إلى مرسيليا وهناك تم دفنها فى جبانة المدينة(١) .

ويمكن القول بأن يعقوب قد ساند بكل ثقله وإمكاناته الغزاة الفرنسيين وعاونهم فى إحكام قبضتهم على مصر، واحتمى بقوتهم وحسب أن حكمهم بدايةً لمرحلة جديدة سوف تتغير فيها موازين القوى ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية الفرنسية مكانة متفوقة تتناسب وما قدمه هو وفيلقه لسلطات الحملة من خدمات(٢) .

و على أية حال وبالرغم من تعاطف الأقباط فى الصعيد مصر مع الفرنسيين إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن كل الأقباط فى الصعيد قد تعاونوا مع الفرنسيين، وكان تعاطف الأقباط فى مدن الصعيد يبدو واضحاً عنه فى قرى الصعيد، ويبدو أن دعاية المعلم يعقوب القبطى بين الأقباط فى الصعيد هى التى خلقت هذا التعاطف بين أقباط الصعيد إلى حد ما .

ويرى الباحث أن غالبية الأقباط فى ريف الصعيد قد شاركوا فى الثورات جنباً إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين ضد الغزاة الفرنسيين الذين قاموا بحرق القرى المتمردة ونهبها واغتصاب نساها .

ويتساءل الباحث هل كانت النيران تفرق بين بيت مسلم وآخر مسيحى وهل كان الجنود الفرنسيون يفرقون بين امرأة مسلمة وأخرى مسيحية فى حالات الاغتصاب التى تعرضت لها المرأة الصعيدية فى مناطق عديدة من الصعيد على يد الجنود الفرنسيين ؛ بالطبع لا! فلم تكن النيران تفرق بين مسلم ومسيحى، ولم يكر الجنود الفرنسيون يفرقون بين

(١) أحمد حسين الصاوى: المرجع السابق، ص ص ٥٠، ٥١ .

(٢) نفس المرجع، ص ٨٢ .

إمرأة مسلمة وأخرى مسيحية، ومعنى ذلك أن الأقباط قد تعرضوا فى كثير من القرى لما تعرض له المسلمون من حرق لبيوتهم ونهب لمخاضيلهم، واغتصاب لنسائهم، ومعنى ذلك أن الأقباط قد شاركوا المسلمين فى الدفاع عن عرضهم (شرفهم) وعن بيوتهم وعن أرضهم ضد الغزاه الفرنسيين، وإذا كانت المصادر الفرنسية المعاصرة لم تذكر حالات من هذا النوع وربما تعمدت ذلك عن قصد، وإن كانت فى نفس الوقت قد ذكرت حالات لتعاطف الأقباط فى الصعيد مع الفرنسيين عن عمد لتثبت أن كل القوى الإجتماعية لم تقابل الوجود الفرنسى بالرفض والثورة عليه. وأن طائفة الأقباط كانوا متعاونين ومتعاطفين مع الفرنسيين، وإذا كنا نتفق مع هذه المصادر بأنه ظهر تعاطف من جانب المنتفعين من الأقباط مع الفرنسيين إلا أننا أيضا نرى أن الجانب الأكبر من الأقباط فى الصعيد قد شاركوا باقى القوى الإجتماعية فى الثورة على الوجود الفرنسى بالصعيد.

ولكن ما هو مصير الفئة التى تعاونت من الأقباط مع الفرنسيين بعد خروج الفرنسيين من مصر؟ بعد خروج الفرنسيون من مصر وعودة مصر للسيادة العثمانية من جديد، تغاضت الدولة العثمانية عن تعاطف الأقباط مع الفرنسيين أو المتعاونون معهم وحثت فرمانات السلطان العثمانى سليم الثالث^(١) على معاملة الأقباط معاملة حسنة وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه والتماس العذر لمن تعاون منهم مع الفرنسيين قائلا "إننا محيطون علما أن طائفة القبط لأجل صيانة أعراضهم وحفظ أموالهم تبعوا الكفرة الفرنسيين وأن طائفة القبط رعية دولتنا العلية ويعطوا الجزية فالمطلوب يرجعوا إلى محلاتهم وأماكنهم ويكونوا فى بيوتهم منشرحين القلب كما كانوا فى السابق لأنهم رعية دولتنا العلية ويلتزم حمايتهم وصيانتهم من كل الوجوه"^(٢).

وأكثر من هذا فإن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفهم فى تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى^(٣).

(١) تولى الحكم من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٧.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: سجلات المحاكم الشرعية، سجلات محكمة إسنا، سجل رقم ٥٣، وثيقة رقم

٢٦٩ مؤرخة فى شهر ربيع الأول عام ١٢١٦هـ، ص ١١٣.

(٣) أحمد حسين الصاوى : المرجع السابق، ص ٥٠.

وهكذا عادت الأمور إلى مجاريها بين المسلمين والأقباط، وفشلت الحملة الفرنسية في محاولتها وضع ما يمكن أن نطلق عليه إسفين بين الوحدة الوطنية المصرية بتقريبهم الأقباط ظلنا منهم أنهم بهذا يضمنون خلق طائفة ذات ولاء لهم ولكنهم لم يدرسوا واقع المجتمع المصرى على حقيقته .

الخاتمة

الخاتمة

اتضح من العرض السابق لفصول البحث أن حملة الجنرال ديزيه فى صعيد مصر قد واجهت ثلاث قوات مجتمعة هم الأهالى من أبناء الصعيد، والمماليك، وعرب الحجاز، واجتمعت هذه القوى ووقفت بكل شجاعة ضد الجنود الفرنسيين فى صعيد مصر، وبالتالي لم تكن مهمة الجنرال ديزيه سهلة حيث كانت المقاومة فى الصعيد تمتاز بميزة التنظيم، وكثرة التجمعات مما جعل الحرب فى صعيد مصر تتخذ شكل الحركات الحربية الحقيقية اذا ما قورنت بالمعارك التى دارت فى الوجه البحرى فالفرق بين الصعيد والوجه البحرى هو أنه كان يسهل إمداد القوات المحاربة فى الوجه البحرى لسهولة التنقل فيها، أما الجنوب، فلم يكن الإمداد سهلا وطول المسافات كان فى مبالغ المدافعين ومنهكا لقوى المهاجمين، ولا شك فى أن طبيعة الأرض فى الصعيد، ووجود العصبية فى هذه المنطقة، ونظرة الأهالى إلى معنى الحياة وقيمتها، كانت عوامل تساعد على ضراوة عمليات المقاومة فى الصعيد .

كما كانت حماسة أبناء الصعيد، وعقليتهم، وروح فروسيتهم، عوامل تتجمع لكى تخلق منهم قوات هجوم ممتازين تشكل خطرا على الفرنسيين باستمرار . وكانت مقاومة أهالى الصعيد للفرنسيين تظهر فى كل وقت كما رأينا من خلال عرضنا للفصول الثلاثة الأولى من البحث، حيث اشتعلت المقاومة فى شتى أنحاء الصعيد .

ولم يستسلم الأهالى يوما ما للوجود الفرنسى فى الصعيد بالرغم من حرق القرى وحرق المحاصيل ونهبها، واغتصاب النساء، وضرب الأطفال، ويدل هذا على أن أبناء الصعيد قد دافعوا بكل قوة وبكل شجاعة عن أرضهم وعرضهم ضد المستعمر الفرنسى، لأنهم وضعوا نصب أعينهم تاريخا يسطر وأجيالا قابلة ستحكم على مدى كفاحهم، ولأن الحرية تجرى فى عروقهم مع دمائهم . ووقف عرب الحجاز بجوار إخوانهم من أبناء الصعيد واشتركوا فى كثير من المعارك التى دارت فى الصعيد وأشادت المصارف الفرنسية بشجاعته وبسالته فى ميدان القتال، وهكذا وجدنا أبناء الجزيرة العربية يقاتلون الفرنسيين فى الصعيد جنبا إلى جنب مع إخوانهم من أبناء الصعيد، حيث كان عرب الحجاز خصوما أشداء للفرنسيين فى الصعيد إذ صمموا على الاستشهاد، وكان من بينهم عدد من الأشراف

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن مقاومة الحملة الفرنسية كانت مظهرا رائعا للأخوة العربية والترابط العربى، وأثبتت أن الشعوب العربية هى شعوب أمة واحدة تظهر أصالتها ويبرز تضامنها وتساندها إبان الشدائد. ووقف المماليك بجوار الأهالى وعرب الحجاز فى كثير من المعارك، وخططوا لبعض المعارك، ولكنهم ظهروا فى نهاية الأمر أنهم كانوا يبحثون عن مصالحهم ومنافعهم بدليل سعى زعيمهم مراد بك إلى عقد الصلح مع الجنرال كليبر فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠، حيث قبل مراد أن يحكم الجزء الجنوبى من الصعيد تحت السيادة الفرنسية وأن يكون تابعا وخادما مطيعا للفرنسيين.

ولم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار، بل كانوا هدفا للمفاجآت والمعارك غير المنتظرة من جانب أبناء الصعيد، واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات، والرحلات المنهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال.

وكانت القوة المسلحة، والقسوة، والإرهاب، والفظائع، هى الوسائل التى تذرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة فى الصعيد، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لا عداد لها، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال، وصار ديزيه يحارب حربا لا نهاية لها، فى ميدان واسع مترامى الأطراف يمتد من الجيزة شمالا إلى أسوان جنوبا، ومن القصير شرقا إلى واحات الصحراء الكبرى غربا، دون أن يصل إلى اخضاع البلاد اخضاعا تاما أو إقرار السلطة الفرنسية فيها.

وبالنسبة للنظام الإدارى الذى وضعه الفرنسيون فى الصعيد فلم يكن له من غرض سوى خدمة الفرنسيين بالدرجة الأولى، وتجدر الإشارة هنا إلى أن بونابرت لم يرم بإنشاء الدواوين فى مصر كما توهم البعض إلى خلق النظام البرلمانى، فبونابرت لم يكن ممن يعجبون به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر، بل رمى بها إلى إنشاء وسائل تمكنه من الاتصال بأعيان البلاد، وتفهم ما يجرى فى أنفسهم وتفهمهم حقيقة مشروعاته ونواياه حتى لا يبقى مجال لدس الدسائس وسوء الفهم.

وعن الأوضاع الاقتصادية فقد رأينا كيف زادت الأعباء على الفلاح فى الصعيد، فزادت الضرائب وقلت الثروة الحيوانية عما كانت عليه قبيل مجئ الفرنسيين نتيجة لاستيلاء

الفرنسيين على الكثير من دواب الحمل لاستخدامها فى حملاتهم العسكرية، ولم يعمل الفرنسيون على إنعاش الصناعة المصرية عموماً، وتراجعت التجارة عما كانت عليه قبيل مجئ الحملة الفرنسية نظراً للظروف العسكرية التى عاشتها الحملة فى مصر مما أدى إلى ضيق حجم التبادل التجارى، ولم يتح الوقت للفرنسيين للعمل على تطوير الاقتصاد المصرى بل إنها عملت على تحميله أكثر مما يطاق طوال ثلاث سنوات قضتها الحملة معزولة عن فرنسا واعتمدت فيها على اقتصاد مصر مما أدى إلى إنهاكه .

وعن موقف القوى الاجتماعية فى الصعيد فإن الحملة الفرنسية قد عملت على إظهار موقف هذه القوى فقد رأينا موقف الرفض التام من الفلاحين للفرنسيين، وعدم التعاون معهم، فى حين ظهر المماليك بزعامة مراد بك فى موقف المتعاون مع الفرنسيين إلى حد أنه كان يعتبر مواطناً فرنسياً، وأدى هذا الموقف إلى لفظ الأهالى للمماليك ولفظ السلطان العثمانى لهم، ولم يجد المماليك من يساندتهم بعد جلاء الفرنسيين عن مصر مما أتاح الفرصة لمحمد على بعد ذلك لأن يقضى عليهم لتنتهى دولة المماليك، وكان الفضل فى ذلك للحملة الفرنسية التى عملت على نل عرش المماليك وتقويض أركان دولتهم . وتصالحت بعض قبائل العربان مع الفرنسيين على غرار صلح مراد بك معهم، كما ظهر بعض الأقباط تعاطفاً وتعاوناً مع الفرنسيين وعلى رأسهم المعلم يعقوب الذى حصل على رتبة جنرال فى عهد الفرنسيين نتيجة لجهوده فى خدمتهم حتى أصبح المعلم يعقوب جنرالاً فرنسياً .

وفى النهاية تبقى كلمة وهى أن الحملة الفرنسية قد فشلت من الوجهة العسكرية، ولكنها نجحت من الوجهة الثقافية فى كشف صورة الحضارة فى أرض الكنانة للعالم وللإنسانية .

الملاحق

ملحق رقم ١

رسالة من مراد بك إلى الجنرال دنزلوه صارى عسكر حاكم ولاية أسيوط ومنفلوط والمنيا،

وثيقة رقم ٦٠ مؤرخة فى غرة شهر صفر سنة ١٢١٥هـ

(مصدر الوثيقة محفوظة بدون رقم ولا تاريخ محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة)

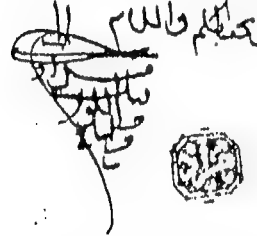
إلى جناب حضرة أعز المحبين الدستور المكرم حضرة محبنا العزيز الجنرال دنزلوه صارى عسكر حاكم ولاية أسيوط ومنفلوط والمنيا دام بقاءه بعد مزيد السلام عليه وكثرة الأشواق إليه أسبغ الله تعالى جزيل نعمته وفضله عليه . إن خاطرنا عندكم كثير قوى وإن سألتم عنا فإننا طيبين بخير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك أن حضر لنا جوابكم وقريناه وفهمنا ما فيه بالحرف الواحد وذكرتموا أنه حصل أمر الله تعالى إلى حضرة محبنا الصادق كليبر صارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية، وحصل لنا غم شديد وبكاء لأنه كان محمب لطرفنا ويعشمنا بكامل الخير، وسلطتنا غير حكم ما كنا أول ولكن هذا أمر الله تعالى لم فيه اندفاع، وإن شاء الله تعالى تكون البركة فى حضرة محبنا العزيز الدستور المكرم مينو صارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية، وبقا عشمنا فى حضرته السعيدة حكم ما كان عشمنا فى حضرة كليبر صارى عسكر فى كامل الوعد الذى أوعدنا به نرجو من حضرته راحتنا فى كامل الأمور وتكون المحبة ما بيننا وما بين الجمهور الفرنساوى مثل أول وتزيد، ويكون الصلح وكامل الشروط على ما هى عليه، وأن الواصل إلى عندكم جواب الى حضرة محبنا العزيز الدستور المكرم مينو صارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية صحبة الأمير ابراهيم أغا كتحدا تابعنا تطلعوا عليه قبل توجهوا وتفهموا مضمونه، وترسلوا صحبته واحد من طرفكم بتوصية إلى حضرة صارى عسكر ولم نعرف راحتنا من قبل المباشر وخلافه إلا من حضرتكم السعيدة حكم ما أرسلنا عرفناكم سابق تاريخه وباقى الكلام يعرفكم عنه الأمير ابراهيم كتحدانا وترسلوا لنا أخباركم لأجل الطمأنة عليكم والله تعالى يحفظكم والسلام فى غرة شهر صفر سنة ١٢١٥ .

أمير اللواء السلطاني

مراد بك

الحباقة اعز الحبيب الصعود المدهج فبما التور حبا
 ذلوق ما يري عكركم ولا يشهد وتلوها والمنا لم تله
 لمت رونا بسلام على ولن لا تلوها اليه الله طوبى
 سيرة وفضل على ان طاب بعدكم ليرتقي في ملت المغانا طابى
 حيدر ولسنا له المكنام ونشكلك ان فضلنا علىكم وقرنا فيها
 ما فيه الحرف الواحد وكرنا عما فعل امر الله تعالى الى هذه فينا
 الصادق كليل اجارى عكركم الى يوشا انضوا وعقلنا
 غم شديد وجباله كان في لطفنا ومغنا داما بالخير
 وسلطنا عيكم كما لنا اول ولكن هذا امر الله طابى
 اندفاع وان شا الله تعالى يكون اكراد في عقم فبا البر
 لستورا المكرم سينا حاري عكركم الى يوشا انضوا
 يتبعنا في صفنا بعد حكم ما كان عثمان في صفنا

كليل ما يري عكركم في كاملا لوقدا ليرى وعدنا به
 نرجوا من صفنا واضافي كاملا لمور وتلون المجد ما لنا
 وما بينا لمور ان ليرى مثل اول ويزيد ويكون الصالح
 وكاملا ليرى على ما في علمه وان لا يمل الى بعدكم حواط
 فبما البور لستورا المكرم سينا حاري عكركم الى يوشا
 انضوا محمد امير ابراهيم انما كفلنا تادينا بطلوع علم قبل
 ثوبه نور وبنور حقهم وركلوا حيتهم واحد طرفكم يتقصر
 انصفه حاري عكركم ويزيد في راحة تار قبل المكنام وفلا
 المكرم فيكم العبد حكم ما سنا عفا لما بيننا ربح
 وما في الكلام فيكم عنه المكرم كفلنا وركلنا
 ادنا دكر الملائكة حكمه واساني حكمكم والسلام



سحر المهر

... e su moltiplici, erano
 ... una lettera per
 ... Beau Generale del
 ... il Principe Abbatel Chichia
 ... di Spadillo, e capisano
 ... con lui uno da una parte
 ... e l'altro da un'altra parte
 ... al tutto visibile, ed al tutto non
 ... abbiamo fatto sapere per
 ... e il il Raffancho
 ... il Potentore
 ... Chichia.

... ed abbiamo capito ciò che in
 ... per parola d'ordine detto cioè che
 ... il Dio grande, tutto approvato vari
 ... Generale de' Francesi, che avuto
 ... e quanto per chi veramente ci
 ... sempre speranza di tutti i Beni, e
 ... come ora amo per il passato, ma
 ... Dio grande, non c'è forza di potere
 ... il Dio grande che la Benedizione si ritrova
 ... di tutto il nostro Beau Generale
 ... e l'uno di tutti speranza e a lui
 ... speranza sopra di Chichia
 ... di una sua nobiltà, speriamo
 ... in tutto la vita, e che l'altro
 ... la pubblica d'una speranza come per

... del capo. di Siga
 ... 1715

ملحق رقم ٢

صورة جواب حضرة أمير اللوا مراد بيك

١٥ شهر صفر ١٢١٥ إلى عبد الله مينو صارى عسكر أمير الجيوش الفرنسية،

مؤرخ فى ١٥ شهر صفر سنة ١٢١٥ هـ

مصدر الوثيقة محفوظة بدون رقم ولا تاريخ محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة

إن حضر لنا جوابكم وعرفتونا بما حصل إلى حضرة محبنا العزيز صارى عسكر
كليبير وهذا أمر الله تعالى لم أحدا بيده حيله وأمر الله تعالى لأبد عن نفاذه والذى سلب على
قتله مثل واحد كبير زى ده لم هو شأن الأميرى ويبقا خائن وقليل المروءة ولكن من قديم
الزمان الخوانة لهم وكل أحدا جزائه على الله تعالى وذكرنا لنا فى جوابكم أن الجمهورى
سلموا لكم كامل الأمور والحكم وحصل لنا غاية الفرح والسرور لأن سابق بلغنا عنكم
الأخبار الطيبة وشكر أنه عن حضرتكم من الناس جميعا يمدحونكم بكل خير واحنا الآخرين
حصل لنا فرح بذلك وزاد حبنا لطرفكم وإن شاء الله تعالى يكون راحتنا على الله تعالى
وعلى حضرتكم السعيدة وأنا على المحبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإن شاء
الله تعالى تزيد المحبة والتوفيق وقبل تاريخ ارسلنا لكم جواب صاحب الأمير ابراهيم أغا
كتخدا تابعنا وعرفنا الأمير ابراهيم كتخده يعرف حضرتكم عن راحتنا وحضرتكم تتحملونا
وتقبلوا عذرا فى سنة تاريخه لأن حاصل لنا تعب من قبل المعاش والأمر بالله تعالى وإلى
حضرتكم السعيدة وترسلوا لنا كامل أخباركم لأجل الطمأنينة عليكم والله يحفظكم.

ملحق رقم ٣

رسالة من مراد بك إلى جناب أعز المحبين الصادقين الدستور المكرم حضرة محبنا العزيز الجنرال دنزلوه صارى عسكر حاكم ولاية أسيوط ومنفلوط والمنيا دام بقاءه، وثيقة رقم ٩١ (مصدر الوثيقة محفوظة بدون رقم ولا تاريخ محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة)

بعد مزيد السلام عليه وكثرة الأشواق إليه اسبغ الله تعالى جزيل نعمه وفضله عليه أن خاطرنا عندكم كثير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك أن الواصل لكم الأمير محمد كاشف تابعنا يتوجه مصر بجوابات إلى حضرة محبنا العزيز صارى عسكر أمير الجيوش الفرنسية لأجل مقابلته ويفهم عن أمور المكروهين لنا لأن في هذا الوقت الذى يكرهونا كثير إن كان عثمانلى ولا خلافه على شأن صلحنا معكم ويسلطوا الناس المنافقين لأجل ما يفسدوا ما بيننا وما بينكم وإن المراد منكم يا محبنا تكتبوا جواب من عندكم إلى حضرة صارى عسكر أمير الجيوش الفرنسية أنه لم يسمع فينا كلام المكروهين لأن احنا عشمنا فى الجمهور بكل الخير والراحة والحمد لله تعالى انتم قريبين منا وناظرين احوالنا واحنا تبّع الجمهور بالصدق والمحبة ولم نمشى فى أمور شرك بفم خاطر الجمهور وترسلوا لنا أخباركم لأجل طماننا عليكم وأحنا عشمناين فى حضرتكم لأنكم خاص المحبين لنا واحنا كذلك .

فى ٦ جمادى أول ١٢١٥

أمير اللوا السلطاني

مراد بك

Vi ricordo il mio amico mahamet
 Caputo, il quale nasce con zorro.
 al mio amico Generale Grande.
 Capo dei Francesi, accio possi
 assistersi con lui, e fargli sapere
 la cosa della Santa Cassiva, che
 ci odia, perchè in questo tempo
 si trova molta gente, che mi
 odia, se sono fratelli, ovvero
 Allevi per la pace, che abbiamo
 fatto con voi, e solleva la
 Santa e ingratia, per fare rompere
 la pace. Voi la pace, e per
 ciò desidero da voi e mio amico
 che voi scriviate una lettera da
 tutta parte al Generale Grande, che
 si sente sopra di voi il parlare, dei
 vostri inimici, e noi abbiamo tutte le
 nostre speranze sopra la Repubblica
 Francese, e la nostra quiete, e ringra-
 zio Dio, che voi siate vicino di
 noi, e vedete e sentite il mio ami-
 care con la Repubblica con verità
 di amore, e al camino in cosa
 seria, che possono essere di
 servizio alla Repubblica.
 mandatevi tutte le vostre notizie
 per la vostra salute
 e noi abbiamo molte speranze
 sopra di voi, avendo voi il mio
 più devoto amico

il 6 del mese di Gennaro
 a voi anni 1765.

عندكم ارجو اني اكون
 اجمع بين الامم المذمومة
 عما في اموركم والحمد لله
 اتمني به ما اتمني اني اكون
 الفدق والمحمدي اعني في اموركم
 اتمني به ما اتمني اني اكون
 وادعائكم في اموركم
 وادعائكم

الى جاي البحر المذموم في الامم
 حقة في الامم المذمومة ما في
 حاكمه في الامم المذمومة ما في

بعد من الامم المذمومة ما في
 الى جاي البحر المذموم في الامم
 وادعائكم في اموركم

الى جاي البحر المذموم في الامم
 بما في الامم المذمومة ما في
 في الامم المذمومة ما في
 في الامم المذمومة ما في



٢٥٤

ملحق رقم ٤

عرضحال من أهالى ناحية طهطا الواضعين اسماءهم وختومهم فيه خطابا إلى الدستور
المكرم والجنرال المعظم الجنرال دنزلو صارى عسكر الجيوش الفرنسية بولاية المنيا
والأسيوطية وفقه الله تعالى للشفقة على الرعية، مؤرخة فى ٢٣ شهر رجب عام ١٢١٥ هـ
(مصدر الوثيقة محفوظة بدون رقم ولا تاريخ محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة)

نعلمه أن بلدتنا ناحية طهطا المذكورة فى حين حضر الجمهور الفرنساوى فى بر
مصر وهى فى راحة والرعية يبيعوا ويشترى بالحق والانصاف ويدفعوا جميع ما عليهم من
الجمرك المعتاد للديوان وكل يوم داخل البلد جميع ما يحتاج إليه معاش الرعية والفقراء
والمساكين وأهل البلاد المجاورة وخلافها ويبيعوا ويشترى والناس حاصل لها راحة ولم يكن
عليهم حوادث إلا الجمرك المعتاد .

والان حصل عندنا حوادث على جميع الذى يباع ويشترى فى غلال ومواشى وتبن
ووقد وطيور وتجارات وخلافه وذلك لم يكن معتاد قبل حضور الفرنسية ولا بعده فبسبب
ذلك امتنع جميع ما يدخل البلد من معاش الرعية وتعطل حال البلد وحصل لأهلها تعب
ومشقة عظيمة بسبب التعطيل الحاصل فى هذه الحوادث ونرجوا من حضرة جنابكم أن
تشفعونا فى رفع هذه الحوادث التى عطلت أحوال الرعية لأجل راحة الناس ويبيعوا ويشترى
ويدفعوا الجمرك المعتاد عليهم للديوان أن من عادتكم راحة الرعية والشفقة عليهم وتحبوا
عمار البلاد وجميع الرعية داعية لكم وحاصل لها سرور بكم أنه فى حين قدومكم لم يحصل
منكم إلا الراحة للرعية وعمار المحلات والله يوفق لفعل الخيرات .

تحريرا فى ثالث عشرين شهر رجب عام ١٢١٥ خمسة عشر ومائتين وألف

الفقير	الفقير	الفقير	الفقير عبد الله	الفقير إلى الله تعالى
عبد الرحمن محمد	مسعود أبو السعود	محمد عمر أفندى	على أحمد شيخون	السيد محمد عابدين
المالكى بطهطا	بطهطا			

ملحق رقم ٥

رسالة مراد بك إلى حضرة أعز المحبين الدستور المكرم حضرة محبنا العزيز الجنرال
دنزلوت حاكم ولاية أسيوط ومنفلوط والمنيا، مؤرخة في ١١ محرم سنة ١٢١٥ هـ
مصدر الوثيقة : محفظة بدون رقم ولا تاريخ محفظة بمكتبة جامعة القاهرة

بعد مزيد السلام عليه، وكثرة الأشواق إليه، أسبغ الله تعالى جزيل نعمه وفضله
عليه إن خاطرنا عندكم كثير قوى وغير ذلك نعرف حضرتكم من قبل شيخ العرب على
محمد كريم شيخ عربان طرهونة فإن المذكور صادق فى الخدمة إن كان فى طرفكم أو فى
طرفنا قبل حضوركم كنا كتبنا له جوابات إلى حضرة محبنا العزيز الدستور المكرم صارى
عسكر دام بقاءه وأن الجوابات بالتخمين إنها لم وصلت، ولكن لما حضرتوا وبقي راحة
المذكور على الله تعالى وعلى حضرتكم السعيدة. المراد منكم راحة المذكور فى كامل
أحواله، وتريحوه غاية الراحة ولم تسمعوا فيه كلام أحد من المكريين. وتعطوا أمان كافي
من حضرتكم السعيدة ولم نعرف راحة المذكور إلا منكم كما هو العشم فيكم واحنا نعرف
ونتحقق أنكم لم تعوروا وصية من قبل الذين طرفنا وثانيا أن المذكور خدامكم وخدامنا وأن
الحال واحد ولم نحتاج إلى شرح لكم كثر كلام والله تعالى يحفظكم والسلام :

١١. محرم سنة ١٢١٥ م

أمير اللواء السلطاني

مراد بك

Step.

Lettera di raccomandazione
per il Sieck Maramek Oka
vaone ai 11 di Malassam
anno 1715

الحقيقة انما الجبني المشرق والمكرم مفعونا
ابن الجناد الذي ولدوا له في كورنا وولدوا له
والينا

دام تبارك
لعدو برنات ديمع وياين الموقر الموقر الموقر
مير لم وقطاعا الشاكر الموقر الموقر الموقر
لعمرو مفعونا مفعونا الموقر الموقر الموقر
طهوه ما ان كورنا موقر في الحزم ليراد في طهوه
او في طهوه وبقا مفعونا الموقر الموقر الموقر
مفعونا مفعونا الموقر الموقر الموقر الموقر
دام تبارك وان اللواتك بالبحر في انبها الموقر
ولكن ما مفعونا مفعونا الموقر الموقر الموقر
مفعونا الموقر الموقر الموقر الموقر
انما له مفعونا الموقر الموقر الموقر
مفعونا الموقر الموقر الموقر الموقر
ولم يفرق مفعونا الموقر الموقر الموقر
وانما مفعونا مفعونا الموقر الموقر
البحر مفعونا مفعونا الموقر الموقر
وانما مفعونا مفعونا الموقر الموقر
وانما مفعونا مفعونا الموقر الموقر

مفعونا
مفعونا



مفعونا

ملحق رقم ٦

رسالة دونزلو إلى القائد العام الجنرال منو

وثيقة بدون رقم مؤرخة في أسيوط بتاريخ ١٠ فريمير العام التاسع الجمهورى
(مصدر الوثيقة : ملف رقم ١ ، B6 58 ، بحفظة فترتها التاريخية من ١ ديسمبر إلى ٢١
ديسمبر سنة ١٨٠٠ ، محفظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة

سيدي القائد

قائد كتيبة التنظيم "تونسار Tonsard الذى أرسلته إلى قنا مع فرقة بها ٢٥ رجل
ببيوف يعوده ومعه ١٥ مدفع كانت فى القلعة ١٣ منها حديد من أنواع ٨ ، ٦ ، ٤ والاثنتان
الأخران صلب وعير صالحان .

قلب القلعة قد دمر تماما بعد رحيلنا والمياه غمرت جزء من السور . مراد بك الذى
أعلمته مسبقا بوصولهم استقبلهم بحفاوة . هذا البك ما زال يقطن "هو How" ولن يتأخر فى
الذهاب للإقامة فى جرجا .

لقد عجلت بإرسال المواطن تونسار له ليخبره بامتثالك وبرغبتك فى نقل الجنود من
القصير إلى السويس . أكد له أنه سيقوم بتقديم كل التسهيلات لهم وإرسال مرشدين من
المماليك والعرب معهم وكل شئ يستطيع تقديمه . تبعا لتقارير وصلت إلى هذا البك إن
الجيوش الإنجليزية قد تركت جدة والبحر الأحمر . لم تصله أخبار مباشرة من سوريا .
بضعة ممالك جاءوا لرؤيته أخبروه أن الوزير ينظم صفوفه ومن بين قواته سيكون بعض
"الألبان" و"الأرمن" وسيقوم ببضعة هجمات على مصر . لكنه أكد لى أنه إذا كنا نشك فيه -
وهو غير صحيح . فإنه ليس له اتجاه آخر إلا الانضمام لنا ومشاركتنا فى مصيرنا ، لأن
العثمانيين - كما يقول - لن يغفروا له أبدا وأنه لا يثق فى وعودهم ومتوقع خداهم له . فى
هذه الظروف ليس له ملجأ آخر إلا الالتجاء للفرنسيين والاحتماء بجمهوريتهم .

أنا أحاول بكل قوتى الحفاظ على التوافق بيننا وبين هذا الأمير ولكنى آسف لأننا لم نعطيه مقابل يساوى الخدمات التى قدمها لنا والتى باستطاعته تقديمها فى المستقبل .
الفرنسيون الذين هربوا من العسكرية والموجودون معه لا يريدون تركه، بالرغم من تأكيدنا لهم بالعفو الذى أرسلناه مع المواطنين "زوسار Zousard" .

سأجد طريقة أخرى لاجبارهم على العودة . إنهم يرتدون ملابس الفلاحين ولا يأكلون مع المماليك . إنهم لا يركبون الخيل ولا يوجد معهم سلاح ومراد بك قرر أن هذا هو حالهم دائما لكى لا يتهم بجذب جنود فرنسيين إلى صفوفه .

سلامى واحترامى

دونزيلو

à l'ouest de 10 jours ou 10
le général de brigade Vongdet
au général en chef

Thou friend,

[illegible]

Conspicuous on foot a little forbidding! Depressed spirit
noted. Spent the day and night by the side of the river.

The next, and possibly necessary step, is to make a survey of the old records. In 1897 we mapped a flower. We know the old records. In 1897 we mapped a flower. We know the old records. In 1897 we mapped a flower. We know the old records.

Je t'ai écrit plusieurs fois pour
t'excuser pour le mal que tu faisais de ne m'écrire
rien. Mais je me suis senti obligé de t'écrire
maintenant. Je t'ai écrit pour te dire que je
t'aime et que je t'attends. Je t'ai écrit pour
te dire que je t'aime et que je t'attends.

Quand, et tout le jour
l'un des regards fait à ce lieu, et j'en suis
à l'innocence en face à l'innocence et de nos jours.

Il n'y a pas d'indication des nouvelles de ce genre.
Quelques nouvelles qui nous venent de Jérusalem, lui
ont rapporté que le Pacha chérifait, à Jérusalem
des amies; qu'elle venait en partie auprès d'Abdallah,
n. d'Alonzo, et qu'il paraît se faire, qu'il se rend
quelques tentatives sur le Egypte; mais il n'est pas de
nouveau assuré que dans l'un ou l'autre pays.

[illegible][illegible]

Italo et Margherita
Donizetti.

ملحق رقم ٧

خطاب موجه من السيدة نفيسة حرم مراد بك إلى القائد الأعلى عبد الله جاك مينو
مؤرخ في ١٧ ميسيدور السنة ٩ (٢٤ صفر سنة ١٢١٦هـ)
(مصدر الوثيقة ملف ٣٥، B6 70، بمحفوظة من ٢٠ يونيو إلى ٢٢ يوليو سنة ١٨٠٠،
محفوظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة)

بعد سلامنا وبعد دعواتنا لكي يحيطكم الله بنعمته، إذا كنتم تسألون عن أخبارنا فنحن
بأتم صحة، نحمد الله ونرغب في معرفة حالة صحتكم.
لقد تلقينا خطابكم وهداياكم التي أرسلتموها، فليزيد الله رخاءك ونحمد الله على
صحتكم ونحن ندعوه أن تكون نهايتكم حسنة.

منذ بضعة أيام جاءت السيدة زبيدة، زوجتكم لرؤيتنا مع سليمان ابنكم الغالي، ورغبنا
في أن يقيموا عندنا بضعة أيام لكي يستريحوا ولكي نتحدث سويا ولكنهم لم يستطيعوا لأنهم
لم يتلقوا الأمر أو الإذن من جانبكم، نحن نصلى يا صديقنا أن تستمر في إرسال الخطابات
لكي نطمئن على أحوالكم وحمالك الله من كل شر.

نفيسة الكبرى، السيدة الشريفة

٢٤ صفر ١٢١٦ هجرية

بصمة ختمها يحمل حرف (ن) وهو أول حرف من اسمها الشخصي

1700dams Mourad bey à Meuxon

17 Muzitor au 9

Lettre de Madame Nefissi, femme de Mourad Bey
au prince ou chef Abdallah Jégaou Mourou, que Dieu lui
donne la puissance !

Après nos salutations et après les vœux que nous faisons
pour que Dieu vous comble de ses grâces, si vous demandez de
nos nouvelles, nous nous portons bien, Dieu merci et nous
désirons savoir d'état de votre bonne santé.

Nous avons reçu votre lettre et le bien que vous nous
avez fait, que Dieu augmente votre prospérité, et nous la
remercions et Dieu de votre bonne santé, et nous lui deman-
dons de faire que la fin soit bonne. Il y a quelques jours
que Madame Zebedi, votre grande, est venue nous voir avec
Saliman, votre cher fils ; après nous avoir rendu visite,
nous avons désiré qu'ils séjourneraient chez nous quelque
jours pour se reposer et nous entretenir ensemble, mais
ils n'ont pu le faire, parce qu'ils n'avaient ordre ni
permission de votre part.

Pour la perte du feu notre mari, nous sommes
persuadée que le chagrin qu'il vous a occasionné
est vrai. Nous vous prions, notre ami, de continuer
toujours de nous envoyer de vos lettres pour nous
tranquilliser sur votre compte, et que Dieu
vous préserve de tout mal.

La grande Nefissi, d'une bonne etc.

Le 24 Saffar 1216 de l'égire

L'impression de son archet portée à l'écrit arabe -
1216, initiale de son nom, signature.

ملحق رقم ٨

رسالة من شريف مكة إلى قائد اللواء الجنرال دونزولو مؤرخة في ٢١ ديسمبر

سنة ١٧٩٩ وثيقة رقم ١٧٤٤

(مصدر الوثيقة ملف رقم ١٠، بمحفظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة

١٧٩٩، محفوظة بدار الوثائق القومية بكونريش النيل بالقاهرة

ترجمة حرفية بالفرنسية للرسالة العربية من شريف مكة الكبير إلى قائد اللواء

دونزولو .

بسم الله الواحد الأحد، له كل الصلوات، الذى منه كل الخيرات والسلطات، و كلمتى
أنا أمير مكة، إليك أنت دونزولو، الأمير الجنرال القومندان بالقصير، ليكن فى علمكم أن
رسالتكم وصلتنا وفهمنا كل ما بها واعلمنا تجار مكة أن يضعوا ثقتهم فيكم وقد وثقوا فى
كلامنا ونفذوه . وبعد المراكب التى وصلتكم سيصلكم غيرها، وتأكدوا بعد الثقة التى
وضعتوها فينا أنكم سترون الكثير من التجار . استقبلوهم وعاملوهم بنفس الطريقة التى
أفهمتهم إياها . وقد قررنا ذهاب بعضهم إليكم لأن بين أيدينا رسائل كضمان أمن وثقة من
أمرأ فرنسيين، وهؤلاء الأمراء لا يخونون الكلمة أبدا ولا يتكلمون إلا لغة واحدة . ومن
أجل هذا يصل عندكم إبننا الشريف حسن . اعتنوا به حبا لنا وما ستعملونه له كأنكم تعملونه
لى شخصا ولكم منا التحية .

إمضاء الشريف عبد الله

٢٣ من رجب ١٢١٤ هـ

21 décembre 1799

1744

Traduction littérale en français de la lettre en arabe
du Grand Chef de la Mecque -
au général de brigade Donzelot.

M. Dieu seul, il n'y a pas d'autre Dieu; à lui sont dues
toutes sortes de prières; les dons, les biens sont tous sa
puissance et viennent de lui, par une parole de prière.
de la Mecque, à vous Donzelot, prince général commandant
à Casseri, qu'il nous soit connu que notre lettre vous est
arrivée, que vous avez compris tout ce qui est écrit, et
que vous avez fait comprendre à tous les marchands
de la Mecque leur confiance et sûreté en vous; ils ont
eu à vos paroles et s'y sont abandonnés, après les bargues
qui vous ont déjà venues à vous autres, nous en avons encore, et
soyez sûr en vérité que, dans la confiance que nous nous avons
donnée, nous verrez beaucoup de marchands, riches et traités.
de la même manière que je leur ai fait comprendre, et nous
les disposerons et exciterons à venir auprès de vous, parce que
nous avons dans nos mains des lettres, gages de sûreté et de
confiance, des princes français; et ces princes ne trahissent
jamais leur parole, et n'ont qu'un seul langage; aussi pour
cela, il arrive auprès de nous notre fils, le chef Hassan,
ayez soin de lui, par amour pour nous, et ce que nous ferons pour
lui, c'est comme si nous le faisions à nous-même; et nous vous
faisons savoir que nous vous saluons.

Signé: le Chef, Esclav de Dieu.

L'an 1214, le 23 du mois Rabiab.

Fait copie conforme.

A. J. Lapanouille.

ملحق رقم ٩

رسالة من محمد أغا حاكم مدينة ينبع إلى الجنرال دونزيلو مؤرخة في ٢٢ ديسمبر
سنة ١٧٩٩، وثيقة رقم ١٧٤٥،

(مصدر الوثيقة ملف رقم ١٠ بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر
سنة ١٧٩٩، محفوظة بدار الوثائق القومية بكونرنيش النيل بالقاهرة

ترجمة عن العربية لرسالة محمد أغا حاكم مدينة ينبع إلى الجنرال دونزيلو

إلى دونزيلو حاكم القصير، الله أكبر يحفظه ويعطيه طول العمر، وبعد سلام عميق
يمن الله عليه برحمته وبركاته.
علمنا أنكم تذكروننا. حمدا لله أننا بصحة جيدة ونرجو أن تكونوا أنتم كذلك
وبعد... .

سيصلكم الشريف حسن ابن العبد لله، ومعه خطابنا. وإذ كنتم تسألون عن المراكب
فإن بعضها سيصل معه والبعض الآخر بعده، يوجد بها الكثير من البضائع. بعد ذلك
سيصلنا الكثير من البضائع، فأرسلوا إلينا مراكب الحبوب وسنبعث إليكم بالبن.

السنة الماضية كان البن قليلا في اليمن ولم يكن مثل الأعوام التي سبقتها ولكننا نأمل
أن يصلنا الكثير منه هذا العام. وقد وصل فعلا بن جديد من اليمن إلى جده، وإذا أراد الله
تصلنا قريبا.

أرجو لكم الصحة والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

محمد أغا من ينبع

٢٤ من رجب ١٢١٤هـ

15 22 dec. 1118

Traduction de la lettre en arabe, écrite par Mahammed
Aga, gouverneur de la ville de Liomba
au général Dongeloh.

A Dongeloh, gouverneur de Cosair, Dieu grand te conserve
et lui donne longue vie; et, après une grande paix, que
Dieu lui accorde sa miséricorde et lui donne sa bénédiction,
et vous pensant à nous, sachez. Connaissant à Dieu, que nous
sommes en bonne santé, et nous espérons qu'il en sera
de même à vous, ensuite de ses paroles, voilà qu'il nous
envie le Chef Hassan, fils de l'Éclat de Dieu, notre sénéchal
et notre maître, et avec lui; c'est notre lettre, comme vous voyez
et la vous parlez aux barques, certaines viennent après lui, et
d'autres marchent après lui; il y a beaucoup de marchandises;
après cela, il nous viendra encore d'autres biens, et vous
envoyez-nous des barques de grains, et nous vous enverrons
du café. L'année passée, il y a eu peu de café à Liomba,
et il n'y en a pas eu comme les autres années; mais celle-ci,
nous espérons qu'il en viendra beaucoup; et il est déjà
arrivé du café nouveau du pays de Liomba en Gadabay, et
Dieu veuille qu'il nous arrive sans peine; voyez en bonne
santé et la paix soit à notre grand profit Mahammed
et à tous les descendants.

L'an 1214, le 26 Rayab.

Signé: Mahammed. Aga de Liomba

Pour copie conforme.

14 J. Laperrière.

ملحق رقم ١٠

استيف الصراف العام ورئيس لجنة المؤن إلى لجنة الحبوب ببنى سويف

وثيقة رقم ٢٠٤٠ مؤرخة في ١٨ نيفوز العام الثامن الجمهورى

(مصدر الوثيقة ملف رقم ٨ B6 39 بدوسيه رقم ١، بمحظة فترتها التاريخية من ١ إلى

٣١ يناير سنة ١٨٠٠، محفظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة

لقد قرأت بالأمس فى مقر لجنة المؤن خطابكم بتاريخ ١٣ من الشهر الحالى والذى

تخبرونا فيه بإرسال ٥٠,٠٠٠ أردب شعير وفول وقمح من بنى سويف .

نحن نرجوكم أن تقوموا بكل استطاعتكم لكى تصل كمية ال ٢٠,٠٠٠ أردب قمح،

والتي هى ضمن الكمية المذكورة سابقا، تبعا لأمر يوم ٩ من الشهر الحالى .

إن وصولها إلى القاهرة حيوى وبدونها ستكون حالة مؤن الجيش سيئة .

سلامى

استيف

2049

au Kaire, le 18 mirase an 8

Estève, payeur général, président de la
Commission des subventions.

à la Commission des grains, à Benisouef.

J'ai la hâte, citoyen, à la Commission des subventions
notre lettre du 13 courant, dans laquelle nous vous
annonçâmes le prochain départ de Benisouef de
50.000 ardebs d'orge, fèves ou blé.

Nous vous prions de faire tous vos efforts
pour arriver aux 50.000 ardebs de froment
qui doivent se trouver dans cette quantité,
conformément à l'ordre du jour du journalet.
Leur arrivée au Kaire est indispensable,
et sans elle la subsistance de l'armée est
compromise.

Je vous salue
Estève

ملحق رقم ١١

أمر الجنرال كليبر المؤرخ فى يوم ١٧ فلوريل العام الثامن الجمهورى

إلى الإدارة العامة بالقاهرة

مصدر الوثيقة ملف رقم ٧ B6 44، بمحفظه فترتها التاريخية من أول مايو إلى ٣١ مايو سنة ١٨٠٠، محفظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة
أمر يوم ١٧ فلوريل العام الثامن الجمهورى

الجيش قد أنبئ أن القائد الأعلى، باسم الجمهورية، قد أعطى السلام لمراد بك، وقد

منح امتياز عوائد ريف جرجا.

أمر يوم ١٧ فلوريل عام ٨

"بقية"

من الان فصاعدا

المديرية الأولى ستشمل مديرية أسبوط والمنيا

المديرية الثانية، مديرية بنى سويف والفيوم

المديرية الثالثة، مديرية إطفح، والجيزة

المديرية الرابعة، مديرية الشرقية والقليوبية

المديرية الخامسة، كما فى السابق، مديرية البحيرة ورشيد

المديرية السادسة كما فى السابق، مديرية دمياط والمنصورة

المديرية السابعة كما فى السابق، مديرية الغربية

المديرية الثامنة كما فى السابق، مديرية منوف

أمر يوم ١٧ فلوريل عام ٨

"بقية"

قائد اللواء دونزلو Donzelos سيراأس المديرية الأولى

قائد اللواء زايونشك Zayonchek المديرية الثانية

قائد الفرقة فريان Friant المديرية الثالثة
قائد الفرقة رينييه Reynier المديرية الرابعة
قائد الفرقة لانوس Lanusse المديرية الخامسة
قائد الفرقة رامبون Rampon المديرية السادسة
قائد الفرقة فردييه Verdier المديرية السابعة والثامنة

Au quartier général du Kaïr le 17^e étiréal an 8

Ordre du jour du 17^e étiréal an 8

La ville est renommée sous le général en chef
au nom de la République, a accueilli le général
Mourad. Bien que les généraux concèdent
certaines de ses demandes.

Ordre du jour du 17th Floral an 8.
(suite)

- Sesonnais, le premier amendement aux
des provinces de Seyouth et Mingeh,
Le deuxième, des provinces de Bery-Song et de Teyoum,
Le troisième, des provinces d'Atfayak et de Teyoum,
Le quatrième, des provinces de Charayak et de Teyoum,
Le cinquième, comme ci-dessus, des provinces de Toubayak et de
Le sixième, comme ci-dessus, des provinces de Toubayak et de
Le septième, comme ci-dessus, de la province de Pharyak
Le huitième, comme ci-dessus, de la province de Teyoum.

Ordre du jour de l'armée

Le général de brigade Dargelot commande la première
 Le général de brigade Gayoncheb - - - - - la deuxième
 Le général de division Triant - - - - - la troisième
 Le général de division Reynier - - - - - la quatrième
 Le général de division Canova - - - - - la cinquième
 Le général de division Lampron - - - - - la sixième
 Le général de division Lédée - - - - - la septième

ملحق رقم ١٢

رسالة من لابانوز الوكيل الفرنسى لمديرية طبية إلى الشريف الكبير بمكة مؤرخة

فى يناير ١٨٠٠

(مصدر الوثيقة ملف رقم ١٦ B6 40 بدوسيه رقم ٢، بمحفظة فترتها التاريخية من ١

إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠، محفظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة)

لقد أعطيتنا أيها الشريف الكبير دليل مؤثر على صداقتكم بوجود إينكم الشريف حسن فى وسطنا الان لكى يجلب لنا أخباركم، ولقد سعدنا جدا لرؤيته . وقد أظهرنا له معزتنا وشعورنا تجاه سموكم . فتكونوا متأكدين أن أكبر طموحاتنا هو استمرار علاقات الصداقة والتجارة بيننا وبينكم . أرجو أن تعلمونا ما هى رغباتكم من هذا البلد الذى نحكمه نحن الان وستجدونا دائما فى خدمتكم على قدر استطاعتنا . نحن نعلم احتياجكم للحبوب، لهذا، سوف نرسلها لكم على وجه السرعة، وتبعا لاختصاصى فى موقعي هذا كوكيل للحكومة الفرنسية، فتأكدوا أنى لن أدخر وسعا لكى أكلف التجار بتحميل الحبوب من القصير، ومن جانبكم أرجو أن ترسل لنا الكثير من البن . وهذا التبادل بيننا سينتج عنه غنى مصر ومكة على السواء . لنكون أصدقاء دائما وليمت سوء الظن والكراهية الوحشية البربرية التى طالما تسببت فى محاربة الأتراك للمسيحيين والمسيحيين للأتراك .

إن الأمة الفرنسية قد استنارت وعادت لها المبادئ الإنسانية وجاءت إلى هذه المنطقة لتصلح المعتقدات الخاطئة . إننا جميعا بشر، كلنا اخوة، المسيحى والمسلم واليهودى، كلنا خلقنا إله واحد وله وحدة محاكمة البشر وله وحده الادانة فى التصرفات والمعتقدات وله وحده العقاب ولا يجب أن يلجأ البشر إلا لله .

فليرجع الأتراك إذن عن أخطائهم القديمة وليطمئنوا ويتقوا بنا نحن الفرنسيين . لقد جاء الفرنسيون إلى هذا البلد ليخلصه من العبودية وليرقى به .

وأنتم يا حضرة الشريف الكبير، الرئيس الروحى للديانة الإسلامية، والمسلمة لك المبادئ المقدسة والحامى للأماكن المقدسة لدى الأتراك والمسلمين عامة، نرجو أن تستمروا فى شهادتكم عن الصداقة التى تربطنا، وهى صداقة نعتز بها جدا هذه الشهادة سوف تقوى

أكثر فأكثر التوافق والوحدة الموجودة بيننا وبين الأتراك وستوفر سلام دائم بين الأمتين
للفائدة المشتركة .

أتمنى لك كل السعادة وليمزيد الله في عمرك سنين عديدة وليحرسك الرسول العظيم،
أنت وكل أبنائك حتى آخر الأيام . . ألخ ألخ .

الوكيل الفرنسي ريف طيبا

لابانوز

ملحوظة : هذه الوثيقة كانت مرفقة لخطاب من القائد لابانوز إلى الجنرال بونابرت بتاريخ

٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٢

C. de jure
joint à une lettre
du C. de jure au
C. de jure de
la V. de jure 1902

Janvier 1800.

Lapanouse, agent français de la province de Chéhel
du grand Chérif de la Mecque.

Vous nous avez donné, Grand Chérif, une preuve bien marquée
de votre amitié, en envoyant ici au milieu de nous votre cher fils,
le Chérif Hassan, pour nous apporter de vos nouvelles; nous avons eu le
plus grand plaisir de le voir et de pouvoir lui manifester tous nos
sentiments pour votre personne vénérable. Sapez bien certain que
notre ambition sera toujours de conserver avec vous toutes sortes
de relations d'amitié et de commerce. Faites nous donc connaître
quels peuvent être vos desirs sur ce pays, dont nous sommes
maintenant promesseurs, et nous nous verrons toujours bien disposés
à vous servir en tout ce qui dépendra de nos promesses. Nous
savons que vous avez besoin de grains, et bien, nous nous en
occuperons beaucoup; et pour ce qui me concerne dans ma place
ici de commissaire du Gouvernement français, vous pouvez être
assuré que je ne négligerai rien pour engager les
marchands à apporter beaucoup de grains à Corcor; et de votre
côté, Grand Chérif, envoyez-nous aussi beaucoup de café; cet
échange sera mutuellement avantageux et finira la pauvreté, la
richesse, et de l'Egypte et de la Mecque. Ainsi, soyons donc
amis pour toujours, et que ce préjugé étroit et barbare qui
de tous temps, a armé les Turcs contre les Chrétiens, et les Chrétiens
contre les Turcs, se dissipe, et s'émouline aujourd'hui. La Nation
française, éclairée et rendue à tous les vrais principes humains,
est venue dans ces contrées abjurer de semblables erreurs; nous
sommes tous hommes, nous sommes tous égaux, le Chrétien,
le Mahométan, l'Hébreu, tous sont créés par le même Dieu; à
lui seul appartient de juger les hommes, et de leur blâmer leur
culte et leur croyance, et à lui seul appartient de les punir.
Ce n'est qu'à lui qu'ils doivent compte de leurs actions, que
les Turcs donc renouant de leurs anciennes erreurs et préjugés,
qui se livrent à toutes sortes de sentiments de confiance

et d'ôter aux noirs le Français; ils sont venus dans ce pays
pour les sortir d'esclavage et les rendre plus heureux;
et vous, Grand Chérif de la Mecque, chef visible du
culte mahométan, dépositaire de ces lois sacrées et
Gardien du lieu le plus vénéré par les Turcs, continuons
nous toujours vos mêmes témoignages d'amitié, ils nous
sont très précieux; ils ne peuvent que contribuer à
établir de plus en plus cette bonne harmonie et union
entre le Français et les Turcs, et à amener enfin une
éternelle paix entre ces deux nations pour leur
commun bonheur. Je vous souhaite toute sorte de
Contentement, que Dieu vous conserve un grand
nombre d'années et que le Grand prophète vous
protège, vous et tous vos Descendants jusqu'à la
fin des siècles etc. etc.

L'agent français de la province de Chélou
→ M. J. Capanouse.

Pour copie conforme,
M. J. Capanouse.

ملحق رقم ١٣

من قائد الكتيبة دونزولو إلى القائد العام الجنرال مينوا

أسيوط في ٢٥ ميسيدور العام الثامن الجمهوري

(مصدر الوثيقة ملف بدون رقم B6 47، بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩

أغسطس سنة ١٨٠٠، محفوظة بدار الوثائق القومية بكونرنيش النيل بالقاهرة

سیدی الجنرال

عاد الضابط الذي بعثته برسائلك إلى مراد بك وإليك رده كما عرضه على . لقد اسعدته رسالتك جدا وفي رسائله وأقواله يوحى اليك هذا البك أنه حسن النية . وأول شيء أظهره شدة تأثره لمقتل الجنرال كليبر الذي كان يعتبره صديقه وراع مخلص ويخشى ألا يجد من خليفته نفس المشاعر تجاهه . وقد اطمأن من التأكيد الكامل بأنك ستلتزم من ناحيته بكل ما وعد به سلفك . ثم تحدث عن سوريا والعداء الواضح من الصدر الأعظم وأرسل لإحضار خطاب من ابراهيم بك وحسن بك وطلب قراءتها عليه . وهي تجرى الأخبار التي أرسلتها لك في العاشر من ميسيدور الماضي . لكن البكوات سجلوا أن الكثير من الشكاوى وصلت ضده، واتهموه أنه وفر مواد مشتعلة لحرق القاهرة أثناء الحصار، وأن الوزير في شدة غضبه أرسل تقريراً للصدر الأعظم، ولكنها قدما عنه شتى الأعذار متعللين أن مراد بك لم يتعاون معنا إلا لرغبته في الهروب من الفقر والبؤس والهروب من سكنى الصحراء حيث أصبح العيش مستحيل، وانتهاز الفرص لاسترداد قوته وقد ختما الرسالة بقولهما أن الوزير لا ينقصه إلا القليل ويبعث بجيش كبير للقضاء على هؤلاء الكفار .

بعد هذه الرسالة اعتقد أن ابراهيم بك وحسن بك لهما نفس المصلحة التي للعثمانيين، وقد طمأن مراد الضابط من ناحية اعتماد الفرنسيين على وفائه ولن يتراجع أبدا عن تصميمه في مقاسمتنا المصير وأن كل الوعود المعطاه له من جهتهم تخفى أحط النوايا الخبيثة . ولا يشك أن لرأسه ثمنا مثل كليبر وأنه يعلم أكثر منا ومنذ زمن طويل نوايا مبعوثي الصدر الأعظم وبالنسبة لاستعدادات الأتراك فقد أخبرنا بأننا سنهاجم من الجيش التركي وبأن ٥٠٠٠٠ رجلا سيرحلون من يافا في طريقهم للقاهرة وأن ٣٠,٠٠٠ سيصلون

بين رشيد والإسكندرية للالتقاء فى نفس الموقع عند الضفة اليسرى للنيل، وهذه المجموعات مكونة من انكشارية وأرمن وألبان ولن يكون هناك فرسان بالإضافة لبعض العرب مع حوالى من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ من المماليك ،

وقد أعلن مراد بك أن محمد بك الألفى لا يطيع أوامره وأنه فى الغالب ينتظر فى الصحراء بالقرب من القاهرة وصول الجيش التركى للانضمام له أو ربما كان مكلفا بتجنيد العرب وكان يجب تنبيهه بالانضمام له أو العودة للوراء ، وفى حالة العصيان يجب تشتيت جيوشه والقضاء عليه قبل وصول الاتراك ، وسينال منه اليأس .

عندما يعلم أن أحدا من رجاله لم يقبل الانضمام لأعداء الفرنسيين ، عندما سأله عن أخبار القصير أجاب بأن بارجه انجليزية غادرت الميناء بعد تأكدها أن الفرنسيين لم يعودوا يحتلوا الموقع وكان قد أنبأك بهذا يوم طلب منك إمدادات من الأسلحة لاستخدامها فى حالة حدوث انزال من الأعداء، وقد علم أنه فى حالة الشك فى حسن نواياه ستمنع عنه هذه الإمدادات . عموما لقد تلقيت هذه الرسالة المرفقة لنفس الموضوع، وقد أجبت أنه ليس لدى أسلحة إلا ما يكفينى . وقد كتب لك رسالة فى نفس الوقت يحملها ابراهيم أغا، واعتقد أنه لو كنت أصدرت الأمر بإعطاء مدافع فلن تكون ذات عون كبير وسيتبين لك أنه فى حالة الرغبة فى إعطاء مراد بك دليل على الثقة به فلن يكون من اللائق إرسال بعضها إليه . عند مغادرة القصير تركت ١٦ قطعة وسبعة مدافع قطع ٦ حديد مع معدات بحرية لكن دون بودة أو ذخيرة .

إذا كانت اسلحتك تختلف عما كان لدى سلفك، فيجب، ليس فقط تموين هذه المدافع، ولكن العمل أيضا على تقوية هذا الموقع الذى لم ينتهى عند اخلائه عثرت على كمية من المونة، وأربعين قنبلة بالإضافة إلى ٣٠٠ عيار ٢٤ وبعض من عيار ١٦ وعيار ١٢ وانى انتظر يا سيدى الجنرال أوامرك بخصوصها .

نعود لحديث مراد، انتهى إلى القول أنه شديد الوفاء والصداقة مع الفرنسيين وله كلمة واحدة يحافظ عليها بحياته وأنا لا يجب الشك فيه . وأن مصيره مرتبط بمصيرنا وإذا حدث لا قدر الله مكروه وانقلب الحظ ضدنا سينظم لنا فورا وليس لديه أى جانب آخر

يناصره • وسينتهز الفرصة المتاحة الآن لتدريب بعض المماليك لتكون على مستوى
مشاركتنا كل الأعمال إذا دعت الضرورة لذلك وسيستمر في مراسلة عدونا المشترك ولن
يضيع دقيقة في تبليغنا أي شيء وفي حالة الهجوم علينا حلف براسه أنه سيحافظ على أمن
صعيد مصر من أول أسوان حتى أبواب القاهرة ولكن ليس أبعد من ذلك •

أخيرا بدون تعليقاته هذه أخبرني الضابط أنه لاحظ حسن النوايا على وجه مراد بك
مما لا يترك أي مجال للشك •

حاليا سيدي الجنرال لديك الآن رده وأرجوك اتخاذ القرار في طلباته بخصوص
تأجيل الميرى لهذا العام وزيادة بضعة قرى، وكان لي الشرف في الكتابة لكم في هذا
الموضوع •

تحياتي واحترامي

دونزلو

A Liège, le 25 novembre 1818

Le général de brigade Dangelot,
au général en chef.

Monsieur général,

L'officier que j'ai envoyé porter vos dépêches à Monrad est de retour. Je vous adresse la réponse qu'il vous a faite ainsi qu'à moi. Votre lettre lui a causé beaucoup de joie. Sans ses écrits comme dans ses paroles, ce Roy donne toujours à penser qu'il est de bonne foi. Voici le résultat des différentes conversations qu'il a eues avec cet officier. Il a d'abord témoigné combien il était sensible à l'insurrection du général Kleber, qu'il considérait comme ami et protecteur sincère, et qu'il regrettait de ne pas trouver dans son successeur les mêmes sentiments pour lui. Il fut tranquillisé par l'assurance de notre amitié et fut réconforté de vivre en bonne harmonie et de paix, tout lui fait ce que votre prédiction lui avait promis.

On parle alors de la Syrie et des dispositions hostiles du Grand Vizer. Il envoya chercher une lettre d'Ibrahim-Bey et d'Ali-Bey, dont il fit faire la lecture. Les nouvelles qu'elles contenaient sont celles que j'ai pu me adresser le 10 novembre dernier. Mais ces Bays mandaient en outre qu'il était venu au Vizer beaucoup de plaintes contre lui; qu'on accusait même d'avoir fourni des mouchettes pour incendier le Kaïs lors du siège; que le Vizer furieux en avait rendu compte au Grand Ligneux; qu'ils l'avaient néanmoins excusé autant qu'ils l'avaient pu, en l'assurant que Monrad n'avait traité avec nous que pour le contraindre à l'indignité, pour avoir l'habiter les Roberts où il ne pouvait plus tenir et pour se donner le temps de rétablir ses forces; enfin ils finissaient par dire que sous peu le Vizer se mettrait en marche avec une armée nombreuse et qu'ils espéraient que les Français seraient détruits. Il jure même, d'après cette lettre, que ces deux Bays font cause commune avec les Ottomans. Monrad a assuré l'officier que les Français promettent toujours de sa fidélité, que rien ne l'ébranlerait dans sa résolution de partager notre sort; que tous les promesses qu'on lui faisait d'acheter les plus noirs perfidies; qu'il ne doutait pas que sa lettre ne fut lue à Paris, comme celle de Kleber, et qu'il connaîtrait mieux que nous et de bien plus longtemps les intentions des ennemis du Grand Ligneux. Quant aux hostilités, il pense, d'après ce qu'on lui a mandé et dit,

que nous serons incessamment atterqués par les armées turques; que
50.000 hommes doivent partir de Joffa pour marcher sur le Kaire;
que 30.000 doivent débarquer entre Acre et Alexandrie, pour
se réunir sur le même point par la rive gauche du Nil; que ces troupes
sont composées de Janissaires, d'Arméniens et d'Albanais, et que il y
a encore peu de cavalerie, si ce n'est quelques bandes de cavaliers
Mamelouks.

Morand a bien reconnu de l'avis de dire que Morand n'y a rien
qui obligeant à ses ordres; que probablement il attend dans le haut
voisin du Kaire l'arrivée de l'armée turque pour se joindre à elle;
que peut-être il est chargé d'insurger les Turcs et qu'il faut lui
notifier de le rejoindre ou de retourner chez le Vice, et, dans le cas
de non obéissance, à le dégrader et le démettre de son poste de Caire.
Il venait au dessein que l'on eût; si que l'on dit, qu'aucun des
dix ne fut réuni aux ennemis des Français.

Le agent demanda des nouvelles de Caire, il a répondu qu'il
avait vu un bâtiment de guerre anglais qui, ayant appris que les
Français n'occupaient plus le port, était reparti de suite; qu'il
vous avait rendu cette nouvelle en vous demandant de l'intelligence
de bataille pour s'en servir au besoin contre un débarquement, ajoutant
que si l'on doutait de sa foi et de son amitié qu'il avait jurée aux
Français, on pourrait le dégrader de la lui envoyer.

Orléans, qu'il a vu la lettre et qu'il a vu le même objet. Je réponds
que je n'ai que l'artillerie qu'il me faut. Il vous en écrit au même
temps une lettre, qu'Abraham Aga vous rendra. Je pense que si vous voyez
l'indulgence à donner des canons, ils donneront en très faible calibre, vous jugerez
si, pour choisir à Morand un témoignage de confiance en lui, il ne
convient pas de lui en envoyer quelques uns.

En quittant Caire, j'y ai laissé une pièce de 16 et sept canons de 6
en fer, avec des affûts marins, mais sans poudre ni fer coulé. Les
uns sont différents de ceux des autres précédents, il conviendrait, pour
s'en servir, d'approvisionner les canons, mais de travailler aux fabri-
cations de ce fer qui n'est point acheté. En l'achetant, j'y ai mis
entouré un mortier de 8 pouces, une quarantaine de boulets, plus 300
boulets de 14, quelques boulets de 16, de 12 et de boulets ronds. J'attends
mon général, vos ordres sur ce que vous jugerez convenable qu'il
soit fait.

Arrivant à l'instance de Morand, il a fini par dire qu'il avait
une fidélité et amitié aux Français; qu'il n'avait qu'une parole,
qu'il y tiendrait au point de sa vie, que nous ne devons pas douter

D'après les circonstances, que vous devez me faire ici au sujet, j'espère que
 par un malheur inopiné, l'armée française éprouverait un revers,
 il s'agirait à vous en le champ; qu'il n'aurait pas d'autres
 faits à prévoir; qu'il allait profiter du moment de repos, pour
 instruire des tranchées, les munitions, réarmer, et de toutes les autres
 de partager honorablement nos travaux, s'il en était besoin; qu'il
 continuerait sa correspondance avec l'armée comme il
 paraît, j'espère; qu'il ne perdrait jamais un instant à vous instruire de
 tout; qu'en somme, dans le cas où nous serions obligés, il
 répondrait sur sa tête de la tranquillité de la Haute-Egypte,
 depuis Syouef jusqu'aux portes du Haïre, mais pas plus loin.

Enfin, dans ces différentes considérations, l'officier dit avoir remarqué
 un air de bonne foi qui ne laissait aucun doute sur les intentions
 de Bonaparte.

Restait-il, mon général, vous envoie sa réponse; je vous prie
 de prononcer sur les diverses demandes qu'il a faites à l'égard
 de la remise des mines pour cette année et de quelques villages
 d'augmentation. J'ai eu l'honneur de vous écrire à ce sujet.

Salut et respect
 D'Angelat

ملحق رقم ١٤

من كليبر إلى حكومة الإدارة ٢٥ بروميير العام الثامن الجمهورى (١٦ نوفمبر ١٧٩٩)
وثيقة رقم ١٧٤١ بملف رقم ١٤، دوسيه رقم ١، بمحفوظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر
إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩، محفوظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة

السادة الأجلاء

هذا تقرير بالأحداث التى مرت على مصر بعد آخر تقرير أرسلته بتاريخ اليوم
السادس التكميلى من العام ٧ (٢٢ سبتمبر)

الصعيد

مراد بك بعد هزيمته على يد المساعد العام موران يهيم فى صحراء الصعيد ولا
يقترّب من الوادى إلا لكى يتزود بالمؤن . الجنرال ديزيه كان يريد التخلص من هذا العدو
الذى لا يكل بأى ثمن، لذلك جمع طابورين من الجنود على الجمال والخيول والمدفعية هذا
الجيش تحرك من أسيوط أوائل شهر فاندميير، يقود الطابور الأول الجنرال ديزيه والطابور
الثانى الجنرال بواييه .

يوم ١٧ منه (٩ أكتوبر) المساعد العام بواييه - بعد ثلاثة أيام من السفر - تقابل مع
مراد بك فى صحراء سدمنت، ما أن ترجل الجنود من على الجمال وجمعوا صفوفهم إلا
كانوا قد تعرضوا لهجوم مشترك من المماليك والعرب، لكنهم دافعوا بقوة بالبنادق والسيوف،
لكن العدو كان ماهرا فى حربه فوق الجمال وكاد أن ينتصر ثلاثة مرات لكن جنودنا ردوا
ببسالة . فى النهاية هرب المماليك والعرب وقام الجنود بملاحقتهم بالجمال . فقدنا فى
المعركة جندى واحد و ١٧ جريح ترك العدو فى الرمال أكثر من ٤٠ قتيل .

أعطيت أوامرى إلى الجنرال ديزيه أن يعود إلى القاهرة ليقود مجموعة فى الجيش
الذى سيحارب الوزير القادم من سوريا .

الجنرال بواييه سيتابع الحرب مع مراد بك الذى يهرب منه دائما هذا البك مل من
الهروب المستمر، عبر النيل يوم ٣٠ فاندميير (٢٢ أكتوبر) من عند أطفيح وهو يتجنب

قوات الجنرال رمبرال ودخل إلى الصحراء الشرقية وأخذ طريق السويس ثم توقف وعاد إلى الصعيد، وفي كل مكان كانت تلاحقه قواتنا دون أن تستطيع الإمساك به، وفي كل مكان يصل إليه ينشر إعلانات الصدر الأعظم ليشعل الثورة بين الأهالي دون جدوى.

الجنرال بواييه أظهر شجاعة عالية في حروبه وكان جيشه مكون من الكتيبة ٢١ المدفعية الخفيفة والفيلق ٨٨ .

du quartier général du Kaire, le 25 Brumaire an 8 (16 nov. 1799)

Kleber, général en chef,
au Directoire exécutif.

Citoyens Directeurs,

J'ai à vous rendre compte des événements qui ont eu lieu en
Egypte depuis la dernière relation que j'ai eu l'honneur de vous
adresser, en date du 6^e jour complémentaire an 7

Haute Egypte

Mourad-Bey, après la défaite que lui fit éprouver l'adjutant-général
Morand, vint dans le désert de la Haute Egypte et se retirant
dans le pays cultivé que pour y faire des vivres ou prendre quelque repos.
Le général Desaix qui cherchait, à quelque prix que ce fût, à se
débarrasser de cet infatigable ennemi, organisa deux colonnes mobiles
composées d'infanterie montée à dromadaires, de cavalerie et d'artillerie,
ces colonnes partirent de Siout dans les premiers jours de vendémiaire,
commandés l'une par le général Desaix lui-même et l'autre par l'adjutant-
général Boyer.

Le 17 du même mois, l'adjutant-général Boyer, après lui avoir fait
marcher force, frappa Mourad-Bey dans le désert de Sédiman. Après
notre infanterie eut elle le temps de mettre pied à terre et de réunir ses
dromadaires, qu'elle reçut la charge des mamelouks et des braves arabes.
elle le repoussa avec vigueur, et fit la bayonnette, et par un feu de
mousqueterie à bout portant. Cependant les dromadaires devenant
l'objet de la convoitise des ennemis et bien fait ils tentèrent de leur
rendre maître; mais nos coups ne s'abaissaient point et s'agrippaient
avec la même valeur à ces attraits réitérés. Enfin, les mamelouks et
les arabes prirent la fuite, et notre infanterie, remontée sur ses chameaux
se mit à la poursuite aussitôt. Nous eûmes dans cette affaire
un homme de tué et 700-800 blessés. L'ennemi abandonna dans les
sables plus de quarante caissons.

Je donnai alors l'ordre au général Desaix de se rendre au
Kaire pour prendre le commandement d'une division dans le corps
d'armée destiné à agir contre le grand visir qui s'acheminait de la Syrie.
L'adjutant-général Boyer poursuivit aux tentes Mourad-Bey.

qui toujours lui échappe au moment où il veut l'atteindre. A Bey, fatigué de ces courses continuelles, parvint le 30 vendémiaire à la hauteur d'Atfyahy; il laisse les troupes du général Rempou qui se trouvent alors dans cette province, s'enfonça dans la vallée de l'Egarment, prit la route de Souïs, s'arrêta, renvoya sur ses pas et retourna dans la Haute Egypte. Il ne parvint jamais à Hasceli sans que pourtant j'aurais pu le voir. Dans la course, il répand avec profusion et des proclamations du grand visir et des firmans de la Porte, pour exciter les habitants à la révolte; mais ces adresses multipliées n'ont encore produit aucun effet.

Je dois les plus grands éloges à l'intelligence et à l'infatigable activité de l'adjutant général Beyer; son détachement est formé de la 11^e d'infanterie légère et de la 88^e de bataille.

Frontière de la Syrie.

Soudain que ceci se passait dans la Haute Egypte, le grand Visir avec son armée s'acheminait de Damas vers Jaza, où il a établi son quartier général; son avant-garde est déjà à Khan-Jamâ. On estime la totalité de ses forces à soixante-mille hommes, non compris les troupes de débarquement venues directement de Constantinople, et dont il sera parlé ci-après.

Dès que ce mouvement du Visir parvint à ma connaissance, je fis partir du Kaïs la division Rempou, pour aller camper à Balbeis, et renforcer les postes d'El-Rich, Gattahy et Salahyeh.

Connaisant aussi le caractère des subsistances qu'exigeait l'armée ennemie, et sachant que les Arabes, par de nombreux caravanes partant d'Egypte contribuèrent à l'alimenter, je fis défendre, sous peine de mort, toute espèce d'exportation, et j'en abandonnai aux troupes le valeur des quintes qui pourraient leur venir par elles. Cette mesure m'a procuré un si grand profit que j'en ai pu acheter des chevaux et des mulets, qui ont été distribués aux corps et aux différents services de l'armée. On peut dire en conséquence que les déserts de l'esthme de Souïs, ceux de la Haute Egypte et de la Bahyrah sont presque aussi comblés des soldats français, que les Arabes qui y demeurent ou les parcourent habituellement.

A moins que le grand Visir, éclairé sur les intentions de la Porte, ne fût parvenu aux propositions que je lui ai faites dans les négociations que j'en ai eues avec lui; je ne attends à être attaqué avant quinze jours.

Il me reste à vous entretenir de ce qui s'est passé sur la côte et particulièrement à Damiette.

Bate Egypte.

Les mouvements de l'armée de Syrie, ceux de Mourad Bey m'auraient annoncé quelque surprise sur les côtes, si je n'en avais pas été prévenu par le grand visir lui-même.

Dès le 2 vendémiaire, dix huit bâtiments turcs mouillaient devant le

ملحق رقم ١٥

من مدير البحرية لوروى إلى القائد الأعلى
وثيقة بدون رقم مؤرخة في القاهرة ١٣ فريمير العام التاسع الجمهورى، ملف رقم ٤
B6 58، بمحفوظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٠٠، محفوظة بدار
الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة

القائد المواطن

ليس من اختصاصى أن أخبرك بأى شئ خارج اختصاص البحرية ولكن لن أكون
عند حسن ظنكم إذا لم أطلعكم على هذه الشكوى التى وصلتتى .
الحركة الملاحية فى النيل تقل يوما بعد يوم أعتقد أن تعطيل التجارة بالقصير قد
أضر بالزراعة والملاحة بصعيد مصر . وأنا واثق أن القائد الأعلى سيكون عنده الحل
اللازم لهذه المشكلة .

سلامى واحترامى

لوروى

40.
Au Maréchal, le 13 février 1812
Le Préfet maritime de l'Égypte le Roy
au général en chef.

Citoyen général,

Il ne m'appartient pas de vous entretenir d'autre
objets que de la Marine, m'en air à coup sûr; je devrais
mal m'entendre si je ne vous communiquais l'acte
ci-dessous de ma correspondance:

"La navigation du Nil divise tous les jours;
je meis qu'on se soit fait un grand tort à l'agriculture
et à la navigation de la Haute Égypte, en cherchant
à arrêter le commerce par Cassier. Mais, si cela se
sans doute le général en chef, qui ne s'occupe que
du bien de l'Égypte y portera le remède nécessaire

Salut, respect

Le Roy

(Original)

ملحق رقم ١٦

من الجنرال ديزيه إلى الجنرال كليبر القائد العام لجيش مصر
وثيقة رقم ١٨٠ مؤرخة من أسيوط في ٢٦ فروكتيدور العام السابع الجمهورى
١٢ سبتمبر ١٧٩٩، ملف رقم ١٦، محفوظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس
١٨٠٠، محفوظة بدار الوثائق القومية بكونرنيش النيل بالقاهرة

الجنرال ديزيه إلى الجنرال كليبر القائد العام لجيش مصر
لقد وصلت يا سيدى القائد من الصعيد حيث قمت بجولة، لقد أردت أن أذهب لأرى
"القصور" ولكن خبر رحيل القائد الأعلى منعنى من ذلك على أى حال كان يلزمنى ١٢ يوما
لذلك وأنا كنت متعجل للعودة لأتمم استعداداتى لمتابعة مراد بك. لقد تلقيت الخطابات التى
أرسلتها لى يوم ٩ من رشيد لقد تلقيت بكل البهجة خبر تعيينكم قائدا عاما للجيش وخبر
رحيل القائد الأعلى إلى أوروبا. أنت تعلم التقدير الذى أكنه لك لذلك فأنت تعلم أنى سأخدم
تحت إمرتك بكل إطمئنان وثقة. كل الجيش يشاركنى الرأى ولا يشعر بأى قلق ولك أن
تطمئن أنه سيقوم باللائم لسلامته ولوجوده. الجميع مطمئن. القائد الأعلى الان فى فرنسا،
لنا ثقة فى نشاطه وموهبته وقدراته لكى يحسن من موقفنا. يجب عليك يا سيدى القائد وأنت
فى القاهرة أن تكون مدرك لموقفنا. لقد شرحته مسبقا للقائد الأعلى وللجنرال دوجا فى
جملتين.

أما عن موقف أعدائنا فهو كما يلى : جنوب الشلالات حسن بك جداوى مع عثمان
بك حسن، وجالا بك تحت إمرته حوالى ١٥٠ فارس ومعهم سليمان بك أبو دياب جريح
ومعه ٥٠ رجل البكوات الأربع مرابطون جنوب الشلالات على بعد يومين، يحيون حياة
بائسة. لكن عندما تترك جيوشنا أسوان سيتجهون إليها وسيعصفون بكل البلاد وسيُنظمون
صفوفهم ويبرهنوا أنهم أعداء شديدي السطوة أو الخطورة.

وبالقرب من أسيوط يوجد سليمان بك، وعثمان بك وإبراهيم أغا كاشف مراد بك
وحوالى ١٠٠ عربى، بقى فى النهاية مراد بك مع محمد بك المنفوخ، وعثمان بك برديسى

وعثمان بك الطنبورجى، اتحدوا بعد المفاجأة التى حدثت لهم بالقرب من جرجا، مجموعهم حوالى ٢٠٠ رجل، وبعثا للتقارير الأخيرة فهم الآن بين أسىوط والفيوم فى هذه المنطقة توجد عدة قبائل عربية اتحدوا معهم مثل الجهمة وبها حوالى ٣٠٠ فارس.

لقد أددت عليهم بالخيرات [يقصد قبيلة الجهمة] لأحلهم من ارتباطهم، لقد أعطيتهم أراضى وقمح، كل شئ يكفل لهم حياة كريمة ولم يكن لهم من قبل وسيلة للعيش سوى بيع الجمال التى يصطادوها من أى مكان ما إن ابتعدت عنهم قليلا حتى ثاروا وهاجموا الكثير من المناطق وسببوا خسائر هائلة هم كل أعدائنا.

لهزيمتهم هذه هى خطتى من العبث الذهاب ورائهم لأنهم يهربون باستمرار، أنا أتصور أنه يمكننى هزيمتهم على الجمال، ولقد جمعت عدد كبير منها وأمرت بصناعة سروج لها، طابور واحد من الجنود غير كافى لتدمير أعدائنا فهم يهربون منه، لابد من تطبيق طريقة الخطاف (الكماشة)، أنا احتاج إلى طابورين من الجنود يسير كل منهما على بعد ثمانية أميال من الآخر، إذا حاول البكوات الهرب سيضطرون لعمل دوران كبير جدا ومع خيولهم المجهدة سيصعب عليهم ذلك وسيجدون أنفسهم أمام جيشنا وهم فى غاية الإجهاد.

وهكذا يا سيدى القائد سأرحل مع طابورين من الجنود ومعى ٥٠٠ جمل تم تدريبها، الطابور الأول سيتكون من ٣٤٠ جمل ومدفعين صغيرين، لن يكون به أى خيل مما سيسهل حركته. الطابور الثانى يتكون من ٣٠٠ حصان و١٥٠ جمل وقطعتين من المدافع على بعد ١٠ أميال. بهذا الأسلوب لا أعتقد أن مراد بك يستطيع الفرار. فى نفس الوقت الجنرال بليار يجمع ٣٠٠ جمل وسيقسمها على طابورين، سيذهب حتى ٧ أو ٨ أميال جنوب الشلالات لتشتيت البكوات هناك.

وسيتبقى بعد ذلك مجموعة أخرى من المماليك وهم أغنياء وتصبحهم نساؤهم، تفكيرهم فى الراحة وليس فى الحرب. بعد أن نهزم مراد فى الصحراء، سأرسل لهم مجموعة لتفرقتهم، بعد الثلاث حملات، صعيد مصر سيكون بلا أعداء. سنطرده منه بسهولة

الباقين، ولكنهم يعودون بسرعة لأن الصحراء، حيث يلجأون، تجبرهم على العودة سريعا إلى الأراضي الخصبة، ولكن بعدد قليل من الجمال نستطيع طردهم .

إذا تخلصنا من المماليك، مصر العليا ستكون هادئة وفي سلام، فالشعب فيها أفضل من أى مكان آخر، فهو صاحب أرض وقد دافع بقوة عن حريته ولكنه أسهل فى القيادة عن أهل مصر السفلى، فلا يوجد بدو مما يسهل الأمور .

لكن يوجد موقع هام هو "القصير"، هذا الميناء الهام يستحق كل اهتمامنا فمناه المنطقة العربية تساعد أعدائنا ومنه سيهاجمنا الإنجليز . فمئذ شهر حدثت غارة من سفينتين من سفنهم وقد دمروا القلعة تقريبا بأربعة آلاف طلقة مدفع . الجنرال دونزلو الذى لا يكل قام بكل ما يستطيع لترميمها ولكن امكانياته قليلة والاصلاح يحتاج إلى أموال كثيرة . إذا كانت القلعة قد تم ترميمها وفى حالة جيدة لما خشيت شيئا لأن كل الأرض المحيطة بها صخرية شديدة ولكن يجب أن نمنع اقتراب السفن الأجنبية حتى لا تدمر القلعة تماما ونستطيع ذلك عن طريق وضع مدافع من الحجم الكبير على مسافات مناسبة . هناك إثنان من هذه المدافع فى قنا ولكنها من الكبر بحيث تحتاج إلى آلات ضخمة لجرها، الآلات المعتادة لن تستطيع نقلها . فى قنا نعد الشباك الحديدية والفحم وسنقيم فى القصير أفران، بهذه الطريقة نستطيع إبعاد سفن الأعداء . وأنا أكلفك يا سيدى القائد أن ترسل لنا مدافع من الحجم الكبير، وإذا لم يكن باستطاعتك، أرسل لنا الآلات اللازمة لنقل مدافع قنا . سور القصير سمكه أربعة أقدام فقط ونحن نعمل لكى يكون بالسلك المطلوب . وهذه العلية تحتاج لكثير من الوقت . فى قنا أقمنا تبعا لأوامر القائد العام قلعة متينة من الأحجار محاطة بتحصينات بعرض ٣٠ قدم وهى فى حالة جيدة جدا، وفى خلال شهر المساكن ستكون جاهزة بحيث لا نخشى أى هجوم . هناك ٢٠٠ رجل سيقومون بحمايتها بضراوة .

هذه هى كل تحصيناتنا . هذه القلعة وقلعة القصير ستمنع خروج الحبوب بدون علمنا من الصعيد وهكذا نكون مسيطرين على أماكن التجارة على هذا الطريق . ولكى نحكمه احكاما دقيقا نستطيع أن نبني برجان بجانب النبعين : وهكذا لن يستطيع أحد التحرك إلا بأمرنا عندما ننتهى من قلعة قنا سنشرع فى بناء البرجين . إذا طردنا المماليك تماما من

الصعيد، وبهاتين القلعتين وبداخلهما ٤٠٠ رجل لن نخشى أى شئ من مصر كلها . ولكن
احتاج إلى عدد أكبر من الأفراد وهذه هى المشكلة .

بى سويف والمنيا تحت حماية عدد قليل من فرقتي ولكنهما ليسا تحت إمرتي .
أسيوط وجرجا وإسنا تحت قيادتي . فى كل مدينة يوجد معسكر به جنود يكفوا لمواجهة
هجمات الأهالى أى حوالى ٥٠ جندي، عندى ٤٠٠ جندي من الفرسان منهم ٤٠ لا يملكون
سروج وقد أمرت بتصنيعها على وجه السرعة . غير ذلك عندى ٥٠٠ جمل و ١٠٠ رجل
مجهدين ولا يستطيعون القيام بعملهم .

جرجا بها ٢٠٠ رجل، وقنا بها ٣٠ حصان وعدد مماثل من الفرسان و ٣٠٠ رجل،
فى القصير ٣٠٠ وفى إسنا ٣٠٠ وفى أسوان ٢٠٠، الخمسمائة جمل الموجودة فى أسيوط
وبعض الفرسان من الجيش، متجهة لمهاجمة مراد والباقي سيبقى للحماية هنا فى جرجا .
الجيوش التى ستبقى فيها ستطارد المماليك لأنهم دائما يلجأون إليها فى وقت الحروب .
الصحراء فيها كثبان رملية والنيل له مسارات تسمح باختفاء البعض فيها .

فى القصير أحتاج إلى ٣٠٠ رجل لحمايتها وأيضا للعمل فالسكان لا يساعدونا
إطلاقا فعددهم قليل كما أنهم يهربون عندما نسوقهم للعمل . الفرق فى قنا يجب أن تكون
مستعدة لحماية القصير فى حالة الهجمات الكبيرة . ولحماية القلعة سأترك بها بعض الفرسان
لكى يساعدوا المشاة الذين سأنزلهم فى القصير .

الفرق فى إسنا وأسوان مهمتها منع حسن بك الجداوى من التحرك بدلا من استخدام
فرقة من مائتى رجل لمهاجمته لأنه يهرب بمناورات ليس لها عدد . فرقتان ستمنعان العدو
من التحرك جنوب أسوان . هذا هو استخدام كل قواتنا .

إن الجنرال بليار هو الذى أطلعنى على هذا، مشكلة الحصول على سفن ومشكلة
عدم قدرتى على التحرك مع هذا الهواء الشديد جعلتني أقرر أن أصحب معى هذه الفرقة إلى
الفيوم . من هنا تستطيع أن ترحل إلى القاهرة عن طريق السفن .

بخصتوص الدخل من الأرياف فهو دخل مرتفع (أسيوط وجرجا وإسنا) بالرغم من أن الممالك قد حصلوا على جزء من الضرائب إلا أننا حصلنا على ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه. دفعنا منها مصاريف جيوشنا من شهر برومبير وحتى شهر ترميدور بالإضافة لشهرين من المتأخرات مما يجعل المجموع ١١ شهرا. فى خلال شهر سيكون علينا جمع ٢٥٠ ألف جنيه من طبية ونفس المبلغ من جرجا. الفرسان فى حالة جيدة وتمارس عملها بكفاءة عالية فى المنطقة حيث توجد خيول من سلالات جيدة. بعد الفيضان إذا رغبت فى ٥٠٠ حصان يمكننى إرسالها بسهولة من أسيوط وجرجا ولكن فى إسنا لا نحصل إلا على الجمال فعندهم منها الكثير هذا هو كل ما يمكننى أن أطلعك عليه بخصوص موقعنا.

عندما ننتهى من مراد نستطيع أن نستخدم الفرسان المكلفون بهذه المهمة فى أى شئ أو حتى تخفيض عدد الحامية ولكن المهم هو التخلص من هذا العدو الذى لا يكل.

سلامى

ديزيه

أنا أفكر يا سيدى القائد فى أن أذهب خلف مراد بك خلال ستة أيام. ولكن ما يعوقنى هو ٦٠ رجل لم يعودوا بعد، كما أن مدفعيتى فى حالة سيئة ولا أستطيع اصلاحها. أريد الحصول على صناديق قطع غيار للمدافع رقم ٣، ٥ إذا استطعت إرسالها إلى القائد زايونشك الموجود بالفشن يستطيع أن يسلمنى إياها، وستكون هذه خدمة جليلة منك. أرجو أن ترسل لى أوامرك على بنى سويف وهم يستطيعون الاتصال بى، إذا انتهيت من مراد بك بسرعة سيمكننى أن أذهب لرؤيتك مما سيسعدنى كثيرا. أنا أعتقد أن مراد سيتجه إلى الإسكندرية من المهم متابعته ومهاجمته عندما أكون فى الفيوم. أرجو أن تأخذ هذا فى حسابك.

ديزيه

ils forment 200 hommes; ils ont, ils ont d'après les derniers rapports, entre eux et le Fayoum; dans cette partie de territoire plusieurs tribus d'Arabes qui se sont unies avec eux, entre autres les Bédouins de 300 cavaliers. Ils les ont combles de biens pour les détacher de son alliance, et leur ont donné des vivres, du blé, enfin de quoi bien exister. Cette tribu n'avait pour tout moyen de vivres que des chameaux chassés de partout; elle n'avait aucun moyen de se défendre, et dans ce cas de besoin d'aide qu'ils ont pillé partout et commis mille dégâts. Rien n'est pas sans eux.

Pour les détruire, voici mes dispositions. De l'infanterie seule... les ennemis qui finissent toujours. J'ai imaginé de les combattre non sur des dromadaires; à force de soin, je suis parvenu à en rassembler; à faire faire des selles. Je m'oppose en tiers son parti. Une colonne seule ne suffit pas pour détruire les ennemis; ils jouent avec nous avec elle, résistent sans cesse, par le moyen des crochets et lui s'échappent. Il faut donc être plus hardies, marchant à 8 lieues l'une de l'autre, et les Beys venant les visiter, ils sont obligés à un détour immense avec leurs chameaux; ils arrivent de la peine à y résister et se trouvent toujours très près de nous, de manière à tomber entre nos mains après des marches successivement pénibles. Nous, mon général, je pourrais les ennemis avec deux colonnes; j'en ai 300 dromadaires, deux pièces d'artillerie. La 1^{re} colonne sera d'envoyer 300 de ces animaux, et deux petites pièces; elle n'aura pas un cheval et pourra ainsi aller partout avec facilité; la 2^e d'envoyer 300 chevaux et 150 dromadaires pour la flaque et deux pièces de canon, tirera à 10 lieues de distance. Marchant ainsi droit, j'espère que j'aurai été obligé... Dans le même temps, le général Belliard rassemble 300 dromadaires; et, les divisant en deux colonnes, il ira jusqu'à 7 ou 8 lieues des catuactes pour éloigner les Beys qui s'y trouvent et les forcer à se diriger. Alors il nous restera les Hamalouts qui sont à nos deux côtés à chasser. Ces-ci sont très dangereux, riches et accompagnés de leurs femmes, ils pensent au repos et pas à la guerre. Après avoir fait essai en Barbarie, comme je l'espère, on aurait bientôt fait... en détachant que les chasseraient. Alors, le pays maraboutique finit l'Egypte supérieure sera sans ennemis. On en chasse facilement ceux qui s'y trouvent, mais ils reviennent bientôt le désert, et ils ne s'arrêtent; ils allent bientôt de rentrer dans le pays cultivé. Ce ne sera que par des dromadaires

que nous pourrions se distinguer

S'il n'y avait plus de Français, l'Egypte turque serait très tranquille et très en paix : le pacha est bien meilleur qu'ailleurs ; il est propriétaire, a bien des idées de liberté, mais est plus facile à satisfaire que dans la Haute Egypte ; il ne s'y trouve pas d'Arabes, ce qui fait une grande différence. Mais un point important dans le pays, c'est l'osier. C'est un point important pour nos relations. C'est par lui que l'Egypte nous ramène tous nos ennemis, c'est par lui que les Anglais nous tiennent. Il y a un navire que deux de leurs frégates y ont pris, ils ont presque mis le fort par quatre coups de canon. L'infatigable général Drogoboff a fait sauter ce qui était possible, mais les ennemis sont si peu de chose qu'on n'y peut rien faire qu'à grands frais et grande peine. Si le fort était très bon et bien fini, on n'aurait rien à craindre de tout le sol qui l'avise. Etant au cas où, quand il faut avant tout faire en sorte que les bâtiments ennemis ne puissent pas approcher du fort pour le détruire, on y parviendra par le moyen de pièces de gros calibre qui éloigneront les vaisseaux. Nous avons bien deux pièces de gros calibre à Nini, elles sont de 8 toises, mais elles sont si lourdes qu'il faudrait des machines propres à les tirer, des appareils ordinaires n'y réussiraient jamais. On prépare à Nini des grilles, du charbon, on fera un fossé au journaux, avec cela alors on pourra éloigner les bâtiments ennemis. Je vous engage, mon général, à envoyer des pièces de gros calibre, si, si vous n'en avez pas, ce qui est fait pour conduire les deux pièces que nous avons. Les murailles de Coraie n'ont que 6 pieds d'épaisseur, on travaille à leur donner l'épaisseur convenable on y les couvra avec une espèce de gypse fait avec des coques, blanchies de terre ou de sable. Tous ces ouvrages seront très longs à achever. A Nini on a construit d'après les ordres du général en chef un bon fort à quatre bastions et un beffroi, il a 20 pieds de hauteur, il est très avancé, au bon état, et, sans aucun doute, sera en état pour être très en état de résister à tout, absolument de quoi qu'il soit. Les hommes le défendent très bien. On sera très près de l'approvisionnement, munitions et autres objets ; ce sera important. Le grand objet de ce fort, avec celui de Coraie, sera d'empêcher la sortie des grains de la Haute Egypte, de manière que nous soyons bien le maître de tous les débouchés du pays ; pour être sûr de cette route, l'important serait de pouvoir construire quand on voudrait.

fontaines qui sont sur la route à chaque seulement une fontaine ou plusieurs
les maitres. Les caravanes ne peuvent aller et venir sans notre permission
Nous sommes bien sûr qu'il n'y a jamais d'attaque sur ce point-là. Le fort
de Sidi Sidi, de même que de Sidi el Hachem, sont des lieux bien sûrs
dehors. Les troupes de cavalerie étaient chargées entièrement de la Haute Egypte
avec en tout 1000 hommes, on n'aurait rien à craindre de tout
le monde, mais on n'a pas plus de monde. Voici l'organisation : Les
provinces de Bahariya et de Matruh sont gardées par des troupes de
cavalerie, mais on n'a pas de cavalerie, on a des hommes, des
chevaux ; dans chacune de ces villes, il y a une caserne fortifiée avec pour être
à l'abri d'une attaque des habitants. 50 hommes peuvent s'y contenir
cette une instruction à Sidi, il y a 400 hommes de cavalerie, dont 40 sont velles
on en fait une partie avec activité. Outre cela, 500 hommes de cavalerie
indes, fatigués, estropiés pour faire la garnison. Il y a 200 hommes de
et 50 chevaux à Sidi, autant de cavalerie et 200 hommes, à Sidi, à Sidi
200, Sidi 200, 500 hommes de cavalerie de Sidi et ce qui est disponible de cavalerie
marchant contre l'ennemi ; le reste sera garnison de Sidi, à Sidi. Les troupes qui
seront sont destinées à donner la chasse aux Mamelouks qui, toujours, y
réfugient lorsqu'ils sont chassés. Ils descendent aux des sources et le fil fait de
l'ennemi qui descendent tout au long de la route. A Sidi, 200 hommes y
sont nécessaires pour garnison et surtout pour travailler, les habitants
ne sont d'aucune utilité ; ils sont peu nombreux et d'aucune utilité quand
on les y conduit. Les troupes de Sidi sont destinées à marcher au secours
de Sidi ou des de Sidi attaqués ou à leur garnison dans le fort.
Il y a une ou deux de cavalerie, elle serait utile pour valoir l'ennemi
qui descendrait à Sidi. Les troupes de Sidi et Sidi sont destinées
à empêcher l'ennemi. On ne descend de là ; on ne peut pas aller
de deux cents hommes peut bien le combattre, le vaincre, mais elle est
par des détours sans nombre. Une colonne générale d'attaque et
forment l'ennemi à venir au secours de Sidi. Voici l'emploi de tous les
moyens. Sur cela, il y a une colonne de 1000 hommes qui s'en va
de son camp ; c'est le général Belliard qui me l'a donné. La
difficulté d'avoir des barques, comme aussi celle de faire descendre
avec les vents violents me détermine à faire marcher cette troupe
avec moi jusqu'au Fayoum ; de là, elle pourrait aller par des
barques jusqu'au Caire. Quant aux villages des provinces, ils sont
considérables, Sidi, Sidi, Sidi ; je ne puis les Mamelouks ainsi toutes
une partie de l'impulsion, que les Mamelouks de ceux-ci sont le plus

arrivés extrêmement courus de ravages, ont donné lieu à une liste, ainsi
lesquelles nous avons payé toutes nos troues depuis le premier jusqu'au
thermidor, avec cela le tiers mois de l'arrière, ce qui fait onze mois. Nous
avons payé aussi à la Marine, une somme qui nous vient d'en bas, je
la caisserie qu'on nous cherche des remanents. Tous ces arrivés, nous n'avons
plus rien à toucher. Les garnisons n'ont plus rien à faire rentrer, mais
elles protègent l'expédition de 400 mille ardeps de grains qui sont
allés au Caire. Un quart a déjà dû y être rendu, les trois autres, je
chargez immédiatement. Dans un mois, il y aura à toucher d'autre
fourrages de l'édifice le restant d'environ 850 mille livres, autant
à Gergé.

Notre cavalerie est en bon état, parfaitement montée. Elle se
maintient très bien dans la prairie, où il y a quantité de bœufs. Le
belle race. Après l'indication, si nous avons besoin de 500 chevaux,
nous les avons facilement de Siout et Gergé, mais de bons, en même
que des hommes d'élite, il y en a en quantité.

Voilà tout ce que je peux vous apprendre de notre situation.
Quand nous aurons fini Mourad, nous pourrions aisément tirer de cette
grande toute la cavalerie pour l'employer au nous menant et détruire
les garnisons, mais le principal point est de détruire ces armées.

Je vous salue.

Desaix

Je compte, mon général, me mettre en route après Mourad-Bey, dans
six jours au maximum, ce qui me retarde, c'est les hommes qui ne sont pas
arrivés et mon artillerie en très mauvais état que je ne puis pas rétablir.
Je voudrais bien avoir des caissons de échange de pièces de 3 et de 5. Je vous
pourrais bien envoyer de suite au général Zayoncheki qui, se tenant à Illahm
ou les faire passer, vous me rendriez très grand service. Je vous prie de
me adresser vos ordres à Banianef où ils pourraient me rejoindre. Je
pourrais finir Mourad-Bey de suite, je profiterais de l'occasion pour m'approcher
de vous et aller vous voir, j'en aurais grand plaisir. Je présume que
Mourad descendra vers Alexandrie, il serait important de le faire bien et
attaquer sur ce point quand je serai vers le Fayoum. Je vous prie de
prendre des nouvelles pour cela.

Desaix

ملحق رقم ١٧

من فالييت قائد كتبية إلى قائد اللواء بليار قائد طيبة فى قنا

وثيقة رقم ١٦٣٦، مؤرخة فى جرجا بتاريخ ٢٢ فريميير العام الثامن الجمهورى

(١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩) بملف رقم ١٢، دوسيه رقم ٢ بمحفظة فترتها التاريخية من ١٦

نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩، محفوظة بدار الوثائق القومية

بكورنيش النيل بالقاهرة

لقد قابلت الآن ثلاثة جواسيس أخبرونى أن مراد بك وحسن وعثمان قد باتوا ليلتهم أمام أخميم على بعد ميل فى اتجاه الجبل . وأكدوا لى أن معهم الكثير من العرب والكثير من شيوخ القرى وأنهم يجمعون كل الممالك الذين يجدونهم فى القرى ويعطوهم السلاح والخيول . وأنا لا أستطيع إلا تأكيد كلامهم تبعاً للتقرير الذى أرسله لى "قائمقام أخميم الذى قال إن مراد بك وأصحابه قد قضاوا ليلتهم أمام أخميم وأن خدمه قد قالوا إنه يريد أن يسير أكبر مسافة ممكنة لتجميع ممالكه من كل القرى وأنه عندما يتقوى سيهجم على الفرنسيين الضعاف فى مواقعهم وأنه بهذه الوسيلة سيهزمنا فى نفس الوقت الذى سيهجم فيه الصدر الأعظم على القاهرة .

ولقد أخبرنا أيضاً أن الممالك المخلصين له ذهبوا معه، وأن معه الكثير من العرب . وهو يقدر العدد الإجمالى لقواته بخمسة آلاف رجل كلهم تقريباً من راكبي الخيل ويوجد حوالى ٦٠ فقط يركبون الجمال . لأن شيوخ القرى المؤيدين له قد جلبوا له الخيول ولكن المعدات والأسلحة قد حصل عليها من القاهرة كما أخبرتك من قبل .

لقد أرسلت جواسيس آخرين ليخبرونى عن الاتجاه الذى سيسلكه وهل سيسير بالقرب من النيل كما فعل حسان وعثمان أم لا .

سأستعلم بدقة عن وجهتهم لكى أعلمك بها وسأكتب إلى الجنرال فريان وللمواطن

سبلى لكى أخبرهم أيضاً بهذه التحركات .

الريف عندى هادئ ولكن أهالى أخميم قلقين، إن جميعهم مسيحيين وهم يخشون أن

يذبحوا. إذا ما فلت منا زمام الأمور .

سلامى واحترامى

فالييت

Jirgè, le 22 juin au 8/13 de 1799)

Waller, chef de bataillon,

au général de brigade Belliard, commandant la province de Colichès, à son.

Je viens de recevoir en ce moment trois exprès qui m'annoncent que Mourad-Bey, et Assan et Assman, ont marché en face de Dickonine, d'une ligne plus éloignée du côté de la montagne. Ils ont obtenu qu'ils avaient les deux camps d'Arakles avec deux ou plusieurs chefs des villages, et que par là on les passait et ramenaient tous les braves hommes qui étaient restés dans les villages, qu'ils les ramenaient et les ramenaient. Je ne puis qu'ajouter foi à leur rapport, d'après l'opinion que nous.

Je joins la confirmation d'Arakles, qui nous a annoncé que Mourad-Bey, et sa suite, que je vous ai dit, a conclu avec eux de leurs villes et que plusieurs de leurs domestiques avaient dit que son intention était de marcher plus haut qu'il pourrait pour rassembler tous les braves hommes, et que lorsqu'il serait en force, qu'il franchirait sur les Français qui sont très faibles dans le endroit qu'ils occupent, et que, par ce moyen, il leur détruirait. On dit que le Grand Vieux s'apprêtait de côté de Kair. Il nous a dit aussi que les Bravaches qui avaient fait des vœux de fidélité, comme ceux qui sont arrivés, partaient avec lui. Il nous annonce aussi qu'il a beaucoup d'Arakles avec lui, de manière qu'il estime toute la force à cinq mille hommes, presque tous montés, et qu'il en avait tout ou plus qu'une vingtaine de braves, et tous les chefs qui étaient avec lui. Ils avaient fait fournir des chevaux, même que les armes, et les effets immenses à ce qu'il nous assure qu'ils ont ramené du Grand Vieux, comme je vous l'ai déjà annoncé dans une précédente.

Il m'en aura fallu faire plusieurs expéditions pour savoir s'il y
avait quelque chose à prendre pour l'hiver, et si on n'avait à passer plus
tard que le 15 mai pour faire le tour de l'île. C'est à leur honneur
d'être si vite allés passer à la pointe de la montagne.

Je n'ai pu obtenir que faire instruire de leur langue, pour
avoir une connaissance exacte de leur langue. Je suis donc allé voir
le général Siam, ainsi que au village de Selly, afin qu'ils m'apprennent
leur langue.

La province est encore tranquille, mais le peuple du Nord ?
c'est-à-dire, ce sont-ils des chrétiens ? ils s'occupent de nous enlever
des biens et des terres.

Je vous envoie avec tout le respect et tous vobis de mon cœur.

Adieu,

Signé de l'auteur

ملحق رقم ١٨

معاهدة صلح بين كليبر ومراد بك ١٥ مؤرخة فى ١٥ جرمينال العام الثامن الجمهورى
(٥ أبريل سنة ١٨٠٠) وثيقة بدون رقم بملف رقم ١٩ B6 42 بمحفظه فترتها
التاريخية من ١ إلى ٣١ مارس سنة ١٨٠٠، محفوظة بدار الوثائق القومية
بكورنيش النيل بالقاهرة
معاهدة مع مراد بك

باسم الله القادر

الأمير الفائق الاحترام، المبجل بين الأمراء، مراد بك محمد، وبناء على رغبته التى
أبداها بالعيش بسلام ووثام مع الجيش الفرنسى بمصر ومع القائد كليبر واعطائهما دليلا على
التقدير الذى ناله منهما تبعا لشجاعته وحسن تصرفه تم الاتفاق على الآتى :

البند الأول : يعترف القائد العام للجيش الفرنسى بالنيابة عن الحكومة بمراد بك أميرا
وحاكما للوجه القبلى ويخوله بهذه الصفة سلطة الحكم والانتفاع فى البلاد
الكائنة بالبر الشرقى والبر الغربى للنيل ابتداء من ناحية "بلصفورة" بمديرية
جرجا إلى أسوان فى مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب
دفعه عن تلك الجهات لصاحب الولاية على مصر .

البند الثانى : يحدد هذا الخراج السنوى بمبلغ ٢٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠,٠٠٠ بارة علاوة
على ١٥,٠٠٠ أردب قمح و ٢٠,٠٠٠ أردب شعير و غلال أخرى .

البند الثالث : الخراج الذى يدفع نقدا يؤدى على أربعة أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر قسط،
وتبدأ السنة بحساب التقويم الفرنسى، أما الخراج الذى يؤدى نوعا فيورد فى
شون القاهرة من أول فلوريل إلى ٣٠ فركتيدور ويحاسب مراد بك على
مصاريف نقل الغلال بواقع الأردب أربعين بارة تخصم من الخراج الذى يدفع
نقدا .

البند الرابع : يكون لمراد بك دخل جمرك القصير وجمرك إسنا وتحتل ميناء القصير حامية
فرنسية لا تقل عن مائتى جندى، وعلى مراد بك أن يؤدى نفقات هذه الحامية
ويصرف لها ضعف ما يدفع عادة للجند، وعليه أن يخصص كتيبة من

الممالك ترابط فى القصير لمساعدة الحامية الفرنسية، وما يدفعه لنفقات
لحامية يخصص له من الخراج المذكور فى المادة الثانية .

البند الخامس : بما أن أمير الوجه القبلى ليس له إلا الدخل الناتج من الضرائب فليس له أن
يتصرف فى ملكية أى بلد إلى حاشيته المتصلين به، ولكن له إدارة هذه البلاد
بالطريقة التى يراها مرضية، والحكومة الفرنسية تضمن للأهالى ملكية
الأراضى التى يملكونها بالطرق المشروعة وتمنع وقوع أى اعتداء عليها .

البند السادس : على كل طرف أن يرد إلى الطرف الآخر الجنود يلجأوا اللاجئين إليه من
جيش الطرف الآخر، وليس لمزارعى القرى التابعة لأى من الفريقين أن
يلجأوا إلى البلاد التابعة للفريق الآخر بقصد التخلص من أداء الضرائب أو
لأى سبب آخر من هذا النوع .

البند السابع : يجعل الأمير حاكم الصعيد مدينة (جرجا) مقرا له وعليه أن يرسل للقائد العام
حرسا من خمسة وعشرين مملوكا، وعليه أن يوفد أحد البكوات من أتباعه
مندوبا مفوضا عنه يقيم باستمرار فى القاهرة .

البند الثامن : يضمن قائد الجيش الفرنسى لمراد بك الانتفاع بدخل حكومته ويتعهد بحمايته
فى حالة مهاجمته، وإذا استهدفت الجهات التى تحتلها الجنود الفرنسية لهجوم
عدائى أيا كان نوعه فعلى مراد بك أن ينفذ عددا من جنوده يبلغ على الأكثر
نصف قواته لمعاونة القوات الفرنسية وعليه أن يقدم بالثمن المعتاد أدوات
النقل المطلوبة ومؤونة الجنود التى ينفذها تكون على نفقة الحكومة الفرنسية .

البند التاسع : يعد القائد العام كليبر بأن لا يوافق على أى اقتراح أو اتفاق يحرم مراد بك
من المزايا المبينة أعلاه وعليه أن يبلغ المعاهدة الحالية إلى الحكومة الفرنسية
لترعى مصالح مراد بك فى المعاهدات التى قد تبرم بشأن مصر .

البند العاشر : أن الشروط الواردة فى المعاهدة الحالية والتى تقررت بمعرفة كل من
الجنرال داماس قائد فرقة ورئيس أركان الحرب العام والمواطن جلوتيه
قوميسير الحكومة (لدى الديوان) ومدير الشؤون المالية المفوض عن القائد
العام كليبر، وعثمان بك البرديسى المفوض عن مراد بك يصير التوقيع عليها
من القائد العام كليبر ومن الأمير المعظم والملاد الأفخم مراد بك محمد .

القاهرة فى ١٥ جرمينال العام الثامن بتقويم الجمهورية الفرنسية الموافق ١٠ ذو

القعدة عام ١٢١٤هـ .

تعليق رسمى من القائد العام كليبر متعلق بالتصرفات الواجب اتباعها من جانب

مراد بك تبعا لاتفاق ١٥ جرمينال العام الثامن الجمهورى .

١- يعسكر مراد بك بقواته على الضفة الغربية للنيل على مسافة ٤ فراسخ من الجيزة .

يمكنك هناك لمدة عشرة أيام حتى يمكن تجميع البكوات والمماليك الموجودين حاليا فى

القاهرة، واستعمال تأثيره فى فصل الجانب العثمانى من القيادة الرئيسية للمدينة، بعد هذه

الأيام العشر ينسحب مراد بك إلى الجيزة حيث مقره مع اتباعه .

٢- لا يستطيع مراد بك جمع جباية عينية أو نقدية من أقاليم الجيزة - بنى سويف - المنيا

- أسيوط، طوال المدة المفروضة لإقامته .

٣- يعمل على الإسراع فى توصيل الحبوب القادمة فى النيل والتي أرسلها درويش باشا

لإعاشة الجيش الفرنسى والجيش العثمانى . واتخاذ الخطوات السريعة لتوصيل الحبوب

التي سيقوم القبطى المعلم يعقوب بكتابة قائمة بها مع تحديد مكان تخزينها .

٤- يرسل إلى القائد العام بالقاهرة كل العثمانيين الموجودين فى معسكره، كل من يستطيع

التسليم منهم، كل اتباع درويش باشا والذين قبض عليهم مراد بك فى الصعيد دون أى

استثناء ولا حتى الباشا نفسه .

٥- على مراد بك الإعلان بالقاهرة وبولاى على اتفاق السلام الذى أبرم بينه وبين القائد

العام مع وعد من هذا الأخير بالعفو العام والخاص لكل من ينفصل عن العثمانيين

وينضم لصفوف مراد بك أو الفرنسيين .

٦- يرسل مراد بك أحد بكوات حاشيته ليظل بجانب القائد العام مندوبا مفوضا من طرفه

مخول بسلطاته لبحث كل الأمور المتعلقة بالمصلحة المشتركة .

ils nous en rendront compte, ainsi que de tout ce que j'exige
de vous pour garantie de la sincérité de vos intentions. Votre désir,
notre gloire et votre vie dépendent de l'arrangement que nous
allé faire avec vous; il faut vous en rendre digne, je vous en
fournis les moyens. Signé : Kleber.

Traité avec Mourad-Bey 15 Germinal an 5

Au nom du Dieu tout puissant. Le très honorable et très illustre prince
les Princes, Mourad-Bey. Mahammed, ayant témoigné le désir de vivre
en paix et bonne intelligence avec l'armée française en Egypte, et le
général en chef Kleber voulant lui donner des preuves d'estime et de
bienveillance, ainsi qu'aux Français son courage et la conduite
qu'il a tenue envers eux, il a été convenu ce qui suit.

Art. 1^{er}. — Le général en chef de l'Armée française reconnaît, au
nom du Gouvernement, Mourad-Bey. Mahammed en qualité de
prince gouverneur de la Haute Egypte. Il lui concède à ce titre la
jouissance du territoire du nome de l'Assouan, depuis le camp
de canton de Baras, Boura, province de Gizeh, jusqu'à Assouan,
à la charge de payer à la République française le Misy
du nome d'Assouan d'Egypte.

Art. 2. — Cette redevance annuelle sera fixée et réglée à deux
cent cinquante courses de vingt mille médins chacune, quinze
mille ardebs de froment et vingt mille ardebs de blé indigène.

Art. 3. — Le Misy en argent sera payé par quart, de trois
mois en trois mois, au réglant le commencement de l'année
sur le calendrier français.

Le Misy en nature sera versé chaque année dans les magasins
du Khair, du 1^{er} floréal au 30 fructidor, et il sera tenu compte
à Mourad-Bey des frais de transport à raison de quarante
médins d'ardab, lesquels frais seront comptés en déduction
dans le paiement du Misy en argent.

Art. 4. — Le produit des Roumes de Cassir et Eoul
est compris dans les concessions précédentes. Le port de Cassir

sera occupé par les troupes françaises et Mourad-Bey sera tenu d'entretenir dans cette place un corps auxiliaire de Mamelouks. L'approvisionnement en vivres et à ses frais la garnison française, qui sera au moins de 200 hommes. La somme totale qu'elle doit recevoir sera inscrite en déduction de la redevance déterminée dans l'article 1^{er}.

Art. 5. La jouissance seule du revenu étant attribuée au gouverneur de la Haute Egypte, il ne disposera de la propriété d'aucun village en faveur des personnes qui lui seront attachées, sauf à lui à pourvoir à leur entretien comme il le jugera convenable. La propriété légitimement acquise par les particuliers et garantie par le Gouvernement français, et il ne pourra y être portée aucune atteinte.

Art. 6. — Les descendants d'une armée à l'autre seront à l'aise et sur-le-champ renvoyés à leur port d'origine. L'entretien de chaque village ne pouvant provenir, pour de sontraine au payement des contributions ou autres motifs de cette nature, se réfugier du laide du territoire occupé par les Français; cette condition sera inscrite.

Art. 7. — Le Prince gouverneur de la Haute Egypte résidera à Gergé; il fournira au général en chef une garde de vingt-cinq Mamelouks; un Bey de sa maison demeurera habituellement au Kaïre en qualité de commissaire chargé de ses pouvoirs.

Art. 8. — Le général en chef de l'armée française garantira à Mourad-Bey la jouissance des revenus de son gouvernement et s'engage à le protéger en cas d'attaques.

Si le territoire occupé par les troupes françaises est menacé d'une agression ennemie, quelle qu'elle soit, Mourad-Bey sera tenu de fournir un corps de troupes auxiliaires, jusqu'à la concurrence de la moitié de ses forces, et de prêter, au plus vite, des moyens extraordinaires de transport. La subsistance de ces troupes sera fournie par le Gouvernement français.

Art. 9. — Le général en chef Kleber promet de ne consentir

à aucune proposition qui primerait Mourad-Bey des avantages stipulés ci-dessus. Il fera connaître la présente Convention au Gouvernement français, afin que les intérêts de Mourad-Bey soient réservés dans les traités qui pourraient être conclus relativement à la possession de l'Égypte.

Art. 10. — Les articles de la présente convention, arrêtés par le général de division Damas, chef d'état-major général, et le citoyen Gloutier, commissaire du gouvernement et administrateur général des finances, chargés des pouvoirs du général en chef Kleber, et Osman-Bey-Bardisay, chargé des pouvoirs de Mourad-Bey, seront consentis et signés par le général en chef Kleber et par le très illustre et très digne prince Mourad-Bey-Mahmoud.

Fait et arrêté par les commissaires soussignés. L'original est écrit en langue française et porte en marge la traduction arabe.

au Kaire, le 11 germinal de l'an 8 de la République française qui répond au 10 de la Lune d'Oul-gua. 2^eh, l'an de l'Ère 1214.

1. 197. Note officielle de la part du général en chef Kleber concernant la conduite à tenir par le très illustre et honorable Mourad-Bey en conséquence de la convention du 11 germinal an 8.

1. Mourad-Bey établira son camp sur la rive occidentale du Nil à quatre lieues au moins au dessus de Girgeh. Il y restera pendant dix jours, pour être libre à même d'attirer à lui les Bays et nomades actuellement au Kaire, et pour détacher par son influence, du parti Osmanli les principaux chefs de la ville. Après ces dix jours, Mourad-Bey se retirera à Girgeh, lieu de sa résidence, lui et sa suite.
2. — Mourad-Bey ne pourra lever aucune contribution en denrées ou en argent dans les provinces de Gizah, Benisuef, Minieh et Schar pendant le séjour qu'il sera nécessaire d'y faire.
3. — Il accueillera l'arrivée des grains qui se trouvent embarqués sur le Nil et que Derrick-Pacha avait fait descendre, pour le subintendant des armées française et ottomane. Il prendra aussi des mesures promptes pour faire arriver au Kaire les grains dans le Delta.

ملحق رقم ١٩

أمر يوم ٧ فاندميير العام التاسع الجمهورى من أوامر مينو **Ordres du jour du général en chef Menou** المحفوظة فى دوسيه يحتوى على أربعة وتسعين وثيقة مطبوعة بدار الوثائق القومية بكونرنيش النيل .

أمر يوم ٧ فاندميير إلى المركز الرئيسى بالقاهرة، ٧ فاندميير العام التاسع من الجمهورية الفرنسية الواحدة الموحدة

القائد الأعلى رغب دون أن يؤثر على التجارة مع رفع المعاناة عن الشعب، رغب أن يرفع عن الملاحة النيلية ضريبة كانت مع بقية الضرائب والتحصيلات المأخوذة من مصر توفر للجيش الفرنسى المبلغ المحدد لدفع مصروفاته، لذلك أمر بالتالى :

أولا : بداية من أول فاندميير الماضى كل الضرائب القديمة المفروضة على السفن، الجرم، الجرمون، الماطسن، الكياس، أو أى نوع آخر من المراكب النارية فى النيل والترع قد ألغيت .

ثانيا : من نفس التاريخ تسرى ضريبة جديدة واجبة الدفع وهى كالتالى : من آخر قرية فى مديرية أسيوط إلى القاهرة، كل مركب جرم من مصر العليا حملتها :

من ١٠٠٠ أردب تدفع كل عام ١٥ Pataques من ٩٠ مدينى

من ٦٠٠ أردب تدفع كل عام ١٠ Pataques من ٩٠ مدينى

من ٥٠٠ أردب تدفع كل عام ٨ Pataques من ٩٠ مدينى

من ٢٠٠-٤٠٠ أردب تدفع كل عام ٨ Pataques من ٩٠ مدينى

من ٢٠-١٠٠ أردب تدفع كل عام ١٢ Pataques من ٩٠ مدينى

من ١٠ أردب تدفع كل عام ٦ Pataques من ٩٠ مدينى

كل جرم (مركب) من وجه بحرى حملتها :

من ٤٠٠ أردب تدفع كل عام ٢٠ Pataques من ٩٠ مدينى

من ٣٠٠ أردب تدفع كل عام ١٨ Pataques من ٩٠ مدينى

من ٢٠٠ أردب تدفع كل عام ١٥ Pataques من ٩٠ مدينى

من ١٠٠ أردب تدفع كل عام ١٨ Pataques من ٩٠ مدينى

من ١٠-٩٠ أردب تدفع كل عام ١٢ Pataques من ٩٠ مدينى

ثالثا : كل مركب أو أى سفينة تحت أى مسمى ستحصل على رقم سيعلق دائما عليها فى مكان ظاهر وسيكتب عليه حمولة السفينة .

رابعا : سيستخدم سجل لكل منطقة فى مصر يسجل فيه عدد السفن ورقمها والميناء الذى تتبعه، كذلك اسم صاحبها ورئيسها والقرى التى يقطنوها .

خامسا : الضريبة المفروضة سنويا على كل جرم أو سفينة سارية فى النيل أو الترع الخارجية منه ستوجه لرخاء الدافعين . وستدفع على ٤ دفعات متساوية كل ٣ شهور . مع كل قسط صاحب المركب أو الرئيس سيتلقى وصل سليم سيقدمه عند دفع القسط التالى .

المحصل الذى سيفرض مبلغ أكبر من الموضح فى البند الثانى على كل سفينة، سيقبض عليه كخائن وسيسجن شهران فى سجن القلعة أى أى سجن آخر سيدفع غرامة قيمتها مائة "تالارى" Talarys تسلم إلى المستشفيات المصرية .

سادسا : الضرائب المفروضة فى المادة الثانية على المراكب النيلية تسرى أيضا على سفن النقل السارية بين رشيد والإسكندرية، وبين رشيد والبرلس، وبين البرلس ودمياط، وبين دمياط وسواحل أسيا أو أى سواحل أخرى . نفس الضرائب ستفرض على المراكب التى تسرى فى البحيرات .

سابعا : فى كل منطقة هو أن الرسوم على المراكب سوف تؤجر بمزاد علنى لمن يتقدم بطلبها وذلك حسب الأقاليم .

ثامنا : المدير العام ومحاسب العوائد العامة سيعطى أوامر لتنفيذ الأوامر السابقة وسيقوم بكل الإجراءات اللازمة على شرط روح وحرفية الشروط المذكورة سابقا .

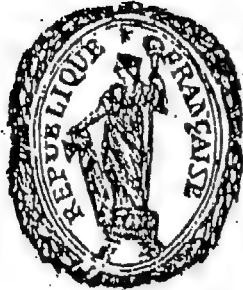
تاسعا : الأموال العائدة من بيع المنشآت ستسلم لخزانة المحصل العام أو وكلائه .

عاشر : قواد الأقاليم والمدن وكل قائد عسكري آخر سيتلقون الشكاوى التى يمكن أن ترفع عند تنفيذ الأمر السابق . وسيساعدون بقوة الذين يحتاجون اليهم فى الحق، وسيلغوا القائد العام بالمخالفات التى يمكن أن تحدث وسيمنعون بكل الوسائل الممكنة أى مضايقة تحدث للفلاحين . لكن سيحصلون الأموال بمنتهى الدقة .

حادى عشر : الأمر الحالى سينشر ويعلق باللغتين أمام مكتب المدير العام ومحاسب العوائد الشعبية .

مينو

REPUBLIQUE



FRANÇAISE.

*Au quartier-général du Kaire, le 7 vendémiaire an 9 de
la République Française, une et indivisible.*

Ordre du jour, du 7 vendémiaire an 9.

LE GÉNÉRAL EN CHEF, voulant, sans nuire au commerce, et même en soulageant le peuple, retirer de la navigation du Nil et des canaux qui en dérivent, un droit qui, réuni aux autres impositions et contributions perçues dans l'Égypte, assure à l'armée française l'exact paiement de sa solde, ordonne ce qui suit :

ART. I. A dater du premier vendémiaire dernier, tous les anciens droits existans sur les bateaux, djerms, djermons, matches, cayasses ou tous autres bâtimens naviguant sur le Nil et les canaux qui en dérivent, sont et demeurent supprimés.

II. A dater de la même époque, est créée un nouveau droit payable qui suit :

Depuis le dernier village de la province de Syouth jusqu'au Kaire, chaque de la haute Égypte, du port :

De 1000 ardebs,	payera par chacun an 15 pataques de 90 médins.
De 600 ardebs	Idem 10 . Idem Idem.
De 500 ardebs	Idem 8 . Idem Idem.
De 200 à 400 ardebs	Idem 8 . Idem Idem.
De 20 à 100 ardebs	Idem 12 . Idem Idem.
De 10 ardebs	Idem 6 . Idem Idem.

Chaque djerme de la basse Égypte, du port

De 100 ardebs,	payera par chacun an 20 pataques de 90 médins.
De 300 ardebs	Idem 18 . Idem Idem.
De 200 ardebs	Idem 15 . Idem Idem.
De 100 ardebs	Idem 18 . Idem Idem.
De 10 à 90 ardebs	Idem 12 . Idem Idem.

III. Chaque djerme, ou tout autre bâtiment, sous quelque dénomination que ce soit, recevra un numéro qui sera toujours attaché à une de ses parties apparentes, et qui exprimera en même temps le port du bâtiment.

IV. Un registre sera tenu par chaque arrondissement de l'Égypte ; il contiendra le nombre des djerms, le numéro et le port de chacune d'elles, ainsi que les noms des propriétaires et reys des djerms, et celui des villages où ils résident.

V. Le droit exigé annuellement sur chaque djerme ou autre bâtiment naviguant sur le Nil ou canaux en dérivant, sera, pour la commodité des contribuables, acquitté en quatre termes égaux de trois mois en trois mois. A chaque paiement, le propriétaire ou reys recevra une quittance bien en forme qu'il exhibera lors d'un nouveau paiement.

Celui qui exigerait un paiement plus fort que celui fixé par l'article II, pour chaque espèce de djerme, serait arrêté comme concussionnaire, détenu pendant deux mois à la citadelle du Kaire, ou dans toute autre maison de force; et payerait en outre une amende de cent talarys, applicable aux hôpitaux de l'Egypte.

VI. Les droits fixés par l'article II sur les djerms qui naviguent sur le Nil ou canaux en dérivant, seront les mêmes pour les djerms qui font le cabotage de Rosette à Alexandrie, de Rosette à Burlos, de Burlos à Damiette, de Damiette sur les côtes d'Asie ou toute autre côte.

Les mêmes droits seront payés par les djerms qui naviguent sur les lacs.

VII. Les droits énoncés par les articles précédens seront affermés aux enchères publiques; il y aura un bail pour chaque arrondissement.

VIII. Le directeur général et comptable des revenus publics donnera les ordres pour l'exécution du présent arrêté; il fera tous les réglemens qu'il jugera nécessaires, pourvu qu'ils soient dans l'esprit et la lettre des dispositions ci-dessus énoncées.

IX. Les prix provenant des prix des baux seront versés dans les caisses du receveur principal ou de ses préposés.

X. Les généraux commandant les provinces ou les places, et tous autres chefs militaires, recevront les plaintes qui pourraient s'élever sur l'exécution du présent ordre. Ils prêteront main-forte à ceux qui la requerront avec justice, et ils rendront compte au GÉNÉRAL EN CHEF des délits qui pourraient se commettre: ils empêcheront par tous les moyens possibles les vexations des fermiers; mais aussi ils feront payer exactement les contribuables.

XI. Le présent ordre sera publié et affiché dans les deux langues, à la diligence du directeur général et comptable des revenus publics.

Signé M E N O U,

Le Général de Brigade, Chef de l'Etat-major général,

Signé LAGRANGE.

L'Adjudant général, Sous-Chef de l'Etat-major général,

Rénée

[Faint, mostly illegible text, possibly a list or administrative notes]

AU KAIK, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE

ملحق رقم ٢٠

تقرير من بوييه قائد المنيا إلى الجنرال كليبر القائد العام للجيش الفرنسى عن العمليات فى إقليم المنيا مؤرخ فى ٢٨ فركتيدور العام السابع الجمهورى (١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩، ملف رقم ٢١٨، بمحفوظة فترتها التاريخية من ٢٠ أغسطس إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠، محفوظة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة المنيا فى ٢٨ فركتيدور عام ٧ (١٤ سبتمبر ١٧٩٩)

تلقيت اليوم رسالتك المؤرخة فى ٢٢ من هذا الشهر بعد غيابى ١٥ يوما فى جنوب إقليمى على الضفة اليمنى للنيل .

أحضر لى اليوم خادم الشيخ السادات طلب الإحاطة المرسل منك الخاص بحادثة "الزاوية" وكان الأمر سينتهى لو كان هؤلاء الشهود الأغبياء قد حضروا إلى بدلا من الهروب، وعلى العموم سأهتم بالأمر وأرد لخدم الشيخ ما تستحقه هذه الجريمة من العدالة . حدثت قلاقل كثيرة فى الإقليم، أثناء غيابى عن المنيا، ناحية بأكملها اسمها عميرة بنى مر ثارت ضدنا وامتنعت عن دفع الضرائب، وهذه الناحية المكونة من ثمانى قرى تشغى باللصوص والسفاحين يرتكبون افعالهم يوميا فى النيل مما يستحق العقاب الشديد، فقامت مع ١٢٠ رجلا بمحاصرة ثلاثة قرى فخضع المشايخ وسلموا لى اللصوص والسفاحين الذين اعدمتهم ودفعوا الضرائب المطلوبة ولو كانت قوائى أكبر من ذلك لقمّت بتأديب بقية القرى ولكن كان ذلك غير مستطاع . الوطا ودير القصير والجزيرة وجرف سرحان قاموا بالعصيان المسلح اعتصم الفلاحون فى الوطا ومن هناك أخبرونى عن امتناعهم عن دفع الضرائب وزيادة على ذلك عزمهم على منعى من اجتياز قراهم . وقد جعلتهم يدفعون ثمن تمردهم، فاستوليت على هذه القرى وقتلت منهم ستون واحرقت ديارهم وذبحت مواشيهم وقطعت ٣٠٠ من أجود أنواع النخيل، وقد وقع فى يدى أحد أهم شيوخهم وقد أذقته طعم ١٠٠ جلدة على قدميه انتظارا لمصيره المحتوم . وقد فقدت أحد رجالنا فى هذه الحملة وقد هرب المتمردون لدير القصير وكان الجنرال ديزيه قد ترك لى ملحوظة عن هذه القرية وأنها مأوى اللصوص والسفاحين، وقد انضم العامة للتجمع الذى فى الوطا، وبناء على ذلك هاجمتهم وقتل منهم ١٢٠ واستولى رجالى على ٥٠٠ رأس من الماشية واحرقت القرية

أيضا وفقدنا رجلا آخر من رجالنا . وقد رضخت بعنة القرى لهذا العمل ونأمل أن ترتدع هذه القرى بهذا العقاب . وقد طلبت دير القصير العفو والسماح بالعودة للقرية فأجبتها لذلك . منذ ثلاثة أيام قامت قرية من إقليم الفيلى على بعد ٣ مسافات من هنا فنهبت مركبا عليه ١٥ رجلا وقتلوهم ساقوم بمعاقبتها مساء الغد، لأن الملاحة فى النيل ستكون خطيرة إن تركنا مثل هذه الأعمال دون عقاب والـ ١٥ قتيلا هم مدنيين من طور .

لنتكلم الآن عن مراد، هذا الحاج موجود كما هو فى بلنصورة وهى قرية فى إقليمى على قناة يوسف ويوجد معه عرب أبو كريم الأقوياء بـ ٨٠٠ حصان والجهمة بـ ٢٥٠ كذلك الزايد والرديسى .

كنت قد عزمت على دخول القناة لإكراه هذا البك على ترك موقعة والارتقاء فى أحضان الجنرال زايونشك فى سول، ولكن بمفردى هذا غير ممكن لأن الـ ١٢٠ رجلا فقط الذين معى سيكونون معرضين للضياع ضد مراد، وستصاب عملياتنا بالضرر إذا أعطيناه مجرد فكرة تفوقه علينا .

لم يصل الجنرال فريان من الصحراء فأرجأت دخولى القناة، لكننى اعتقد أن الجمال ستتجهز فى خلال ثمانية أيام، وأنا كذلك عندما سأكون عند مدخل القناة وسأدخلها فور علمى بوجوده فى محاذاتى . على كل سأنتظر الأحداث وأعلمك بها .

رأيت أشياء جميلة أثناء تفتيش أطلال ما زالت قائمة تشير الإعجاب، معبد مجهول ليومنا هذا، لفت نظرى إليه أحد المشايخ ويقع على أطراف اقليمى فى الصحراء وقد حفر وبنى بأكمله فى الصخر . جميل جدا بل رائع وسليم كله . تظهر الرسومات على سقفه وجدرانه تمثل وجوه فى غاية الوضوح، منها ملك على عرشه يرتدى التاج وحاشية كبيرة من الناس مع قرابين كثيرة وعلى وجوههم البشر والفرح مما يوحي بمناسبة هذه الصورة، واعتقد عن حق أن هذا المعبد قد شيد للشمس، حيث تجدها فى كل مكان، وقد رسمت المعبد لثرى هذه الروائع لدى عودتى للقاهرة . كذلك مديات. وجدتها تمثل إحداها النيل وهى رائعة الجمال .

تحية واحتراما

Boyer

تحياتى إلى Dugnoneou وأركان حريك

Minist. le 28 fructidor an 7 (16 sept. 1799)

Général,

J'ai lu aujourd'hui votre lettre du 22 de ce mois, au retour d'une absence de 15 jours sur le sud de ma province, sur la rive droite.

Un caïma du scheik Sadat m'a présenté aujourd'hui une deuxième pétition apostillée de vous pour l'affaire de Zawi, ce serait une chose faite si les imbéciles de témoins de la partie lésée s'étaient présentés chez moi au lieu de fuir. Je vais m'occuper de cette affaire et ferai rendre une justice due au scheik la justice qui mérite l'assassinat.

J'ai fait beaucoup de tapage dans ma province pendant mon absence de Elminet, un canton antier appelé Souara de Elminet

contre nous et se refusait au sort à payer l'impôt; ce canton, composé de 8 villages, rempli de voleurs et d'assassins qui journellement commettent leurs brigandages sur le Nil, méritait punition avec un détachement de 120 h. J'en surpris et bloqué trois villages; les scheiks se sont soumis, m'ont livré leurs voleurs et assassins que j'ai mis à mort, et m'ont payé leur part de l'impôt. Si ma troupe eût été plus considérable, j'en aurais fait autant aux autres villages, mais je ne le pourais.

Abouata, Der. el. Cassar, El. Ghar et Gharf Lashan se sont révoltés les armes à la main. Les paysans se sont réunis à Abouata et de là m'ont fait dire que non seulement ils ne payeraient pas, mais encore qu'ils étaient décidés à me défendre le passage du village. Cette insolence a été payée; j'ai attaqué ces coquins, pris le village, tué une soixantaine d'hommes, brûlé leurs maisons, égorgé leurs troupeaux et coupé 300 des plus beaux palmiers. Un des principaux scheiks du

payé n'est tombé entre les mains : je lui ai fait sauver les pieds de 1000 coups de cravache en attendant son sort futur.

J'ai perdu un homme dans cette affaire; ces rebelles se sont enfuis à Der-el-Losseir. J'avais depuis quelque temps une note du général Deraix sur ce village, comme étant plein de voleurs et d'assassins. La population s'était d'ailleurs jointe au rassemblement d'Abonata; en conséquence j'ai marché sur 1200 hommes et mes chasseurs en ont enlevé un troupeau de 500 moutons; j'ai également brûlé le village; notre porte a encore été d'un homme. Tous les villages des environs applaudissent à ces actes et espèrent que cette punition réprimera le brigandage de ces villages. Der-el-Cosair m'a fait demander pardon et permission de rentrer dans son village; j'ai accordé l'un et l'autre.

Il y a trois jours qu'un village de la province d'Al-Ghiseh à 3 lieues d'ici a brûlé une barque sur laquelle il y avait 4 hommes; demain soir j'irai punir ce village; la navigation du Nil serait trop compromise si on laissait de pareilles horreurs impunies. Les brûlés sont des pékins de Targe.

Parlons maintenant de Sidi-Bachar : ce pèlerin est toujours à Balanzoura, village de ma province sur le Canal Joseph; il a avec lui les Arabes d'Abon-Losair, qui sont forts de 800 chevaux, les Gélama de 250, les Zizet et Rasavie d'à peu près autant. Je comptais former un corps dans le canal pour déloger ce bey de ces contrées et le forcer de se jeter près du g^{ral} Farjonchok à Leva, mais je ne le pourrai faire seul, 1200 h. ne pouvant être que compromis contre Mourad, et c. serait trop gêner nos affaires que de lui donner entièrement l'idée d'un avantage

le général.

le gal Triant n'ayant pas descendu par le désert; j'ai suspendu
mon entrée dans le canal, mais je crois que dans huit
jours les éboulements seront évités; moi de même, je
ferai à l'embouchure du canal et y entrerais du moment
où je saurai qu'il sera à ma hauteur; ainsi, j'attends
les événements et vous en ferai part.

J'ai vu de belles choses dans ma tournée: les ruines
d'Antinoë qui sont encore sur pied et dignes d'admi-
ration, un temple inconnu jusqu'aujourd'hui qu'un scribe
m'a fait voir; il se trouve au couchant de ma tournée.
Dans le désert, il est creusé et taillé en entier dans le roc,
très beau, même magnifique, et conservé en entier;
ses plafonds et murailles sont chargés de figures
très distinctes, un roi sur un trône avec une couronne,
un grand concours de paupres, de grandes offrandes
de sacrifices et de joies annonçant à peu
près ce que signifiait cette image; et l'on voit distinguer
avec raison que ce temple avait été brisé au soleil,
car partout est emblème saint; j'en ai le plan, je montrai
au Caire, je vous ferai voir mes curiosités, de même que quelques
médailles et camées que j'ai trouvées; une médaille d'argent
qui représente le Nil, qui est très belle.

Salut et considération.

Boyer.

Mes amitiés à Duguesneau et à votre état major

ثبت الوثائق والمصادر والمراجع

الوثائق والمصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة

(١) وثائق باللغة العربية :

١- سجلات المحاكم الشرعية الموجودة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة، حيث اعتمدت الدراسة على :

أ - سجلات محكمة منفلوط الشرعية، سجل رقم ١ وفترته التاريخية من ٢٧ جماد أول سنة ١٢١٥هـ إلى ١٢ شوال سنة ١٢١٦هـ، سجل رقم ٤ وفترته التاريخية من عام ١٢١٢ إلى عام ١٢١٤هـ.

ب- سجلات محكمة أسنا الشرعية، سجل رقم ٥٠ وفترته التاريخية من ٢٢ محرم ١٢١٣هـ إلى ١٥ ذي الحجة ١٢١٣هـ، وسجل رقم ٥١ وفترته التاريخية من ٢٠ ربيع أول سنة ١٢١٤هـ إلى ٣ شواهل سنة ١٢١٤هـ، وسجل رقم ٥٢ وفترته التاريخية من ٥ ربيع أول سنة ١٢١٥هـ إلى ٢٦ محرم سنة ١٢١٦هـ، وسجل رقم ٥٣ وفترته التاريخية من ٢٩ ربيع أول سنة ١٢١٦هـ إلى ١٨ رمضان ١٢١٦هـ.

٢- محفظة بدون رقم ولا تاريخ موجودة بمكتبة جامعة القاهرة، وهي تحتوى على مجموعة من المراسلات الهامة التى يبلغ عددها ٦٩ خطابا مرسله من مراد بك إلى الجنرال دنزلوه صارى عسكر أسيوط ومنفلوط والمنيا.

(٢) وثائق باللغة الفرنسية وتشمل :

أ- محافظ الحملة الفرنسية الموجودة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة، حيث اعتمدت الدراسة على المحافظ التالية :

- محفظة فترتها التاريخية من ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ٨ أغسطس سنة ١٨٠١ .
- ٧ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى إلى ٢٣ ترميدور العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٠ .
- ٨ فروكتيدور العام السابع الجمهورى إلى ٥ تكميلى من العام الثامن الجمهورى .

- محفظة فترتها التاريخية من ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ إلى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠٠ .
- ١٢ فروكتيدور العام السابع الجمهورى إلى ٢٥ ترميدور العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٣١ أغسطس إلى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ .
- ١٥ إلى ٢٩ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٠١ .
- ١٥ فروكتيدور العام السابع الجمهورى إلى ١٠ نيفوز العام العاشر الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى ١٨ يونيو سنة ١٨٠١ .
- ١٠ فاندميمير العام الثامن الجمهورى إلى ٢ ميسيدور العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١٠ أكتوبر سنة ١٧٩٩ إلى ٥ يوليو سنة ١٨٠٠ .
- ٢٠ فاندميمير إلى ١٩ ميسيدور العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١٦ نوفمبر إلى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .
- ٢٥ برومير إلى ٢٤ فريمير العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١٦ إلى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٩ .
- ٢٥ فريمير إلى ١٠ نيفوز العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ يناير سنة ١٨٠٠ .
- ١٨ نيفوز إلى ١١ بلوفيز العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٢٣ يناير سنة ١٨٠٠ إلى ٨ يناير سنة ١٨٠١ .
- ٥ بلوفيز العام الثامن الجمهورى إلى ٢١ نيفوز العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣٠ أبريل سنة ١٨٠٠ .
- ١١ جرمينال إلى ١٠ فلوريال العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٣١ مايو سنة ١٨٠٠ .
- ١١ فلوريال إلى ١١ بريريال العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ يونيو إلى ٩ يوليو سنة ١٨٠٠ .
- ١٢ بريريال إلى ٢٠ ميسيدور العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١٠ يوليو إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٠ .
- ٢١ ميسيدور إلى ١ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ١٤ أغسطس سنة ١٨٠٠ .
- ١٣ إلى ٢٦ ترميدور العام الثامن الجمهورى .

- محفظة فترتها التاريخية من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠٠ .
- ٢ إلى ١٣ فروكتيدور العام الثامن الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١٥ إلى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٠٠ .
- ٢٣ فاندميير إلى ٧ برومير العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٢٥ سبتمبر إلى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٠ .
- ٣ إلى ٢٢ فاندميير العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ١ إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٠٠ .
- ١٠ فريمير إلى ١ نيفوز العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٢١ أبريل إلى ١٢ مايو سنة ١٨٠١ .
- ١ إلى ٢٢ فلوريال العام التاسع الجمهورى .
- محفظة فترتها التاريخية من ٢٠ يونيو إلى ٢٢ يوليو سنة ١٨٠١ .
- ١ ميسيدور إلى ٣ ترميدور العام التاسع الجمهورى .

(ب) أوامر منو Orders du jour du général en chef menou المحفوظة فى دوسيه
يحتوى على أربعة وتسعون وثيقة مطبوعة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل
بالقاهرة .

ثانيا : وثائق منشورة :

- Henry Laurens, 'Klèber en Egypte 1798-1800, Klèber et Bonaparte 1798-1799, Institut Francais d'archéologie orientale, 2 Vols, Vol 2, Au Caïre 1988.
- Jonquière, de la- L'Expédition d'Egypte (1798-1801)- 5 Vols, Vol 3, Pairs 1899-1907.
- Napoléon Bonaparte : Correspondance de Napoléon Ier, publiée par ordre de L'Empereur Napoleon III, 32 Vols, Paris 1858-1870, Vol 5.
- Pieces Diverses Relatives aux opération militaires et politiques du général Bonaparte, Paris, An VIII.
- Rousseau, M.F.Klèber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte (Aout 1799-Septembre 1801) Documents publiés pour la société d'Histoire contemporaine, Paris 1900.

Saladin Boustany, Thy Journals of Bonaparte in Egypte. 1798-1801 (in 10 Volumes) First Edition, Cairo 1971, Vols 9-10.

ثالثا : الدوريات :

- Le courrier de L'Egypte

اعتمدنا على نسخة مصورة بمكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

- La Décade Egyptienne, 3 Vols, Beyrouth, Sans date, Vol I.

رابعا : المذكرات الشخصية :

(أ) مذكرات باللغة العربية :

- نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك . نشرها وترجمها علق عليها جاستون فييت،

القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٥٠ .

(ب) مذكرات باللغة الفرنسية :

- Berthier-Mémoires du Maréchal Berthier... Campagne d'Egypte, Ire Parti, Paris 1827.

- Desvernois, Mémoires du général Desvernois, Publiés sous les de sa nièce Mme Boussu-Desvernois, Paris 1898.

- Mémoires sur L'Egypte Publiés pendant les Campagnes du général Bonapart dans les années VI et VII, avec la relation de ses campagnes en Égypte et en syrie, seconde paxtie, paris, fructidor an IX

خامسا : رحلات وأسفار :

(أ) رحلات وأسفار معربة :

- س . ف . فولنى : ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام : نقلها إلى العربية إدوار البستاني،

الجزء الأول الطبعة الثانية، بيروت ١٩٤٩ .

(ب) رحلات وأسفار باللغة الفرنسية :

- Denon vivant : voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes général Bonaparte, Quatrième édition, 3 Vols, Paris 1803.

- Dominique DI Pietro, Voyage historique en Egypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Klèber et Menou, Paris 1827.

سادسا : المصادر المعاصرة :

(أ) مصادر باللغة العربية :

- أحمد شلبي بن عبد الغنى الحنفى المصرى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تقديم وتحقيق وضبط وتصحيح د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨ .
- أحمد الدمرداشى كتحدا عزبان : كتاب الدرة المصانة : تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩ .
- حسين أفندى الروزنامجى : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية، تحقيق محمد شفيق غربال بعنوان مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨ - ١٨٠١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨ .
- عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم الأخبار، ٣ أجزاء، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ .
- _____ : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسييس، تحقيق وشرح حسن محمد د جوهر وعمر الدسوقي، لجنة البيان العربى، الطبعة الأولى ١٩٦٩ .
- عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين، القاهرة ١٢٨١هـ .
- قانون نامة مصر الذى أصدره السلطان القانونى لحكم مصر : ترجمة وقدم له وعلق عليه د. أحمد فؤاد متولى الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٦ .
- لطف الله بن أحمد جحاف : نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر "نصوص يمنية مختارة من المخطوطة اليمنية "درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على ورجال دولته الميامين (١١٨٩ - ١٢٢٤هـ) (١٧٧٥-١٨٠٩م) نشر وتحقيق د. سيد مصطفى سالم، القاهرة ١٩٧٥ .

(ب) مصادر باللغة الفرنسية :

- Chabrol de : Essai sur les moeurs des habitants modernes de L'Egypte, dans Description de L'Egypte, Seconde édition, Tome 18, Première partie, Paris 1826.
- Costaz : Mémoire sur la nubie et les barabras, dans Description de L'Egypte, seconde édition, Tome 12, Paris 1823

- Du bois-Aymé : Mémoire sur les Tribus Arabes des deserte de L'Egypte, dans Description de L'Egypte, Sècond èdition, Tome 12, Paris 1823.
- Estève, le comte : Mémoires sur les Finances de L'Egypte depuis sa conquête par le sultan selym Ier jusqu' a celle du gènèral en chef Bonaparte, dans Description de L'Egypte, Tome 12, Paris 1823.
- Girard, Mémoires sur L'Agriculture L'Industrie et le Commerce de L'Egypte, dans Description de L'Egypte, sèconde èdition, Tome 17, Paris 1824.
- Jaubert, Amédée : Nomenclature des Tribus d'Arabes qui Campent enter L'Egypte et la palestïn depuis khan Younes et Ghazzah Jusqu'a L'oronte et dans la partie septentrionale du dèsert qui sèpare la Meqqe de la syrie, dans Dscription L'Egypte, Tome 16, Paris 1825.
- Jomard : Observations sur les arabes de L'Egypte moyenne, dans Dèscription de L'Egypte, Tome 12, Paris 1823.
- Lancret, Michel-Ange : Mémoire sur le système d'imposition territorial et sur L'Administration des provinces de L'Egypte dans les dernieres années du gouvernement des Mamlouks,dans Description de L'Egypte, Tome II, Paris, 1822.
- Martin, P. Histoire de L'Expédition Francaise en Egypte, (2 Vols), Paris 1815.
- Martin,P.D., Description hydrographique des provinces de Benysoveyf et du Fayoum, dans Description de L'Egypte, seconde èdition, Tome 16, Paris 1825.

(ج) مصادر أجنبية معربة :

- ادوارد ولیم لین : المصريون المحدثون شامئلهم وعاداتهم (فی القرن التاسع عشر) ترجمة عدلی طاهر نور، الطبعة الأولى، مطبعة الرسالة ١٩٥٠ .
- کلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، دار الموقف العربی ١٩٨٢ .

سابعاً : رسائل جامعية غير منشورة :

- أمین محمود عبد الله : تطور الوحدات الإدارية فی مصر العليا منذ العهد العربی : رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم الجغرافيا، كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٥ .

- سلسوى العطار : التغيرات الاجتماعية فى مصر منذ الحملة الفرنسية حتى بناء الدولة الحديثة، رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم التاريخ كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٧٩ .
- فاطمة الحمراوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٨ .
- فرغلى على نسن : أسبوط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٨٥٠-١٨٥٠، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ، بآداب سوهاج، جامعة أسبوط، عام ١٩٨٥ .
- مرسى أحمد ابراهيم : أسوان وعلاقتها مع جنوب الوادى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ١٧٩٨-١٨٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ، كلية الآداب جامعة المنيا عام ١٩٨٢ .
- وجيه على أبو حمزة : القاهرة فى عصر الحملة الفرنسية : رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ، بكلية الآداب جامعة المنيا عام ١٩٨١ .

ثامنا : المراجع :

(أ) المراجع العربية :

- ابراهيم زكى : الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهدى الحملة الفرنسية ومحمد على، المطبعة العصرية بمصر، بدون تاريخ .
- ابراهيم عامر : الأرض والفلاح المسألة الزراعية فى مصر، مطبعة الدار المصرية ١٩٥٨ .
- ابراهيم المويلحى : الأرض والفلاح فى العصر العثمانى ضمن الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد أحمد الحتة (الدكتور) : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥ .
- أحمد حسين الصاوى (الدكتور) : المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦ .
- أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابوليون بوناپرت فى مصر، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٢٥ .

- أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور) : تاريخ التعليم فى عصر محمد على، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٨ .
- _____ : تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر إسماعيل ١٧٩٨ - ١٨٧٩ ضمن كتاب المجلد فى التاريخ المصرى، تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ونشره حسن ابراهيم حسن، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م .
- أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور)، وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية، الأنجلو المصرية، القاهرة، دون تاريخ .
- أحمد موسى عبد العظيم : النضال الشعبى لمحافظة قنا، القاهرة ١٩٧٦ .
- أمين مصطفى عبد الله (الدكتور) تايخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥١ .
- أنور الرفاعى : بونايرت فى مصر والشام، دمشق ١٩٤٧ .
- إلهام محمد على ذهنى (الدكتورة) : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، سلسلة تاريخ المصريين، عدد رقم ٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢ .
- توفيق الطويل (الدكتور) : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، عدد رقم ٢١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ .
- جلال يحيى (الدكتور) : مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٨٠٥م، الإسكندرية، بدون تاريخ .
- _____ : المجلد فى تاريخ مصر الحديثة، الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٨٤ .
- حسن عثمان : تايخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨ ضمن المجلد فى التاريخ المصرى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٢ .
- حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط، الجزء الأول، الطبعة الأولى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٣ .
- خليل صابات (الدكتور) : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨ .
- زينب عصمت راشد (الدكتورة) : تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، دار الفكر العربى، القاهرة، دون تاريخ .

- سليم البستاني : تاريخ نابوليون بونابرت فى مصر وسوريا "نقلا عن تاريخ فرنسا الحديث"، الإسكندرية ١٩١٣ .
- صبغى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية، طبعة جديدة منقحة، مكتبة مدبولي، دون تاريخ .
- صلاح أحمد هريدى على (الدكتور) : دور الصعيد فى مصر العثمانية ١٥١٧-١٧٩٨، دار المعارف ١٩٨٤ .
- _____ : التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٩ .
- عبد الرحمن فهمى (الدكتور) : النقود المتداولة أيام الجبرتي، بحث ضمن ندوة عبد الرحمن الجبرتي : دراسات وبحوث، تحت إشراف د. أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦ .
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (الدكتور) : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٤ .
- _____ : فصول من تاريخ مصر الإقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ .
- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، الطبعة الخامسة دار المعارف ١٩٨١ - الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨١ .
- عبد العزيز محمد الشناوى (الدكتور) : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب، عدد رقم ٦٧ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧ .
- _____ : دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس- إبريل ١٩٦٩، مطبعة دار الكتب ١٩٧٢ .
- عبد العزيز محمد الشناوى (الدكتور) وجلال يحيى (الدكتور) : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف ١٩٦٩ .
- عبد العزيز رفاعى (الدكتور) : الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة صور تاريخية من البطولات الشعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦ .

- عبد العظيم رمضان (الدكتور): الغزوة الإستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة، دار المعارف ١٩٨٥ .
- عبد الوهاب بكر (الدكتور) : الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٢ .
- عراقى يوسف محمد (الدكتور): الوجود العثمانى المملوكى فى مصر (فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٥ .
- على الجريتلى (الدكتور) : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، دار المعارف ١٩٥٢ .
- قاسم عبده قاسم (الدكتور) : أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى دراسة وثائقية، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٩ .
- _____ : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٩ .
- ليلى عبد اللطيف أحمد (الدكتورة): الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨ .
- _____ : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشمام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٨٠ .
- _____ : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٩٨٧ .
- _____ : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، الهيئة المصرية الهامة للكتاب ١٩٨٧ .
- ليلى عنان (الدكتورة) : الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم ٥٠٠، دار الهلال ١٩٩٢ .
- محمد أنيس (الدكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤، الأنجلو المصرية، القاهرة، دون تاريخ .
- محمد المجذوب : بطل من الصعيد وقصص وأخرى : دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٧ .
- محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر : دار المعارف ١٩٧٨ .

- محمد رفعت بك : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة : المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٤٨ .
- محمد رفعت رمضان (الدكتور) : على بك الكبير، القاهرة ١٩٥٠ .
- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٠، الجزء الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٣ .
- محمد سعيد العريان وجمال الدين الشيال (الدكتور) : قصة الكفاح بين العرب والاستعمار، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠ .
- محمد صبيح : كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٦ .
- محمد عفيفى (الدكتور) : الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، العدد رقم ٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ .
- محمد فهمى لهيطة (الدكتور) : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة، القاهرة ١٩٤٤ .
- محمد فؤاد شكرى (الدكتور) : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى القاهرة، دون تاريخ .
- _____ : الحملة الفرنسية وظهور محمد على، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، دون تاريخ .
- محمد فريد أبو حديد : زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم، كتاب الهلال، العدد رقم ٧، دار الهلال ١٩٥١ .
- محمد فرج : النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ .
- محمد نور فرحات (الدكتور) : القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ .
- محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى، مصر فى القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦ .
- محمود عودة (الدكتور) : الفلاحون والدولة، دراسات فى أساليب الإنتاج والتكوين الاجتماعى للمجتمع التقليدى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣ .

(ب) المراجع الأجنبية المعربة :

- بير : دراسات فى التاريخ الإجتماعى لمصر الحديثة : ترجمة وتقديم د. عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال، الطبعة الأولى، مكتبة الحرية الحديثة جامعة عين شمس ١٩٧٦ .

- آلان مورهد : النيل الأزرق، ترجمة الدكتور نظمى لوقا، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦ .
- عيروط اليسوعى (الدكتور) : الفلاحون : نقله إلى العربية الدكتور محمد غلاب، القاهرة ١٩٤٣ .

- كرسنوفر هيرولد : بونايرت فى مصر : ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة الدكتور محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .

- هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامى والغرب، الجزء الثانى : ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف ١٩٧١ .
- هيربرت فشر : نابليون : نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢ .

- هيلين آن ريفلين : الإقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر : ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى، دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ .

(ج) المراجع الأجنبية :

- Ibrahim El-Mouelhy : Le paysan d'Egypte atravers L'Histoire, le Caire 1954.
- Arthure. P. Brome Weigall, A history of events in Egypte from 1798 to 1914, London 1915.
- Homsy, Gaston, le Gèneral Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Égypte (1798-1801) Marseille 1921.
- Lacroix, Désirè, Bonaparte en Egypte 1798-1801, Paris 1899.
- Laurens, Henry, L'Expédition D'Egypte 1798- 1801, Paris, 1989.
- Brèhier, louis, L'Egypte de 1798 à 1900, Paris 1900
- Holt, P.M. The pattern of Egyptian political history from 1517-1798 in political and social change in modern Egypt, London 1968.
- Martha-Beker, F. Le gèneral Desaix, Paris 1852.
- Reybaud, Louis, Histoire Scientifique et militaire de L'Expédition Francaise en Egypte, Vols 3, 5 Paris 1830-1836.
- Shaw, Stanford, J, The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypte 1517-1798, New Jersy, 1962.



بالرغم من كثرة المؤلفات عن الحملة الفرنسية إلا أننا لا نجد في المكتبة العربية مؤلفاً يحمل اسم «صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية»، بالرغم من الدور الكبير الذى قام به الصعيد في تلك الفترة. ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب الذى يتناول دور الصعيد في المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسى. ويتناول المؤلف بالرصد والتحليل حركات المقاومة فى الصعيد، حيث شكل الأهالى من أبناء الصعيد مع المماليك وعرب الحجاز قوة ثلاثية عمل لها الفرنسيون حساب كبير.

وتميزت المقاومة فى الصعيد ببيئة التنظيم وكثرة التجمعات مما جعل الحرب فى صعيد مصر تتخذ شكل الحركات الحربية إذا ما قورنت بالمعارك التى دارت فى الوجه البحرى.

ولاشك فى أن طبيعة الأرض فى الصعيد ووجود العصابات فى هذه المنطقة ونظرة الأهالى إلى معنى الحياة وقيمتها، وحماسة أبناء الصعيد، وعقليتهم وروح فروسيتهم، كانت عوامل تساعد على ضراوة عمليات المقاومة فى الصعيد.

كما تعرض هذا الكتاب لأوضاع الصعيد الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والكتاب فى الأصل رسالة علمية حصل بها المؤلف على درجة الماجستير فى الآداب من جامعة المنيا. واعتمد المؤلف على عدد كبير من الوثائق والمصادر والمراجع العربية والفرنسية. وهو على هذا النحو جدير بأن يقرأ وأن يجد مكانه فى المكتبة العربية.